



كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش

ⵜⴰⵎⴰⵔⴰⵏⵜ ⵜⴰⵎⴰⵏⴰ ⵜⴰⵎⴰⵔⴰⵏⵜ ⵜⴰⵎⴰⵔⴰⵏⵜ - ⵎⴰⵔⴰⵎⴰⵏⴰ

Faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Marrakech

مركز دراسات الدكتوراه - Centre d'Etudes Doctorales

مختبر الترجمة وحوار الثقافات وتكامل المعارف تكوين الدكتوراه: النص؛ دراسة لغوية ونقدية

أطروحة جامعية

لنيل شهادة الدكتوراه في موضوع

الأبعاد التداولية في الخطاب السياسي العربي المعاصر

الخطابات الرئاسية والخطابات المضادة

من سنة 2011 إلى سنة 2021

إشراف الأستاذ الدكتور:

عبد الواحد المرابط

من إعداد الطالب الباحث:

المصطفى المكاوي

الرقم الوطني للطالب: 8787508838

الموسم الجامعي: 2022 - 2023



كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش

ⵜⴰⵎⴰⵔⴰⵏⵜ ⵜⴰⵎⴰⵏⴰⵢⵜ ⵜⴰⵖⵉⵔⴰⵏⵜ ⵜⴰⵎⴰⵔⴰⵏⵜ - ⵎⴰⵔⴰⵕⵉⵚ

Faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Marrakech

مركز دراسات الدكتوراه - Centre d'Etudes Doctorales

مختبر الترجمة وحوار الثقافات وتكامل المعارف تكوين الدكتوراه: النص؛ دراسة لغوية ونقدية

أطروحة جامعية

لنيل شهادة الدكتوراه في موضوع

الأبعاد التداولية في الخطاب السياسي العربي المعاصر

الخطابات الرئاسية والخطابات المضادة

من سنة 2011 إلى سنة 2021

إشراف الأستاذ الدكتور:

عبد الواحد المرابط

من إعداد الطالب الباحث:

المصطفى المكاوي

الرقم الوطني للطالب: 8787508838

الموسم الجامعي: 2022 - 2023

إهداء

إلى والدي الأكرمين؛
إلى إخوتي الأفاضل؛
إلى زوجتي النبيلة؛
إلى فلذات الكبد، بهجة الروح، قرة العين؛
إلى العدنانين الرائعين؛
إلى كل أبناء العائلة الأبرار.

شكر وتقدير

الحمد لله والشكر له على نعمه وأفضاله أن وفقني لإنجاز هذا العمل.
اعترافا وتقديرا لما أسداه لي أستاذي الفاضل الدكتور عبد الواحد المرابط
من عون وتوجيه وتصويب، وما أحاطني به من جليل العناية وكرم الصبر،
أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان لجناحه الكريم، راجيا من الله أن يحفظه
ويحفظ كل أساتذتي الأخيار، ويرزقهم الصحة والعافية والخير عاجله وآجله.

مقدمة

يمثل الخطاب السياسي مجالا خصباً للدراسة التداولية، نظراً لتوفره على مجموعة من الشروط التي تدخل ضمن اهتمام التداولية. فكون الخطاب السياسي خطاباً حجاجياً إقناعياً يستهدف التأثير في المخاطب، ويدفعه إلى إنجاز تصرف فعلي أو تغيير سلوك أو تبني موقف أو تثبيت اعتقاد أو نفيه، فإنه يكون قابلاً للمقاربة من زاوية نظرية تبحث الآليات الحجاجية التي يوظفها المتكلم وفق استراتيجية تفرضها طبيعة العلاقة بينه وبين مخاطبه. يحضر المخاطب إذن في تفاعل مع المتكلم ويُنظر إلى الخطاب باعتباره كلاماً متلفظاً به، موجهاً من متكلم نحو متلقٍ مشار إليه في زمان معين ومكان معين أيضاً، وهو ما اهتمت به نظرية التلطف عند بينفنست من خلال مقولة الإشارات التي تساهم في تحيين فعل التلطف. وتتنازع الخطاب السياسي أكثر من نظرية تداولية تقاربه بواسطة جهازها المفهومي الخاص. فحين يؤسس المتكلم خطابه على أفعال تتدرج ضمن التعبيرات، أي السلوكيات، فهو يقصد مخاطبة الجانب العاطفي في السامع للتأثير فيه واستمالته، لكن حين ينجز أفعالا تصنف ضمن التوجيهيات، فإنه يفرض على مخاطبه توجيهها محدداً لا يملك هذا الأخير التفاوض حوله. هذه العملية التخاطبية يتم عبرها إنجاز أفعال توطرها نظرية أفعال الكلام التي تهتم ببنية الخطاب من خلال فعل القول، إذ ينبغي أن يكون القول سليماً من حيث التركيب ومقبولاً لدى المخاطب، وتهتم بالفعل الإنجازي المتضمن في القول الذي هو مركز اهتمام هذه النظرية، ثم بالفعل التأثيري الناتج عن القول. هذا الفعل الأخير يوحى بضرورة وجود متلق يقع عليه فعل التأثير، وبه تتحقق عملية التخاطب وتُضحى معه وظيفة اللغة غير مقتصرة على التواصل فقط، ولكن تتعداه إلى تحقيق إنجاز أفعال تترتب عليها آثار.

من النظريات التي تُستدعى قصد استجلاء المعنى في الخطاب السياسي وغيره من الخطابات، توجد نظرية الاستلزام التخاطبي أو الحوارية ونظرية الافتراض المسبق ونظرية القول المضمر، وذلك حين يجنح هذا الخطاب نحو الإضمار فلا يفصح عن قصد المتكلم لا اعتبارات معينة. وهناك نظريات للتأدب يُتوسَّل بها حين يتعلق الأمر بتأسيس قواعد للتخاطب تهتم بالجانب التهذيبي منه، لضمان نجاعة التواصل وتحقيق التعاون بين المشاركين في العملية

التواصلية. هذه النظريات تم طرحها لتكملة نظرية قواعد التخاطب المتفرعة عن مبدأ التعاون الذي أسسه بول كرايس، وهناك من طرحها تحت مسميات مختلفة بديلا عن هذه القواعد، نذكر على سبيل المثال نظرية التصديق التي أسسها طه عبد الرحمن.

هذه المقولات التداولية المتمثلة في الحجاج ومتضمنات القول التي تسع الافتراض المسبق والقول المضمر والاستلزام التخاطبي، والمتمثلة أيضا في الإشارات وأفعال الكلام ونظرية التأدب، هي التي عنيّا بها الأبعاد التداولية التي رصدناها في خطابات سياسية أنجزت في العقد الثاني من هذا القرن. قاربنا معظمها مقارنة تداولية لسانية مستعينين بنظرية الحجاج الموسّع التي أسسها أبو بكر العزاوي لغرض دراسة الأنساق غير اللفظية التي تشكل مع الأنساق اللفظية الخطاب المدروس، وقاربنا أخرى مقارنة تداولية معرفية في بحثنا الموسوم ب: الأبعاد التداولية في الخطاب السياسي العربي المعاصر؛ الخطابات الرئاسية والخطابات المضادة، من سنة 2011 إلى سنة 2021.

نظرا لأن الخطاب السياسي ينطبع - في الغالب - بخاصية البساطة والوضوح، حيث يتفادى الخطيب السياسي العبارة الملتبسة، فإن السامع يتحصل على معلومات مفيدة دون أن يبذل جهدا كبيرا في معالجة المعلومات الواردة إليه. وهذا عامل يؤخذ به إلى جانب عامل التأثيرات السياقية عند تقييم درجات الصلة، أي المناسبة (Relevance) وفق سبربر وويلسن. وحتى العبارات غير الملتبسة التي ليس بالضرورة أن تُناولك المعنى بسهولة، فهي قد تستدعي لفهما اقتراح افتراضات أثناء الاستدلال، افتراضات يقصي أحدها الآخر إلى أن يتوقف مسار التأويل عند افتراض نهائي يكون ذا صلة، أي يحقق المناسبة في السياق الذي ولّدته الافتراضات السابقة عليه، وهو ما عبّر عنه صاحبنا نظرية المناسبة بالتأثير السياقي للافتراض. ولأن الخطاب السياسي أيضا - وفق شارودو - يتمتع بخصائص أخرى مثل الاستدلال السببي بنمطيه: نمط المبدأ الأخلاقي والتداولي ونمط الحجج، فإن هذا يسهم في عدم صرف جهد أكبر في معالجة الخطاب مع تحصيل الفائدة التي يقصد منتج الخطاب السياسي تحقيقها لدى مخاطبه. هذا إلى جانب كون هذا الخطاب يتناول قضايا مرتبطة بالواقع وبالحياة اليومية للناس، ولغته غير عصية على الفهم كما أن المتكلم يستحضر القدرة

الاستيعابية والمعرفية لدى مخاطبيه، خصوصا حين يكون الخطاب موجها إلى حشود من الجماهير.

وقد اخترنا للدراسة هذا النوع من الخطاب الذي يسع الخطاب الرئاسي الذي ألقاه زعماء الدول التي شهدت أحداث الربيع العربي وتداعياتها التي امتدت عقدا من الزمن، ويسع أيضا الخطاب المضاد الذي يعبر عن إرادة الجماهير المتظاهرة والذي أنجزه معارضون لأنظمتهم السياسية العربية زمن هذا الربيع وبعده. كل هذا يجعل الخطاب السياسي قابلا لمقارنته مقارنة تداولية لسانية، ومقاربة تداولية معرفية من خلال تطبيقات مفاهيم نظرية الصلة أو المناسبة. بالإضافة إلى توفر الخطاب السياسي على هذه الأبعاد التي تؤهله للخضوع لدراسة تداولية، هناك بعد تداولي آخر متمثل في نمط من التناص يحضر بقوة في خطاب المناظرة، وقد رصدنا حضوره في بعض المواضع من الخطابات المختارة.

إلى جانب اهتمامنا بدراسة الخطابات الرسمية الرئاسية، أولينا أيضا اهتماما بالخطابات المعارضة التي أنجزها المتظاهرون، ليس باعتبارها رد فعل على الخطاب الرسمي فقط، ولكن باعتبارها منجزا وُلد رد فعل لدى الحاكم السياسي، فأنجز خطابا أو تصرفا فعليا ملموسا في الواقع كتعنيف المحتجين وإقالة مسؤولين سياسيين وأمنيين، مثلما أقدم عليه الرئيس التونسي زين العابدين بن علي والرئيس المصري حسني مبارك حين قاما بإقالة وزراء. هذا الخطاب، أي خطاب المعارضة، أخضعناه للمنهج التداولي لما يتوفر عليه من أبعاد تداولية، ولكن تركيزنا انصب على مواقع الاشتباك الخطابي ومواطن الصراع بين أطروحتين متضادتين تجسدان توجهين سياسيين مختلفين: توجه رسمي وآخر معارض له، وهذا ما جعل مقاربتنا لخطاب المعارضة مقارنةً حاجية وإن لم تعد حضور جوانب أخرى من المقولات التداولية مثل نظريه التأذب.

بإخضاعنا لمجموعة من الخطابات المعارضة والخطابات الرئاسية المنجزة خلال العقد الثاني من هذا القرن للمنهج التداولي، نكون منسجمين مع اختيارنا لموضوع الأبعاد التداولية في الخطاب السياسي العربي المعاصر؛ الخطابات الرئاسية والخطابات المضادة. هذا الموضوع هو امتداد لبحث أنجزناه لنيل شهادة الإجازة في الدراسات الأساسية سنة 2014

حول الخطاب البلاغي الحجاجي، تلاه بحث للحصول على شهادة الماستر سنة 2016 حول "الخطاب السياسي خلال الربيع العربي، مقاربة تداولية" الذي تناولنا فيه نظريات التلطف وأفعال الكلام ومتضمنات القول والحجاج، ونطمح إلى تعميق هذا البحث في أطروحتنا هذه من خلال توظيف آليات تمدنا بها نظريات ومفاهيم أخرى، منها التناص في بُعد التداولي والمناسبة والتأدب وكل المقولات التي تتعلق بالجانب التهذيبي.

تضافرت عدة عوامل لإنجاز الأطروحة، منها ما هو ذاتي وما هو موضوعي. فأما العوامل الذاتية فتكمن في:

- ازدياد الطموح لدينا واقتناعنا بضرورة تعميق البحث حول الخطابات المنطوقة وما يحيط بها من عناصر غير لغوية، بعدما انفتحنا أكثر على المناهج النقدية الحديثة وتوفر لدينا زاد معرفي في مجال التداوليات؛

- انجذابنا إلى حقل التداوليات واقتناعنا بفاعلية المقاربة التداولية في الإحاطة بالمعنى المضمن في الخطاب السياسي؛

- انجذابنا للعمل السياسي واهتمامنا بالحوارات والمناظرات الفكرية والسياسية.

وأما العوامل الموضوعية، فنذكر منها:

- امتلاك المنهج التداولي القدرة على مقارنة الخطاب السياسي مقارنة تفي بالغرض، إذ يمدنا بآليات تسعف في فهم الخطاب وإدراك قصد المتكلم، نظرا للثراء المفهومي الذي تملكه التداولية نتيجة انفتاحها على حقول معرفية مختلفة واستيعابها للتنوع؛

- تدارك الخصائص الذي تشهده الساحة النقدية حول دراسة الخطاب السياسي دراسة قد يُتوسل فيها بكل النظريات التداولية، إذ تهيمن أنماط معينة من هذه النظريات، مثل نظرية التلطف ونظرية أفعال الكلام ونظرية الاستلزام التخاطبي ونظرية الحجاج ونظرية متضمنات القول، مقابل غياب لنظريات مثل نظرية التأدب ونظرية الصلة أو المناسبة؛

- غياب دراسة تداولية تهتم بتحليل الخطاب والخطاب المضاد معاً، أي الخطاب السياسي الرسمي وخطاب المعارضة، وتنظر إلى هذا الخطاب الأخير باعتباره خطاباً سياسياً يسع أشكالاً تعبيرية متنوعة ويكتنز طاقة حجاجية وأبعاداً تداولية؛

- غياب دراسة تداولية تهتم بالنبر والتنغيم في علاقتهما بمكونات اللغة الأخرى في الخطاب السياسي ووظيفتيهما الدلالية والحجاجية؛

- غياب دراسة تهتم بالتناص باعتباره بعداً تداولياً، وتنظر إليه باعتباره آلية لإنتاج المعنى تتقاطع مع آلية الافتراض المسبق في بعده التداولي.

في دراستنا للخطابات السياسية التي تسع النسقين اللغوي وغير اللغوي، اعتمدنا المنهج التداولي. ولأن التداولية يتوزعها مبحثان بارزان، هما: التداولية اللسانية، والتداولية المعرفية التي تندرج ضمنها نظرية المناسبة، فإننا قاربنا بالأولى مجموعة من الخطابات، مستعينين بنظرية الحجاج اللغوي الموسّع لدراسة المكونات غير اللفظية، مقاربين إياها مقارنة حجاجية. وقاربنا خطاباً واحداً مقارنة تداولية معرفية ممثلة في نظرية المناسبة، مكتفين بتحليل النسق اللغوي دون غيره من الأنساق الأخرى التي يحتويها الخطاب. وبهذا نكون قد حددنا الإطار النظري الذي تنتظم داخله مجموعة من المقولات التداولية. ويرجع اختيارنا للمنهج التداولي إلى ثرائه من حيث العدة المفهومية الناتجة عن الانفتاح على مجموعة من الحقول المحملة بنظريات تداولية، انفتاحاً سمح لنا بتوسيع الدائرة، إذ مدّنا بآليات متنوعة لمقاربة الخطاب السياسي من زوايا متعددة عبر مجموعة من المقولات التداولية. وما كان لهذا الانفتاح أن يخدم المنهج التداولي لولا قدرة هذا الأخير على استيعاب طرائق اشتغال هذه النظريات وقابليته لاحتضان كتل من الأفكار والمفاهيم والآليات وحسن استثمارها عند دراسة الخطاب السياسي، سعياً إلى فهمه وبلوغ قصد مُنتج الخطاب.

إخترنا متناً للدراسة تمثل في خطابات رسمية رئاسية وأخرى معارضة لها. ونعني بالرسمية الرئاسية خطابات رؤساء دول عربية أُنجِرت خلال العقد الثاني من هذا القرن، كما نعني بالمعارضة خطابات الجماهير غير المؤطرة من قِبَل مؤسسات حزبية أو نقابية، وهي الخطابات التي تمثلت في لافتات وبيانات ورسوم كاريكاتورية وأهازيج وأغان وأشكال

تعبيرية أخرى. وجاء اختيارنا لهذا المتن انطلاقاً من كونه يكتنز طاقات حجاجية ويتضمن أبعاداً تداولية، إضافة إلى كونه ذا علاقة بالواقع الإنساني وشكل منعطفاً هاماً في مسار الحياة السياسية، وكان شاهداً على مرحلة مفصلية في التاريخ السياسي العربي المعاصر مازالت تداعياتها تلقي بظلالها على الحياة السياسية حتى الآن. وقد ارتكز أيضاً اختيارنا لهذا المتن على وجود قواسم مشتركة أخرى بين الخطابات التي أنجزت في ظل أحداث الربيع العربي وما رافقها من تفاعل للحاكم العربي مع مطالب المحتجين، وبين خطابين أنجز أحدهما الرئيس السوداني عمر البشير سنة 2019 وأنجز الآخر الرئيس التونسي قيس سعيد سنة 2021. تمثلت هذه القواسم في تضمين هذين الخطابين لجملة من المطالب التي رفعها المحتجون خلال الربيع العربي، والتي أشار إليها وأقر بمشروعيتها باقي الرؤساء في خطاباتهم المتفاعلة مع أحداث الربيع. من بين هذه المطالب، نذكر تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لضمان حياة كريمة، وتوسيع مساحات الحرية وحق التعبير وتحقيق العدل، كما لم يخل الخطابان الأخيران من إشادة بالتضحيات التي قدمها الشباب الذين تزعموا الحراك الشعبي سواء في بداية الربيع أم بعده، ولم يخلوا من "حديث عن تصحيح مسار الثورة" التي قصد بها الرئيس سعيد ثورة الربيع العربي.

يطرح البحث إشكاليين رئيسيين هما:

الإشكال الأول المتمثل في:

- كيف يخدم انفتاح التداولية على مجموعة من الحقول المعرفية دراسة الخطاب السياسي وفق المنهج التداولي؟ هذا علماً بأن طرائق الاشتغال تختلف من مقولة تداولية إلى مقولة أخرى، حيث إن آليات إنتاج المعنى التي توفرها نظريات مُتضمّنات القول مثلاً هي غير آليات نظرية أفعال الكلام، وهي غير آليات نظرية الحجاج، كما هي غير آليات نظرية التأدب والتناص والمناسبة.

تتفرع عن هذا الإشكال الأسئلة الآتية:

- ألا يعتبر هذا الكم من المقولات التداولية عبئاً على المنهج التداولي، حيث يصعب توظيف المفاهيم المرتبطة بهذه المقولات بشكل منسجم يحقق تكاملاً يخدم دراسة الخطاب السياسي؟

- هل يكفي أن نقارب الخطاب السياسي بآليات نظرية واحدة، مثل نظرية أفعال الكلام، لنقول إننا أنجزنا دراسة تداولية؟

- ما هي الأبعاد التداولية الأكثر حضوراً في خطاب المعارضة وما مدى حُجِّيَّتِها؟

- مقابل إنجاز الخطاب الرسمي الرئاسي من قبل متكلم واحد، هل يؤثر إنجاز عدد كبير من المحتجين لمجموعة من الخطابات السياسية المضادة للخطاب الرسمي في حجاجية خطاب المعارضة وقوته التأثيرية؟

- ما مدى حجاجية العناصر غير اللفظية، وكيف تسهم إلى جانب العناصر اللفظية، بما فيها عنصراً النبر والتنغيم، في نجاعة التواصل وتحقيق التأثير في المتلقين؟

- ما مدى استجابة الخطاب السياسي لمقاربة تداولية معرفية نفسية ممثلة في نظرية الصلة أو المناسبة، وكيف يتم توظيفها من أجل إدراك المخاطب قصد المتكلم؟

الإشكال الثاني يتمثل في:

- إذا علمنا أن الخطاب السياسي الموجّه نحو الجمهور يغلب عليه الحجاج بالعاطفة، وينزلق أحياناً نحو الاحتجاج بالمغالطة، فكيف يتحقق عند وقوع هذه الحالة مبدأ التعاون وفق كرايس، الذي تقوم إحدى قواعده على قيمة الصدق؟ وكيف يتحقق مبدأ التأدب عند ليتش وروبول، أو مبدأ التصديق وفق طه عبد الرحمن؟ هل تتعطل في هذه الحالة آلية الاشتغال التي يمتلكها كل مبدأ، وتسمي النظريات ذات الطابع التهذيبي غير ذات جدوى في دراسة الخطاب؟

يرتبط بهذا الإشكال سؤالان، هما:

- لماذا يجنح خطاب المعارضة، أي الخطاب الذي ينجزه المتظاهرون في الساحات والميادين، إلى خرق مبدأ التعاون ومبدأ التأدب، متوسلاً تارة بالسخرية وتارة بالعنف اللفظي وتارة

باعتقاد أسلوب الأمر، حيث تحضر بقوة الصيغ التوجيهية المباشرة وغير المباشرة في خطابه؟

- ما الذي يجعل مُنجز الخطاب الرئاسي الذي هو خطاب السلطة الحاكمة، يعتمد استراتيجية تضامنية وحجاجية بدلا من اعتماد استراتيجية توجيهية يحضر فيها أسلوب الأمر والوعيد؟

إنطلاقا من الإشكاليين المطروحين ومن الأسئلة المنبثقة عنهما، يسعى البحث إلى إبراز أهمية المنهج التداولي وقدرته على الكشف عن الأبعاد التداولية في الخطاب السياسي الرئاسي وخطاب المعارضة؛ أي البحث في لغة كل خطاب وفي العلاقات بين المتخاطبين وأحوالهم، كما يسعى إلى اكتشاف كيفية إنتاج المعنى وإدراك قصد مُنتج الخطاب. نشير أيضا إلى أن هذه الدراسة تسعى إلى تقديم المخاطب ليس باعتباره متلقيا للخطاب فقط، ولكن باعتباره مُنجزا له أيضا. وهذا يطرح وجود مخاطب يوجّه إليه القول، هذا المخاطب متعدد سواء في الخطاب الرئاسي أم في الخطاب المعارض. ففي الخطاب الأول قد يكون من المؤيدين لمُنجز الخطاب، وقد يكون من المناوئين له، كما قد يكون جهات محايدة. والأمر نفسه مع خطاب المعارضة، فقد يستهدف المؤيدَ والمناوئَ والمحايد. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن البحث يسعى إلى إبراز البعد التداولي للتناص في الخطاب السياسي، وهو غير الحديث عن توظيف التناص لأغراض حجاجية.

وفي ما يتعلق بفرضيات البحث، فقد عرضناها على الشكل الآتي:

أ- يشكل تعدد النظريات مصدر ثراء بالنسبة للمنهج التداولي، إذ يسمح هذا التعدد بمقاربة الخطاب السياسي من زوايا متعددة.

ب- في خرق لمبدأ التأدب وما يرتبط به من مظاهر التهذيب، يلجأ منجز خطاب المعارضة إلى حجة السخرية لتقويض حجة السلطة التي يمتلكها النظام السياسي الحاكم ممثلا في رئيس البلاد.

ت- في استقلال عن المقولات المرتبطة بالتداوليات اللسانية، تنهض نظرية المناسبة لوحدها بمهمة تحليل الخطاب السياسي.

ج- تقوم مجموعة من العناصر غير اللغوية داخل الخطاب السياسي الرئاسي والخطاب المعارض، وخارجهما بوظائف تداولية حجاجية.

ولأن الخطابات السياسية المختارة تسع أكثر من نسق تعبيرى وهي محاطة بعناصر سياقية، فإننا سنزواج في التحليل بين المكونات اللغوية وبعض المكونات غير اللغوية التي بدت لنا هامة، منها لغة الجسد ولون اللباس والمكان الذي يصدر منه الخطاب، سواء كان هذا المكان فضاء ألفة أم فضاء معاداة. وذلك من خلال اعتماد المنهج التداولي واستثمار نظرية الحجاج اللغوي الموسَّع الذي هو حجاج تداولي وحجاج شمولى، يدرس الظاهرة الخطابية في سياق مقامي تخاطبي مع توسيع مجال الحجاج اللغوي، بحيث تسع الدراسة كل أنواع التواصل اللغوي منه وغير اللغوي.

لنغطية هذه الأنساق وللإجابة على الإشكاليين وما ارتبط بهما من أسئلة، وضعنا خطة تمثلت في تقسيم البحث إلى بابين: لكل باب فصلان، وصدرنا البحث بمقدمة وأنهيناها بخاتمة، بحيث جاءت محتويات الأطروحة على الشكل الآتي:

مقدمة: عرضنا فيها أهمية البحث وعناصر الإشكالية وأتبعناها بطرح فرضيات، كما قمنا بتعيين الخطوات المنهجية لمعالجة الإشكال وما ارتبط به من أسئلة، محددين الأهداف مشيرين إلى عناصر الجودة في الأطروحة، وإلى أعمال استفدنا منها لباحثين في مجال التداوليات.

الباب الأول: تناولنا فيه التداولية من خلال فصلين: فصل أول خصصناه للحديث عن اتجاهات التداولية ومباحثها، منطلقين في ذلك من رصد مفاهيم تداولية ماثورة في أكثر من حقل معرفي، وإسهامات معتبرة في التراث اللغوي العربي، مرتكزين على أهم الإنجازات التي ساهمت في تأسيس الدرس التداولي المعاصر الذي نهض على جهود علماء غربيين. وفصل ثان تناولنا فيه الخطاب السياسي، مستعرضين مفهومه وخصائصه ووظائفه وأنواعه، مبرزين بُعدَه التداولي.

الباب الثاني: تعلق بالشق التطبيقي من الدراسة. وقد صدرناه بمدخل منهجي أشرنا فيه إلى أهمية المقاربة التداولية وأهدافها وأهمية الخطاب السياسي العربي المعاصر، محددين سياق الخطابات المختارة للدراسة والمفاهيم الإجرائية ثم خطوات المقاربة. بعد هذا المدخل قمنا في الفصل الأول من هذا الباب بالحديث عن سياق كل خطاب من الخطابات السياسية الرئاسية. وفي الفصل الثاني الذي وزعناه على عشرة مباحث، أجرينا تطبيقات على خطابات رئاسية بواسطة مفاهيم تداولية، لم نغفل فيها الحديث عن الجانبين التركيبي والدلالي في الخطاب باعتبارهما مدخلين طبيعيين للولوج إلى المستوى التداولي. وإن كنا في ثمانية بحوث قد أجرينا المفهوم الواحد على ملفوظات هذه الخطابات، فإننا في مبحث آخر خاص بالتداولية المعرفية، أخضعنا خطابا كاملا دون الاختصار على ملفوظات منه إلى مقارنة عبر مفهوم واحد هو المناسبة وما يرتبط بها من تصور خاص للسياق. بعد ذلك، قاربنا في المبحث العاشر وهو الأخير، الخطاب الكامل للرئيس اليمني السابق علي عبد الله صالح بمجموعة من المفاهيم التداولية التي وافقت طبيعة هذا الخطاب السياسي الرئاسي. وقد أنهينا البحث بخاتمة سجلنا فيها أهم النتائج التي توصلنا إليها في دراستنا لموضوع الأطروحة التي حملت عنوان: الأبعاد التداولية في الخطاب السياسي العربي المعاصر؛ الخطابات الرئاسية والخطابات المضادة، من سنة 2011 إلى سنة 2021.

لم نكن نطمح في إنهاء الأطروحة دون أن نُودِعَها عناصرَ تتسم بالجدة، وتسهم في توسيع دائرة المقاربة التداولية للخطاب السياسي، وتتمثل هذه العناصر في:

1- إكساب التناسل بعدا تداوليا وإدراجه ضمن المفاهيم الإجرائية المعتمدة في مقارنة الخطاب مقارنة تداولية. وقد أجرينا تطبيقا لمفهوم التناسل على خطاب الرئيس التونسي قيس سعيد من خلال بعض ملفوظاته، كما أجرينا تطبيقا له على ملفوظات من خطاب الرئيس المصري حسني مبارك.

2- بما أن المخاطب متعدد وقد يشمل مناوئين للمتكلم الذي هو خطيب سياسي، فإن بعض هؤلاء المناوئين قد لا يكتفي بتلقي الخطاب، بل قد يرفضه فينجز خطابا يوجهه إلى مخاطبين من ضمنهم ذلك المتكلم الذي يتحول إلى مُتلقٍ. وقد حظي هذا الخطاب المضاد باهتمامنا أيضا

نظرا لكونه خطابا سياسيا متزامنا مع الخطاب السياسي الرسمي، ومتفاعلا معه - سلبا أو إيجابا - ومؤثرا أحيانا في المشهد السياسي، وتجسد هذا الاهتمام من خلال إخضاع هذا الخطاب لدراسة تداولية. وبهذا نكون أمام مقاربة لخطاب وخطاب مضاد متزامنين، مقاربة لم نظفر بها عند المهتمين بتحليل الخطاب السياسي في ضوء المنهج التداولي.

3- الاهتمام بالعناصر غير اللغوية مثل لغة الجسد ولون لباس المتكلم، وبالعناصر السياقية التداولية، إضافة إلى استحضار وظائف النبر والتنغيم الدلالية والتداولية في مقاربتنا للخطابات التي بين أيدينا، مستعينين بنظرية حديثة هي الحجاج اللغوي الموسّع.

وعلى مستوى المنهج، تمثل عنصر الجودة في:

1- تطعيم الشق النظري من البحث بأمثلة تطبيقية كلما تعلق الأمر بتحديد مفهوم من مفاهيم التداولية، التي يتقاطع بعضها مع مفاهيم ذات بعد منطقي استلزامي، مُستجَلين خصائص كل مفهوم مثلما حدث مع مفهوم الافتراض المسبق عند ديكر و مفهوم التضمن والاقتضاء في تصور علماء الأصول.

2- في الشق المتعلق بالتطبيق، أجرينا المفهوم الواحد من مفاهيم التداولية على خطابات معينة. حتى إذا انتهينا من إجراء كل مفهوم، انتقلنا الى تحليل خطاب أخير مجرين عليه كل المفاهيم التداولية أو جلها وفق ما تستدعيه طبيعة هذا الخطاب، مع تخصيص خطاب كامل لمقاربة اعتمدنا فيها على نظرية المناسبة وحدها. وبهذا نكون قد قاربنا خطابات سياسية وفق منهج تداولي لساني مع استثمار نظرية الحجاج الموسع، وقاربنا أيضا خطابا سياسيا وفق منهج تداولي معرفي نفسي.

وقد اعتمدنا في هذا البحث مصادر ومراجع ذات صلة وثيقة بالموضوع والمنهج، منها كتابات جيوفري ليتش وبول كرايس وجون أوستين وجون سورل وسبربر وويلسن في مجال التداوليات وتحليل الخطاب. كما استفدنا من جهود باحثين عرب أسهموا في الدرس التداولي وفي تحليل الخطاب السياسي، من حيث التأليف أو من حيث الترجمة أو هما معا، منهم

عبدالرحمن طه ومحمد محمد يونس علي وهشام عبد الله الخليفة وأبو بكر العزاوي ومسعود صحرأوي وعبد الهادي بن ظافر الشهري.

بعد إنجاز هذا البحث أتوجه بالشكر إلى أستاذي المشرف فضيلة الدكتور عبدالواحد المرابط الذي أفدت من علمه كثيرا؛ فلکم أغدق علي من ملاحظات وتوجيهات وتصويبات واقتراحات سديدة، منها تفضله بتقويم ما بدا مني من خلل في الصياغة، وتعديل في بنية عنوان البحث، واقتراح تصميم استوى البحث إثره على سوقه دون ادعاء مني لتمام. ولا تقتصر أفضال الأستاذ المشرف على تأطير بحثنا هذا، ولكن تتعداه إلى جوانب إنسانية تتمثل في تواضعه تواضع العلماء، وفي صبره صبر الكرماء، وفي حلمه حلم الحكماء، وغير هذا من قيم النبل التي أحاطنا بها. فلکم أستاذي خالص الشكر والامتنان. وأتوجه بالشكر الجزيل إلى الأساتذة الأجلاء، أعضاء اللجنة العلمية على تفضلهم بالاطلاع على بحثي وتمحيصه وتقويمه. وإنه لا يساورني الشك في أن عملي هذا ينهض على ملاحظات السادة الأساتذة وتصويباتهم وتوجيهاتهم السديدة. والشكر موصول لأساتذتي الأفاضل بجامعة شعيب الدكالي بالجديدة ولكل الأساتذة الأخيار الذين تتلمذت على أيديهم، وعلى رأسهم الأستاذة الجليلة الدكتورة نعيمة الواجيدي التي لها علي من الأفضال ما يستوجب التقدير والاحترام لشخصها الكريم، والأستاذ الفاضل النبيل الدكتور عبد اللطيف درويش الذي حُبب إليَّ العلم وحثَّني على التفاؤل وأوصاني بالاحتفاء بالجمال.

الباب الأول

التداولية والخطاب السياسي

تمهيد

حظيت التداولية خلال العقود الأخيرة بأهمية قصوى، إذ غدت منهجا علميا يغري المهتمين بالدرس اللساني ودارسي الخطاب باعتماده في مقارباتهم وبحثهم في المعنى والقصد. ومن بين الأسباب التي أكسبت التداولية هذه الأهمية امتلاكها القدرة على حل ما استعصى على المناهج السابقة التي راهنت على البعدين النحوي والدلالي في الكشف عن المعنى. فالمعارف القبلية التي يمتلكها الإنسان، وكفايته التداولية في استثمارها وتوظيفها ضمن سياق معين، كفيلتان بإدراك معنى الخطاب وقصد المتكلم. هذان العنصران غير مرتبطين بالمستويين النحوي والدلالي، وإنما هما متعلقان بالمجال التداولي الذي يُتوسل فيه بالعناصر السياقية المحيطة بالخطاب المتماسك تركيبيا والمنسجم دلاليا. إن تماسك الخطاب وانسجامه لا يغنيان عن البحث في المعنى، عن السياق الذي يُعدّ بعدا تداوليا إلى جانب أبعاد أخرى تسعف في مقاربة الخطاب من زوايا مختلفة. وقد متحت التداولية مفاهيم إجرائية من حقول معرفية متعددة، فأكسبها هذا الانفتاح على الحقول التداولية ثراء وسعة في تناول الخطابات ومعالجتها، خصوصا الخطاب السياسي الذي يستجيب لدراسة تتوسل بالمنهج التداولي. ولئن بدا هذا الانفتاح مخصبا للحقل التداولي، إلا أنه أمسى مثار شك من لدن بعض الباحثين حول شرعية انتماء حقول معرفية ذات طبيعة غير لسانية إلى التداولية، مثل العلوم المعرفية ممثلة في علم النفس المعرفي. ومن المؤاخذات التي يمكن أيضا توجيهها إلى التداولية أنها لا تهتم بدراسة العلامات غير اللغوية، البصرية والأيقونية، وهذا يعني إقصاء المنهج التداولي لعناصر تسهم في بناء المعنى.

لم تسلم أي نظرية من النقد، وتلك ظاهرة إيجابية؛ ففي ضوء النقد المبني على أسس علمية يتم تقييم النظرية وتقويمها، لكن بعض النقد سرعان ما يتوارى وتخفت حججته أمام المعطيات والحقائق العلمية، مثلما هو الحال عند استغراب احتضان التداولية لعلوم معرفية متعددة شملت حقولا لسانية وأخرى غير لسانية، إذ إن انفتاح الحدود بين التخصصات المعرفية أضحى حاجة علمية. هذا الانفتاح هو ما أصبح يعرف بالتكامل المعرفي الذي يطبع عمل

المختبرات العلمية بالجامعة العربية، التي تسهم في النمو العلمي وتواكب التطور الذي تشهده مجالات الحياة الفكرية.

وسوف نسعى في هذا الباب إلى إبراز حضور المقولات التداولية في الدرس العربي القديم، مثل نظرية أفعال الكلام التي تناولها البلاغيون العرب في حقل علم المعاني، وخصوصاً في مبحث الإنشاء الطلبي، إلى جانب إبراز اهتمام علماء الأصول بالمقام التخاطبي والمقاصد ودلالة الالتزام، التي تشمل الاقتضاء الذي يتقاطع مع مفهوم تداولي معاصر هو الافتراض المسبق. وسنسعى أيضاً إلى الوقوف على انفتاح التداولية على الحقول اللسانية والحقول المعرفية مثل نظرية المناسبة التي شكلت منعطفاً في مسار الدرس اللساني الحديث. وسنعرض تصورات جديدة لباحثين عرب أسهموا في مجال التداوليات ومجال تحليل الخطاب. في هذا الباب، سنتناول أيضاً مفهوم التناص باعتباره بُعداً تداولياً، مستثمرينه آلية من آليات إنتاج المعنى، وسنعالج الأنساق غير اللغوية إلى جانب الأنساق اللغوية في محاولة للإحاطة بمعنى الخطاب المدروس وإدراك قصد منتج الخطاب.

الفصل الأول

التداولية؛ اتجاهاتها ومباحثها

المبحث الأول: مفهوم التداولية

يعود مصطلح (Pragmatics) إلى الكلمة اليونانية (Pragmaticus) المشتقة من الجذر (Pragma)، والتي تعني الفعل والممارسة المرتبطين بالحقل التجريبي. وقد تعددت مقابلات هذا المصطلح الذي يُعنى بدراسة اللغة عند الاستعمال في الدرس اللساني العربي وترجم بتسميات منها: الوظيفية والمقامية والسياقية وعلم الاستعمال اللغوي والذرائعية والبراكماتية والفعلياتية والتخاطبية والتداولية. وقد أثرنا اعتماد هذا المصطلح الأخير نظرا لسلاسته، ولشيوخ استعماله من لدن معظم الدارسين المختصين في اللسانيات، وإحالاته على التفاعل والتواصل والحوار والتحول... تعددت التسميات وتعددت أيضا المجالات المفهومية للتداولية، مما أكسبها دلالات متعددة، وبالتالي استحال استقرار المصطلح على تعريف محدد. ولمقاربة مفهوم التداولية ننطلق من البحث في دلالاته المعجمية والاصطلاحية.

أ- الدلالة المعجمية

ترجع كلمة التداولية إلى مادة "دول" التي وردت في "مقاييس اللغة" على أصلين: "أحدهما يدل على تحول شيء من مكان إلى آخر، والآخر يدل على ضعف واسترخاء، فقال أهل اللغة: اندال القوم، إذا تحولوا من مكان إلى مكان. ومن هذا الباب، تداول القوم الشيء بينهم: إذا صار من بعضهم إلى بعض"¹. فمدار اللفظ لغة هو التناقل والتحول، وقد اكتسبهما من الصيغة الصرفية "تفاعل" الدالة على تعدد حال الشيء، كما ينتقل المال من هذا إلى ذاك. ولا تكاد المعاجم الأخرى تخرج عن هذه الدلالات، فقد جاء في "أساس البلاغة": "دالت له الدولة، ودالت الأيام بكذا. وأدال الله بني فلان من عدوهم: جعل الكثرة لهم عليه... والدهر دول وعقب، وتداولوا الشيء بينهم"². وجاء في "لسان العرب" في مادة "دول": "يقال صار الفيء دولة بينهم يتداولونه مرة لهذا ومرة لهذا.... وهو ما يتداول من المال فيكون لقوم دون قوم... كيف لا يكون الفيء دولة أي متداول... ودواليك من تداولوا الأمر بينهم يأخذ هذا دولة

¹- أحمد بن فارس بن زكرياء، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979، ج2، ص314.

²- محمود بن عمرو الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1982، ص139.

وهذا دولة وقولهم دواليك أي تداولاً بعد تداول... ويقال تداولنا العمل والأمر بيننا بمعنى تعاونناه فعمل هذا مرة وهذا مرة¹.

بعد هذا العرض، يتضح أن من مجالات لفظ "دول" يوجد مفهوم التحول ومفهوم التناقل ومفهوم التمكين، وهي مفاهيم تتقاطع مع المجالات المفهومية للغة التي تنتقل من المتكلم إلى السامع، متحولة من حال إلى حال أخرى، يتداولها المتخاطبون مستثمري ملكاتهم اللغوية بما يحقق لهم تفاعلاً مثمراً وتأثيراً في الحديث. وخلاصة القول هي أن الدلالة المعجمية للفظ "دول"، لا تخرج عن معاني التحول والانتقال والحوار والتبادل والانفتاح على الرأي المخالف.

ب- الدلالة الاصطلاحية

تعددت تعريفات التداولية تبعاً لاختلاف توجهات التداوليين وتخصصاتهم الفلسفية ومجالات اشتغالهم. وقبل أن نعرض بعض التعريفات، نشير إلى تمايز التداولية اللسانية عن مفهوم البراغماتية (Pragmatism) ذي المنحى الفلسفي الذي لا يؤمن إلا بمادية الفعل وتحققه في العالم الخارجي، أي انطباقه على الواقع وتحققه عملياً. نستهل الحديث عن التعريفات بتعريف تشارلز موريس الذي ارتبط بنشأة التفكير التداولي اللساني المستقل عن الفلسفة البراغماتية. فالتداولية عنده تهتم بدراسة العلاقة بين العلامات ومؤوليها، وتمثل هذه العلاقة البعد التداولي للسيرورة التداولية². وقدم ليفنسن تعريفات للتداولية، منها أنها دراسة

¹ - محمد بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت)، مادة "دول".

² - يفرق موريس بين ثلاثة مستويات في دراسته للسميوزيس (السيرورة التداولية) موضحاً أن التداولية تمثل مستوى من هذه المستويات:

"L'objet d'étude peut aussi être la relation des signes aux interprètes. Cette relation s'appellera la dimension pragmatique de la sémiotique". Charles Morris, "Fondements de la théorie des signes", traduction de Victor Guérette, la traverse et paillet. In: Langages, 8ème année, n°35, 1974, P 15-21.

للعلاقات بين اللغة والسياق، وهي كذلك دراسة لمتضمنات القول¹ من أقوال مضمرة وافتراضات مسبقة، ودراسة لأفعال الكلام. وقدم كذلك تعريفا بعدما فصل بين مستويات التركيب والدلالة والتداولية على غرار ما فعل موريس، فقد قال إن التداولية تهتم بدراسة اللغة عند استعمالها من قبل أشخاص لهم معارف مشتركة ووضعية اجتماعية معينة². وتشير تعريفات أخرى إلى اهتمام التداولية بتأويل مقاصد المتكلم ضمن السياق الذي يُنتج فيه الخطاب، وسعي المخاطب إلى إدراكها. هذه التعريفات رغم تنوعها، فهي تجمع على أن التداولية تهتم بدراسة الأنساق اللغوية ضمن السياق المحيط بها، أي دراسة استعمال الخطاب التي تهتم بظروف إنتاجه وأحوال منتجه ومقاصدهم، كما تهتم بأحوال المخاطبين. وإذ تهتم التداولية بهذه العناصر وغيرها من العناصر السياقية، فإنها تروم البحث في المعنى الذي ينطلق من الخطاب في علاقته بالسياق المحيط به وبمقاصد منتجه.

¹- يُقصد بمتضمنات القول الافتراض المسبق والقول المضمّر والاستلزام التخاطبي، وهي مصطلحات مقابلة بالتتابع ل: *Présupposition* و *Sous-entendu* و *Implicature Conversationnelle*. وقد أنشأ هذا المصطلح الأخير الباحث الأمريكي بول كرايس.

² - Stephen C. Levinson; *Pragmatics*. Cambridge University Press; 1984, P1-9.

المبحث الثاني: التداولية في التراث اللغوي العربي

شهد الدرس العربي القديم اهتماما بدراسة الخطاب وغايته، دراسة لم تقتصر في بحثها عن المعنى على السياق المقالي فقط، ولكنها اهتمت أيضا بالسياق المقامي. فقد تركز اهتمام البلاغيين والنحاة والأصوليين على أحوال المتخاطبين وطرائق اشتغالهم في بحثهم عن المعنى وأدائهم الكلامي، كما اهتموا بمقاصد المتكلمين وتأثير الفعل الخطابي في سلوك المخاطبين. سنقتصر في هذا المبحث على الإشارة إلى بعض الملامح التداولية في التراث العربي الذي احتفى درسه البلاغي بالسياق وبمباحث من صلب اهتمام التداولية، والإشارة إلى علم أصول الفقه الذي اعتنى بالدلالة والمعنى والمقاصد، وتوسل فيه العلماء في تأويلهم للنصوص بمفاهيم تداولية من قبيل مفهوم الاقتضاء الذي يتقاطع مع مفهوم الافتراض المسبق في اللسانيات الحديثة، ومفهومي الموافقة والمخالفة اللذين يتقاطعان مع مفهومي الاستلزام التخاطبي والقول المضمر عند بول كرايس وأوريكيوني.

1- الجاحظ ومراعاة مقتضى الحال في إنتاج المقال

تتوقف نجاعة الخطاب على مراعاة المتكلم أحوال المخاطبين من خلال تخيّر اللفظ المناسب لمقام التخاطب. ويحدّد المقام الذي لا يختلف عن مفهوم الحال بأنه يشمل مجموعة من الظروف المحيطة بالخطاب والمؤثرة فيه، كما يشمل طرفي العملية التخاطبية وخلفيتهما الثقافية. لم تغب فكرة مقتضى الحال عن تفكير العرب القدامى، البلاغيين منهم والنحاة. فقد أورد الجاحظ في "البيان والتبيين" نصا من صحيفة بشر بن المعتمر، يبرز فيه اهتمامه بضرورة مراعاة المتكلم لمقتضى الحال في إنتاج الخطاب. ومما جاء فيه: "وكن في ثلاث منازل: فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا، ويكون معنك ظاهرا مكشوبا وقريبا معروفا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت. والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال،

وما يجب لكل مقام من المقال"¹. وهذا يعني أن الخطاب الذي يهدف من خلاله المتكلم إلى إفادة المخاطب، ينبغي أن يكون واضحاً غير ملتبس، مقبولا يتناسب ومكانة المخاطب الاجتماعية وملكاته الإدراكية، كما على المتكلم أن يراعي مقام التخاطب ويعتني باللفظ الذي يناسب السامع. والاعتناء ببلاغة العبارة عند الجاحظ لا يعني الحرص على الجزل من القول ولا الرشيق العذب منه، ولكن طبيعة المخاطب النفسية والاجتماعية والثقافية هي التي تقتضي من المتكلم استعمال الجزل أو السخيف والمليح أو القبيح... وفي هذا الصدد يقول الجاحظ: "وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن، والقبيح والسميح، والخفيف والثقيل، وكله عربي وبكل قد تكلموا... إلا أنني أزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني، وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم، ومن الألفاظ الشريفة الكريمة المعاني"². وإذا كان الجاحظ يشير إلى أنه قد يُحتاج إلى السخيف من الكلام في مواضع معينة لغرض الإفهام، فهذا لا يعني إنزال هذه الطبقة من الكلام منزلة "اللفظ العامي الساقط السوقي"، وذلك لأن السخيف قد يفوق الجزل الفخم إمتاعاً، وهذا يدل على أنه يملك من البلاغة ما أهله إلى خلق المتعة وإطراب النفوس والتأثير فيها. وإذا كان السخيف عنصراً حاجبياً يقوم بوظيفة جمالية متمثلة في الإمتاع، فإن هذا كاف لينفي عن هذه الطبقة من الكلام صفات قذحية. قد تشبه هذه الطبقة من حيث الوظيفة أشكال التعبير التي تنحو منحى السخرية، مثل الرسوم الكاريكاتورية والدعابة والنكتة التي قد تكون أكثر حاجبية من التعبير بالألفاظ في مناسبات كثيرة. وأياً كانت طبيعة هذه الطبقة من الكلام، فإن الغرض من وراء اختيارها مناسبةً حال المخاطب واستجابةً للمقام.

2- الغزالي والاشتغال على متضمنات القول والاستلزام التخاطبي

يقوم علماء أصول الفقه باستنباط الأحكام من النصوص القرآنية والحديثية. وبما أن

¹ - عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجبل، بيروت، (د ت)، ج 1،

ص 136.

² - البيان والتبيين، 144/1.

اللفظ في هذه النصوص "إما أن يدل على الحكم بصيغته ومنظومه، أو بفحواه ومفهومه، أو بمعناه ومعقوله"¹، فإن الأصوليين استشعروا أهمية دراسة الدلالة لفهم النصوص. والدلالة عند الأصوليين نوعان: لفظية وغير لفظية. وقد اهتم الغزالي بالدلالة اللفظية التي تنقسم إلى ثلاث دلالات: دلالة لفظية طبيعية، ودلالة لفظية عقلية، ودلالة لفظية وضعية. هذه الأخيرة حصرها الأصوليون في ثلاثة أوجه: دلالة المطابقة، ودلالة التضمن، ودلالة الالتزام²؛ إذ في المطابقة يُحمل الكلام على تمام معناه، فلفظ "القلم" يدل على الأداة التي نكتب بها؛ وفي دلالة التضمن، يحمل الكلام ليدل على جزء من معناه، فـ"الحبر" الذي يتضمنه القلم هو جزء من معنى هذا القلم؛ أما في دلالة الالتزام فيُساق الكلام ليدل على معنى خارج عن معناه، مثلاً دلالة "القلم" على "الكتابة"، فهذه الدلالة خارج معنى اللفظ "القلم"، بحيث إن "القلم" لا هو مُطابقٌ للكتابة ولا مُتضمنٌ إياها، وإنما العلاقة علاقة استتباع وتلازم. هذه العلاقة لم يُولها الغزالي اهتماماً كبيراً، وإنما انشغل بدلالة التضمن، واهتم بالألفاظ التي تدل على الحكم بفحواها ومفهومها. والبحث في دلالة الفحوى والمفهوم بحث في الدلالة التي لا يكون فيها اللفظ منطوقاً به. وقد قسم الغزالي هذه الدلالة إلى خمس دلالات فرعية:

أ- دلالة الاقتضاء؛

ب- دلالة الإشارة؛

ج- دلالة الإيحاء؛

د- دلالة الموافقة؛

هـ- دلالة المخالفة.

¹ - أبو حامد محمد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، تحقيق حمزة بن زهير حافظ، شركة المدينة المنورة، جدة، (د

ط)، (د ت)، ج3، ص3.

² - الغزالي، معيار العلم في المنطق، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990، ص43.

2-1- مفهوم الاقتضاء ووظيفته التداولية

بعد تقسيم الدلالة إلى خمسة أنواع، واصل الغزالي تقسيم الاقتضاء إلى ثلاثة أقسام¹،

هي:

أ- المقتضى الذي يجب تقديره لصدق الكلام؛

ب- المقتضى الذي يجب تقديره لصحة الكلام عقلا؛

ج- المقتضى الذي يجب تقديره لصحة الكلام شرعا.

هذا القسم الأخير من الاقتضاء يتقاطع مع مفهوم الافتراض المسبق في الحقل التداولي، حيث إن المعنى مسجل في الملفوظ، ومثاله "بِعَتْكَ سيارتي". هذا القول يقتضي أنني كنت أملك سيارة. نورد مثالا آخر: "غادر الطالب المدرج"، يقتضي أن "الطالب كان في المدرج". وسنتناول في الفصل الثاني العلاقة بين المفهومين بتفصيل دقيق. وما نقصد الإشارة إليه هنا هو أن مفهوم الاقتضاء مفهوم تداولي، إذ "يقوم المخاطب بوظيفة حمل الكلام على غير ظاهره، ويقوم أيضا بتوسيع الخطاب ليصبح أكثر مناسبة للمقام التخاطبي"². ومعنى حمل الكلام على غير ظاهره أن الاقتضاء يشير إلى المحتوى الدلالي المحذوف من الكلام، وتقدير هذا المحذوف ضروري ليستوي الكلام مفيدا. ويتجلى أيضا البعد التداولي لهذا المفهوم في كونه يمثل خلفية معرفية مشتركة بين المتخاطبين، إذ يُسَلَّم كل منهما بامتلاك أحدهما لسيارة، كما يسلمان بأن الطالب كان موجودا في المدرج في المثالين المذكورين.

2-2- مفهوم الموافقة والمخالفة وعلاقتهما بالاستلزام التخاطبي

عرّف الغزالي الموافقة بأنها "فهم غير المنطوق به من المنطوق بدلالة سياق الكلام ومقصوده"³. وتُعرّف أيضا بأنها ما يدل على أن الحكم في غير المنطوق به يطابق حكم

¹ - الغزالي، معيار العلم في المنطق، ص 403.

² - محمد محمد يونس علي، علم التخاطب الإسلامي؛ دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2006، ص 217.

³ - الغزالي، المستصفى من علم الأصول، ج 3، ص 411.

المنطوق به¹، أي إن الخطاب المتلفظ به والخطاب المحذوف الذي يتم تقديره من قبل المخاطب، يشتركان أو يتساويان في الحكم، مثال ذلك ﴿فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما﴾². فالنهي عن التأفيف يدل عليه منطوق الآية القرآنية، وأما المسكوت عنه المتمثل في فعل الشتم والضرب، فيأخذ حكم التأفيف الذي هو النهي والتحريم، وذلك لاشتراك المنطوق وغير المنطوق في فعل الإيذاء. ويرى بعض الأصوليين مثل الجويني أن هذا الحكم الذي يشتركان فيه، يكون أنسب للمسكوت عنه منه للمنطوق به³. ويرى الغزالي أن المخاطب لا ينطلق فقط من المنطوق ليستنبط حكم المسكوت عنه، ولكن يستدعي معارفه السابقة من خلال استحضار النصوص المصاحبة للمنطوق التي ورد فيها حكم أو إشارة متعلقان بهذا المنطوق. يقول: "فلولا معرفتنا بأن الآية سبقت لتعظيم الوالدين واحترامهما، لما فهمنا منع الضرب والقتل من منع التأفيف"⁴. ويقصد بالذي سبق من الآية قوله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا﴾، وهي مطلع الآية التي ورد فيها تحريم التأفيف. وإذا كنا قد اقتصرنا على استنباط بعض الأحكام من الآية القرآنية مثل تحريم الشتم وتحريم القتل وتحريم الضرب، فهذا لا يعني أن التأويل يقف عند حد هذين الحكمين، وإنما قد يتعداه إلى استنباط أحكام أخرى، مثل تحريم الهجر وغيره من الأحكام. وهذا القدر من المعلومات (الأحكام) التي يتم إبلاغها من قبل المتكلم إلى المخاطب لا يوفرها اللفظ المنطوق، وهذا ما يشرح دلالة الموافقة إلى اعتبارها آلية من آليات إنتاج المعنى وعنصرا بلاغيا ومفهوما تداوليا.

لا يكاد يُذكر مفهوم الموافقة حتى يحضر مفهوم المخالفة، فهما مفهومان ينضويان تحت دلالة المفهوم المقابلة لدلالة المنطوق حسب تصنيفات غالبية الأصوليين، ومنهم الجويني والآمدي وابن الحاجب والغزالي. فإذا كانت دلالة الموافقة هي ما يكون فيها حكم غير المنطوق موافقا لحكم المنطوق به، فإن في دلالة المخالفة يكون حكم غير المنطوق به مخالفا لحكم

¹- أبو المعالي الجويني، البرهان في أصول الفقه، تحقيق عبد العظيم الديب، الناشر دولة قطر، 1399هـ، ج1، ص449.

²- سورة الإسراء، من الآية 23.

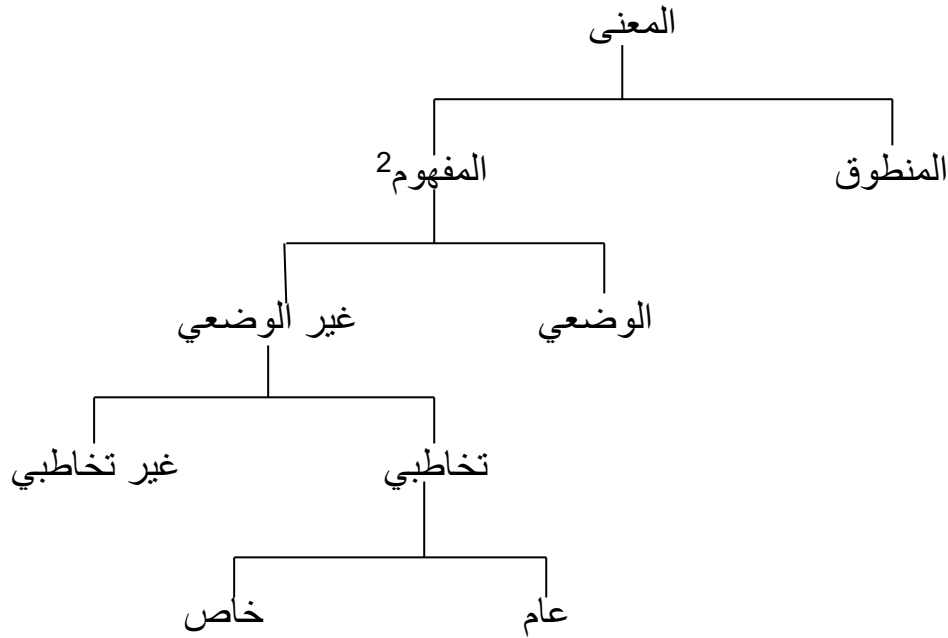
³- يعرف الجويني مفهوم الموافقة بأنها ما "يدل على أن الحكم في المسكوت عنه موافق للحكم في المنطوق به من جهة

الأولى". وتدل عبارة "من جهة الأولى" على أن الأفعال المسكوت عنها تكون الأولى أن ينسب إليها الحكم.

المرجع السابق، الصفحة نفسها.

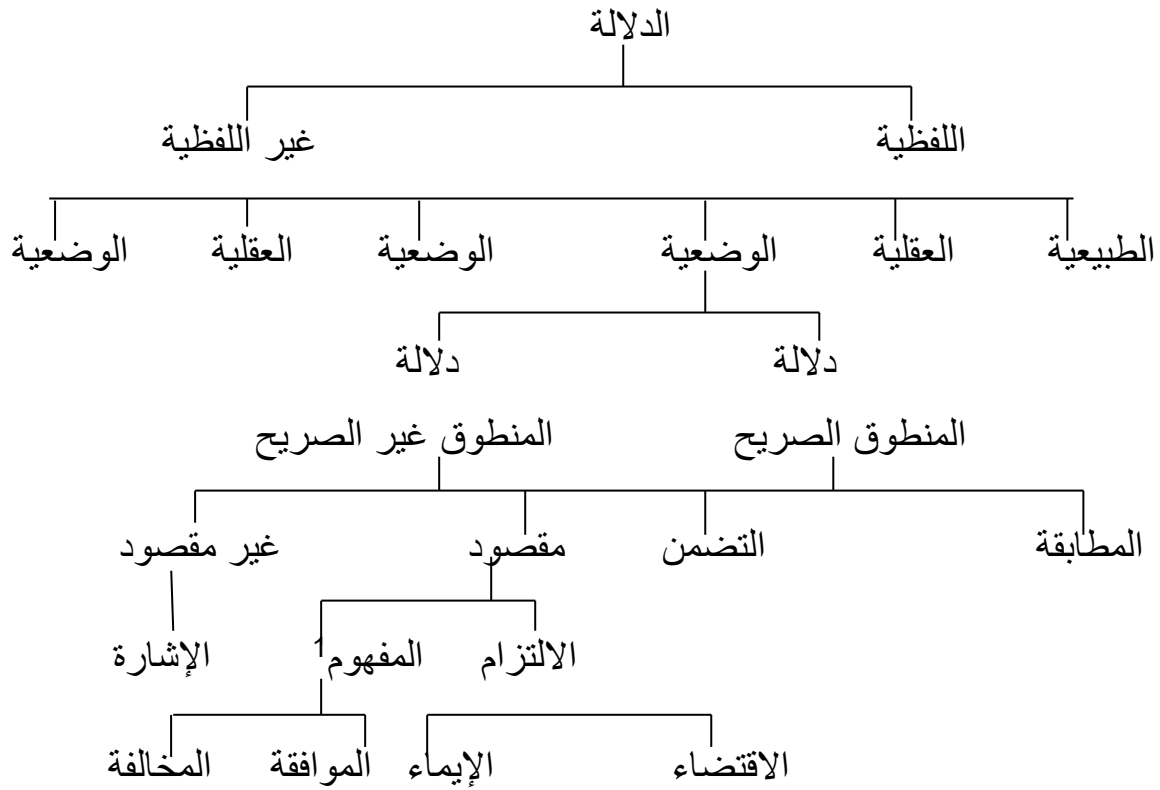
⁴- المستصفي من علم الأصول، ج3، ص412.

المنطوق به. وبهذا يتبين أن دلالتَي الموافقة والمخالفة من المنطوق غير الصريح، وهو الذي يقصد فيه المتكلم أكثر مما يقول، أو يقصد فيه عكس ما يقول، أي إن المتكلم يريد إبلاغ المخاطب معلومات على نحو غير مباشر، ويسمى هذا عند البلاغيين تعريضاً. وقد شكل هذا منطلقاً للتفكير في توضيح الاختلاف بين ما يُقال وما يُقصد، الذي أفضى إلى تأسيس نظرية الاستلزام التخاطبي عند كرايس. وإليك تصنيفاً اقترحه محمد يونس علي يميز فيه بين المعنى الوضعي، أي المدلول الذي يدل عليه المنطوق الصريح وبين المعنى غير الوضعي، أي المدلول الذي يُستنتج من المنطوق غير الصريح، وهو ينقسم إلى معنى تخاطبي ومعنى غير تخاطبي حسب بول كرايس كما يقول صاحب التصنيف الآتي¹:



من خلال هذه الخطاطة، نتبين أن المعاني تنتظم ضمن الاستلزمات التخاطبية وتنتظم أيضاً ضمن الاستلزمات الاتفاقية التواضعية التي تنبثق من الشكل اللساني. ولرصد تفرعات الدلالة عند الأصوليين، قمنا بإنجاز تصنيف على الشكل الآتي:

¹- محمد محمد يونس علي، علم التخاطب الإسلامي، ص 227.
 - يترجم محمد محمد يونس علي (Pragmatics) بـ "علم التخاطب".
²- يعني الباحث بالمفهوم الاستلزام، وهو المصطلح الذي اقترن بالتخاطب أو الحوار: الاستلزام التخاطبي أو الحوار.



إذا تأملنا التصنيفين، تبين لنا أن الأصوليين قد اهتموا بدلالة المنطوق غير الصريح، التي يدل فيها اللفظ على معنى خارج معناه الذي وُضع له في الأصل. وهذا المعنى يسميه كرايس المعنى المُستلزم الذي ينشأ انطلاقاً من وضعية تخاطبية تراعى فيها قصدية المتكلم، إذ قد يقصد غير الذي يقول، ويُعوّل عندئذ على كفاءة المتلقي التداولية في إدراك قصد مخاطبه، كاتباً كان أم متكلماً.

2-3- السكاكي، أفعال الكلام في الخبر والطلب ومظاهر الاستلزام

قسّم العرب الكلام قسمين: خبري وإنشائي. ومنهم من قسم هذا الأخير إلى ما هو طلبية وغير طلبية، فالإنشاء الطلبية يتمثل في الأمر والاستفهام والنهي والتمني والنداء، وهي أساليب تستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، والنوع الثاني هو الإنشاء غير الطلبية الذي لا

¹ - لا يقابل المفهوم هنا المنطوق، وإنما يُقصد به الدلالة التي تسع دلالة الموافقة ودلالة المخالفة.

يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب¹، ومن أنواعه التعجب والمدح والقسم وصيغ العقود...

هذا عن القسم الأول من الكلام، أما القسم الثاني فمتعلق بالخبر وهو ما احتمل حكمه الصدق أو الكذب، في مقابل الإنشاء الذي لا يحتمل هذا الحكم. ويقوم الخبر على ثلاثة أضرب: ابتدائي وطلبي وإنكاري، وهي تختلف في درجة تأكيد الخبر باختلاف حال المخاطب الذي يكون إما خالي الذهن من المعلومة التي يستقبلها، أو شاكاً فيها، أو منكرها لها. وإذا يراعي المتكلم حال المخاطب عند خلو الذهن من الخبر أو عند الشك أو عند الإنكار، فهذا يعني أن هناك احتفاء بالسياق واعتناء بالخطاب من خلال تخيّر الأسلوب المناسب لحال المخاطب، ومن ثم بلوغ غاية الإفادة في الكلام. وقد أشار السكاكي إلى هذا بقوله: "إعلم أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"². وقد يقتضي السياق خروج الخبر إلى أغراض متعددة، مثل الأمر والنهي والتعجب...؛ مما يدفع المتلقي إلى استنباط المعنى الضمني الذي يستلزمه المقام التخاطبي. والأمر نفسه يحصل مع الأساليب الإنشائية التي تخرج إلى أغراض يقتضيها المقام. وفي هذا الخروج إلى أغراض يقتضيها المقام، سواء أعلق الأمر بخروج الجملة الخبرية أم بخروج الجملة الإنشائية، توليداً لمعانٍ جديدة ومقاصد مغايرة للمقاصد المثبتة في الجملة التي تم خرق معناها. مثال ذلك: حين يسألك صديقك عن الخروج قصد التنزه (أ)، فتجيب بعبارة (ب):

(أ) هل تخرج معنا للتنزه؟

(ب) أنا مقبل على اجتياز امتحانات.

فالمعنى في الملفوظ (ب) خرج من غرض الإخبار عن قرب اجتياز الامتحانات إلى غرض رفض دعوة الصديق إلى التنزه، وبالتالي فالقصد الذي يتوخاه الناطق بالعبارة (ب) لا تفصح

¹ - لا يوجد تصنيف وقع عليه إجماع، وإنما هناك تصنيفات متباينة.

² - أبو يعقوب يوسف السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت)، ص 70.

عنه هذه العبارة، وإنما يُسْتَدَلُّ عليه في المنطوق غير الصريح "لا أريد الخروج". وهذا ما أشار إليه كرايس بالاستلزام التخاطبي.

هذا الاهتمام بالانتقالات من أغراض إلى أخرى هو اهتمام بالدلالات المتضمنة في الأقوال، وهذه الدلالات تمت دراستها من قِبَل السكاكي وغيره من البلاغيين باعتبارها أفعالا كلامية إنجازية لها أثر في الحياة الاجتماعية. ولا يقتصر وجود هذه الأفعال الإنجازية على الحالات التي يحصل فيها الانتقال من غرض إلى غرض، ولكن الفعل الكلامي الإنجازي هو متضمن أيضا في كل ملفوظ إنشائي، فبمجرد النطق بالملفوظ يتحقق مدلوله وهو فعل إنجازي ناشئ عن قصد المتكلم ومتوجه نحو المخاطب. يؤكد هذا القول ما ذهب إليه ابن خلدون حين ربط بين مفهوم اللغة والفعل قائلا: "إعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان"¹.

ليست الجمل الإنشائية الطلبية وحدها التي تحوي أفعالا إنجازية، ولكن الجمل الخبرية قد تتضمن هذه الأفعال، إذ في قولك "إني أحترم الأستاذ" توجيه لمخاطبك وحث له على وجوب احترامه للأستاذ. وبهذا تكون الجملة الخبرية هنا متضمنة لفعل إنجازي متمثل في الأمر. هذا ناهيك عن صيغ العقود في الزواج والبيع والشراء وغيرها، إذ بمجرد ما يصرح الشخص بعبارة "بِعْتُكَ سيارتي"، حتى يكون ملزما بالقيام بفعل تسليم السيارة للمشتري، وذلك في ظل توفر شروط البيع التي بها ينعقد. للإشارة فالمثال الأخير يندرج ضمن الجمل الإنشائية غير الطلبية. وكما هو معلوم فالإنشاء الطلبي وغير الطلبي إضافة إلى الخبر، يشكل علما من علوم البلاغة يسمى علم المعاني، الذي انطلق في أفعال الكلام من مبدأ وظيفي تداولي ينهض على رصد خصائص تراكيب اللغة في علاقاتها بسياق إنتاجها وأحوال مستعملها ومقاصدهم، وأيضا في علاقاتها بأغراضها التواصلية وغاياتها الحجاجية.

¹ - عبد الرحمن أبو زيد، ابن خلدون، مقدمة العلامة ابن خلدون المسمى: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، 1419 هـ - 1998 م، ص 565.

المبحث الثالث: الاتجاهات والمباحث التداولية المعاصرة

1- براكماتية تشارلز بورس وتجريبية وليام جيمس

ظهرت البراكماتية ذات المنزع الفلسفي على يد تشارلز سندرلر بورس في سبعينيات القرن التاسع عشر، وهي مرحلة شهدت حضوراً قوياً للمنهج العلمي الذي سعى بورس إلى تطبيقه على الفلسفة، ومن ثم فك ارتباطها بالميتافيزيقا. هذا السعي ظل يوطره المنهج التجريبي الذي يعارض الفلسفة العقلية التي تُنصّب الأفكار الفطرية أو القبلية أساساً لليقين في المعرفة، بينما ترى التجريبية¹ أن المعرفة الإنسانية تنهض على التجربة الحسية التي تفرز نتائج عملية تخضع لمعيار الصدق. وتعد قيمة الصدق في صلب اهتمام البراكماتية، وقد بدا هذا جلياً في كتاب (Pragmatism)، حيث تناول ويليام جيمس نظرية الصدق مشيراً إلى أن الأفكار الصادقة هي التي تعين على الوصول إلى علاقات مرضية مع أجزاء خبرتنا الأخرى، وأن الصادق اسم يطلق على ما هو نافع في مجال الاعتقاد². قبل كتاب جيمس، بسط بورس من خلال بحثيه: "تثبيت الاعتقاد" و"كيف نوضح أفكارنا"³، نظريته حول البراكماتية مشيراً إلى أنه لكي نبلغ الوضوح التام في أفكارنا حول موضوع معين، فإننا لا نحتاج إلا إلى اعتبار ما قد يتحقق من آثار عملية متضمنة في هذا الموضوع. هذا الاهتمام بالنتائج والآثار العملية شكل نقطة الارتكاز بالنسبة لبراكماتية بورس، فالبراكماتية من منظوره لا تركز على مقدمات الأفكار، وإنما تهتم بالنتائج التي تترتب على الأفكار. فإذا كانت هذه النتائج مفيدة، فالأفكار صادقة. وقد انتبه بورس إلى أن ما يعتبر اعتقاداً صائباً أو فكرة صادقة بالنسبة لشخص ما، يجب أن يخضع لمحك التجربة العلمية حتى يشاهده الناس ومن ثم تثبيته (الاعتقاد) أو نفيه، وهذا من شأنه أن ينتقل بالقناعات الشخصية من ضيق الذاتية إلى سعة الكونية. وهو عكس

¹ مصطلح التجريبية (Empiricism)، مشتق من الكلمة اليونانية (Empiria)، ومنها الكلمة اللاتينية (Experientia)، ومنها الكلمتان الإنجليزية والفرنسية: (Expérience) و (Experience) اللتان تعنيان التجربة أو الخبرة.

- الموسوعة الفلسفية العربية، تحرير معن زيادة، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1988، ص 265-266
² الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل وجلال العشري وعبد الرشيد الصادق، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (د.ط)، 1963م، ص 304.

³ عنوانا البحثين الأصليان هما: "The fixation of belief" و "How to make our ideas clear".

ما ذهب إليه ويليام جيمس الذي ربط الاعتقاد بالقصد والإرادة والحرية، مؤكداً أن هناك معتقدات لا يمكن أن تخضع للتجربة العملية، مثل الاعتقاد بوجود الله، إذ ينظر فقط إلى النتائج والمنافع العملية المترتبة عن الاعتقاد، والتي يكون لها أثر في السلوك والفعل الإنساني الذي يختلف من شخص إلى شخص. وهذا ما حدا به إلى تأليف كتاب عنوانه: "إرادة الاعتقاد". ولئن تباين موقف رائدي البراكمانية بورس وجيمس حول ضرورة إخضاع كل الأفكار والآراء والاعتقادات للتجربة والملاحظة أو ربطها بإرادة الإنسان، فإنهما يُجمعان على أن أي مفهوم لا يصبح ذا معنى إلا إذا ترتبت عليه منافع وآثار عملية؛ أي إن الحكم بصدق القضية يتوقف على تحقق المنفعة التي تبدو آثارها العملية على سلوك الفرد والجماعة. وبهذا تكون البراكمانية - وفق بورس وجيمس - في تعاملها مع الاعتقادات ومختلف الموضوعات منهجا موضوعه التجربة الإنسانية، يوجه الفكر نحو إنجاز فعل له أثر عملي في السلوك الإنساني. حول هذا الإنجاز وتحول الفكرة من طور الإمكان والأحاسيس والاحتمالية إلى مرحلة الوجود والتجربة والتحقق فإنتاج المعنى، نجد بورس من خلال مفهوم السيميوزيس يبين كيف تشتغل الفكرة باعتبارها علامة ذات بعد ثلاثي. فعبر سيروية تدليلية متنامية، تحدث سلسلة من الإحالات، بحيث يحيل الممثل إلى الموضوع من خلال المؤول، الذي يتحول إلى ممثل يحيل على موضوع ديناميكي، هو الآخر نتاج فعل تأويلي يقوم به مؤول ديناميكي يمثل علامة لمؤول آخر، مساهما في تنامي السيروية التدليلية. للحد من هذه السيروية، يتدخل مؤول نهائي أول يسمى العادة التي تؤول العلامات في زمن معين وفي فئة معينة¹. هذا المؤول يرسى الدلالة، فتتوقف سلسلة الإحالات ويستقر معها التأويل استجابة لإكراهات اللغة بتعبير سعيد بنكراد، ولقوانين السياق الاجتماعي والثقافي. في هذا الصدد أشار أمبرتو إيكو إلى "أن التأويل ليس فعلا مطلقا، وإنما هو رسم لخارطة تتحكم فيها الفرضيات الخاصة بالقراءة، وهي فرضيات تُسقط انطلاقا من معطيات النص مسيرات تأويلية تطمئن إليها الذات المتلقية"².

¹ - Gerard Deledalle, Théorie et Pratique du Signe ; Introduction à la sémiotique de C.S.Peirce, éd Payot, Paris, 1979, p 120.

² - أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2000م،

2- الفلسفة التحليلية

يجمع المؤرخون أن ممارسة التحليل ابتدأت مع السوفسطائيين وسقراط وأفلاطون وأرسطو، لتصل إلى ديكارت وبيكن ولوك وباركلي وهيوم وكانط¹، قبل أن تحتفي بها كتابات مورز وراسل وفتكنشتاين الذين يعدون من رواد مدرسة كمبريدج. وإذا كان التحليل يعني فك كل مركب إلى أجزائه، فما تعريف هذه المدرسة للفلسفة التحليلية وما هي خصائصها وموضوعها؟

1-2- مدرسة كمبريدج

تعددت اتجاهات الفلسفة التحليلية وغدا معها تعذر لوجود تعريف دقيق لهذه الفلسفة، لكن هناك خصائص عامة تميز الفلاسفة التحليليين، منها:

- خاصية متمثلة في الإقرار بفعالية اللغة في الفلسفة، رغم الاختلاف حول نوع اللغة المقترحة للدراسة؛ فمنهم من يقترح لغة مصطنعة جديدة بقواعد أكثر وضوحا وتحديدا من قواعد اللغة العادية، ومنهم من يرى أن اللغات المصطنعة لا تعين كثيرا على حل المشكلات الفلسفية، مقترحين اللغة الطبيعية العادية المستعملة في التواصل؛
- خاصية متمثلة في تفتيت القضايا الفلسفية إلى أجزاء صغيرة لمعالجتها، بحيث تمكن معرفة المسائل الجزئية من الإحاطة بالقضايا إحاطة دقيقة. وهذا الاتجاه مضاد للاتجاه الشمولي الذي يسعى إلى بناء التآليفات الفلسفية الشامخة؛
- خاصية معرفية، مقصود بها اتجاه الفلسفة التحليلية نحو الكشف عن العالم الخارجي عن طريق فحصه لأجل اكتساب المعرفة؛

- تترجم كلمة التحليلية بالكلمة الإنجليزية (Analytical)، التي منها (Analysis) ومعناها فك كل مركب إلى أجزائه، ويقابلها التركيب.

¹- ينظر: الموسوعة الفلسفية العربية، المجلد الثاني، القسم الأول، ص 292.

- خاصية متمثلة في المعالجة المشتركة بين الذوات لفعل التحليل، فالفلسفة التحليلية تستعمل نوعاً من التحليل له معناه المشترك بين الذوات بالنظر إلى اللغة التي يتحقق بها¹.
لم يكن لهذا الاتجاه الفلسفي أن يحظى بالأهمية التي حظي بها ويُعَمَّرَ طويلاً لولا توفره على عنصر الجدية في طرحه لبدائل لفلسفات سابقة، وخصوصاً الفلسفة المثالية التي انتقدها مور الذي عُدَّتْ نظريته "الفهم المشترك"² - فهم مشترك للعالم - تعارضاً مع النظرة المثالية له، أي العالم. وعلى خطى مور، قام راسل بانتقاد المثالية بعدما رأى تعارضاً بين العلم والميتافيزيقا المثالية، وخصوصاً المثالية الهيكلية. وقد عُدَّ منهج راسل العلمي تطبيقاً لقاعدة "نصل أوكام" القائلة: "يجب ألا نكثر من الكيانات من غير ضرورة"؛ أي إذا كان بالإمكان الاقتصار على الأجزاء وتحليلها فلا داعي إلى افتراض المركبات.

ويبقى فتكُنشتاين الأشد انتقاداً للمثالية من مور وراسل، فمن مظاهر هذا الانتقاد أن نظريته التي تجلت في كتابه "بحوث فلسفية"، مثلث ثورة على الميتافيزيقا وعلى الفلسفة حتى. فقد توصل فتكُنشتاين إلى قناعة مفادها أن حل المشكلات الفلسفية يبدأ بالتعرف على طريق عمل اللغة واستعمالها³. والمقصود باللغة هنا هو اللغة العادية، أي لغة الحديث اليومي وليس اللغة الصورية المنطقية التي تم استخدامها استخداماً ميتافيزيقياً. وقد تجلت الملامح الفعلية للغة العادية في منهجه الذي سماه "ألعاب اللغة"، حيث إن النشاط اللغوي مقيد بالسياق، مما يعني أن معنى الأقوال يختلف باختلاف الاستعمال⁴. هذه الحركية التي تطبع اللغة العادية، أكسبتها بعداً تداولياً، إذ غدت فعلاً تؤثر في الحياة البشرية، وبدون هذه اللغة ما كان ليحصل التواصل بين الناس ولا أن يؤثر بعضهم في البعض الآخر. وبحديثنا عن دور اللغة العادية في حل المشكلات الفلسفية وتأثيرها في الحياة الاجتماعية، يكتمل الحديث عن أهم ما اقترحه

¹- محمد م. رشوان وعصام زكريا جميل، فلسفة اللغة، دار المسيرة، عمان، 11433 هـ/ 2012 م، ص 14-23.

²- ميز مور في مقاله "دفاع عن الفهم المشترك" الأقوال التي نعرف صدقها على سبيل اليقين من تحليلات أمثال هذه الأقوال التي نسعى إلى تقرير معناها التام. فالحقائق التي يدنا بها الفهم المشترك تعرض أمام الفلسفة لتقرر معناها. فالفلسفة حسب مور تنهض بوظيفة فهم الحقيقة وليس اكتشافها وهي ذات طابع علمي.

³- Ludwig wittgenstein, Philosophical Invesigation, Translated by Anscombe, G.E and edited by Anscombe and Rhees, R, Oxford, Basil Blackwell, 3 rd impression, 1963, P47.

⁴- Ludwig Wittgenstein, Philosophical Investigations, p137.

رواد مدرسة كمبردج: جورج مور وبرتراند راسل ولودفيغ فتكنشتاين الذي ألقت أفكاره حول اللغة العادية بظلالها على مدرسة أكسفورد.

2-2- مدرسة أكسفورد

شكلت النتائج التي توصل إليها رواد مدرسة كمبردج منطلقاً للبحث في قضايا اللغة العادية وبناء المعنى من قبل فلاسفة يمثلون مدرسة أكسفورد. من بين رواد هذه المدرسة، نذكر جون أوستين وبيتر ستراوسن وهيربيرت هارت وجون سورل، الذين قدموا تصوراتهم حول اللغة والمعنى، والتي أجمعت على كون اللغة تطّلع بوظائف تتعدى الوصف إلى إنجاز الأفعال، كما أجمعت على أن البحث في المعنى لا يتم بمعزل عن استحضار حال المتكلم وإكراهات السياق.

لكن ما علاقة اللغة العادية بالفلسفة؟ أو بالأحرى، كيف يمكن أن نعبر عن قضية فلسفية باستعمال لغة عادية؟ وأين يتجلى المعنى أكثر، أفي القول العادي أم في العبارة الفلسفية؟ لحل المشكلات الفلسفية ومشكلات الحياة الإنسانية دون الاستعانة بلغات اصطناعية ذات صياغة صورية وقاعدة منطقية، يؤكد فلاسفة أكسفورد أن استعمال اللغة العادية في فحص القضايا الفلسفية الكبرى يجعل المحللين يقفون على تمييزات جد دقيقة. ويجعلهم يتبينون أن العبارة الفلسفية بقدر ما تُقدّم في لغة عادية متداولة، بقدر ما تبدو أكثر وضوحاً وأقل التباساً.¹ ويبدو جلياً أن فلاسفة أكسفورد قد اقتفوا أثر مور في دفاعه عن اللغة العادية التي اعتبرها الضامن للحكم على العبارة الفلسفية بأنها صائبة؛ أي إنه يعتبر كل عبارة فلسفية تحيد عن اللغة العادية خاطئة، معتبراً الطرق الاصطلاحية وكل الطرق غير المألوفة في الحديث غالباً ما يكون خطرهما أكثر من نفعها. ولكن يبدو تأثير فلاسفة أكسفورد بفتكنشتاين أقوى من مور، إذ يعتبر الأول اللغة العادية لغة صحيحة، وليست فقط أداة يجب ألا تحيد عنها العبارة الفلسفية. إنها من وجهة نظره معيار للحكم على القضايا.² وقد تجلّى هذا التأثير من خلال تسميتهم "فلاسفة اللغة العادية"، إضافة إلى تسمية "فلاسفة مدرسة أكسفورد". لم يقف فلاسفة اللغة العادية عند الاهتمام باستعمال العبارة الفلسفية التي لها صلة بمجال اللغة العادية فقط، كما لم

1- جواد ختام، التداولية؛ أصولها واتجاهاتها، دار كنوز المعرفة، عمان، 2016، ص 38 – 39 – 40.

2- صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير، بيروت، 1993، ص 35.

يكتفوا بدراسة صنف العبارات اللغوية الخبرية، ولكنهم اهتموا أيضا بدراسة الأساليب الإنشائية.

ضمن هذه الأساليب الإنشائية تدرج نظرية أفعال الكلام، التي أسسها أوستين مضمنا مبادئها في كتابه "كيف ننجز الأشياء بالكلمات"، مبرزاً دور اللغة العادية في تأسيس المعنى التداولي من خلال الإشارة إلى الطابع الإنجازي للكلام. نشأت فكرة أفعال الكلام من مبدأ في الفلسفة اللغوية الحديثة هو أن الاستعمال اللغوي لا يعني إبراز منطوق لغوي فقط، بل إنجاز حدث اجتماعي معين أيضاً في الوقت نفسه¹. وهذا يعني أن وظيفة اللغة لا تنحصر في الوصف والتبليغ وما يستتبع ذلك من حكم على العبارة أصادقة هي أم كاذبة. ولكن اللغة تقوم بوظيفة الإنجاز، أي إنجاز الأفعال، إذ القصد من الكلام هو القيام بأفعال ينتج عنها تغيير في سلوك المخاطب، إضافة إلى تبادل المعلومات بين المتخاطبين.

إذا كانت العبارات الإنشائية الطلبية ذات طبيعة أدائية، فإنه توجد أيضاً عبارات خبرية ذات صيغة تقريرية تقوم بأفعال إنجازية، ولا تصف العالم الخارجي ولا تعينه، وبالتالي لا تخضع لمعيار الصدق أو الكذب، مثال ذلك:

1- أَلْتَزَمُ بالحضور.

2- أَعْلِنُ عن افتتاح الجلسة.

فهاتان الجملتان: (1) و(2) تقريريتان، ولكنهما لا تصفان واقعا معينا، ومن ثم لا يمكن الحكم عليهما أصادقتان أم كاذبتان. فالجملة (1) حين نتلفظ بها نكون قد أنجزنا فعلا متمثلا في وَعْدٍ يُلْزَمُنا بالحضور. والجملة (2) هي الأخرى حين يتلفظ بها متكلم، فإنه يكون قد أصدر أمرا بافتتاح الجلسة. وقد تأتي الجملة في صيغة الاستفهام وتخرج إلى أغراض أخرى، مثل التأنيب نحو قولك لشخص أساء إلى من هو أكبر منه سنا: ألا تحترم الكبير؟ ويستلزم الخروج من غرض إلى غرض آخر قيام المخاطب بتأويل الدلالة لإدراك قصد المتكلم الذي ضمن كلامه

¹ - فان دايك، علم النص؛ مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق محمد سعيد البحيري، دار القاهرة للكتاب، مصر،

معنى غير مباشر، ومن ثم تفاعلُه مع مخاطبه من خلال استجابته للفعل المتضمن في القول أو تعليق استجابته.

لم تعد إذن وظيفة اللغة منحصرة في تبادل المعلومات ووصف الواقع، وإنما أضحت تطلّع بأدوار إنجازية في التواصل بين المتخاطبين. هذا الفعل الإنجازي ينتج عنه تغيير في وضع المخاطب وتأثير في سلوكه، وهو فعل ناتج عن أثر القول يعكس مدى التفاعل بين المتلقي الذي ينهض بمهمة تأويل الدلالة لإدراك قصد المرسل والتفاعل مع رسالته، وبين هذا المرسل الذي يستهدف إحداث تغيير في وضع المتلقي والتأثير فيه من خلال إصداره كلاماً يتضمن فعلاً إنجازياً. ولأن التداولية تهتم بدراسة اللغة عند الاستعمال، أي دراسة اللغة في علاقتها بمؤوليهـا، ولأن نظرية أفعال الكلام تهتم بالفعل الإنجازي وقصد المتكلم وتأويل المخاطب، فإنها (التداولية) تنظر إلى هذه النظرية باعتبارها نمطاً تداولياً.

3 - نظرية التواصل

لا شك أن التداولية منهج لساني يدرس المعنى عند الاستعمال، أي إنه يهتم بآليات إنتاج المعنى في سياق تخاطبي تُراعى فيه أحوال المتخاطبين. ودراسة المعنى ورصد آليات إنتاجه المتعددة ليسا غاية في حد ذاتهما، وإنما فهم المعنى مدخل لإدراك قصد منتج الخطاب، ومن ثم يتحقق تواصل تفاعلي بين المتكلم والمستمع. ولهذا عُدتّ التداولية منهجاً يُعنى بأثر التفاعل التخاطبي، وعُدتّ أيضاً اتجاهاً يهتم بدراسة اللغة بوصفها ظاهرة خطابية واجتماعية وتواصلية في الوقت نفسه.

لم تعد غاية التواصل في الدراسات التداولية منحصرة في الإخبار وتبادل المعلومات، كما لم تعد اللغة التي تُستعمل في التواصل نظاماً مُغلّقا من الرموز منفصلاً عن سياق الاستعمال.¹ فدراسة اللغة عند التداوليين لا تنفصل عن دراسة السياق الذي يسع العناصر المحيطة بالخطاب وأحوال المتخاطبين النفسية والاجتماعية والثقافية. كما أن اهتمام التداولية أصبح مُنصبّاً على التأثير الذي قد يُحدثه القول الخطابي، وما يترتب عليه من تغيير في سلوك الإنسان وتعديل في مواقفه، وما يستتبع ذلك من إبداء لاستجابته لرسالة الخطاب أو تعليقه

¹ جواد ختان، التداولية؛ أصولها واتجاهاتها، ص56.

إياها. وهذا يعني أن التواصل قد ينتج عنه تفاعل مثمر بين المتخاطبين حين يبديان تعاوناً وتشاركاً بينهما، أو قد يتعذر حين يتم إقصاء العناصر السياقية المرتبطة بإنتاج الخطاب. فلكي يتحقق هذا التفاعل المثمر، يلزم التعاون بين المشاركين في العملية التخاطبية من خلال استحضار المتكلم للمخاطب أثناء إنجاز الخطاب وتوقع تأويلاته. هذا الأخير، أي المخاطب يسعى هو الآخر عبر التأويل إلى إدراك قصد مخاطبه والتفاعل مع رسالته. وتوضح أوريكيوني¹ العلاقة التفاعلية بين المرسل والمتلقي كونها تقوم على مفهوم التأثير المتبادل، أي إن المرسل لا يكتفي بإنتاج خطابه دون توقع افتراضات حول تأويلات المتلقي، وهذا ما يجعله يؤسس خطابه وفق ما يتصوره عن مخاطبه وكفاءته التداولية.

بتأكيدهما على أن المتلقي عنصر منتج للمعنى وليس مكوناً سلبياً في العملية التواصلية، تكون أوريكيوني قد قطعت مع النموذج الخطي الأحادي الذي تجلّى في الاتصال الآلي، ودشنت مرحلة جديدة من التفكير في تأسيس نظريات علمية تنظر إلى التواصل باعتباره نشاطاً تفاعلياً، وعملية بناء تشاركية تفضي إلى التأثير المتبادل بين المتخاطبين. وقد جسدت مدرسة بالو ألتو هذا التوجه نحو الاهتمام بدراسة التفاعلات البشرية، دراسة لم تعد تنظر إلى التواصل بوصفه وسيلة لنقل المعلومات فقط. فقد سعت هذه المدرسة إلى تقديم نموذج تواصل تفاعلي من خلال نظرية عامة للتواصل، تهتم بدراسة العلاقات والتفاعلات البشرية وتستحضر السياقات المقامية، وتتنظر إلى المخاطب باعتباره هو الآخر منتجاً للخطاب

- تشير أوريكيوني إلى أن المقاربة التفاعلية (L'approche interactionniste) يمكن اعتبارها تداولية من النمط الثالث، وتقصد به نظرية أفعال الكلام الأوستينية، التي يقوم فيها الفعل الكلامي أثناء التخاطب بإحداث تغيير في السلوك الإنساني ومعطيات الواقع.

"Parler, c'est échanger, et c'est changer en échangeant".

ثم تتحدث أوريكيوني عن التأثير المتبادل (L'influence mutuelle) بين المرسل والمتلقي؛ إذ في العلاقات التفاعلية، يأخذ الأول بالحسبان الافتراضات التأويلية لمخاطبه، أي إنه يتوقع هذه الافتراضات وفي ضوءها يبني خطابه.

"Parler, c'est anticiper le calcul interprétatif de l'autre".

¹-Catherine Kerbat-Orecchioni, les interactions verbales, tome 1 A.Colin, Paris,1990, PP17-25.

ومُرسلاً له في تبادل للأدوار بين المتخاطبين، مشددة على انتهاجها للمقاربة النسقية لدراسة التفاعلات البشرية، والتي من خلالها يتم معالجة الظاهرة في كليتها دون إقصاء لأي مكون من مكوناتها أو فصل بينها. وبهذا تلتقي المقاربة النسقية عند مدرسة بالو الطو والمقاربة التفاعلية عند أوريكيوني التي تنهض على فكرتي التبادل الكلامي والتأثير المتبادل، مع المقاربة التداولية حول دراسة التواصل اللغوي وتحديد أغراضه الإقناعية والتبليغية واستحضار سياق التخاطب.

4 - علم النفس المعرفي ونظرية الفضاءات الذهنية

شمل انفتاح التداولية علوماً لسانية، وشمل أيضاً علوماً معرفية تهتم بدراسة الأنشطة الذهنية وتهتم بالانفعالات والعواطف في الحياة العقلية والنفسية في تعالق بين العاطفي والعقلاني. ومن بين هذه العلوم المعرفية التي شهدت حضوراً في الدرس التداولي، نذكر العلوم العصبية وعلم النفس المعرفي الذي يعرفه سولسو بأنه "الدراسة العلمية للكيفية التي نكتسب بها معلوماتنا عن العالم، والكيفية التي نتمثل بها هذه المعلومات ونحولها إلى علم ومعرفة، وكيفية تخزينها، وكيفية استخدام وتوظيف هذه المعلومات في إثارة انتباهنا وسلوكنا"¹. فالمعلومات التي تُنقل عبر المدخلات الحسية تتحول إلى معرفة، أي يتم إعطاؤها معنى. وقبل أن تُخزّن تخضع لتأويل نهائي عبر نظام مركزي، ثم يشرع الدماغ في توظيفها، وهي المرحلة الأخيرة من مراحل اشتغال ذهن البشري التي يتم فيها إنتاج الاستجابة، أي إنتاج السلوك.

وحول كيفية اشتغال ذهن عندما يستقبل معلومات؛ نصوصاً أو بلاغات، يقدم جيري فودور تصويره من خلال تنظيره للمنظومية أو القالبية التي تكون مع نظرية الفضاءات الذهنية النظرية التداولية المعرفية. فإذا كانت نظرية الفضاءات الذهنية تنطلق من اعتبار المعاني تكوينية قبل أن تكون تأويلية، أي إنها تتكون في ذهن المتكلم قبل أن تتحقق، فإن هذه النظرية تمنحنا إمكانات تفسير الأبنية اللغوية التي يكون فيها المعنى ملتبساً. ويتم هذا من خلال ربط

¹ - عدنان يوسف العتوم، علم النفس المعرفي، النظرية والتطبيق، دار المسيرة، ط.3، 2012، ص24.

المتكلم الفضاء الذي تشكل فيه المعنى الأول المباشر بفضاء يضمّنه قصده، بحيث يكون هذا الترابط بين هذه الفضاءات في ضوء قرائن تركيبية ومقامية وثقافية واجتماعية تُمكن المخاطب من الاهتداء إلى الدلالة المقصودة وإلى المحال عليه داخل تلك الأبنية¹.

هذا عن نظرية الفضاءات الذهنية التي تشكل مع نظرية القالبية النظرية التداولية المعرفية. أما القالبية فهي نظام معرفي يتم فيه تحليل المعلومة ومعالجتها قبل أن تنتقل إلى نظام مركزي يقوم بتخزينها في الذهن. وحسب جيري فودور، فإن المعالجة للمعلومات البصرية والسمعية واللغوية في ذهن البشر تمر عبر المحوّل، فالنظام الطرفي، ثم النظام المركزي²؛ إذ تُنقل المعلومات عبر المدخلات الحسية وتترجم إلى نسق يقرأه النظام الطرفي، وتعالج هذه الترجمة في منظومة متخصصة في معالجة المعطيات التي تدركها الحاسة التي نقلت المعلومات. وهنا يحدث تأويل أولي لهذه المعطيات، ثم يتم ربط المدركات المعالجة بالمقاصد والخلفيات - المعارف الخلفية المخزنة في الدماغ - للحصول على تأويل نهائي، وهذا يحدث في مستوى النظام المركزي³.

مع علم النفس المعرفي يتم تحقيق إنجازات هامة في الكشف عن النشاطات المعرفية، وكيفية اشتغال الدماغ باعتباره مجالا للعمليات العقلية التي ينتج عنها الفهم والتحليل ثم التأويل. وإذا استحضرنّا النتائج التي تمدنا بها نظرية الفضاءات الذهنية إلى جانب النتائج التي حصّلناها نتيجة استثمار مفهوم القالبية، بحيث تراعى في إنتاج الخطاب نفسية المتلقي الذي يسعى إلى إدراك مقاصد منتج الخطاب عبر انتهاجه سبيل الاستدلال والتأويل، تبين لنا أن كل هذا يدخل في صلب انشغالات التداولية المعرفية التي تنظر إلى الخطاب باعتباره تواصلا لغويا وتفاعلا إنسانيا، يسعى من خلاله المخاطب عبر عمليات ذهنية استدلالية إلى إدراك

1- لطفي الذويبي، "قدرة نظرية الفضاءات الذهنية على تأويل الأبنية اللغوية"، العلامة، العدد الثالث ديسمبر 2016، ص15.

2- حسب سبربر وويلسن، فإن اللسانيات (علم الأصوات وعلم التركيب وعلم الدلالة) توافق المنظومة الطرفية المختصة بمعالجة المعطيات اللغوية، بينما التداولية تندرج ضمن النظام المركزي الذي يتكفل بالتأويل. ونشير إلى أن الباحثين في ما بعد، أصبحا يتحدثان عن القالبية المعممة، نافيين وجود نظام مركزي.

3- آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم؛ علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني،

مراجعة لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2003، ص 73-74-75.

مقاصد المتكلم ونواياه. وهذا ما مهد لتأسيس نظرية المناسبة أو الصلة التي تعد مبحثا رئيسا من مباحث التداولية.

5 - تصنيف الأنماط التداولية

لم يكن للتداولية أن تنال قسطا وافرا من الاهتمام لولا اتسامها بالخصوبة والجدة والليونة الناتجة عن الانفتاح على أكثر من حقل معرفي ولساني، واستيعابها لمقولات متعددة، وجهاز مفهومي ثري. وقد شكل هذا التنوع في الاسترفاد من الحقول المتعددة مصدر ثراء وخصوبة لحقل التداولية، كما أنه أثار إشكالا بين الدارسين حول تصنيفها. فمنهم من عدّها مكونا لسانيا مستقلا، ومنهم من أدمجها في علم الدلالة تحت مسمى التداولية المدمجة، ومنهم من عدّها تداولية عامة مَوْسَّعة ذات مستويات ثلاثة هي التركيب والدلالة والتداول. وهي أيضا من منظور آخر تداولية معرفية، في إشارة إلى حضور العلوم المعرفية في الدرس اللساني. تأسيسا على ما ذكرناه، يبدو جليا أن هناك أنماطا تداولية متعددة ولا توجد تداولية واحدة فقط. وإذ نورد التداولية في صيغة التعريف بالألف واللام (ال)، فإننا نقصد بأداة التعريف تلك التي تفيد استغراق الجنس، بحيث تشمل كل خصائص التداولية وأنماطها. وبالتالي فالمقصود بالتداولية التيار الفكري الذي تتفرع عنه اتجاهات لسانية وتصورات معرفية تمثل أنماطا تداولية مختلفة. وقد خضعت هذه الأنماط لتصنيفات متعددة من قبل مهتمين بالدرس اللساني التداولي. سنقتصر على عرض بعض التصنيفات التي قَدَرْنَا أنها تُغْنينا عن عرض البعض الآخر نظرا لإيفائها بالمطلوب.

5-1- تصنيف جيوفري ليتش

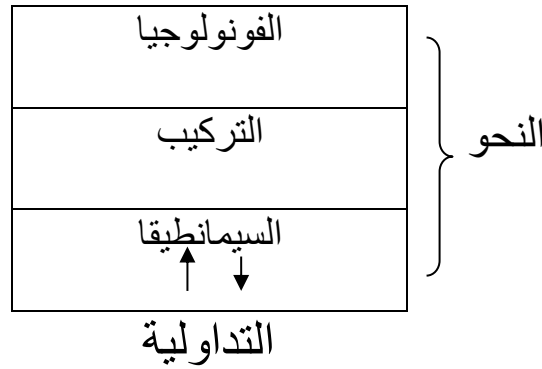
لَحَّصَ ليتش في كتابه "مبادئ التداولية" أَبْرَزَ اتجاهات التداولية، فجعلها ثلاثة¹:

- أ- **إِتْجَاه دَلَالِي**: ينظر إلى التداولية باعتبارها جزءا من الدلالة، فهو يختزل الأولى في الثانية، وبهذا يمكن القول إنه ذو منزع دلالي؛
- ب- **إِتْجَاه تَكَامِلِي**: يقف هذا الاتجاه وسطا بين المستويين الدلالي والتداولي، فهو يركز على الطابع التكاملي بين الإثنين؛

¹ - جيوفري ليتش، مبادئ التداولية، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، 2013، ص15.

ج- اتجاه تداولي: يُعدُّ هذا الاتجاه نقيضاً للأول، إذ الدلالة جزء من التداولية.

وبهذا فالتداولية من منظور ليتش لا تتنكر للدلالة. وإذا علمنا أن هذا الباحث قد أسس نظرية تكاملية تجمع بين الحقل التداولي والحقل النحوي الذي يسع الفونولوجيا والتركيب وعلم الدلالة، وأنه يرى أن إدراك معنى المتكلم ينطلق من البحث في العلاقة بين المعنى النحوي للملفوظ ودلالته التداولية، أي بين المعنى المباشر وقوة فعل الكلام (الفعل الإنجازي)، تَبَيَّن أن التداولية تتكئ على علم الدلالة، وتتفاعل مع النحو¹ بواسطة الدلالة. وإليك رسماً تخطيطياً اقترحه ليتش يبين تفاعل النحو مع التداولية بواسطة علم الدلالة.²



وقبل الحديث عن العلاقة بين النحو والتداولية، كان ليتش قد أشار إلى أن هذه التداولية المرتبطة بالنحو تشكل مع التداولية المجتمعية المرتبطة بعلم الاجتماع التداولية العامة. فإذا كانت الأولى تنطلق في البحث عن المعنى من العلاقة بين المعنى المباشر للملفوظ وقوة الفعل الكلامي، فإن الثانية تمثل "السطح التوسطي الاجتماعي للتداولية"³. ويتعلق الأمر هنا بالشروط المجتمعية الخاصة بالثقافات المختلفة التي تُقَدِّم التأييلات "بالمعطيات التحاورية المحلية"⁴.

¹- يشمل النحو، عند ليتش، الفونولوجيا التي هي علم وظائف الأصوات، والتركيب ثم علم الدلالة.

²- جيوفري ليتش، مبادئ التداولية، ص 23.

³- نفسه، ص 21.

⁴- نفسه.

2-5- تصنيف آن روبول وجاك موشلار

ميّز موشلار وروبول بين ثلاثة أنماط من التداولية¹، هي التداولية الأصلية التي تسمى أيضا التداولية الكلاسيكية أو الخطية، والتداولية المدمجة، والتداولية المعرفية أو الإدراكية:

أ- فأما **التداولية الكلاسيكية**، فترجع أصولها إلى تقاليد الوضعية المنطقية في تحليل اللغة التي تتجلى في كل نظام من العلامات تختص السيميائ بدراسته. فالتركيب يُعنى بدراسة العلاقات بين وحدات اللغة، وعلم الدلالة يُعنى بدراسة العلاقات بين العلامات ومراجعتها، بينما تدرس التداولية علاقة العلامات بمؤوليتها. وبالتالي فإن هذه التداولية منفصلة عن علم الدلالة، وتهتم بالسياق التخاطبي.

ب- وأما **التداولية المدمجة**، فهي تداولية مدمجة في علم الدلالة، تصل المكون اللساني بالمكون البلاغي - خارج اللساني - الذي ينتج عنه معنى الملفوظ الذي يوطره السياق.

ج- وأما **التداولية المعرفية**، فتُعنى بالعمليات الاستدلالية التي تتم في الأنظمة غير القالبية. فمن منظور سبربر وويلسن، تتم المعالجة التداولية في هذه الأنظمة بحيث تترسخ الفرضيات، وتظفر الملفوظات بتأويل تام ونهائي. ومن بين النظريات التي تمثل هذا النمط التداولي غير اللساني، نظرية المناسبة (الملاءمة، الصلة...).

سبق التصنيفين المذكورين تصنيفات أخرى، من أهمها تصنيف هانسون الذي ميز بين ثلاث درجات مختلفة للتداولية حسب طبيعة سياقها. فتداولية الدرجة الأولى تعنى بدراسة الإشارات أو المعينات ضمن سياق الحديث، وتتناول هذه الدراسة نظرية التلفظ عند بينفنست. وتهتم تداولية الدرجة الثانية بالمقاصد وكيفية انتقال المعنى من الدلالة التصريحية إلى الدلالة الضمنية. لهذا نجدها تحتفي بظواهر خطابية منتجة للمعنى، من قبيل الافتراض المسبق والقول المضمر والاستلزام التخاطبي. وإذ يهتم هذا النمط بمقاصد المتخاطبين، فإن السياق يتسع ليشمل ما هو نفسي، أي ما يتعلق بالاعتقادات والنوايا. إضافة إلى هذين النمطين، يوجد نمط

¹ - J. Moschler et Anne Reboul, Dictionnaire Encyclopédique de Pragmatique, Seuil, Paris, 1994, p 36-37.

متعلق بتداولية الدرجة الثالثة ويعنى بدراسة الأفعال الكلامية. لم نوسع دائرة البحث أكثر لتشمل اقتراحات باحثين آخرين، بل اقتصرنا على تصنيفات بعضهم لا اعتقادنا أنها تمثل مجمل ما تدور من تصنيفات للأنماط في ساحة البحث عن تفرعات التداولية. كل هذه الأنماط وغيرها من المباحث والمفاهيم سنتناولها بالتفصيل في المبحث التالي.

6 - النظريات التداولية

6-1- نظرية التلفظ

من بين النظريات التي احتضنتها التداولية واستثمرت مفاهيمها في مقارنة الخطابات، نجد نظرية التلفظ التي تهتم بلحظة إنتاج الخطاب، أي بفعل التلفظ الذي ينتج عنه ملفوظ وهو "متوالية لغوية تامة صادرة عن متكلم ما"¹. هذا الملفوظ يمثل الشاهد الحقيقي على التلفظ²، الذي يفترض وجود متكلم وسماع وتحديد زمان التلفظ ومكان حدوثه للإحالة إلى كل هذا بعناصر إشارية لا تكتسب معانيها إلا داخل سياق التلفظ.

6-1-1- مفهوم الإشارات وإشكال المصطلح

تهدف المقاربة التلفظية إلى دراسة الخطاب في ضوء المعينات الإشارية التي تساهم في تحيين فعل التلفظ، ولا تأخذ معناها إلا داخل سياق التلفظ والتواصل. ويراد بالمعينات لغة الإشارة والتحديد والتعيين والعرض والتمثيل³. تترجم الإشارات بـ (Déictiques)، وهذه الكلمة مشتقة من الكلمة اليونانية (Deiktikos)، وتعني مجموعة من المرجعيات الإحالية المبنية على شروط التلفظ الخاصة وظروف إنتاجه، مثل هوية المتحدث وفضاء التلفظ وزمانه (أنا، الآن، هنا). وهذا يعني أن كل ملفوظ يستوجب استحضار متكلم وسماع ومكان التلفظ وزمانه. إضافة إلى ظرفي المكان والزمان وضمائر الشخص، شملت الإشارات أسماء

¹ - J. Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, éd. Larousse, Paris, 1994, p191.

² - C.K - Orecchioni, L'Enonciation ; De la subjectivité dans le langage, éd. Armand Colin, Paris, 1980, p30 .

³ -- J.Lyons, Sémantique linguistique, éd. Larousse, col. Langue et langage, Paris 1980, p261.

الإشارة والأسماء الموصولة وصيغ القرابة، هذه العلامات تتمظهر لسانيا في بنية الخطاب وقد تضرر. وهي ترتبط بلحظات فعل التلفظ، أي حين تُستعمل اللغة من لدن المتكلم الذي يفترض حضوره حضورَ المخاطب، وهذا ما يجعل النظرية التلفظية في قلب اهتمام التداولية¹. ولتوضيح هذا نقول إن المتكلم حين ينطق لفظة "أنا"، يكون قد فرض إجابة على غيره بوضعه شخصا مقابلا يمثل "أنت". وتقوم ضمائر المتكلم المتصلة والمنفصلة بتحويل العلامات اللغوية من مجال اللغة إلى مجال الخطاب، الذي يستدعي على الأقل حضور عنصرين يقومان بعملية تخاطبية. في هذا الصدد، يقول مانكونو: "عند استعمال (أنا) و(أنت) عن طريق الاستدراك، فإن كل متكلم يُسند نظام اللغة لفائدته، وهذه النقطة مهمة جدا؛ ف (أنا) و(أنت) ليستا علامتين لغويتين لنمط خاص من الإشارات، ولكنهما قبل كل شيء عوامل لتحويل اللغة إلى خطاب"². لا تقتصر الإشارات على وظيفة تحويل اللغة إلى خطاب فقط، ولكن تعمل مع أدوات التماسك النصي على تلاحم الخطاب وتحقيق انسجامه، وتوظف أيضا لتفادي خرق قانون الاقتصاد اللغوي وعرقلة العملية التواصلية³.

تُطلق عدة مصطلحات على الإشارات، منها "القرائن السياقية" و"القرائن الواصلة" و"الوحدات المؤشّريّة" و"المعيّنات"... وهي مصطلحات مرتبطة بسياق التلفظ تحيل إلى الأشخاص وزمان التلفظ ومكانه. كان العرب القدامى يطلقون على هذه الوحدات التعيينية لفظ المبهّمات، لكونها أشكالا فارغة "لا تكتفي بذاتها في دلالتها، مما يجعل من الضروري العودة إلى ما تشير أو تحيل عليه من أجل تأويلها"⁴. ومن الدارسين الجدد الذين اهتموا بالإشارات، نجد محمد مفتاح في كتابيه: "في سيمياء الشعر القديم" و"تحليل الخطاب الشعري"⁵. وبرز

¹ - C.K.Orecchioni; L'énonciation ; de la subjectivité dans le langage, p 40 – 54.

² - D. Mangueneau, Approche de l'énonciation en linguistique Française, éd. Hachette, Paris, 1981, p34.

- تؤكد أوريكيوني ما ذهب إليه مانكونو بقولها:

³ - "Les unités déictiques ont ainsi pour vocation, tout en appartenant à la langue, de la convertir en parole". C.K.Orecchioni, L'énonciation ; de la subjectivité dans le langage. p55.

⁴ - محمد الأخضر الصبحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، ص 89-90.

⁵ - محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري؛ استراتيجية التناس، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1992، ص 152 – 157.

في هذا الموضوع محمود أحمد نحلة من خلال كتابه "آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر".¹

6-1-2- أنواع الإشارات

6-1-2-1- الإشارات الشخصية

يقصد بالإشارات الشخصية الضمائر المنفصلة والمتصلة وضمائر الملكية، وهي دالة على المتكلم أو المخاطب أو الغائب، ويمثل ضمير المتكلم مرتكز العملية التخاطبية، فهو مصدر التلفظ. في هذا الصدد، يشير بينفست إلى أن (أنا) هي من تخلق (أنت)، إذ يصبح الضمير (أنت) صدى للضمير (أنا). هذان الضميران يشترطان حضور صاحبيهما، في حين أن ضمير الغائب لا يشترط حضور صاحبه لحظة التلفظ. يمكن القول إذن إن الضميرين (أنا) و(أنت) ذوا طبيعة ذاتية يحيلان على واقعة كلامية ودلالاتهما مرتبطة بسياق التلفظ. ويدل حضور (أنت) على المشاركة في الخطاب، سواء أكان هذا الحضور عينياً أم افتراضياً، وهذه المشاركة تدل على تحقق غرض تداولي. لا يختص ضمير المتكلم بالضمير المفرد (أنا)، ولكن يشمل أيضاً ضمير المتكلم الجمعي (نحن)، الذي يدل استعماله على استحضار المخاطب إن كان غائباً، كما قد يدل على حضوره لحظة التخاطب، وينهض هذا الضمير الجمعي (نحن) بوظائف متعددة، منها الإحالة والحجاج.

6-1-2-2- الإشارات الزمانية

يعنى بالإشارات الزمانية العلامات اللسانية التي تقوم بتعيين زمان التلفظ الذي هو الزمان المركزي للخطاب أو مركز الإشارة الزمانية فيه، والذي في ضوءه يفصح الخطاب عن وجهته، فيزول الالتباس والغموض لدى المتلقي ويحصل التواصل مع المتكلم والتفاعل مع خطابه. تحيل الإشارات إلى الزمان الماضي والزمان الحاضر كما تحيل إلى الزمان المستقبل، ومن بين هذه الإشارات التي تدل على الأزمان الثلاثة، نذكر "الآن"، و"أمس"، و"غدا"، و"هذا الصباح"، و"مساء"، و"العام المقبل"، كل هذه الإشارات وغيرها تتحدد

¹ - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2002، ص 15-26.

دلالاتها بزمان التلفظ، أي بالزمان المركزي. وقد تتسع دلالة بعض هذه الإشارات في التعبير عن الزمان، فيلجأ المخاطب إلى السياق الثقافي أو النفسي لاستجلاء قصد المتكلم.

3-2-1-6- الإشارات المكانية

يُقصد بالإشارات المكانية الوحدات المعجمية التي تشير إلى المكان الذي صدر فيه كلام الخطيب. وتحدد دلالات الإشارات المكانية بسياق التلفظ، إذ تتضح الدلالة من خلال تعيين مرجع داخل الفضاء الذي تحقق فيه فعل التلفظ، وبالتالي فإن هذا التعيين يساعد المخاطب في تحديد المواقع مما يسهم في الاقتراب من إدراك مراد المتكلم. ويمثل المكان الذي يصدر منه الخطاب المركزَ الإشاري المكاني، الذي ينتج عن إدراكه من قبل السامع فهمٌ دلالات العناصر الإشارية المكانية الواردة في الخطاب، وبالتالي يسهل التواصل ويتحقق التفاعل مع المتكلم من خلال إدراك قصده. وتتمثل هذه الإشارات المكانية في وحدات معجمية، مثل "هنا" و"هناك" و"هناك" و"قريبا من" و"بعيدا عن" و"أمام" و"وراء" و"تحت" و"فوق" و"يسارا" و"يمينا"، وغير هذه من الوحدات التعيينية التي لا تكتسب دلالاتها إلا عند الاستعمال، والتي تساهم في بناء المعنى وفهم الخطاب ومعرفة قصد المتكلم.

4-2-1-6- إشارات أسماء الإشارة

تعتبر أسماء الإشارة وحدات ذات طابع إحالي، إذ تحيل على أشخاص أو على أشياء في الواقع أو في الذهن. هذه العناصر قد تكون لها مرجعية بسياق النص، حيث تقوم بتمثيل الموضوع أو لها مرجعية بموقف التواصل، فهي من الإشارات التعيينية. وتوضح أوريكيوني هذه الفكرة بقولها إن أسماء الإشارة تكون سياقية نصية إذا كان المشهد مقروءا، وتكون سياقية إشارية إذا كان المشهد مرئيا¹. وتتمثل أسماء الإشارة في "هذا" و"هذه" و"ذلك" و"تلك"

¹ - C.K.Orecchioni, L'énonciation, De la subjectivité dans le langage, p 44-45.

- L'adjectif démonstratif est contextuel, et non pas déictique.

- تفرق أوريكيوني بين أسماء الإشارة التي قد تحيل فقط إلى داخل النص (السياق النصي)، وبين التي تحيل إلى خارج النص، وهي التي تسمى "الإشارات" (Déictiques). وهو ما يستشف من قولها:

"L'adjectif démonstratif est contextuel, et non pas déictique".

و"هذان" و"هاتان" و"هؤلاء" و"أولئك"، وغير هذه من الوحدات الدالة على الإشارة. كل هذه العناصر تقوم بوظائف متعددة، منها التعيين والاتساق وتحقيق الإيجاز من خلال تحقيق الاقتصاد في اللغة، إضافة إلى المساهمة في بناء المعنى.

3-1-6- إجماع على الوظائف وتباين حول الماهية

تقاربت آراء الدارسين بخصوص الوظائف التي تنهض بها الإشارات، ومنها تحيين الخطاب، والإسهام في تماسك النص-الخطاب وانسجامة، وتيسير سبل التواصل، إذ تسهم الإشارات في تحقيق مبدأ الاقتصاد اللغوي، وبالتالي تجعل الخطاب أكثر اختصاراً. إضافة إلى حضور هذا البعد الجمالي، تقوم الإشارات بتحديد المراتب الاجتماعية للمتخاطبين. فمخاطبتك الشخص باستعمال لفظة "أنت" هي غيرها عند تعيينك إياه بـ"أنتم". هذا إلى جانب الوظيفة الحجاجية عند استعمال المتكلم ضمير الجمع "نحن" و"أنتم" وضمائر الاتصال، مثل "نا" و"كم"، إذ قد يتوخى المتكلم من خلال استخدام هذه الضمائر إشعار المخاطب بوحدة المصير مثلاً، أو إشعاره بأنه عنصر فاعل ومشارك وليس ذاتاً سلبية تكتفي باستقبال الخطاب، مما يخلق لديه الرغبة في التفاعل والاستجابة لمطالب المتكلم.

ولئن لم يحصل خلاف بين الدارسين حول وظائف الإشارات، فقد تباينت آراؤهم بخصوص طبيعتها. فبينما يرى بينفست أن الإشارات أشكال فارغة لا تكتسب معانيها إلا بصلتها بموضوع تمثله، أي إن الضمير خارج الخطاب ليس سوى شكل فارغ ليس بمقدوره الارتباط بأي موضوع ولا بأي مفهوم¹، نجد الباحثة أوريكيوني تشدد على أن الإشارات لا تخلو من دلالة حتى قبل تحيين الخطاب، مدلة على ذلك أنه بالإمكان ترجمتها في المعاجم المزدوجة، وقد خصت بالذكر الضمائر الشخصية². وسيتمد الاختلاف مع بينفست حول طبيعة الضمير إلى قضايا أخرى مثل "التعالي"، وتصنيف الإشارات الزمانية التي قسمتها أوريكيوني إلى أربعة أقسام، هي الإشارات التزامنية "الآن"، والقبلية "الأمس"، والبعدية "غدا"، والحيادية "اليوم، هذا الصباح".

¹ - Emile Benveniste, "le langage et l'expérience humaine", in Problèmes du langage, éd. Gallimard, Paris, 1966, p 4 -13.

² - Orecchioni, L'Enonciation; De la subjectivité dans le langage, p37.

لم يسلم حصر بينفست للطابع الذاتي في الضمير "أنا" وإصاق الموضوعية بضمير الخطاب "أنت"، من انتقادات أوريكيوني التي قالت إن الذاتية قد تتجلى في ضمير المخاطب، كما قد تظهر مع ورود ضمير الغائب. ولم ينج أيضا بول ريكور من رد فعل أوريكيوني التي قالت إن هذا الأخير خلط بين المعنى والمرجع، وأن مرجع الوحدة الإشارية هو الذي يتغير تبعا للموقف، وليس المعنى الذي يظل ثابتا من وضع لآخر. ومعلوم أن ريكور كان قد صرح بأن الضمير "أنا" لا يكون له معنى إلا حين يحصل التلفظ، أي حين يتكلم أحد ويشير إلى ذاته من خلال قوله "أنا".

2-6- نظرية أفعال الكلام

ترى نظرية أفعال الكلام أن الأقوال التي نتلفظ بها لا تصف حالة الأشياء فحسب، ولكنها أيضا تنجز أفعالا وتنشئ أحداثا. وقد اهتدى جون أوستين إلى التمييز بين الأقوال التقريرية والأقوال الإنشائية بعدما لاحظ أن عبارات من قبيل "بعثك سيارتي" و"لا تسافر" و"ارحل"، لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو بالكذب، على خلاف القول الخبري، وأنه ينتج عن التلفظ بها تحقيق أفعال متمثلة في وعد بالبيع يترتب عليه تسليم السيارة بعد استيفاء شروط البيع، ومتمثلة في النهي عن السفر، وفي الأمر بالرحيل وما قد يستتبع هذا من القيام بأعمال.

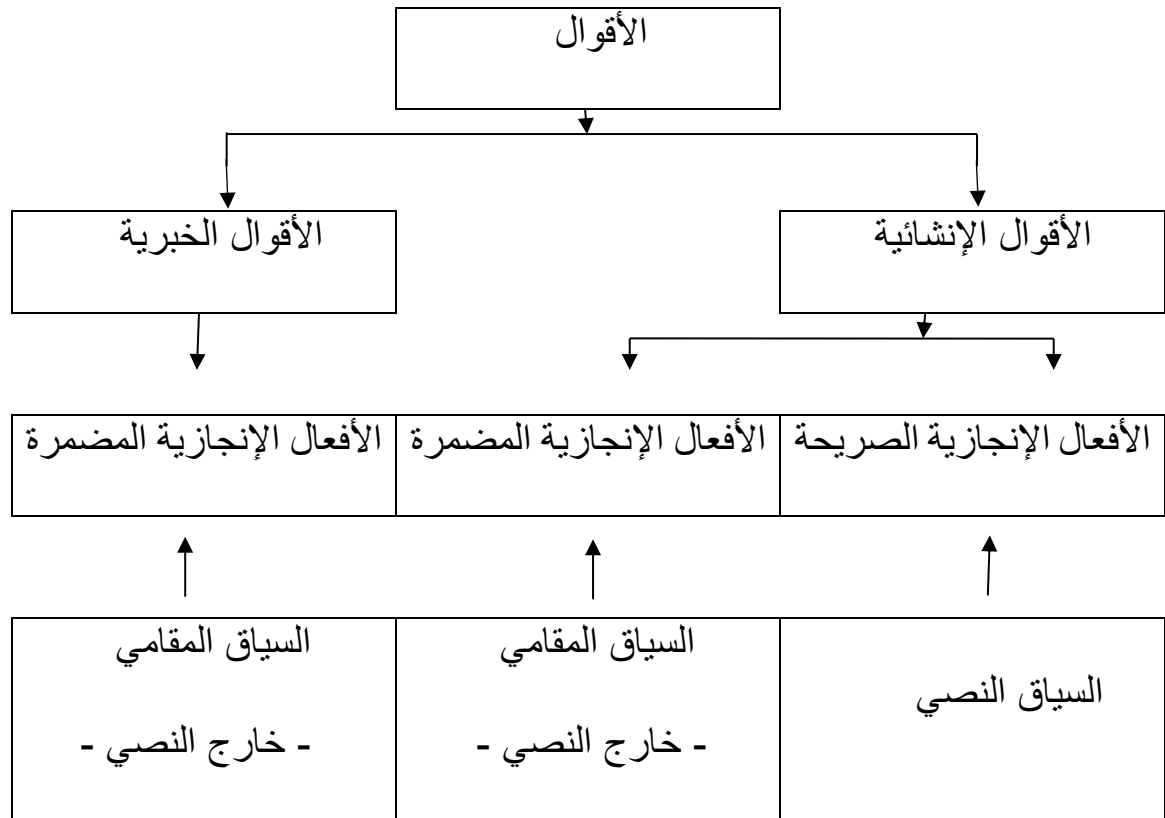
1-2-6- مفهوم الفعل الكلامي وأقسامه

تنضوي هذه الأساليب الإنشائية الطلبية منها وغير الطلبية تحت مسمى الأفعال الكلامية لكونها حققت أفعالا بمجرد التلفظ بها. وحين يترتب على هذه الأفعال إنجاز وضعيات جديدة، كأن يُستجاب للنهي مثلا في "لا تسافر" فيمكث المخاطب في داره، فإن هذا يعني أن الفعل الإنجازي قد تم بنجاح. ولكن حين لا يُنجز الفعل، كأن يتراجع صاحب السيارة عن التزامه بالبيع (بعثك سيارتي)، فإن أوستين يصف هذه الملفوظات عند عدم إنجاز ما هو قابل للإنجاز بالإخفاقات. ويطلق على الحالة التي يكون فيها المتلفظ غير صادق فيما تلفظ به، أو حدث سوء نية في إتمام الفعل، يطلق أوستين على هذا الوضع اسم الخروقات.

وقد رصد هذا الأخير ضروب عدم الصدق على مستوى الإحساس، كالقول "إنني أحبك" وأنا أضمر لك العداء. وعلى مستوى التفكير، كأن يعتمد الرجل إلى القول "إنني على

يقين أن هذا المرشح نزيه"، وهو يعلم أنه متورط في ملفات اختلاس المال العام. وعلى مستوى النوايا، يدرج أوستين مثال الذي اعتراه سوء النية واحتمل غير قصده حين يقول: "إني أعد" مع أنه لا ينوي أن ينجز ما وعد به¹. بعد أن أفرد قسطا وافرا من الاهتمام بالملفوظات الإنشائية، التفت أوستين إلى الملفوظات التقريرية، فلفت الانتباه إلى أن هذه الأخيرة تتضمن هي الأخرى أفعالا إنجازية مضمرة. وبهذا يوسع من دائرة الملفوظات الإنجازية لتشمل العبارات التقريرية والإنشائية معا. وقد قاده التأمل في بنية الجملة الخبرية ومضمورها إلى التمييز بين صنفين من الأقوال: أقوال إنجازية صريحة، وهي أفعال دالة على زمن الحاضر ومرتبطة بفاعل مفرد، مثل "أنصحك"، وصنف ثان هو الأقوال الإنجازية المضمرة يتوسل فيها بالسياق لتحقيقها. وبعد هذا التمييز، ينتقل أوستين إلى تقسيم الأفعال الكلامية إلى ثلاثة أفعال: فعل القول وهو التلفظ بالخال، والفعل الإنجازي وهو الفعل المتضمن في القول الذي يقصده المتكلم والذي يمارس عبره قوة على المخاطب، ثم الفعل التأثيري وهو الفعل الناتج عن أثر القول، أي التأثير الذي يتركه الفعل الإنجازي في المتلقي كالاقتناع بنصيحة، أو الامتنال لأمر... هذا الفعل الإنجازي سيخضع لتصنيفين مختلفين من لدن جون أوستين وجون سورل، لكن قبل عرض التصنيفين، دعنا نقدم خطاطة نرصد من خلالها انبثاق الأفعال الإنجازية من الأقوال الإنشائية والأقوال الخبرية وعلاقتها بالسياق.

¹ - جون لانغشو أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة؛ كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، المغرب، 2008، ص 56-57.



من خلال هذه الخطاطة، يتبين أن الفعل الإنجازي متضمن في القول الإنشائي ومتضمن أيضا في القول الخبري. ونلاحظ كذلك أن السياق النصي يتكفل بإبراز الفعل الإنجازي المباشر، في حين يُحتاج لانتزاع الفعل الإنجازي المضمّر إلى السياق المقامي، بحيث إن المخاطب يلجأ إلى التأويل لإدراك المعنى المضمن في القول، وبالتالي الاقتراب من قصد المتكلم.

6-2-2- الفعل الإنجازي وأنماطه

خضع الفعل الإنجازي الذي هو فعل متضمن في القول إلى تصنيفين مشهورين من لدن أوستين وتلميذه سورل الذي تدارك على أستاذة عدم تمييزه بين الأفعال الإنجازية التي لها استعمال تأثيري والتي ليس لها هذا الاستعمال. هذا إلى جانب عدم الاهتمام بعنصر القوة وتفاوت درجاتها من فعل إنجازي لآخر.

6-2-1- تصنيف الفعل الإنجازي عند أوستين

قسم أوستين الفعل الإنجازي إلى خمسة أنماط رئيسة¹، هي:

- أ- **الحكميات:** وهي أفعال حُكمية، مثل الحكم والتقدير والإدانة والالتهام...
- ب- **التنفيذيات:** وهي أفعال تتعلق بممارسة السلطة وتنفيذ الأحكام، مثل أفعال التعيين والإعفاء والأمر والتحذير.
- ج- **الوعديات:** وهي طبقة أفعال الوعد، يلزم بها المتكلم نفسه مثل الالتزام والتعهد والقصد والنية والوعد.
- د- **السلوكيات:** ويتعلق الأمر هنا بأفعال السلوك الاجتماعي للمتكلم والأعراف المجتمعية، مثل الاعتذار والتهنئة والشكر والذم.
- هـ- **العرضيات:** وهي أفعال العرض، يعرض فيها المتكلم رأيه ويدلي حججه، مثل قوله: أثبت وأحتج وأشرح وأوضح.

ينتهي تصنيف الأفعال الإنجازية باعتراف أوستين نفسه أنه غير راض عن أي نمط من الأصناف الخمسة، وذلك لأن كل صنف بإمكانه أن يصنف إلى أقسام. وقد أبدى أوستين ملاحظات حول تصنيفه حتى قبل أن ينشر عمله. تمثلت بعضها في وجود علاقات بين الصنفين الأولين، أي أفعال الحكم وأفعال الأمر التي تعرف أيضا بأفعال الممارسة والتنفيذ. وتمثلت أيضا في تداخل الصنفين الأخيرين المتعلقين بأفعال السلوك وأفعال العرض، مشيرا إلى أن تصنيفه ليس نهائيا. ولقد أخذ سورل على أوستين عدم قيام تصنيفه على أسس ثابتة وواضحة، إذ يكتنفه الغموض. فقد لاحظ أن تحديد معالم أفعال السلوك غير كاف ولا ينهض على مبدأ، وكذلك الأمر مع الأنماط الأخرى مستثنيا أفعال الوعد. وقد قام سورل بعد انتقاده لأوستين باقتراح تصنيف للأفعال الإنجازية في كتابه "معنى وعبرة".

2-2-2-6- تصنيف الفعل الإنجازي عند سورل

قسّم سورل هو الآخر الفعل الإنجازي إلى خمسة أصناف مع ذكر غاية كل فعل من الأفعال الإنجازية، وإليك تصنيفه:

¹ - جون أوستين، نظرية أفعال الكلام، ص 186 - 187.

أ- **التقريرات:** وغايتها الكلامية تكمن في جعل المتكلم مسؤولاً حين يتعهد بالقيام بأشياء معينة، وتشمل هذه الأفعال التأكيد والوصف والتحديد، وهي تقبل معيار الصدق والكذب. ويرى سورل أن هذه الأفعال تشمل كثيراً من الأفعال الحُكمية والأفعال العرضية عند أوستين¹. ومن الأمثلة التي تندرج ضمن هذه الفئة من الأفعال توجد الشكوى والافتخار ...

ب- **التوجيهيات:** وغايتها حمل الشخص ودفعه إلى القيام بفعل معين، وتشمل الأمر والنهي والطلب.

ج- **الالتزاميات:** وغايتها إلزام المتكلم نفسه بالقيام بشيء ما. نسجل هنا أن سورل قد أقر بأن أوستين قد أحاط هذه الأفعال بذكر غايتها، وهو بهذا يجعل تعريفه لأفعال الوعد مطابقاً لتعريف أستاذة.

د- **التعبيريات:** وتتمثل في التعبير عن حالة نفسية، مثل الاعتذار والفرح والتهنئة والحزن والتعزية. هذا الصنف من الأفعال يكاد يتطابق مع صنف السلوكيات عند أوستين.

هـ- **التصريحيات:** وغايتها إحداث تغيير عن طريق الإعلان، وتشمل الأفعال الدالة على الإعلام والإخبار. وهذه الفئة من الأفعال مرتبطة بوجود مؤسسات خارج لسانية مثل المحكمة والإدارة تقوم بإنجازها. ومن الصيغ الواردة في هذا الباب، نذكر عبارة "أنت مفصول" التي محتواها القضوي يصبح متحققاً في الواقع حين يتلفظ بها مسؤول إداري.

يرجع سورل اختلافه مع أوستين حول تصنيف أفعال الكلام إلى كون هذا الأخير لم يورد غايات الأفعال الإنجازية، إضافة إلى أنه لم يعر عنصر القوة للفعل الإنجازي أهمية، إذ يترك فعل "طَلَبَ" أثراً ليست هي نفسها التي يتركها فعل "أَمَرَ"². ويرى سورل أن أستاذة لم يأخذ بالاعتبار عند التصنيف معيار الاختلافات في اتجاه المطابقة بين الكلمات والعالم أو

¹ John.r. Searle, Sens et expression ; études de théorie des actes de langage, tra. Joëlle Proust, éd. Minuit, Paris 1982, p.52-53.

² -- "Le but illocutoire des demandes est le même que celui des ordres: Les unes et les autres cherchent à faire quelque chose à l'auditeur. Mais il est évident que la force illocutoire est différente d'un cas à l'autre". "Sens et expression", p41.

الواقع، وذلك لأن الوجهة الإنجازية للأفعال الكلامية نحو تحقيق الغاية ليست على نمط واحد. فافعال الأمر مثلا تعمل على إخضاع الواقع للقول، أي إن اتجاه المطابقة يكون من الواقع إلى القول، في حين أن الأقوال التي تقوم بوظيفة الإخبار تجعل القول مطابقا للواقع أو للعالم الخارجي، بحيث إن الاتجاه يكون نحو هذا الأخير. ومن القضايا التي خالف فيها سورل أستاذة، اعتبار هذا الأخير كل فعل إنجازي فعلا تأثيريا. فسورل لا يقر هذا بشكل نهائي، وإنما يقول بأن الأفعال الإنجازية ليست كلها أفعالا تأثيرية، مدلا على ذلك بأفعال من قبيل "هدد"، الذي لا يترك أثرا في نفس السامع.

نسجل هنا رأينا المخالف لطرح سورل بخصوص انتفاء الأثر عن بعض الأفعال الإنجازية، مؤكدين أن نظرية أفعال الكلام التي هي نظرية عمل وأثر عند أوستين تسع كل الأفعال الإنجازية. وأما كون المخاطب لا يستجيب ولا يبدو عليه أثر الفعل الإنجازي، فهذا لا يعني تعطل استجاباته في مواقع ومواقف مختلفة. فالفعل الإنجازي "هدد" مثلا حين يصدر عن جهة تتمتع بسلطة معينة أو يخول لها موقعها الاجتماعي نفوذا واعتبارا، فإن أثر التهديد سيجد طريقه إلى نفس المخاطب. ولنوضح هذا أكثر، نسوق مثالا:

حين هددت الولايات المتحدة الأمريكية بمعاينة النظام السياسي الليبي عام 2003-2004 مطالبة إياه بالكشف عن مشروعه النووي، بادر هذا الأخير بالاستجابة فأدلى بكل المعلومات المتعلقة بالمشروع. وبهذا يكون الأثر الناتج عن فعل التهديد الذي هو فعل إنجازي قد تحقق. ويعضد علم النفس المعرفي طرح أوستين المتعلق بالأثر الذي يحدثه أي فعل إنجازي. فقد أثبتت الدراسات أن الدماغ البشري يتفاعل مع المعلومة، فيعالجها في النظام الطرفي وهذه المعالجة هي أقرب إلى الاشتغال على مستوى الدلالة، ثم يؤولها تأويلا نهائيا في النظام المركزي للدماغ، وبعد ذلك يخزنها أو يقصصها بغض النظر عن طبيعة المعلومة، أتتويها كانت أم ثناء أم وعدا أم تهديدا. وهذا يدل على أن الفعل الكلامي يتفاعل معه الإنسان سلبا أو إيجابا؛ إما مبدئيا استجابته لمضمون الفعل أو معلقا إياه، وفي كلتا الحالتين فآثر الفعل الكلامي قد حصل.

بعد اطلاعنا على جزء من الاختلافات حول التصنيف التي جمعها سورل في اثني عشر معياراً، نعرض منظوره للفعل الكلامي الذي قسمه أوستين إلى ثلاثة مكونات. يقوم الفعل الكلامي عند سورل على أربعة، فقد أضاف الفعل القضوي إلى المكونات الثلاثة، وهذا الفعل القضوي مُوجّه للقوة الإنجازية. فمثلاً حين أقول: "أنصحك" ألا تترشح للانتخابات مرة أخرى"، فإن القوة الإنجازية تتمثل في "أنصحك"، والمحتوى القضوي يتمثل في "لا تقدم نفسك مرشحاً للانتخابات"، وهو يستلزم أن المتكلم يعمل على دفع المخاطب إلى عدم الترشح، أي إنه يقوم بفعل تنفيذي تتمثل في "النصيحة" الذي هو من أفعال التوجيه. ولكي يضمن أداء ناجحاً للفعل الكلامي، اقترح سورل شروطاً متعلقة بصدق المتكلم وإفصاحه عن نواياه لمخاطبه، وضرورة حصول معرفة مشتركة تمكن المتخاطبين من التواصل والتفاعل. واقترح أيضاً شروطاً متصلة بالسياق الكلامي وهي تدرج ضمن متضمنات القول. وقد لاحظ سورل أن ثمة أفعالاً كلامية غير صريحة لا يفصح محتواها القضوي عن قصد المتكلم. فهي إذن لا تخضع للسياق الكلامي، وإنما يُتوسل بالتأويل لاستجلاء ما يستلزمه المحتوى القضوي من قوة إنجازية مغايرة للقوة الإنجازية الحرفية.

من خلال الشروط التي ذكر سورل، يتبين أن المخاطب يطّلع بأدوار مهمة في إنجاح العملية التواصلية، كما يُراهن عليه في تأويل الملفوظات غير الصريحة قصد استجلاء المعنى الضمني، الذي يساهم السياق اللساني والسياق المقامي إلى جانب كفاءة المخاطب التداولية في بلورته. فلإنجاح عملية التخاطب، ينبغي أن يبدي المتكلم والمخاطب تعاوناً، وهذا التعاون هو ما سيشتغل اهتمام بول كرايس في سعيه إلى البحث عن كيفية إنجاح التخاطب بين المتحاورين. ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن الانتقادات التي وجهت إلى نظرية أفعال الكلام، بخصوص نفيها لمعيار الصدق والكذب في الجملة أو الملفوظ، ومراعاتها للأعراف واستحضارها للخلفيات المعرفية للمتخاطبين، كانت لها تداعيات على نظرية الاستلزام التخاطبي ومن خلالها مبدأ التعاون. وسنستهل الحديث بالتطرق إلى الاستلزام التخاطبي قبل المرور إلى مبدأ التعاون، ونحن واعدون بكون هذا الاستلزام ينشأ نتيجة حصول خرق لقاعدة أو أكثر من قواعد مبدأ التعاون.

3-6- نظرية الاستلزام التخاطبي وارتباطها بالمقصدية

يتوقف فهم بعض الجمل على تأويل يتجاوز الدلالة الطبيعية الوضعية التي تفصح عنها اللغة الطبيعية المباشرة، إلى معنى ضمني مرتبط بقصد منتج الخطاب. وقد انطلق بول كرايس في تأسيسه لنظرية الاستلزام من فكرة أن جمل اللغة تدل في أغلبها على معان صريحة وأخرى ضمنية، تتحدد دلالتها داخل السياق الذي وردت فيه ومن خلال استدلالات المخاطبين وتأويلاتهم التي تفضي إلى قصد أو مقاصد المتكلم. هذه الظاهرة سماها كرايس الاستلزام التخاطبي أو الاستلزام الحوارية. هذا الاستلزام هو إذن معنى خفي يقتضيه مقام التخاطب و"يحصل بطريق الاستدلال من المعنى الظاهر ومن القرائن"¹. وقد خص طه عبد الرحمن بالذكر الاستدلال القياسي دون غيره من الأساليب الاستدلالية الأخرى كالاستنباط والاستقراء، وهو في معرض تبيان ارتباط الاستلزام التخاطبي بالقياس. ويكمن هذا الارتباط في أنه "أصبح في الإمكان استنتاج الاستلزمات المعلولة لقواعد التخاطب بطريق الاستدلال القياسي في صورتيه العامتين، وهما دلالة المفهوم الموافق ودلالة المفهوم المخالف"². والمقصود بقواعد التخاطب هو مجموع القواعد التي انبنت على مبدأ التعاون، الذي يأذن خرق قاعدة من قواعده بالحديث عن الاستلزام التخاطبي.

مبدأ التعاون عند كرايس

ينبني التخاطب بين المتحاورين على مجموعة من قواعد المحادثة، وقد جمعها بول كرايس في مبدأ التعاون الذي يقتضي أن المتكلمين متعاونون لتسهيل عملية التخاطب. ويتفرع هذا المبدأ إلى أربع قواعد، هي³:

¹ - عبد الرحمن طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2014، ط5، ص104-105.

² - نفسه.

³ - H. Paül Grice, "Logic and Conversation", In Syntax and semantics, vol3, Speech acts, ed. Petre Cole and Jerry Morgan, Academie press, New york, 1975, p 45-46.

أ- **قاعدة الكم:** تعرف أيضا بقاعدة الإخبارية، وهي ترتبط بكمية المعلومات التي يجب على المتكلم توفيرها في الخطاب. وتلخص في مقولتين:

- "ليكن كلامك على قدر الحاجة"؛

- "تفادَ الإطناب".

ب- **قاعدة الكيف:** تسمى أيضا قاعدة الصدق، وتنضوي تحتها قاعدة عامة هي: "اجعل إسهامك صادقا"، وتتفرع إلى قاعدتين:

- "لا تقل ما تعتقد كذبه"؛

- "لا تقل ما يعوزك فيه دليل بَيِّن".

ج- **قاعدة الجهة:** وهي تعنى بكيفية التعبير عن القصد، وتمثلها قاعدة: "كن واضحا"، وتتفرع إلى القواعد الفرعية الآتية:

- "اجتنب الغموض واللبس"؛

- "كن موجزا"؛

- "اجعل كلامك مرتبا".

د- **قاعدة المناسبة:** وتوجز في قاعدة واحدة هي: "كن مناسبا"، أي "اجعل كلامك يناسب المقام"، وهو ما يعرف بمراعاة الكلام لمقتضى الحال أو مناسبة المقال للمقام.

كان الدافع إلى تأسيس كرايس لمبدأ التعاون وقواعده ضماناً نجاعة العملية التواصلية، كما شكل خرق إحدى قواعد مبدأ التعاون بداية التفكير في الاستلزام التخاطبي. هذا المفهوم يندرج ضمن ظاهرة الإضمار الذي يشمل أنماطا من المتضمنات. منها ما يستدعي السياق المقامي لتحديده، ومنها ما لا يستدعيه وهو الذي يكون متعلقا بالبنية التركيبية؛ أي إن المعنى الضمني مسجل في الجملة أو الملفوظ ولا يُحتاج لاستنتاجه إلى سياق خارجي. هذه المعاني الضمنية تنضوي تحت دلالة التضمن ودلالة الالتزام التي تسع دلالات الاقتضاء ومفهوم الموافقة ومفهوم المخالفة عند علماء أصول الفقه، وقد عرفت في الدرس اللساني الغربي بمتضمنات القول.

4-6 - متضمنات القول

4-1-6- الافتراض المسبق

يُعرّف الافتراض المسبق بأنه نمط من متضمنات القول وهو كامن في الملفوظ، الذي يكتفى فيه باستحضار السياق النصي وحده لفهم المعنى، أي إن الافتراض المسبق يتعلق مباشرة بالبنى التركيبية دون الارتباط بالسياق المقامي ومقصدية المتكلم. يعرفه ديكره بأنه المحتوى الدلالي الذي يصمد أمام النفي والاستفهام¹. وإليك مثالا:

أ- إتفقت الفصائل الفلسطينية حول مشروع وطني.

ب- لم تتفق الفصائل الفلسطينية حول مشروع وطني.

ج- هل اتفقت الفصائل الفلسطينية حول مشروع وطني؟

هذه العبارات (أ) و(ب) و(ج) بصيغها المختلفة، تفترض معطى ضمنيا متمثلا في: (د) "كان الخلاف سائدا بين الفصائل الفلسطينية حول مشروع وطني". فهذه العبارة (د) صمدت أمام النفي ولم تتأثر بالاستفهام. ويمكن القول أيضا إن المعلومة المحملة في هذه العبارة (د) هي سابقة على القول، أي هي مدركة سلفا من لدن المتلقي. تعرف أوريكيوني في كتابها "المضمّر" الافتراضات المسبقة بأنها المعلومات الضمنية المسجلة في القول، بغض النظر عن خصوصيته في إطار الحديث الذي يتجلى فيه². ونجد مفهوم الافتراض المسبق حاضرا في تفكير أوستين من خلال الفعل المتضمن في القول، وهو فعل إنجازي من مكونات الفعل الكلامي. وقد أشار بلانشيه إلى أن أوستين تحدث عن أنواع من الاستلزامات منها الافتراض المسبق، موردا مثالا: "فأن تقول: إن أطفال زيد كلهم صلع، يقتضي أن لزيد أطفالا"³. وإذا كان أوستين قد أشار إلى ثلاثة أنواع من الاستلزامات، منها: ما هو مرتبط بالمنطق، ومنها ما يدرج ضمن "ما يفهم منه" ويعني به هنا القول المضمّر الذي يستحضر فيه السياق والقصد، ومنها ما يدرج ضمن "ما يقتضيه"، حيث "المقتضى"

¹ - Oswald Ducrot, Dire et ne pas dire, éd. Hermann, Paris, 1980, 2 éd. p 58 .

² - C.K. Orecchioni, L'implicite, éd. Armand Colin, Paris, 1986, p25.

³ - فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى كوفمان، ص145.

مسجل في الملفوظ دون حاجة إلى عناصر غير لسانية، فإن سورل وكرايس لم يهتما بالحديث عن الأنواع الثلاثة. فقد اكتفى سورل بالحديث عن الضمني، الذي يسميه المفهوم باعتباره "الشرط السياقي لنجاح عمل لغوي"، وتعبير المفهوم عند سورل يشمل ما يسميه أوستين "ما يفهم منه"¹. والأمر ذاته مع كرايس الذي أولى الاهتمام للقول المضمّر فقط²، ولم يول اهتماماً للافتراض المسبق. ويبدو هذا جلياً حين انطلق من فكرة أن الجمل يدل بعضها على معنى صريح، والبعض الآخر يدل على معنى ضمني، اقتصر فيه كرايس على القول المضمّر دون الافتراض المسبق، وذلك لأنه يرى أن المعنى الاستلزامي سياقي متعلق بمقصدية المتكلم.

بعد عرضنا لمجموعة من الآراء حول الافتراض المسبق، اتضح لنا أن هذا المفهوم يدخل ضمن اهتمامات علم الدلالة. فمن خلال العلامات اللغوية انبثق المعنى الكامن في اللغة دون التوصل بعناصر خارج لسانية. وبما أن الملفوظ قد يشمل أكثر من افتراض مسبق واحد، فإن وضعية الخطاب هي التي تحدد المحتوى المناسب الذي تأخذه هذه الافتراضات. وهذا يعني أن المخاطب ينبغي أن يتمتع بكفاءة بلاغية تؤهله إلى تأويل القول، قصد ترشيح افتراض واحد يمثل المعنى الذي قصده المتكلم. هذا التفاعل الذي يبديه المخاطب من خلال تأويله للقول لتعيين الافتراض المسبق، يجعل هذا المفهوم بعداً من أبعاد الدرس التداولي. ثم إن الافتراض المسبق وهذا هو الأهم، يمثل خلفية معرفية مشتركة بين المتخاطبين مما يجعله في صلب اهتمام المنهج التداولي، لذا نجد المتكلم الذي يحرص على نجاعة التواصل ينطلق مما هو مشترك بينه وبين مخاطبيه.

6-2-4- القول المضمّر

إذا كان الافتراض المسبق يشتغل في ظل السياق النصي ويُحدّد في ضوء معطياته اللغوية، فإن القول المضمّر يرتبط بالسياق المقامي الذي يؤطر فعل التأويل. وترى أوريكيوني أن المضمّر هو كل المعلومات التي قد يحتويها الكلام، ولكن تحقيقها في الواقع يخضع لخصوصيات سياق الحديث³. وإذا كان التباين بين الافتراض المسبق والقول المضمّر جلياً،

¹ - فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى كوفمان، ص 146-148.

² - صلاح إسماعيل، نظرية المعنى في فلسفة بول كرايس، الدار المصرية السعودية، القاهرة، 2005، ص 78.

³ - C.K. Orecchioni, L'implicite, p 39.

- فعل التأويل هنا يؤطره العنصر اللساني، أي إن المخاطب يقوم بانتزاع الافتراض المسبق من داخل النص.

فإن ثمة تباينا خفيا بين هذا الأخير وبين الاستلزام التخاطبي. فرغم انضوائهما ضمن المضمرات وارتباطهما بالسياق الخارجي، فإن اختلاف المفهومين يكمن في كون استثمار القول المضمر لا يشترط انبناء التخاطب أو الحوار على قواعد مبدأ التعاون، بينما الاستلزام ينتج عن المقام التخاطبي وعن التزام هذا المبدأ. وكونه ينتج عن التزام مبدأ التعاون، لا يعني عدم إخلال أحد المتحاورين بقاعدة أو أكثر من القواعد المتفرعة عن هذا المبدأ، وإنما يعني إقرار المتخاطبين بالمبدأ. فإذا صُرف الكلام عن ظاهره إلى معنى مستلزم يقتضيه المقام، فإن هذا المعنى المحصل عليه عن طريق الاستدلال ما كان ليتحقق لولا انطلاق المتخاطبين من أرضية "مبدأ التعاون".

يعد القول المضمر إذن نمطا من أنماط متضمنات القول، إذ يرتبط بوضعية الخطاب وأحوال المتخاطبين. فالقول المضمر لا يتحقق في الواقع إلا وفق خصوصيات سياق الحديث. فحين يقول المتكلم: "الوطن ملك للجميع"، فقد يقصد:

- (1) المطالبة بتوزيع عادل للثروة الوطنية؛
- (2) أو الدعوة إلى خدمة الوطن وحمايته؛
- (3) أو الإشعار بالواجبات المستحقة على المواطنين تجاه الوطن؛
- (4) أو الحق في التمتع بكامل حقوق المواطنة؛
- (5) أو رفض مصادرة حقوق المواطن والتنديد بها.

وقد تتناسل أقوال مضمرة أخرى، لكن السياق التخاطبي يبقي على الاستنتاجات التي تستجيب لخصوصيات سياق التلفظ ومقصدية المتكلم. يسمي سورل هذه الأقوال المضمرة مفاهيم، بحيث إن المفهوم مرتبط بقصد المتكلم وهو حاضر في الفعل الإنجازي. ويرى ديكره أنه إذا كان الافتراض المسبق - الذي يحضر هو الآخر في الفعل الإنجازي حسب أوستين -

- مصطلح "القول المضمر" ترجمة لـ: (Le Sous – entendu)، وهو عنصر سياقي مقامي.

- نميز هنا بين السياق النصي والسياق المقامي، إذ الأول يعنى فيه بالعناصر اللسانية، بينما الثاني تستدعى فيه العناصر غير اللسانية المحيطة بالنص أو الخطاب.

- يترجم مصطلح "السياق النصي" بـ: (Le contexte textuel)، ويترجم أيضا بـ: (Le cotexte)، في حين يترجم مصطلح السياق المقامي بـ: (Le contexte Situationnel).

يقدم باعتباره معطى مشتركاً متواضعاً عليه بين أطراف التخاطب، بحيث يجمع عليه المشاركون في العملية التواصلية، فإن القول المضمّر هو الذي يمنح فيه المتكلم السامع إمكان التأويل والاستنتاج¹.

5-6- تصورات مخالفة للتصورات السائدة حول الافتراض المسبق والقول المضمّر

يراجع ديكر و بعض تصوراته التي أقامها حول الافتراض المسبق والقول المضمّر، معترفاً أن القول بالتقابل بين المفهومين المذكورين غير سليم، وأن الملفوظ الواحد يمكن أن يسعهما معاً. ويوضح ذلك بمثال:

(م): "أقلع زيد عن التدخين". هذا الملفوظ

أ- يشير إلى أن زيدا لا يدخن حالياً

ب- يفترض مسبقاً أنه كان يدخن.

فالملفوظ (م) هنا انبثق منه افتراضان مسبقان، هما: (أ) و(ب).

من جهة أخرى، إذا كان هذا الملفوظ موجّهاً نحو مدخن مدمن لحثه على الإقلاع، فإنه قد يكون متضمناً لأقوال مضمرة مثل:

(س) بقليل من الشجاعة، تستطيع أن تقلع عن التدخين.

(ص) زيد أقوى إرادة منك.

هذه الإضمارات (س) و(ص) وأخرى التي تظهر في معنى الملفوظ، أي تظهر لحظة التلفظ، هي أقوال مضمرة لا تحضر مع الجملة المستقرة التي يُعنى فيها بالدلالة، وإنما القول المضمّر - وفق ديكر و- مرتبط بالمعنى وليس بالدلالة. ومعلوم أن ديكر و يفرق بين الدلالة والمعنى، إذ الدلالة قيمة متعلقة بالجملة قبل أن تتحقق ملفوظاً، بينما المعنى قيمة دلالية

¹ - O. Ducrot; Le dire et le dit, éd. Minuit, Paris, 1984, p20.

- تطرق أوستين إلى الضمني في حديثه عن المعنى، فذكر الضمني الذي يتكفل به المنطق، أي "ما يدرك"، وعن الضمني الذي "ما يفهم منه"، ويقصد به القول المضمّر حسب سورل وكرايس وأوريكيوني، وذكر أوستين أيضاً الضمني الذي "ما يقتضيه" ويعني به الافتراض المسبق.

للملفوظ. وإذا كانت الأقوال المضمرة لا تحضر إلا مع الملفوظ أي أثناء التلفظ، فإن الافتراضات المسبقة مسجلة في الجملة، وتظهر في معنى الملفوظ. فالملفوظ الواحد يسع افتراضات الجملة، وافتراضات مرتبطة بالمعنى لحظة التلفظ، كما يسع الأقوال المضمرة التي يتكفل المتلقي باستنتاجها وفك شفراتها، معتمدا على كفاءته البلاغية والتداولية والمنطقية. بعد اعتراض ديكرود على إقامة تقابل بين النمطين التداوليين الافتراض المسبق والقول المضمر، واستدلالة على هذا الاعتراض بالقول إن الملفوظ الواحد يحتمل وجود النمطين، يشير صاحب "القول والمقول" إلى أن أي نمط سواء أكان افتراضا مسبقا أم قولا مضمرا، فإنه ينتهي إلى فعل إنجازي أو فعل تأثيري (فعل ناتج عن أثر القول). فالافتراض المسبق الذي هو مسجل في الجملة قبل أن تتحقق ملفوظا، غايته أن ينتهي إلى فعل إنجازي، أي إنه الآن محاط فقط بدلالة الجملة، وليس بمعنى الملفوظ أي بسياق التلفظ¹. وديكرود هنا يخالف تصويره السابق الذي ينظر إلى الافتراض المسبق بوصفه فعلا إنجازيا مسجلا في الملفوظ. هذا عن الافتراض المسبق، أما القول المضمر في تصور ديكرود الجديد، فهو غير مسجل في الجملة ويظهر لحظة التلفظ. وبما أن الأقوال المضمرة استنتاجات يقوم بها المتلقي، فهذا يدل على أن هناك تفاعلا من لدن هذا المتلقي، أي تحققا للفعل الناتج عن القول، وهذا يقربنا إلى إدراك الارتباط بين القول المضمر والفعل التأثيري.

6-6- العلاقة بين الافتراض المسبق في الدرس اللساني الغربي والاقتضاء في التراث العربي

¹ - "Le sens est la valeur sémantique de l'énoncé, la signification c'est la valeur sémantique de la phrase".

بعدما فرق ديكرود بين الدلالة والمعنى، نجده يميز بين الجملة والملفوظ:

"La phrase est une entité grammaticale abstraite, l'énoncé est une réalisation particulière de la phrase".

-Oswald Ducrot, Le Dire et le Dit, éd. Minuit, Paris, 1984, p 33-34.

- O. Ducrot, Le Dire et le Dit, chapitre II: Présupposés et Sous - Entendus (réexamen).

من دواعي بحثنا في العلاقة بين الافتراض المسبق عند الغرب والاقتضاء عند العرب، الوقوف على دلالاتي هذين المصطلحين وتبيين أوجه الاتفاق والاختلاف بين المفهومين. إلى جانب هذا، يوجد داع آخر يتمثل في السعي إلى إزالة الالتباس حول مفهوم الاقتضاء. فقد تفرقت بالدارسين السبل؛ فمنهم من ترجم مصطلح (Présupposition) بالاقتضاء، ومنهم من ترجمه بالافتراض المسبق. واستعمل مصطلح الاقتضاء تارة مرادفا للاستلزام، وتارة مرادفا للتضمن، مما أحاط بمصطلح الاقتضاء مزيدا من الالتباس.

1-6-6-6- الاقتضاء والافتراض المسبق؛ إشكال في الترجمة أم تباين في الدلالة؟

قسم الأصوليون الدلالة إلى ثلاثة أنواع: دلالة مطابقة، إذ الكلام يدل على تمام معناه، ودلالة تضمن، إذ اللفظ يدل على جزء من معناه، ثم دلالة التزام وهي التي يدل فيها اللفظ على لازمه، أي على معنى خارج عن معناه. وتتفرع دلالة الالتزام عند الغزالي والأمدي وابن الحاجب وغيرهم إلى خمسة أضرب، هي دلالة الإشارة ودلالة الإيماء ودلالة الموافقة ودلالة المخالفة ثم دلالة الاقتضاء التي لا يدل عليها اللفظ ولا يكون منطوقا بها، وهي من ضرورة اللفظ. وتنقسم إلى ثلاثة أنواع كما ذكرنا سابقا:

- أ- المقتضى الذي يجب تقديره لصدق المتكلم؛
 - ب- المقتضى الذي يجب تقديره لصحة الكلام عقلا؛
 - ج- المقتضى الذي يجب تقديره لصحة الكلام شرعا¹.
- نسوق مثالا للنمط الأخير (ج)، وهو الذي قُدر حذفه للمحافظة على الصحة الشرعية للكلام: (س) "كُرّ، فأنت حرّ". هذه القولة التي تنسب إلى شداد العبسي يقدر فيها المحذوف

¹ - الغزالي، المستصفي من علم الأصول، ج.3، ص403.
- المقتضى (أ)، مثاله: "رفع عن أمي الخطأ والنسيان"، والمقتضى هنا "رفع عن أمي إثم الخطأ والنسيان".
- المقتضى (ب)، ومثاله: "واسأل القرية"، وتقدير المحذوف هو "أهل" ومن ثم يصبح المقتضى "واسأل أهل القرية".
هذان المثالان أوردهما الغزالي في مستصفاه، إضافة إلى مثال يتعلق بالمحافظة على الصحة الشرعية للكلام، وهو يخص المقتضى (ج)، إذ ذكر: "أعتق عبدك عني بألف" في دلالة على التملك بعد البيع.
- المقتضى (ب)، ومثاله: "واسأل القرية"، وتقدير المحذوف هو "أهل" ومن ثم يصبح المقتضى "واسأل أهل القرية".

بأن المخاطب لا يملك حريته، ويقدر فيها أيضا بالجملة (ص) "إمكان انتقال الملكية من شداد إلى عنتره نفسه". هذه الجملة (ص) تفصح عن المعنى الكامن في الجملة (س). فإذا كان الافتراض المسبق من منظور ديكره يصمد أمام النفي، فإن الجملة (ص) لا تصمد أمام نفي الجملة (س). نمثل للنفي بـ: (لاس) "إن لم تكرر، فأنت لست حرا" على اعتبار أن الجملة (س) جملة شرطية. فقد يكر عنتره ولا ينال حريته حين يخلف سيده وعده، كما قد ينالها حين يتم الوفاء به. وبالتالي فالاحتمالان واردان لدى عنتره، وهذا يعني أن الجملة (ص) ليست افتراضا مسبقا يسلم به العبد والسيد، بحيث يمثل خلفية معرفية مشتركة بينهما. وما يمثل خلفية معرفية مشتركة بين شداد وعنتره هو أن الأول مازال يملك الثاني، وهي حقيقة يسلم بها الطرفان. وما ينبغي الانتباه إليه هنا هو أنه في الافتراض الذي يُنتظر تحققه في المستقبل لا يمثل افتراضا مسبقا في المنظور التداولي، وقد تجسد هذا من خلال افتراض إمكان نيل عنتره لحريته. وبالتالي فالافتراض المسبق هو حاصل في الزمان الماضي، ولهذا يعبر عنه بالخلفية حين نذكر الخلفية المعرفية المشتركة.

نسوق مثالا آخر قريبا من سابقه ورد في سياق التعبير عن دلالة الاقتضاء عند الأصوليين: "أعتق عبدك عني بألف". فالمقتضى هنا متمثل في "التمليك بعد البيع"، وهو لا يصمد أمام نفي العبارة الذي هو: "لا تعتق عبدك عني بألف". وبالتالي يتجلى الفرق بين دلالة الاقتضاء وبين دلالة الافتراض المسبق وفق منظور ديكره. وحتى من منظور أوريكيوني التي ترى أن الافتراض مدرج سابقا بشكل آلي في القول بغض النظر عن خصوصيته في إطار الحديث الذي يتجلى فيه، فالجملة (ص) سياقية، متعلقة بصيغة الوعد الذي قطعه المتكلم (السيد) على نفسه، والذي يلزمه بعتق مخاطبه (العبد)، وبالتالي انتفاء ملكيته إياه.

من خلال المثالين اللذين سقناهما، تبين أن المقتضى الذي يقدر حذفه للمحافظة على الصحة الشرعية للكلام، والذي يبدو لكثير من الدارسين العرب أنه النوع الأقرب إلى الافتراض المسبق والذي جعلهم يترجمون كلمة (Présupposition)، بـ: الاقتضاء، هو غير ذلك. وأنه من وجهة نظرنا لا يتطابق ولا يتداخل مع الافتراض المسبق إلا بنسبة قليلة كما سنرى، مما يوجب الاحتراز من الخلط بين المفهومين. ويعضد طرحنا هذا، اختلاف

المجال الذي ينتمي إليه كل مفهوم؛ بحيث إن الافتراض المسبق ينتمي إلى المجال المنطقي، بينما ينتمي الاقتضاء إلى المجال التخاطبي الذي يستدعي سياق المقام ومقاصد المتخاطبين. وإذا شئتُم الحديث عن الحالة التي تشهد تقاطع المفهومين، قلنا إن الافتراض الذي يتمثل في الجملة (ع) "كان عنتره عبدا"، أو "كان شداد يمتلك عبدا" هو وحده، الذي يصمد أمام نفي الجملة (س). وقد مثلنا للنفي بـ: (لاس) "إن لم تكرر، فأنت لست حرا". من خلال هذا العرض، لاحظنا أن تقدير المحذوف إن صب في خانة الزمان الماضي مثل دلالة (ع) التي حوت فعلا ماضيا "كان"، فقد يحصل تطابق بين الاقتضاء والافتراض المسبق. هذا المفهوم الأخير الذي يُستثمر في التعبير عن الأغراض بشكل غير صريح، قد يتقاطع مع مفاهيم مثل مفهوم التضمن ومفهوم الاستلزام عند الأصوليين.

2-6-6- الافتراض المسبق والتضمن والاستلزام، أي علاقة؟

6-6-2-1- العلاقة بين الافتراض المسبق والتضمن

لا نعني بالتضمن التضمنين، سواء الذي ورد في علم النحو، أم في علمي البيان والبدیع، أم في علم العروض، أم في علم الصوتيات، وإنما نقصد بالتضمن الدلالة التي يدل فيها المعنى الظاهر الموضوع له اللفظ على معنى متضمن فيه، حيث تكون العلاقة علاقة العام بالخاص، مثل علاقة البيت بالسقف أو بالجدران.

نقترح الجملتين الآتيتين:

(أ) دخل الطالب مدرجا بكلية الآداب.

(ب) دخل الطالب كلية الآداب.

تتضمن الجملة (أ) الجملة (ب)، فدخل المدرج يتضمن دخول الكلية ولا عكس. كلما كانت (أ) صادقة، كانت (ب) صادقة. وإذا كانت (أ) كاذبة، فالتضمن يستلزم أن (ب) قد تكون صادقة أو كاذبة، في حين أن الافتراض المسبق للجملة (أ) يقتضي أن تكون (ب) صادقة، وذلك لأن افتراض "كان الطالب خارج مدرج بكلية الآداب" الذي هو الافتراض المسبق للجملة (أ)، يصمد أمام نفي (أ)؛ أي "لم يدخل الطالب مدرجا بكلية الآداب". ولهذا تبدو العلاقة بين (أ) و(ب) علاقة تضمن، لأنه إذا كانت (أ) كاذبة، فيمكن أن تكون (ب) صادقة، وذلك حين يكون الطالب قد دخل الكلية، أو تكون (ب) كاذبة، إن لم يكن قد دخلها البتة.

ولمزيد من توضيح العلاقة بين دلالة التضمن ودلالة الافتراض المسبق، نسوق الجملتين (ج) و(ح)، بحيث إن (ج) تفترض (ح):

(ج) غادر الطالب مدرجا بالكلية.

(ح) كان الطالب داخل المدرج.

انطلاقاً من هذه المعطيات، نستطيع القول إن (ج) إذا كانت صادقة، فالجملة (ح) تكون صادقة، وإذا كانت (ج) كاذبة، فإن (ح) تظل صادقة. فرغم كون الجملة (ج) صيغت على شكل النفي، فإن (ح) لم تتأثر بهذا التحول. وهذا ما يجعل العلاقة بين (ج) و(ح) علاقة افتراض؛ حيث إن (ح) مفترض مسبق.

بعدما بينا أن (ب) قد تكون صادقة كما قد تكون كاذبة وإن كانت (أ) كاذبة، فهذا يعني أن الدلالة التضمنية قد تنطبق على الافتراض المسبق. وبالتالي نخلص إلى أن الافتراض المسبق هو أقرب إلى التضمن منه إلى الاقتضاء. بعد تبين العلاقة بين دلالات الاقتضاء والافتراض المسبق والتضمن، ننظر في الاستلزام وعلاقته بالدلالات المذكورة.

2-2-6-6- الاستلزام وعلاقته بالاقتضاء والافتراض المسبق

الاستلزام؛ مصطلح واحد واستعمالات متعددة

قبل البحث في علاقة مفهوم الاستلزام بمفاهيم الاقتضاء والافتراض المسبق، نشير إلى أننا لا نعني بالاستلزام مفهوم الاستلزام التخاطبي، الذي هو نظرية تداولية تقوم على مبدأ التعاون وتنهج مسار الاستدلال. هذا التمييز بين المفهومين لا ينفي أن ثمة نقط التقاء بينهما وتقاربا في الاهتمامات. ويأتي الحديث هنا عن دلالة الاستلزام للتفريق بينها وبين دلالات الاقتضاء والافتراض، وهذا بعد أن لاحظنا أن هناك من يستخدم الاستلزام بمعنى الاقتضاء تارة، والافتراض تارة أخرى، مما خلق نوعاً من الالتباس حول مفهومه. ونعتقد أن الاستلزام نمط ضمني ينتمي إلى الدلالة الالتزامية وفق المناطقة والأصوليين، التي هي غير دلالة التضمن، ويعضد هذا الانتماء وحدة الجذر الثلاثي "لزم". من هنا يمكن القول إن الاستلزام يُلتصق فيه المعنى خارج المعنى الظاهري الصريح، ويكون فيه اللفظ الظاهر ملزوماً والمدلول

لازما حسب السكاكي. وبما أن الاقتضاء يندرج ضمن دلالة الالتزام، فإن الاستلزام أقرب إلى الاقتضاء، مما يجيز لنا استخدام تعبير "يستلزم" بمعنى يقتضي في كثير من المواضع. هذا عن علاقة الاستلزام بالاقتضاء. أما في ما يخص علاقته بالافتراض المسبق، فإنه يتميز عنه و يتباين، إذ الافتراض مفهوم منطقي كامن في القول، أي مسجل في البنى التركيبية لا يتغير بتغير ظروف استعمال العبارة، في حين أن الاستلزام يتغير بتغير المواقف التواصلية، أي إنه يخضع للسياق المقامي. من هنا يمكن القول إن تعبير "يفترض مسبقا" ينبغي أن يكون غير تعبير "يستلزم"، ومن خلال هذا التحديد المصطلحي لكل من الاستلزام والاقتضاء والافتراض المسبق، وتحديد العلاقات بين هذه المصطلحات التي هي آليات لإنتاج المعنى يُتوسل بها من أجل تحقيق التواصل بين المتخاطبين، نضمن توجيهها سليما للمعنى ونجاعة في الخطاب.

ويُستعمل أيضا مصطلح الاستلزام مقرونا بصفة، فنقول الاستلزام المنطقي والاستلزام الحواري والاستلزام التخاطبي، ونقصد بهذا الأخير تلك النظرية التي تنهض على مبدأ التعاون الذي تتفرع عنه أربع قواعد. إذا خالف المحاور قاعدة أو أكثر، فإن الذهن ينصرف إلى الاستدلال لاستنباط المفهوم، وهو المعنى المقصود الذي لم يفصح عنه المنطوق. في هذا الصدد يقول طه عبد الرحمن بأن "هذا المعنى المصروف إليه يحصل بطريق الاستدلال من المعنى الظاهر ومن القرائن، وذلك بالذات ما عُبّر عنه بـ "الاستلزام التخاطبي"¹، مضيفا "أن المحاور إذا خالف قواعد التخاطب على مستوى المنطوق، فإنه يتبعها اتباعا على مستوى المفهوم، تبين لنا مدى ارتباط "الاستلزام التخاطبي" بـ "القياس"، هذا الذي يعرفه البعض بكونه الاستدلال الذي يُستنبط به المفهوم"².

¹- عبد الرحمن طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 104.

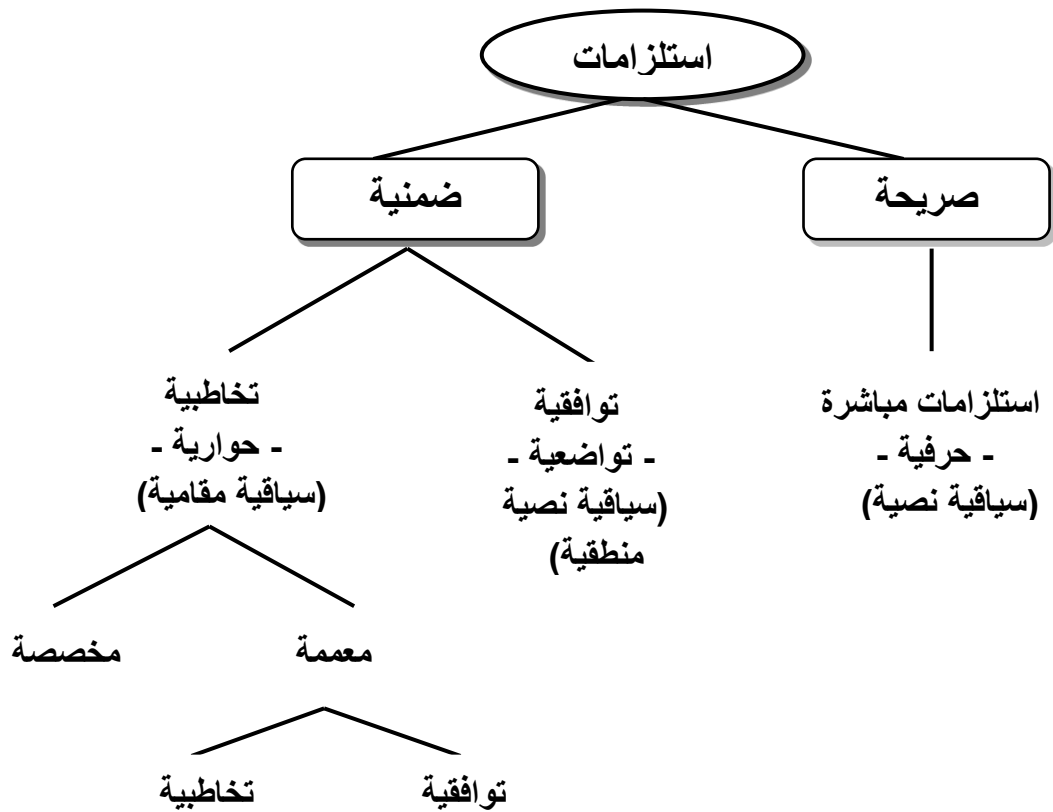
- يفرق كرايس بين الاستلزام التعاقدي (التوافقي) (Conventional implicature) الذي هو مرتبط بالملفوظ في إطاره الدلالي، وبين الاستلزام التخاطبي الذي هو مرتبط بالسياق المقامي، أي إن له بعدا تداوليا، وهو ترجمة لـ: Conversational implicature.

²- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 104.

- "مبدأ التعاون" هو ترجمة للمصطلح الإنجليزي (Cooperative principle)، الذي تتفرع عنه قواعد التخاطب (Maxims of conversation) وتسمى أيضا المسلمات التخاطبية.

- "قوانين الخطاب" ترجمة للمصطلح الفرنسي (Les lois du discours)، وهي تتقاطع مع قواعد التخاطب الكرايسية.

يمكن القول إذن إن الاستلزام التخاطبي استدلال يتم من خلاله رصد الانتقال من المعنى المباشر إلى المعنى الضمني المستلزم، كما يمكن القول إن دراسة كيفية الانتقال من المعنى الصريح إلى المعنى الضمني الذي يقف على مقصد المتكلم، هي التي جعلت كرايس يؤسس نظرية الاستلزام التخاطبي التي يتم فيها الاهتمام بالمقصدية والسياق المقامي لفهم ما يدور بين المتخاطبين. وإذا أردنا أن نحدد ماهية هذا الاستلزام، قلنا إنه المعنى الثاني - معنى المعنى - الذي يشير إليه أو قل يلوح به المتكلم، ويأخذ فيه المتلقي على عاتقه تأويل ملفوظات المتكلم الذي يكون قد خرق إحدى قواعد التخاطب المتفرعة عن مبدأ التعاون. هذا المبدأ الذي أسسه كرايس، تناوله أوزفالد ديكرو وغيره من الفرنسيين تحت مسمى قوانين الخطاب. قبل الحديث عن هذه القوانين، نقترح خطاطة نعرض من خلالها نوعا من الاستلزام الذي أشار إليه كرايس في مقاله "منطق ومحادثة".



من خلال هذه الخطاطة يتبين أن هناك استلزاما صريحا، بحيث إن اللفظ الظاهر يفصح عن المعنى بشكل مباشر. في مقابل هذا الاستلزام، يوجد نوعان من الاستلزام الضمني هما: استلزام عرفي توافقي ومن أمثلته الافتراض المسبق والاستلزام المنطقي. والنوع الثاني هو استلزام تخاطبي مرتبط بالسياق المقامي، وينقسم إلى قسمين: استلزام معمم وهو المعنى الذي ينشأ من مراعاة قواعد التخاطب، لا سيما قاعدة الكم¹، ومثاله: لدي تسعة مراجع أجنبية. هذا القول يستلزم توفري على تسعة مراجع، لا أقل ولا أكثر. ويشكل هذا النوع من الاستلزام الافتراض المسبق أيضا.

(أ) خالد لم يقرأ كل كتب التداولية.

(ب) خالد قرأ بعضها.

وهذا ما جعل من الاستلزمات المعممة استلزمات تخاطبية توافقية. ويتعلق القسم الثاني من الاستلزام التخاطبي بالاستلزام المخصص، وهو معنى متولد من خرق قواعد المحادثة في سياق خاص مع إبداء نية التعاون، ومثاله جواب (ص) على سؤال (س):

(س) هل ترغب في السفر معنا؟

(ص) إني أستعد للامتحانات.

7- قوانين الخطاب

7-1- قوانين الخطاب عند ديكر ومانكونو

إنطلق ديكر في تعريفه لقوانين الخطاب من المسلمات التخاطبية التي أرسى معالمها كرايس والمتمثلة في أربع قواعد، هي الكم والكيف والجهة والمناسبة. فقد صاغ وفقها ديكر هذه القوانين التي توطر كل عملية تخاطبية يُتوخى منها تواصل المتخاطبين وتفاعلهم وإحداث تغييرات في سلوكياتهم. هذه القوانين هي مجموعة من العناصر غير اللغوية مكملة للقواعد التركيبية الدلالية وموجّهة للفعل التخاطبي، إذ تمكن المتخاطبين من عرض أفكار مقبولة

¹- محمد محمد يونس علي، علم التخاطب الإسلامي، ص 227.

وصياغتها أقوالاً تتوخى الصدق وتراعي المقام وتلتزم الوضوح والدقة في الإخبار، كما ينبغي لها أن تراعي شعور المخاطب لتكون أكثر إقناعاً.

ولأن مدار تفكير ديكرود هو الدلالة التداولية، أي التداولية المدمجة والتي طعمها بالحجاج، فإنه وهو يسعى إلى وضع قوانين تتكفل بضمان نجاعة للخطاب وتفاعل بين المتخاطبين، أشار إلى ضرورة دراسة المحتوى الدلالي للأقوال، تليها دراسة المحتوى البلاغي في حضور السياق الذي يتكفل بإرساء النتيجة الحقيقية. وبهذا يجعل قوانين الخطاب تنطبق على الجملة كما تنطبق على الملفوظ. يوضح ديكرود هذه النقطة من خلال تأكيده على أن إدخال القيم الحجاجية في الدلالة، يجعل التعامل مع الجملة مثل التعامل مع الملفوظ¹.

وتتمثل قوانين الخطاب² في قانون الملاءمة (Pertinence) التي تتطابق مع قاعدة المناسبة التي أشرنا إليها سابقاً، وقانون الصدق الذي هو قاعدة الكيف في قواعد التخاطب عند كرايس، وقانون الإخبارية الذي يطابق قاعدة الكم، وقانون الشمول، إضافة إلى قوانين الصيغة التي تركز على عنصرين رئيسيين، هما عنصر الاقتصاد، أي القيام بفعل التواصل بأقل كلفة من الكلام من خلال تفادي الحشو واعتماد الصيغة المباشرة في القول، وعنصر الوضوح؛ إذ تتوخى السلامة في النطق والدقة في اختيار اللفظ والوضوح في بناء الجمل. إلى جانب الحجاج، أشار ديكرود إلى عنصر التنعيم وإكسابه للوحدات اللسانية دلالات معينة.

2-7- قوانين الخطاب وقواعد التخاطب عند كرايس؛ تباين أم تكامل؟

بعد عرضنا لقواعد التخاطب المتفرعة عن مبدأ التعاون عند كرايس وقوانين الخطاب عند ديكرود ومانكونو، بدا أن القواعد والقوانين متداخلان بنسبة كبيرة. وإن كان ثمة تمايز، فهو بسيط يتجلى في تقسيم القوانين والقواعد. فقد تداول باحثون فرنسيون، نذكر منهم ديكرود ومانكونو وشارودو تقسيماً لقوانين الخطاب إلى خمسة عناصر رئيسية هي الملاءمة التي نقابلها في اللغة الفرنسية كلمة (Pertinence) وليس (Relevance) المتداولة في الوسط الأنكلوساكسوني، وهي تتطابق مع المناسبة كما ذكرنا. إضافة إلى الملاءمة، يوجد قانون

¹- O. Ducrot, Le dire et le dit, Chapitre V : Les lois de Discours, p 95 -114.

²-Dominique Maingueneau, Analyser les textes de communication, éd. Nathan, Paris, 2000, p 20- 22.

الصدق وقانون الإخبارية وقانون الشمول ثم قانون الصيغة الذي يتفرع هو الآخر إلى قانون الاقتصاد وقانون الوضوح. مقابل هذا التقسيم الذي اعتمدته الفرنسيون، هناك تقسيم متفرع إلى أربعة عناصر تمثل قواعد للتخاطب وهو الذي أرساه بول كرايس منطلقاً من مبدأ التعاون الذي سبق أن ذكرناه. وتجلى التمايز أيضاً في إدراج ديكرول للعنصر الحجاجي الذي جعل قوانين الخطاب تتجه نحو الاهتمام بالجانب التأثيري والإقناعي. إضافة إلى الحجاج، أشار ديكرول إلى التنعيم¹ باعتباره عنصراً يمنح الوحدات اللسانية المتلفظ بها دلالات متنوعة بتنوع درجات الصوت مما يكسبها أهمية داخل الملفوظ.

لم تسلم هذه القواعد التخاطبية أو المحادثية التي تفرعت عن مبدأ التعاون من انتقادات، كونها تخضع لنظام يتصف بالصرامة، إذ ينشغل بالاستدلال المنطقي والترتيب والكم والمناسبة... مكثفياً بخدمة الجانب التبليغي من الخطاب، دون تأسيس خطاب تراعى فيه أحوال المتخاطبين ويهتم فيه بالجانب الخلقى التهذيبي. ويرى طه عبد الرحمن أن إشارة كرايس إلى وجود قواعد جمالية واجتماعية وخلقية، مثل "لتكن مهذباً"، لم تكن لتتفي إهماله للجانب الخلقى، إذ لم يفرد بالذكر، بل ضمه إلى الجانبين التجميلي والاجتماعي معتبراً أن هذه الجوانب لا تنهض بوظيفة التبليغ عند المخاطبة بشكل جلي. ويضيف طه أن كرايس لم يتفطن إلى أن الجانب الخلقى قد يكون الأصل في خروج العبارات عن إفادة المعاني الحقيقية².

8- مبدأ التأدب وقواعده

في محاولة لاستدراك ما اعتري مبدأ التعاون من إهمال للجانب التهذيبي، سعى دارسون إلى توسيع دائرة هذا المبدأ لتشمل مبدأ التأدب باعتباره عنصراً مؤثراً في التخاطب. فقد أجمعوا على أن فعالية التأدب تكمن في السعي إلى إرساء جسور التواصل المبنية على

¹ - O. Ducrot, le Dire et le Dit, p 114.

- يقابل مصطلح التنعيم المصطلح الإنجليزي (Intonation)، وهو دال على تنوع في الأداء الصوتي، إذ يرتفع الصوت وينخفض أثناء الكلام.

² - عبد الرحمن طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 3، 2012، ص 240. وينظر أيضاً كتاب "التداولية: أصولها واتجاهاتها" لجواد ختام، ص 105.

احترام الرأي المخالف، والتحلي بالتواضع، وإبداء التعاطف وكل ما يعضد من رابطة الألفة بين المتحاورين.

8-1- مبدأ التأدب عند روبن لاكوف

ترى لاكوف أن ضمان نجاعة العملية التخاطبية وتحقيق تفاعل مثمر متعلقان بضرورة حضور المعطى التهذيبي إلى جانب مبدأ التعاون، الذي تفرعت عنه مجموعة من القواعد. ويتمثل هذا المعطى في مبدأ التأدب الذي تتفرع عنه قاعدتان: تتمثل الأولى في "كن واضحاً"، والثانية في "كن مؤدباً"¹. وهذه القاعدة الثانية تتفرع عنها ثلاث قواعد هي:

أ- **قاعدة التعفف**، ومقتضاها: "لا تفرض نفسك". وهي دعوة إلى تفادي الصيغ التعبيرية التي تشعر المخاطب أن المتحدث إليه يرغمه على الاستجابة ضداً على إرادته، وهذا من شأنه أن يعطل كل تفاعل إيجابي.

ب- **قاعدة التشكك**، ومقتضاها: "اجعل مخاطبك يختار بمحض إرادته"، أو بصيغة أخرى "قدم خيارات". فهذه القاعدة تمنح إمكانات متعددة أمام المخاطب لاختيار الأنسب إليه دون التضييق عليه من خلال طرح خيار واحد أمامه.

ج- **قاعدة التودد**، ومقتضاها: "أظهر الود". وهي قاعدة ترغّب في الإفصاح عن مشاعر الاحترام والحب، مما يدفع المخاطب إلى الانخراط في الحوار مطمئناً إلى محاوره متفاعلاً معه. وبهذا تكون لاكوف قد تداركت النقص الذي بدا في اقتراح كرايس لمبدأ التعاون من خلال اقتراحها، إلى جانب مبدأ التعاون، مبدأ التأدب الذي ستناوله هو الآخر انتقادات من لدن الباحثين براون وليفنسن. فقد اعتبر هذان الباحثان طرح لاكوف غير كاف، مقترحين مبدأ آخر متمثلاً في مبدأ التواجه أو ما يعرف بـ "نظرية الوجوه" التي استلهماها من عالم الاجتماع

¹- Robin, Lakoff, "The logic of politeness or, Minding yours P's and Q 's", In Papers from the Ninth Regional Meeting, ed. Chicago Linguistic Society, Chicago, Number 1 , 1973, p297.

- تتضمن القاعدة الأولى "كن واضحاً" (Be clear) دعوة إلى التزام الوضوح، وهو ما جاء في القاعدة الجوهرية لمسلمة الصيغة - الجهة حسب طه عبد الرحمن - عند كرايس.

- "نظرية الوجوه" ترجمة لـ (La théorie des faces)، ينظر كتاب دومنيك مانكونو :

Analyser les textes de communication, p 24.

ويستعمل طه عبد الرحمن لفظ "التواجه" على اعتبار أن مضمون مبدأ براون وليفنسن يقوم على "مقابلة الوجه للوجه". هذا المبدأ يسميه طه "مبدأ التواجه" في كتابه "اللسان والميزان أو التكوثر العقلي"، ص243.

كوفمان. والوجه - يقول طه - "عبارة عن الذات التي يدعيها المرء لنفسه والتي يريد أن تتحدد بها قيمته الاجتماعية، وهو على ضربين: "وجه دافع" أو قل "سلبى" و"وجه جالب" أو قل "إيجابى"¹.

8-2- مبدأ التواجه عند براون وليفنسن

يرى براون وليفنسن أن كل فرد له وجهان: وجه سلبى وآخر إيجابى. فالسلبى متعلق بالمجال الخاص لكل إنسان (جسده، حميميته...)، والإيجابى متعلق بالانطباع الجيد عن الذات الخاصة التي يسعى كل فرد جاهداً إلى إظهارها أمام المجتمع. وإذا افترضنا وجود متخاطبين اثنين، فإننا نكون أمام أربعة وجوه؛ لكل واحد وجه سلبى ووجه إيجابى. فالوجه السلبى كما ذكرنا هو أن ينزع الفرد إلى الاستقلالية ولا يمثل لإرادة غير إرادته التي تدفع اعتراض الغير، في حين أن الوجه الإيجابى هو أن يسعى المتكلم إلى جلب اعتراف الآخرين ودفعهم إلى احترامه².

ويرى مانكونو أن فعل التلفظ يمكن أن يشكل تهديداً لوجهه أو أكثر من وجهه، إذ إن إصدار فعل الأمر يثمن الوجه الإيجابى للمتكلم، وبالمقابل يبخسه لدى المخاطب. ويعتبر أن مجرد التوجه بالكلام نحو المتلقي هو تهديد لوجهه السلبى، إذ تُعتبر مخاطبته اقتحاماً لمجاله الشخصى. ولتفادي تعرض الوجه للتهديد، يتدخل عنصر التأدب مساهماً في تلطيف أجواء التخاطب بين المتحاورين. وقد طرح كل من براون وليفنسن مقترحا من خمس خطط يضمن

¹- Robin Lakoff , "The logic of politeness or, Minding yours P's and Q 's", p 297.

²- D. Maingueneau, Analyser les textes de communication, p 24.

- يستند مانكونو هنا، إلى مرجع لبراون وليفنسن بعنوان:

" Politeness: some universals in language use".

- يمكن أن نصوغ "مبدأ التواجه" كما يلي: "لتصن وجه غيرك". ويضيف طه عبد الرحمن أن هذا المبدأ ينبني على مفهومين رئيسيين، أحدهما مفهوم "الوجه"، والثاني مفهوم "التهديد" الذي هو نقيض "الصيانة".

- يرى طه أن مبدأ التواجه يفضل مبدأ التأدب عند لاكوف، لأنه أحضر الجانب العملي من خلال مفهوم "التهديد"، أي تهديد الوجه ذاتياً.

حفظ ماء الوجه لكلا المتحاورين، وتواصلًا غير مشوب بتهديد. وتتمثل هذه الخطط في أنماط استراتيجية:

1- اعتماد التلميح والتعريض، كأن تطلب من مخاطبك شيئًا دون أن تصرح به، تاركًا له استنتاج المعنى المقصود. ويلجأ المتكلم إلى هذه الاستراتيجية اتقاء تعرض وجهه الإيجابي للضرر، جراء عدم استجابة مخاطبه في حال التصريح بالطلب؛

2- اعتماد الخطاب المباشر الذي قد تصاحبه عبارات تتسم باللباقة، ويدخل هذا في باب الحفاظ على الوجه الإيجابي للمستمع؛

3- خطاب خال من اللباقة، وهو ما يعني الحفاظ على الوجه الإيجابي للمتكلم والإضرار بالوجه السلبي للمخاطب، كأن تأمره؛

4- خطاب للحفاظ على الوجه السلبي للمستمع من خلال صيغة لا تضر بوجهه؛

5- التزام الصمت، ذلك أن الصمت قد يكون أبلغ من الكلام في مواضع معينة وبقي وجه المتكلم ووجه المخاطب من التهديد، لأن في الطلب مخاطرة بالوجه تضر المتحاورين. ويضرب طه مثالا يوضح من خلاله هذه الخطط الخمس التي اقترحها براون وليفنسن للتخفيف من آثار تهديد الوجه. والمثال هو "طلب إغلاق النافذة".

أ- قد يطلب المتكلم من المستمع إغلاق النافذة بطريق التعريض، كأن يقول: "إن الجلوس في مجرى الهواء مؤذٍ إيذاء؟"

ب- قد يطلب المتكلم من المستمع إغلاق النافذة مع التوسل بصيغة تحفظ الوجه الجالب (الإيجابي) لهذا المستمع كما إذا قال: "ألست تبادر إلى إغلاق الباب كلما تعرضنا لمجرى الهواء؟"

ج- قد يطلب المتكلم من المستمع إغلاق النافذة دونما استعانة بصيغة تلطف من الأثر التهديدي لهذا الطلب كما إذا قال: "أطلب منك أن تغلق النافذة؟"

د- قد يطلب المتكلم من المستمع إغلاق النافذة مع التوسل بصيغة تحفظ الوجه الدافع (السلبي) لهذا المستمع كأن يقول: "هل لك أن تغلق النافذة؟"

هـ- قد يمتنع المتكلم عن أن يطلب إغلاق النافذة، لأن في الطلب مخاطرة بالوجه تضر به أو تضر بالمستمع¹.

8-3- مبدأ التأدب الأقصى عند جيوفري ليتش

إنطلق ليتش في سعيه إلى إقامة فن خطابة تفاعلية مؤثرة من مبدأ التعاون مطعماً إياه بمبدأ فن التأدب والكراسة، وبأساليب لسانية يعتمد عليها المتحاوران لتحسين السلوك التحواري من الانزلاق نحو نتائج غير مؤدبة. ويمكن أن نمثل لهذه الأساليب بصيغ من قبيل: "هل تسمح أن أسألك؟" و"هل يمكنني أن....؟" و"إني آسف أن...." و"فضلاً منكم"، و"أريد أن أشكرك...."، وغيرها من الوجوه اللسانية التي تتجنب التلفظ بالفعل الكلامي المباشر الذي تخلو عبارته من سمات التلطف.

ومن المبادئ التحوارية التي تحضر في الخطابة التفاعلية إلى جانب مبدأ فن التأدب واللفظ ومبدأ التعاون، نذكر مبدأ السخرية والدعابة. هذا المبدأ تبدو وظيفته مخالفة لوظيفة مبدأ التأدب ومخلة بمبدأ التعاون، وذلك إذا اقتصرنا على الجانب التهكمي الذي ينحو منحى عدم الأدب، وكذلك إذا نظرنا إلى الجانب الهزلي الذي هو نوع من السخرية الأقل حدة من التهكم، لكن من منظور ليتش، قد يكون للتهكم "وظيفة إيجابية لسماحة ظهور العدوان في أدنى صورته اللفظية الخطرة من النقد المباشر والقذف والتهديد.....". ذلك لأنه إذا كان "يؤدي الشتم بسهولة إلى الرد بمثله ومن ثم إلى الصراع، فإن الإشارة الساخرة أقل سهولة من الرد على نوعها أو بمثله، لأنها تقرن فن الهجوم مع براءة ظاهرة أشبه ما تكون بشكل من أشكال الدفاع عن النفس". إلى جانب مبدأ السخرية بنوعيهما التهكم والهزاء، يوجد مبدأ الدعابة الذي يؤدي وظائف قد تخل بمبدأ التأدب، وتساهم في الوقت نفسه في تعزيز روابط الصداقة. فحين تصل العلاقة بين الأصدقاء إلى درجة الدفء والألفة، ينقص حسن التأدب وتثار الدعابة والنكتة، مما يساعد على إثبات العلاقة والحفاظ عليها².

¹ - D. Maingueneau, Analyser les textes de communication, p 24.

² - جيوفري ليتش، مبادئ التداولية، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، 2013، ص 187 - 189 - 190.

وبهذا يكون مبدأ السخرية والدعابة مساهما في بناء نموذج للتداولية العامة التي تسع مجموعة من المبادئ التحاورية وعلى رأسها مبدأ التعاون، ومبدأ فن التأدب واللفظ أو الكياسة. هذا المبدأ الأخير الذي يركز عليه الحديث في مبحثنا هذا، تنبثق منه مجموعة من القواعد، هي:

- أ- قاعدة اللباقة، وفحواها تقليل الخسارة للآخر، والإكثار من ربحه؛
- ب- قاعدة السخاء، وتروم تقليل الربح للذات، والإكثار من خسارتها؛
- ج- قاعدة الاستحسان، وتقوم على التقليل من ذم الآخر، والإكثار من مدحه؛
- د- قاعدة التواضع، وتحت على التقليل من إطرء الذات، والإكثار من ذمها؛
- هـ- قاعدة الاتفاق، وصورتها هما التقليل من الاختلاف بين الذات والآخر، والإكثار من الاتفاق بينهما؛
- و- قاعدة التعاطف، ويمثل لها بتقليل التنافر بين الذات والآخر، والإكثار من التعاطف بينهما¹.

من خلال صيغ قواعد التخاطب المتفرعة عن مبدأ فن التأدب عند ليتش، نلاحظ أن هذا المبدأ الذي يعد مكملا لمبدأ التعاون، يمكن صياغته في صورتين: صورة سلبية مدارها التقليل من الكلام غير المؤدب، وصورة إيجابية مدارها الإكثار من الكلام المؤدب. ويرى ليتش أن مبدأ التأدب يضمن الحفاظ على الصلة الاجتماعية التي هي شرط في التعاون، وأنه "يترجح على مبدأ التعاون متى وقع التعارض بينهما". فقواعد التخاطب الكرايسية قد لا تفي بغرض المتكلم في نهوض المخاطب إلى إنجاز فعل ما، بل قد توقع في النزاع في حال التصريح من قبل المتكلم بفعل الأمر متبعا قواعد مبدأ التعاون التي تقضي بالإيجاز، عكس قاعدة اللباقة التي تقضي بالتعبير المستفيض الذي يمنح المخاطب الاختيار في إنجاز ما طلب منه. ونسوق هنا أمثلة لصيغ تعبيرية دالة على الأمر:

¹ - جيوفري ليتش، ص 174.

أ- ناولني قلمك؟

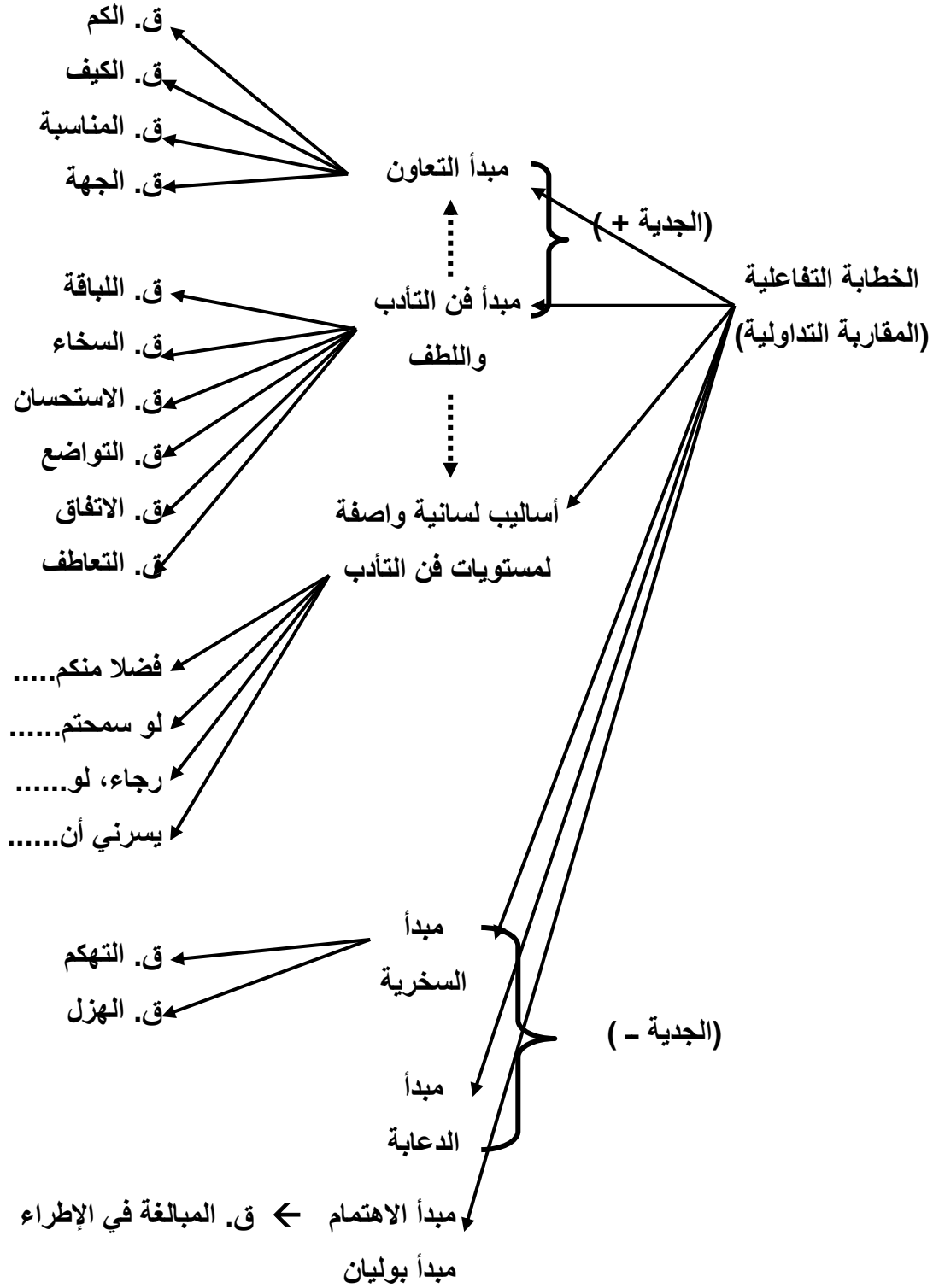
ب- هل تستطيع أن تناولني قلمك؟

ج- فضلا منك، وددت لو أنك ناولتني قلمك.

فالمفوظ (أ) يدل على المعنى الصريح لفعل الأمر، وهو أقل كلفة في القول مقارنة بالمفوظين (ب) و(ج). وقد يعرض المتلفظ به للمنازعة في حال رفض الاستجابة لطلبه. بينما يفتح المفوظ (ب) للمخاطب باب الاستجابة للطلب أو تعليق استجابته من خلال الجواب بنعم أو لا. ويبدو المفوظ (ب) أوفر حظا من (أ) في عدم التعرض للنزاع ونجاعة التخاطب، وذلك لكونه يتسم باللباقة. في حين يظل المفوظ الأخير (ج) أكثر لباقة من سابقه. وقد يُكسب التعبير المطول والتأدب في الطلب من خلال انتقاء المفردة التي تستطيعها نفس السامع هذا المفوظ (ج) فاعلية وتأثيرا في متلقيه، فيبادر بتلبية طلب السائل.

من خلال هذه الأمثلة التي عرضنا، نستطيع القول إن قواعد التأدب هي الحلقة المفقودة في سلسلة القواعد المشكلة لمبدأ التعاون الذي صاغه بول كرايس، نظرا لما للجانب التهذيبي من قوة تأثيرية في سلوك الأفراد، مما يسهل عملية استجاباتهم وتفاعلهم مع مخاطبهم الذي راهن على ما هو خلقي، إضافة إلى اهتمامه بالجانب التبليغي. هذه القواعد المتعلقة بالتأدب كما رأينا، جاءت تكملة لقواعد التخاطب المتفرعة عن مبدأ التعاون عند كرايس، وقد تترجح على قواعد التخاطب هذه، وهو ما يدعيه طه عبد الرحمن من خلال مقترح مبدأ التصديق الذي سنتناوله مباشرة بعد مقترح مبدأ التأدب والتلطف عند ليتش. إضافة إلى ما ذكرنا، نستطيع القول أيضا إن مقترح ليتش قد غطى مساحات شاسعة في مجال الخطابة التفاعلية التي تنهض على دراسة اللغة باعتبارها نظاما تواصليا يسع مبادئ تحاورية، وطرائق اشتغال متنوعة تفضي مجتمعة إلى بناء نموذج خطابي تواصلية. نموذج بقدر ما يقدم حولا لإشكالات، بقدر ما يراعي المشاعر ويعزز الصداقات ويضبط التوازنات داخل المجموعات الاجتماعية.

وإليك خطاطة للنموذج الخطابي التفاعلي عند ليتش، خطاطة استقيناها من كتابه: "مبادئ التداولية"¹. هذا النموذج يركز على مكونات، منها مبدأ فن التأدب واللفظ الذي تتفرع عنه مجموعة من القواعد، نرسم إليها وباقي القواعد الأخرى بالحرف ق.



¹-جيو فري ليتش، مبادئ التداولية، ص 27.

يتضح من خلال هذه الخطاطة أن ليتش لم يقدم مبدأ التأدب بديلاً عن مبدأ التعاون الذي اقترحه كرايس، ولكن قدمه باعتباره مكماً له. وقد أقر بوجود "جانب آخر من هذا الموضوع أهمله الفصل - يعني الفصل المخصص لفن الخطابة التفاعلية -، وهو الدراسة التصنيفية للثقافات واللغات في علاقتها مع الخطابة التفاعلية بين الأشخاص"¹، وأقر بتأثير المناخ الثقافي والمجتمعي واللغوي ودوره في تغليب مبدأ من مبادئ التأدب واللفظ، لكنه سرعان ما أكد أن الأمور المتعلقة بمنح ثقافات معينة قيماً محددة لمجتمع ما، مثل منح الثقافة الشرقية لقيم مبدأ التواضع، وسريان مبدأ الجود والكرم في حوض البحر الأبيض المتوسط، هذه الأمور يعتبرها نسبية و"تظل غير واضحة في تفاصيلها"². وهذا ما جعل ليتش يقول ب"خطابة تفاعلية بين الأشخاص تقدم إطاراً يجعل البحث فيها ممكناً على نحو جامع ومنظم"³. ويختم ليتش حديثه وهو يعلق على ما جاء في الفصل، الذي تناول فيه المبادئ المنضوية تحت قواعد فن التخلق والجود والكرم والاستحسان والتواضع والوفاق والتعاطف وغير هذه من القواعد، يختم بتعليق حول ثنائية مبدأ بوليان ومبدأ الاهتمام⁴. هذا المبدأ الأخير يقوم على العناية بالمعنى غير المتوقع، إذ يعتمد المتكلم إلى الإيغال في تضخيم الحكاية من خلال تطريزها وتحسينها بشكل يقطع مع الأسلوب الممل الذي كان يتوقعه المستمع. (أنت بحر في الجود). أما مبدأ بوليان فهو مصطلح معروف لدى علماء النفس بفرضية (Pollyanna)، و"يثبت هذا المبدأ أن الناس يفضلون أن ينظروا في الجانب المشرق من الحياة بدل أن ينظروا إلى الجانب المتشائم منها"⁵. وهذا ما يجعل المتخاطبين يؤثرون العبارة التفاؤلية والتلطيفية.

4-8- مبدأ التصديق عند طه عبد الرحمن

ينطلق طه عبد الرحمن في تأسيسه لمبدأ التصديق من قاعدة مشهورة في التراث الإسلامي متمثلة في الربط بين القول والفعل، بل في مطابقة القول للفعل، وتصديق العمل للكلام. وقد صاغ طه هذا المبدأ على الشكل الآتي: "لا تقل لغيرك قولاً لا يصدقه فعلك"، وهو

¹ - أن روبول وجاك موشلار، مبادئ التداولية، ص 197.

² - نفسه.

³ - نفسه.

⁴ - نفسه.

⁵ - نفسه.

مبدأ يختلف عن مبدأ الكيف عند كرايس، الذي يقتضي "أن لا تقل إلا ما تعتقد صدقه"، إذ الفرق شاسع بين الاعتقاد بصدق الشيء وبين تصديق العمل له. ويرى طه أن مبدأ التصديق ينبني على عنصرين اثنين، هما "نقل القول" وهو متعلق بالجانب التبليغي، و"تطبيق القول" الذي هو مرتبط بالجانب التهذيبي من التخاطب. وجعل القواعد المتفرعة عن هذا المبدأ صنفين: قواعد تواصلية وأخرى تعاملية. فأما التواصلية¹ فهي:

- أ- ينبغي للكلام أن يكون لداع يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع أو دفع ضرر؛
- ب- ينبغي أن يأتي المتكلم به في موضعه ويتوخى به إصابة فرصته؛
- ج- ينبغي أن يقتصر من الكلام على قدر حاجته؛
- د- يجب أن يتخير اللفظ الذي به يتكلم.

وأما القواعد التعاملية، فقد صاغها طه على الشكل الآتي:

- أ- قاعدة القصد، وصورتها: لتتفقد قصدك في كل قول تلقى به إلى الغير؛
- ب- قاعدة الصدق، وصورتها: لتكن صادقاً فيما تنقله إلى غيرك؛
- ج- قاعدة الإخلاص، وصورتها: لتكن في توددك للغير متجرداً عن أغراضك².

يرى طه أن قاعدة القصد تقضي بوصل المستوى التبليغي بالمستوى التهذيبي للمخاطبة، كما تقضي بإمكان الخروج عن المعنى المباشر للقول. ويضيف أن قاعدة القصد هذه "تأخذ بعنصر العمل من الجانب التهذيبي، سواء من جهة المتكلم أم من جهة المخاطب" اللذين عليهما أن يلتزما بضوابط التهذيب والتبليغ لتحقيق الغاية من الكلام. وأما قاعدة الصدق، فمدارها الصدق في نقل الخبر والصدق في العمل، أي تجسيد السلوك للوصف الذي يتصف به المتكلم ثم مطابقة القول للعمل مع عدم شعور المخاطب بوجود تفاوت بينهما. بعد قاعدتي القصد والصدق، ننظر في قاعدة أخرى متفرعة عن مبدأ التصديق، وهي قاعدة الإخلاص

¹ هذه القواعد التواصلية نقلها طه عن الماوردي كما صرح هو بذلك، ينظر: أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقا، دار الفكر بيروت، ص 266-270. وينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 249-250.

-إذا كانت القواعد التواصلية تبليغية، فإن القواعد التعاملية تهذيبية تلتقي مع قواعد التأدب وقواعد التواضع حول مجموعة من المضامين، مع تفرد قواعد التعامل باعتبار عنصر التصديق بالفعل والعمل.

² اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 251.

التي تقضي بتقديم المتكلم حقوق مخاطبه على حقوقه. وهذا الإيثار لا يترتب عليه ضياع حقوق، وإنما يكون باعثاً نحو التنافس في التخلق، حيث "كلما زاد أدب أحدهما، دعا ذلك الآخر إلى الزيادة فيه، فلا تنقصه زيادة أدبه شيئاً، وإنما ترفعه في عين الآخر رفعا"¹، وهذا من شأنه أن يخلق تقرباً صادقاً وخالصاً بين المتحاورين.

نخلص في هذا المبحث المتعلق بمبدأ التأدب وقواعده إلى أنه بعدما لوحظ قصور مبدأ التعاون وقواعد المحادثة عن ضمان نجاعة تفاعل إيجابي بين المتخاطبين، قد وجهت إليهما انتقادات أهمها أنهما اهتمتا فقط، بالجانب التبليغي للتخاطب وأهملتا الجانب التهذيبي. ولتدارك هذا القصور، اقترحت لأكوف مبدأ التأدب، وفرعت عنه ثلاث قواعد هي: قاعدة التعفف وقاعدة التشكيك ثم قاعدة التودد. ولأن هذا المبدأ لم يسلك سبيل التغيير السلوكي لدى المتخاطبين مهملتا الجانب العملي والإصلاحي، فقد اقترح كل من براون وليفنسن مبدأ "الحفاظ على الوجه" الذي يسميه طه "مبدأ التواجه". ومفهوم الوجه عند صاحبي المبدأ يمثل "الإرادة الأساسية التي يتحدد بها الفرد، والتي هي رغباته في دفع الاعتراضات... ورغباته في جلب الاعترافات"². وهذا يعني أن هناك جهداً يبذله المتكلم لتحقيق غاية يقصدها. ولتحقيق هذه الغاية، فإنه يسلك خطة من الخطط التخاطبية الخمسة المقترحة من لدن براون وليفنسن، اللذين وإن أوليا اهتماماً بالجانب العملي من التهذيب الذي أهملته لأكوف، فإنهما لم يعتنيا بالبعد التقريبي من العمل التهذيبي كما يرى طه.

إضافة إلى الاقتراحين، قدم ليتش نموذجاً متمثلاً في مبدأ فن التأدب واللياقة (اللطيف)، ومبدأي السخرية والدعابة، ومبدأ الاهتمام، ومبدأ بوليان، وقد عبر طه عن هذا النموذج بمبدأ التأدب الأقصى الذي اهتم بالحفاظ على الصلة الاجتماعية، وسعى إلى تحقيق التقرب من

¹- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 252.

- عن الوصل بين المستويين التهذيبي والتبليغي، يقول طه: "إن المتكلم، متى تبين حقيقة قصده من قوله، أثمر عنده هذا التبين نتيجتين تقوم إحداها في تعيين وظيفته العملية أو قل تحدد مسؤوليته الأخلاقية، وتقوم النتيجة الثانية في صيانة قوله عن اللغو بجعله يعمل عمله في إفادة المخاطب المعنى المقصود منه".

- يرى طه عبد الرحمن أنه لا تقرب للمتكلم من مخاطبه بوجود التهديد الذي جاءت الخطط التخاطبية للتخفيف من آثاره على الوجه.

²- نفسه، ص 245.

المخاطب معتبرا إياه شرطا في التعاون. وقد أخذ طه على هذا المبدأ كونه انبنى على مفهوم الخدمات والمصالح من خلال إشارته إلى خاصية الربح والخسارة أثناء الحديث عن قاعدتي اللباقة والسخاء، مما جعل من "العمل التهذيبي للتخاطب عملا أشبه ب"المعاملة التجارية" منه بالتعامل الأخلاقي"¹. وهذا من شأنه أن يجرد العمل التهذيبي من الصدق والإخلاص اللذين يعتبران عاملين رئيسيين في توطيد الصلة الاجتماعية بين المتخاطبين وإثمار تفاعلهم. وفي محاولة لتدارك ما اعتري مقترحات كل من لأكوف، وبراون وليفنسن، وليتش من قصور في سعيهم إلى إقامة خطابة تفاعلية مؤثرة ومثمرة تنطلق من قواعد تخاطبية جامعة بين الجانب التبليغي والجانب التهذيبي، اقترح طه مبدأ التصديق الذي أولى اعتبارا للصدق والإخلاص بوصفهما عاملين يساهمان في الارتقاء بالجانب التهذيبي من التخاطب، بعد إخراجه من "مرتبة"التأدب الاجتماعي" المغرض والذي لا يتجاوز الكياسة والمجاملة والمداراة إلى مرتبة "التخلق" المخلص الذي ينشد الكمال في السلوك"².

ولئن تعددت مقترحات الباحثين واختلفت الاعتبارات، إذ منهم من لم يتعد الجانب التجريدي من التهذيب دون الاهتمام بالجانب العملي منه، ومنهم من أدرج هذا الجانب الأخير ضمن اهتمامه، ومنهم من أقام الاعتبار لبعد التقرب من المخاطب، إضافة إلى من شغله عنصر الصدق والإخلاص، رغم هذا التعدد فإن الباحثين يعتبرون مقترحاتهم تعصيда لقواعد التخاطب المتفرعة عن مبدأ التعاون، الذي هو نقطة الارتكاز بالنسبة للخطاب التواصلية التفاعلية. هذا المبدأ وقواعده شكلا نقطة الانطلاق نحو التفكير في بناء نظرية الاستلزام التخاطبية التي أولت اهتماما بقضايا الاستدلال والمقصدية، والتي مهدت بدورها الطريق لانفتاح التداولية على حقول معرفية مثل الذكاء الاصطناعي، والبرمجة اللغوية العصبية، وعلم النفس المعرفي الذي قدم نموذجا لمعالجة المعلومات وتأويلها، مستثمرا مفهومي الحوسبة والقالبية أو المنظومية في مقاربة الظواهر اللغوية. وقد شكل مفهوم القالبية عند جيرى فودور، إلى جانب قاعدة المناسبة ومفهوم الاستدلال عند كرايس، منطلقا للتفكير في تأسيس نظرية المناسبة أو الصلة من قبل سبربر وويلسن.

¹ - اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 248.

² - نفسه، ص 253.

9- نظرية المناسبة عند دان سبربر وديدر ويلسن

9-1- المناسبة ومفهوما القالبية والاستدلال

تجاوز سبربر وويلسن طرح فودور الذي يميز فيه بين النظام الطرفي والنظام المركزي إلى القول بالقالبية المعممة¹ التي تقضي بعدم التمييز بين النظامين. فمع هذه القالبية، أصبحنا أمام منظومات تعالج معطيات الإدراك، ومنظومات مدخلها ومخرجها معطيات تصورية. هذه المنظومات التصورية تصلح أن تكون مدخلا لمنظومة أخرى من النوع نفسه. فالمعطيات اللغوية التي توصلها النواقل العصبية إلى القالب اللساني تترجم إلى نسق دال، يعالجه نظام متخصص في ما هو لغوي في مرحلة أولى قالبية - مرحلة التأويل الأولى - يكون خرجها بنية منطقية. هذه البنية تغدو في المرحلة الثانية دخلا لمنظومة تصورية، حيث ينشط الاستدلال وتُبنى فرضيات حول قصد المتكلم، منطلقا من مقدمات متمثلة في البنية المنطقية للقول وفي السياق مجتمعين. والسياق، حسب سبربر وويلسن، هو مجموعة من "المعارف الموسوعية، التي تتوصل إليها من خلال مفاهيم الصيغة المنطقية، ومن المعطيات التي يمكن إدراكها مباشرة والمستقاة من المقام أو المحيط المادي، ومن المعطيات المستقاة من تأويل الأقوال السابقة"². ويرى هذان العالمان أن السياق ليس أمرا معطى دفعة واحدة، وإنما يتشكل قولا إثر قول، وذلك لأن المفاهيم في البنية المنطقية تستدعي البحث في العلاقات المنطقية التي يقيمها المفهوم مع مفاهيم أخرى (تناقض، استلزام، تضمين...)، وتستدعي استحضار المعلومات المتوفرة لدينا عن الأشياء التي توافق المفهوم أو المفاهيم القائمة في الصيغة المنطقية. يمكن القول إذن إن السياق يتشكل من المعلومات المستقاة من مفاهيم الصيغة المنطقية، وعندما يتشكل من المعلومات المتعلقة بالمحيط المدرك من نتيجة تأويل الأقوال السابقة، فإن الصيغة المنطقية للقول تنضاف إلى كل هذا مكونة مقدمة منطقية إضافية، وحينئذ

¹ - حول كيفية اشتغال ذهن البشري عند تلقي المعلومة، قدم جيرري فودور تصويره من خلال طرحه لمفهوم القالبية (Modularity)، فهو يرى أن ذهن يحتوي على نمطين من الأنظمة: أنظمة طرفية - أنساق الدخل - تحتوي على قوالب مختصة في معالجة المدركات الحسية، ونظام أو نسق مركزي يتم فيه التأويل النهائي. وتتحقق عملية التأويل بمقارنة المعلومات مع معلومات سابقة، أو معلومات وفرتها أنظمة طرفية، كما تتحقق نتيجة عمليات استدلالية.

ينظر: كتاب "التداولية اليوم، علم جديد في التواصل"، للباحثين روبول وموشلار، ص 74 - 75.

² - التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ص 77.

تطبق العمليات الاستدلالية الضرورية لتمكن من التوصل إلى نتيجة ما أو عدة نتائج تتم تأويل القول¹.

استوحى سبربر وويلسن مفهوم الاستدلال غير البرهاني من كرايس من خلال نظرية الاستلزام التخاطبي، التي يقضي فيها الانتقال من المعنى المباشر إلى المعنى المستلزم قيام المخاطب بفعل تأويلي ينهض على استدلالات تفضي إلى مقصد المتكلم. إضافة إلى الاستدلال، توجه اهتمام الباحثين نحو مسألة كان قد تناولها سورل، تتعلق بمفهوم المقصد المزدوج الذي قامت عليه الدلالة غير الطبيعية عند كرايس، وهو مقصد الإخبار بالمحتوى ومقصد تحقيق هذا المقصد. وقد ميز الباحثان بين المقصد الإخباري وبين المقصد التواصلية حين ذكرنا أن المقصد الأول هو ما يقصد إليه المتكلم من حمل لمخاطبه على معرفة خبر معين، وأن الآخر هو ما يقصد إليه المتكلم من حمل لمخاطبه على معرفة مقصده الإخباري². وقد ارتبط بهذين المقصدين مفهوم التواصل الإشاري الاستدلالي - يسميه هشام الخليفة التواصل الإظهارية الاستدلالي -، الذي يسع كل أشكال التواصل اللساني وغير اللساني. وهو يعرف على النحو الآتي: "يوجد تواصل إشاري استدلال في عندما يبلغ شخص ما شخصا آخر بواسطة عمل معين مقصده المتمثل في إبلاغه معلومة معينة"³.

1- التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ص78.

« ...Moreover, it is generally assumed that the contexte is determined in advance of the comprehension process »

- ورد هذا القول في معرض التساؤل عن السياق، أهو يعطى دفعة واحدة أم يبني ويتشكل مع تقدم العملية الاستدلالية؟ وقد صاغ سبربر وويلسن عنوانا فرعيا في صيغة سؤال:

- Is the context given or chosen ?

D. Sperber & D. Wilson, Relevance, Communication & Cognition, Blackwell, second édition, 1995, P 132 – 133.

2- التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ص 79.

3- نفسه، ص 80.

- تحدث كرايس عن الدلالة الطبيعية والدلالة غير الطبيعية التي أولاها اهتماما أكثر، وهي مرتبطة بنوايا المتكلم التي يسعى المستمع - المخاطب - إلى إدراكها. ونسجل هنا أن سورل هو الآخر تحدث عن المقصد المزدوج الذي قامت عليه الدلالة غير الطبيعية في معرض الكلام عن "بنية مقصديات المعنى" (Structure des intentions de sens) ، في الفقرة السادسة من كتابه:

- Searle J.R, L'intentionnalité, Essai de philosophie des états mentaux, traduit de l'américain par Claude Pichevin, éd. Minuit, Paris, 1985, p 200.

- يرى سورل أن فهم المخاطب لنوايا المتكلم يؤسس على الدلالة التواصلية التي يميزها عن الإشارة وعلى المحتوى الإخباري، في حين يرى كرايس أن الفهم يتجاوز دلالة المواضعة إلى عمليات الاستدلال التي تخضع إلى السياق المقامي.

9-2- المناسبة ومفهوم التواصل الإشاري الاستدلالي¹

يعتبر مفهوم التواصل الإشاري الاستدلالي مفهوماً تداولياً معرفياً، إذ يحضر منتج الخطاب من خلال الفعل الإشاري الذي ينجزه، كما يحضر في الآن ذاته المخاطب من خلال فعل الاستدلال الذي يتوسل به في فك شفرة الإشارة وبلوغ مقصد منتج الخطاب. وهذا المفهوم اقترحه سبربر وويلسون باعتباره يحتوي على مبدأ عام هو مبدأ المناسبة الذي يسمى أيضاً مبدأ الصلة، وهو "يمثل أساس العملية الاستدلالية لتأويل الأقوال التي تجري في النظام المركزي وهي عملية غير واعية. فكل قول يولد لدى المخاطب انتظار المناسبة الخاصة به (أي القول)"². وكون العملية غير واعية، فهذا يعني أن المخاطب يستعمل مبدأ المناسبة بغير وعي أثناء عملية التأويل، وذلك لأن النظام المركزي الذي ينشط فيه التأويل "قائم على السعي إلى المناسبة، وإلى جعلها مناسبة قصوى، أو بعبارة أخرى، إن اشتغاله قائم على المردودية"³، أي الإنتاجية التي سنتناولها في هذا المبحث.

نسوق هنا مثالا قدمه موشلار وروبول يجسد القيام بفعل التواصل الإشاري الاستدلالي. فقد ذكروا أن ساكنا محليا قام بتحذير سائحة أجنبية من خطر متمثل في سحب منذرة بزوابع عنيفة، بشدها من كمها وهو يشير إلى السحب⁴.

الساكن المحلي

1- يشير إلى السحب.

2- السحب مناسبة للساكن المحلي بمقتضى معارفه.

¹ - التواصل الإشاري الاستدلالي مفهوم يقابل المصطلح الأجنبي (Ostensive-inferential communication) وهو مرتبط بالمقصدين الإخباري والتواصلية معا. وتحت عنوان: كيف تفسر نظرية المناسبة التواصل الإشاري الاستدلالي، ذكر سبربر وويلسون أن الذي يقوم بإصدار منبه إشاري يروم تحقيق قصدين: قصد إخباري يتبين خلاله مجموعة من الافتراضات القصدية، وقصد تواصلية بحيث يكون القصد الإخباري معلوما لدى المتواصلين بشكل متبادل.

- A communicateur who produces an ostensive stimulus is trying to fulfil two intentions : first, the information intention, to make manifest to her audience a set of assumptions I (Intention) ; and second, the communicative intention, to make her informative intention mutually.

1- D.Sperber & D.Wilson, Relevance, Communication & Cognition, p 163.

² -التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ص 83.

³ - نفسه، ص 86.

⁴ - التداولية اليوم، ص 80 – 81.

3- فعله التواصلي الإشاري تمثل في شد السائحة من كمها، فحركته ولدت انتظارا لمناسبة، وكانت غايته لفت انتباه السائحة نحو السحب وتحذيرها من خطر متوقع.

السائحة الأجنبية

- 1- تعرف هذه السحب، ولكن إشارة الساكن المحلي أكسبتها دلالة ما.
- 2- السحب غير مناسبة لها، ثم أضحت مناسبة نتيجة للفعل الإشاري للساكن.
- 3- القصد من إخبار الساكن المحلي للسائحة تحذيره إياها من خطر متوقع، ودفعها إلى القيام بفعل يقيها الخطر إذا ما حدث.

في هذا المثال الذي ذكرناه، تمثل الحركة التي قام بها الساكن المحلي فعل تواصل إشاري استدلالي ولّد انتظارا للمناسبة. هذه الحركة استهدفت لفت انتباه المخاطب إلى السحب التي أصبحت "تكتسب مناسبة معينة" وتكتسب بالتالي دلالة من لدن المخاطب التي هي السائحة، بعدما لم تكن هذه السحب تحظى باهتمام هذه الأخيرة. وقد يقود فعل هذا التواصل إلى بناء استدلالات تفضي إلى نتيجة أو مجموعة من النتائج من قبيل:

- أ- قد تكون السحب مصحوبة بزوابع خطيرة.
- ب- قد يكون قصد الساكن المحلي التحذير من خطر وشيك الوقوع.
- ج- قد يريد مني هذا الساكن اللجوء إلى مكان آمن.....

3-9 - درجات المناسبة؛ النتيجة والجهد

يرى سبربر وويلسن أن فعل التواصل الإشاري الاستدلالي يحفز المخاطب على بذل جهد ذهني لإدراك غاية هذا الفعل، وذلك من خلال بناء استدلالات تفضي إلى استنتاجات. وهما يريان أن المناسبة هي مسألة جهد ونتيجة، فهي تتأسس على مسألة الإنتاجية، أي المردودية. فكلما تطلّب فعل التواصل الإشاري الاستدلالي جهدا تأويليا أقل، ازدادت مناسبته. وكلما كان لفعل التواصل نتائج أو آثار سياقية أكثر، ازدادت مناسبته. وبالتالي يكون فعل التواصل هذا أقل مناسبة، كلما زادت الجهود التأويلية وقلت النتائج¹. تحت العنوان الفرعي:

¹ - D.Sperber & D.Wilson, Relevance, Communication and Cognition, p 123- 132.

"درجات المناسبة؛ الأثر (النتيجة) والجهد"، يجعل سبربر وويلسن مدار الحديث حول الجهود التأويلية التي يبذلها الذهن البشري والنتائج أو الآثار السياقية التي يحصل عليها المخاطب بعد هذه الجهود. وتتمثل النتائج السياقية التي هي استنتاجات يتوصل إليها عبر العملية الاستدلالية في:

أ- إضافة معلومات جديدة ويسمى سبربر وويلسن استلزامات سياقية.

ب- تعزيز معلومة، بحيث تزداد قوة الاقتناع بها.

ج- إلغاء معلومات مخزنة تتناقض مع معلومات جديدة أكثر إقناعاً.

يمكن القول إذن بأن المناسبة فكرة تتأسس على مسألة الإنتاجية، ويراهن فيها كثيراً على الجهود التي يبذلها المخاطب في تأويل فعل التواصل الإشاري الاستدلالي. والتأويل عملية استدلالية غير برهانية، مما يدل على أن النتائج المترتبة على هذه العملية قد لا تتوافق مع مقاصد منتج الخطاب. وهذا يعني أن مبدأ المناسبة المتولد عن التواصل الإشاري الاستدلالي ليس مبدأ معيارياً. وهذا لا يعني أن العملية الاستدلالية لا تتقيد بشروط ولا تخضع لإكراهات، بل إنها تنطلق من مقدمات منطقية إلى جانب السياق، الذي يستلزم الانطلاق من فرضيات متعددة يتم إقصاء بعضها أثناء العملية التأويلية وإبقاء أخرى تبدو منسجمة مع سياق التلفظ.

يتضح أن السياق في مبدأ المناسبة عنصر هام وحيوي، يوجه الفعل الاستدلالي ويساهم في تجذير المعنى النهائي الذي تنتهي إليه العملية الاستدلالية التأويلية. والسياق، حسب سبربر وويلسن، يتشكل من مقام التواصل ومعتقدات المخاطب وتأويل الأقوال السابقة. ويؤكد أن السياق يُبنى لحظة الانخراط في عملية الاستدلال، وسنعرض في المبحث التالي للحديث عن السياق وإسهامه في بناء المعنى، لكن دعنا الآن نُشر إلى أهم الملاحظات التي حصلنا عليها في هذا المبحث المتعلق بنظرية المناسبة.

أ- يوافق الحديث عن وجود مرحلتين: ترميزية واستدلالية حسب سبربر وويلسن، الحديث عن وجود نسقين عند اشتغال الذهن البشري هما أنساق الدخل والنسق المركزي حسب فودور.

ب- تجاوزت نظرية المناسبة التمييز الذي أقامته التداولية بين المعنى الحرفي والمعنى الاستلزامي الناتج عن خرق إحدى قواعد المحادثة عند كرايس؛ فهي ترى أن الاستلزام ليس

متولدا عن المعنى الحرفي، وإنما يبينه السياق من خلال فرضيات يستحضرها المخاطب، ويُخضعها لسيرورة تأويلية يتم عبرها الإبقاء على ما بدا من هذه الفرضيات، موصلا إلى مقاصد منتج الخطاب.

ج- لم يعد يُنظر إلى السياق باعتباره ثابتا، وإنما هو يُبنى.

د- يرتبط مبدأ المناسبة بالمردودية أو الإنتاجية التي يتم تقييمها من خلال معيار الجهد والنتيجة، بحيث يكون القول أو الفعل الإشاري الاستدلالي مناسبا، كلما كان الجهد الذي يبذله المخاطب في التأويل أقل مع التوصل إلى نتائج أكثر.

هـ- بعد الانفتاح على نظرية المناسبة، تبدو التداولية أقرب إلى العلوم المعرفية منها إلى اللسانيات.

9-4- السياق وإسهامه في المعنى

يقول براون ويول: "بقدر ما يعرف المحلل أكثر ما يمكن من خصائص السياق، بقدر ما يحتمل أن يكون قادرا على التنبؤ بما يحتمل أن يقال"¹. ففي السعي نحو المعنى، لا نكتفي بمعالجة دلالات الخطاب وحدها، ولكن نهتم أيضا بمحيط الخطاب من حيث الزمان والمكان وأحوال المشاركين في الخطاب وخلفياتهم الثقافية والإيديولوجية وكل ما له علاقة بإنتاج الخطاب. هذه العناصر كلها معطيات سياقية تساهم في إنتاج المعنى، وهذا ما أثار اهتمام المشتغلين في الحقل التداولي وفي كثير من الحقول، الذين يهتمون بتحليل الخطاب ودراسته دراسة سياقية.

1-4-9- السياق عند سبرير وويلسن

يتشكل السياق حسب سبرير وويلسن من مجموعة من المكونات، منها مقام التواصل، والمعرفة المتوفرة في ذهن المخاطب حول الموضوع المقترح، وتأويل الأقوال السابقة التي يستحضرها المخاطب، وتأويل الأقوال التي تتولد تدريجيا بين المتخاطبين. ويطرح موضوع

¹ براون ويول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، الرياض، 1997، ص 35.

يخصص سبرير وويلسن فقرة من كتابهما للحديث عن السياق بعنوان: "Is the context given or chosen?" ينظر كتابهما المشار إليه آنفا، ص 132 - 140.

السياق الذي ينظر إليه الباحثان باعتباره يبنى، إشكالا حول كيفية البحث عن المعنى. فإذا كان السياق يبنى بطريقة مستمرة من خلال ما يكشف عنه المتحاورون من معلومات، فهذا يعني أنه غير ثابت وأنه يتم اختياره عبر سلسلة من العمليات الاستدلالية. هذا الاختيار يترتب عنه تحديد وجهة مسار الاستدلال المفضية إلى معنى قد يتغير بتعديل الاختيار السابق. يبدو إذن أن هذا التعريف للسياق يجعل صاحبيه يتفردان عن الباحثين الذين نظروا إلى السياق باعتباره معطى غير مختار. وإذا كان سبربر وويلسون يتفردان بالقول إن السياق يُختار ويُبنى، فإنهما يتبنيان الطرح السائد حول أهمية السياق في فهم الخطاب وتأويله وبلوغ مقصد منتجته.

2-4-9- السياق عند فرنسواز أرمنكو

ميّزت أرمنكو بين خمسة أنواع من السياق، هي:

- أ- السياق الكلامي.
- ب- السياق الظرفي، ويتعلق بالمحيط الزماني والمكاني الذي أنجز فيه الخطاب.
- ج- السياق المقامي، ونعني به الظروف الاجتماعية التي تحيط بالخطاب.
- د- السياق التفاعلي، ويقصد به التخاطب الذي يُستحضر فيه طرفان يتداولان الفعل الكلامي.
- هـ- السياق القضوي، وهو مجموعة من الافتراضات يقترحها المتخاطبون أثناء الحوار، وتقدم باعتبارها شروطا حوارية، وهي تشمل كلا من الأفكار المعروفة سابقا، والأفكار التي أصبحت تدريجيا معروفة بين المتخاطبين¹.

إضافة إلى هذه الأنواع من السياق، نجد من الدارسين من أدرج السياق النفسي أو العاطفي، الذي يحدد درجة القوة والضعف في الانفعال، كأن تدل قوة الانفعال على الغضب أو شدة الفرح. ويهتم فيه كذلك، بالأداء الصوتي الذي يشحن الكلمات بمعان انفعالية عاطفية تحول وجهة الدلالة اللغوية. وهناك مفهوم آخر للسياق تجاوز بدرجة كبيرة مفهوم السياق أو

¹- Armengaud Françoise, *Éléments pour une approche pragmatique de la pertinence*, Philosophica, 1982, p 3 - 24.

- نعتقد أن هذا التعديل في مسارات السياق الذي تحدث عنه سبربر وويلسن، لا يحصل إلا في المحاورات الخطابية المباشرة التي يكشف خلالها المتحاوران عن معلومات جديدة تضاف إلى معطيات سياقية سابقة. وهذا من شأنه أن يعدل في مسار السياق.

- تتفاوت درجات قوة الكلمات الانفعالية، وينعكس هذا التفاوت على دلالات الكلمات؛ فكلمة "أحب" غير كلمة "أعشق"، مع أنهما يشتركان في أصل المعنى. ويتأثر أيضا، الفعل الكلامي بالأداء الصوتي الذي هو عنصر يساهم في بناء الدلالة؛ فترقيق حرف الراء في "راب"، يمنح الكلمة معنى غير الذي يمنحها التقخيم. هذا إلى جانب التأثير الذي يحدثه التغيير على مستوى الطبقات الصوتية، واستثمار عنصر الصوت من لدن المتكلمين لكونه عنصرا حجاجيا.

المقام - مقتضى الحال - في التصورين العربي والغربي القديمين. وهو ما يعرف بالسياق الذهني - إدراكي تصوري - اقترحته العلوم المعرفية، خصوصا علم النفس المعرفي مع فودور وسبربر وويلسن الذين طرحوا تصورا ذهنيا للسياق باعتباره معطى ذاتيا يخزن في الذهن ويبنى تدريجيا أثناء التواصل، انطلاقا من مجموع القضايا والأحكام والاعتقادات والقناعات التي يعالج في ضوئها الخطاب بمختلف أشكاله؛ سواء أكان محادثة أم كتابة أم قراءة، وليس معطى موضوعيا موجودا قبل إنتاج الخطاب.

هذه السياقات اللفظية وغير اللفظية، تساهم إلى جانب مكونات أخرى في بناء المعنى. وهي لا تقتصر على هذه الوظيفة فقط، ولكن تمتد لتشمل وظائف أخرى منها التواصل والتفاعل، إذ يقوم المتخاطبون بأدوار تداولية. وهذا يتجلى من خلال ورود صيغ الأمر والاعتراض واستعمالات ضمائر المتكلم، التي تقتضي حضور طرفين يتشاركان في العملية التخاطبية. ومن وظائف السياق أيضا تحقيق الانسجام في الخطاب. فتحليل أي خطاب لا يتوقف على كفاءة المحلل فحسب، ولكن لفهم الخطاب وتأويله وبلوغ مقصد منتج، يتعين وضعه في سياقه، لأن الخطاب وإن كان بسيطا من حيث لغته، فقد يتضمن قرائن تجعله ملتبسا غير مفهوم بدون الإحاطة بسياقه الذي يقوم بدور فعال في تواصلية الخطاب وفي انسجامه بالأساس¹. وتكمن أيضا أهمية السياق في كون الخطاب الحجاجي الذي يقوم على الإقناع ويتغيا التأثير، يُتخير فيه اللفظ ليطابق مقتضى الحال. وفي التأكيد على مراعاة السياق أو المقام، يقول طه عبد الرحمن: "حين يتوجه المنطوق إلى المخاطب، أثناء العملية الحجاجية فهو لا يتعالى على المتغيرات المقامية"².

10- الحجاج

يُعرّف الحجاج بأنه فن استعمال الحجج أو الاعتراض بها بغرض التأثير في المخاطب وتغيير سلوكه. وهو يعتبر فعلا تواصليا غايته الإقناع، الذي هو "إنهاض النفوس إلى فعل شيء أو طلبه أو اعتقاده أو التخلي عن فعله أو طلبه أو اعتقاده"³. ولقد توزعت الحجاج ثلاث

1- محمد الخطابي، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، بيروت، 1983، ص 59.

2- عبد الرحمن طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 226.

3- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1986، ص 106.

نظريات، هي الحجاج باعتباره نشاطا منطقيا خطابيا¹، والحجاج متمثلا في تقنيات خطابية، ثم الحجاج كونه ظاهرة لغوية. سنخص بالحديث النموذجين الحجاجيين الأخيرين، لاعتبارات منها اعتمادنا في تحليل الخطابات المقترحة على مجموعة من الآليات الحجاجية والمفاهيم التي استقيناها من مجالي هذين النموذجين.

10-1- الحجاج في البلاغة الجديدة

ينظر بيرلمان وتيتيكا إلى الحجاج بوصفه مجموعة من التقنيات الخطابية الموجهة إلى إقناع المخاطب وحمله على تغيير معتقداته. وهما يميزان بين الحجاج والبرهنة؛ فبينما ينزع الدليل البرهاني نحو اليقينية، نجد أن مسلمات الحجاج احتمالية وتنامي الاستدلال الحجاجي لا يفتقر إلى ضرورة منطقية، وبالتالي فنتائجه غير ملزمة. نلاحظ أن بيرلمان وتيتيكا لم يقصيا البرهان، وإنما قدماه باعتباره شكلا من أشكال الحجاج المنطقي. وقد قاما معا بخطوة انزاحت عن رؤية أرسطو الذي ركز بشكل أقوى على ذات المرسل باعتباره منتج الخطاب والساعي إلى الإقناع والتأثير في الملتقي. فمع بيرلمان وتيتيكا اللذين صنفا ضمن الأرسطيين الجدد، لم يعد الإقناع² أهم وظائف التواصل وغاياته، وإنما أضحي الاقتناع هو الأهم لأنه مرتبط بما هو عقلي، بالمقابل فإن الإقناع مرتبط بما هو ذاتي وجداني وخيالي³.

¹ يتميز المنطق الطبيعي عن المنطق الصوري من خلال ثلاث سمات، هي:
أ- يتأسس محتوى المنطق الطبيعي على وقائع؛
ب- المنطق الطبيعي خلاق ومبدع، لأنه يفسح المجال لعمليات مبتكرة؛
ج- المنطق الطبيعي يمتد في إطار خطابي وحواري وتواصلية.
ينظر:

- Philippe Breton, Gilles Gauthier, Histoire des théories de l'argumentation, la découverte, Paris, 2000, p 97.

² مفهوم الإقناع هنا ترجمة لمفهوم (Persuasion)، بالمقابل فالإقناع هو ترجمة لـ (Conviction). وقد يرد فعل (Persuader) بمعنى أثر.

³ يورد بيرلمان وتيتيكا في كتابهما المشترك قولاً للباحث بليز بسكال Blaise Pascal مفاده أننا لا نقنع إلا الإنسان الذي يتصرف كآلة (C'est l'automate qu'on persuade). ويوضح بيرلمان ورفيقته هذا بقولهما إن الإقناع "يتوجه إلى الخيال والإحساس، وباختصار كل شيء سوى العقل".

"C'est l'automate qu'on persuade, et il entend par là, l'imagination, le sentiment, bref tout ce qui n'est point la raison".

- Chaim Perelman et Lucie Olberchts – Tyteca, Traité de l'argumentation: La nouvelle rhétorique, éd. L'université de Bruxelles, 5^e éditions, 1988, p 35.

يمكن إذن تقسيم الحجاج إلى نوعين: حجاج إقناعي وحجاج اقتناعي. فالأول يرمي إلى إقناع الجمهور مخاطبا العاطفة والإحساس، والحجة هنا هي حجة الباتوس وحجة الإيتوس عند أرسطو، في حين أن الثاني غايته أن يسلم به كل ذي عقل، في إشارة إلى المتلقي الذي لا يحصل لديه الاقتناع إلا بعد أن يخضعه للتمحيص محتكما إلى سلطة العقل. وهناك من لا يقيم فرقا بين الإقناع والاقتناع، فمثلا يرى طه عبد الرحمن أن الإقناع الذي يقوم به المرسل، يترتب عنه اقتناع المرسل إليه أو عدم اقتناعه. ما ينبغي أن نسجله هنا هو أن بيرلمان وتيتيكا اعتنيا بالمخاطب، فهما يريانه عنصرا مساهما في إنتاج المعنى وموجّها للفعل الخطابى. فقد أضحى هذا المخاطب "يفرض" على المتكلم أنواع الاحتجاج وترتيبها، كما أضحى حاضرا عند إنجاز المتكلم للفعل الاستدلالي الذي يراعى طبيعة المخاطب. هذا الأخير لم يعد ذاتا يقع عليها أثر فعل الإقناع فحسب، وإنما هي ذات عاقلة متفاعلة تتلقى الخطاب وتساؤه وتخضعه للنقد، ولا توافق على فكرة تبث من المرسل إلا بعد التحقق من صدقيتها¹.

2-10- الحجاج في اللغة

تهتم نظرية الحجاج في اللغة بالوسائل اللغوية²، وترى أن اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية، وبالتالي فمفهوم الحجاج عند ديكر و يتباين مع التصورات التي تنظر إلى الحجاج على أنه منتم إلى البلاغة الجديدة أو منتم إلى المنطق الطبيعي. فالقول بأن اللغة تحمل وظيفة حجاجية يعني حسب ديكر و أنسكومبر، أن الحجاج فعل كلامي مسجل في الملفوظ، وأنه غير مرتبط بالمحتوى الخبري للأقوال ولا بمعطيات بلاغية مقامية. يتمثل الحجاج إذن في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها. ويشير أبو بكر العزاوي إلى أن التسلسلات الخطابية الاستنتاجية محددة لا بواسطة الوقائع المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محددة أيضا

¹ - في إطار التشارك والتفاعل بين المتكلم والمخاطب، نورد قولاً لمحمد مفتاح: "نقصد بالتفاعل علاقة المرسل بمتلقيه، سواء كان ذلك المتلقي فرداً أو جماعة، موجوداً بالفعل أو بالقوة. ومن شأن هذه العلاقة أن تسلب السلطة المطلقة من المرسل على إصدار خطبه بعجرفة أو لا مبالاة نحو الآخرين، وأن تدخله في دائرة القواعد الضمنية أو العلانية، وأن تجعله يكيف خطابه على قدر متلقيه ليحصل التفاعل، ويكسب استمالة المتلقي، ونيل رضاه".
- ينظر: محمد مفتاح، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1987، ص50.

² - يقصد بالوسائل اللغوية هنا الروابط والعوامل الحجاجية مثل لكن، أيضاً، تقريبا، رغم، إذن، دائما، بما أن...ف، لأن، مع ذلك، بعد كل هذا، إضافة إلى أن، قليلا، أقل...

وأساسا بواسطة بنية هذه الأقوال نفسها وبواسطة المواد اللغوية - حسب تعبير العزاوي -، أي المؤشرات اللغوية التي تم توظيفها وتشغيلها. وهذا ما جعل ديكر و يميز بين الفعل الحجاجي الذي يكون فيه الاستنتاج احتماليا (انخفض ميزان الحرارة، إذن سينزل المطر)، وبين الاستدلال البرهاني¹ الذي يكون فيه الاستنتاج منطقيا (كل اللغويين علماء وزيد لغوي، إذن زيد عالم).

لم يكتف ديكر و بالإشارة إلى العلاقة بين الحجج والنتائج، ولكنه اهتم بترتيب هذه الحجج من خلال الحديث عن السلم الحجاجي الذي هو علاقة ترتيبية للحجج التي تتفاوت درجات قوتها الحجاجية. ولما تبين أن ترتيب الحجج واختيار الروابط والعوامل الحجاجية ليسا كافيين لتحقيق غاية الحجاج المتمثلة في الربط بين الحجة والنتيجة، أدمج ديكر و الموضوع الحجاجي باعتباره الضامن لتحقيق هذه الغاية، وهو يسوغ الانتقال من الحجة إلى النتيجة. مثال ذلك:

(أ) سعد منهوك القوى.

فالموضع الحجاجي يضمن الانتقال إلى نتيجة "سعد يحتاج إلى الراحة"².

لم تسلم هذه النظرية الموضوعية من الانتقاد، إذ طرحت بدائل عنها، منها نظرية الكتل الدلالية التي دشنتها ماريون كاريل وطورتها مع أستاذها ديكر و. ومن بين ما ارتكزت عليه هذه النظرية هو أن الكلمة تكتسب معناها تبعا للسياق الذي وردت فيه. فاللفظ "منهوك القوى" في البنية (أ)، قد يقصد به المتكلم أن سعدا متعب وأنه لم يعد يقوى على العمل، وأن حاجته

¹ - Boubker Azzaoui, Argumentation et Enonciation, Top Press, 2014, p24 .

- ينظر أيضا كتابه: "اللغة والحجاج"، الصادر عن مؤسسة الرحاب الحديثة، لبنان، 2009، ص ص 32-33
- نشير إلى أن العزاوي في كتابه "الحجاج والتلفظ"، ظل يستند إلى طرح ديكر و وأرائه حول الحجاج وعلاقته بالمنطق، والحجاج وعلاقته بالفعل الكلامي مشيرا إلى أن ديكر و قد أضاف إلى الأفعال الإنجازية عند أوستين، فعل الافتراض المسبق (La Présupposition)، والفعل الحجاجي باعتباره هو أيضا فعلا إنجازيا. المرجع نفسه، ص 39.

² - المثالان ذكرهما العزاوي في "اللغة والحجاج"، ص 20.
-الموضع (Topos) مفرد المواضع (Topoî) التي هي مجموعة من المسلمات والمعتقدات المشتركة بين أفراد جماعة لغوية. مثلا يجمع كل الأفراد داخل مجموعة بشرية لغوية على أن الاحترام قيمة نبيلة، وأن الغش والكذب منبوذان، وأن العلم مقدس والجهل عار، وأن الاجتهاد يترتب عليه النجاح.... هذه المعتقدات والأفكار هي مقدمات محتملة، قد تكون مقبولة لدى أفراد في منتظم يخضع لأعراف وتقاليد خاصة، كما قد لا تعبرها جماعة بشرية أخرى اهتماما.

إلى الراحة أضحت ملحّة. وقد يقصد بها في سياق التشهير به أنه عالة على الآخرين، وقد يقصد بها أنه مريض لم يتعاف بعد. لذلك يمكن القول إن عبارة "منهوك القوى" تنتمي إلى مجموعات دلالية مختلفة، وأن مرد هذا الاختلاف إلى اختلاف السياق الذي وردت فيه العبارة. وقد أشارت كاريل أيضا إلى قضية التعالق الدلالي بين الحجة والنتيجة، وأن معنى أحدهما يستبطن معنى الآخر. وتصب نظرية المجموعات الدلالية في اتجاه ما سعى ديكرز إلى بنائه حين أدمج التداولية في الدلالة في ما يعرف بالتداولية المدمجة.

ومن بين النظريات التي انبثقت من نظرية الحجاج في اللغة، نظرية الحجاج اللغوي الموسع التي تبناها تلميذ ديكرز العزاوي والتي لم تقف عند حدود الجملة والملفوظ، ولكن امتدت إلى دراسة الخطاب الذي هو مجموعة من الحجج والنتائج التي تقوم بينهما أنماط مختلفة من العلائق ضمن سياق خطابي. فقد شملت نظرية العزاوي في الحجاج أنماطا مختلفة من الخطاب، نذكر منها الخطاب السياسي والخطاب القرآني والخطاب الشعري والخطاب الإشهاري الذي يسع النسقين اللغوي والبصري الأيقوني؛ حيث تقدم المكونات غير اللسانية باعتبارها حججا ظاهرة لنتيجة مضمرة¹، وبهذا لم يعد الاهتمام منصبا على الحجج اللغوية فقط، ولكن قد يشمل كل مظاهر التعبير. هذه الأشكال التعبيرية لا يختص بها الخطاب الإشهاري وحده، ولكنها تحضر أيضا في الخطاب السياسي السمعي البصري، حيث تتفاعل وتتكامل المكونات اللفظية وغير اللفظية. وقد حاولنا استثمار نظرية الحجاج اللغوي الموسع في الجانب التطبيقي من البحث، ونحن نقوم بتحليل خطابات رئاسية حوت أنساقا لغوية وأخرى غير لغوية، مثل لغة الجسد، ووضعيت المتكلم ولون اللباس، وطبيعة المكان. واستثمرنا أيضا هذه النظرية في مقاربتنا للخطاب المضاد للخطاب الرئاسي الرسمي، من خلال دراسة

¹- أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، ط 2، 2010، ص 106.

-لم يبق العزاوي تصوراته حبيسة الإطار النظري، ولكنه قام بتنزيلها عبر تحليله للخطاب القرآني من خلال سورة الأعلى. وشمل بالدرس قصيدة "العلة" للشاعر أحمد مطر، كما تناول الخطاب الإشهاري من خلال صورة إشهارية تسوق لمنتوج السجائر وظفت فيها عناصر لسانية وغير لسانية تمثلت في أيقونات، قدمت بصفتها حججا لصالح نتيجة تصب في اقتناء المنتج.

الجانب الحجاجي لخطابات الجماهير المحتجة والتي حفلت بمظاهر تعبيرية متنوعة تمثلت في الرسومات الكاريكاتورية ورفع الأعلام الوطنية وغيرهما من المظاهر. وقبل الحديث عن حاجية العناصر غير اللغوية، ننظر في وظيفة عنصرين لغويين لا يخلو أي خطاب منطوق من تحققهما، بل لا يتحقق هذا الخطاب عند انتفائهما.

3-10- النبر والتنغيم؛ إسهام في المعنى وتأثير في السامع

لا تخفى أهمية النبر والتنغيم في الدراسة الصوتية، وفي دراسة الخطاب الحجاجي المنطوق. فإضافة إلى وظيفة الإسهام في إكساب المفردات دلالات، نجد النبر يطلع بوظائف أخرى، منها التوكيد الذي يهدف من خلاله المتكلم إلى إثارة انتباه السامع وترسيخ المعنى في ذهنه، كما يهدف إلى التأثير فيه من خلال الانفعال الذي يبيده (انفعال المتكلم وتفاعل السامع). ويطلع التنغيم الذي هو تنويع في أداء القول بوظائف، منها الوظيفة الحجاجية، إذ إن التنوع في أداء الصوت والمراوحة به بين الارتفاع تارة والانخفاض تارة، يقطع مع الرتابة التي يكون فيها الأداء الصوتي على وتيرة واحدة. وهذا من شأنه أن يسبب مللاً للنفوس، لذا فإن التنغيم يحفز السامع على الإصغاء والتواصل والتفاعل مع الخطاب دون شعور بالملل ولا شرود للذهن.

4-10- حاجية العناصر غير اللفظية¹

يعد التواصل غير اللفظي عملية لإرسال الرسائل واستقبالها عبر استخدام مجموعة من الأشكال التعبيرية، مثل تعبير الوجه وحركات العين وإشارات اليدين ونوع اللباس والألوان والإضاءة والمكان، إضافة إلى العلامات التي تمثل أوجه التفاعل من قبل المخاطبين، مثل التصفيق والصفير والهتاف ورفع اللافتات والرسومات الكاريكاتورية، وغير هذا من العناصر غير اللفظية. هذه العلامات غير اللفظية بمختلف أشكالها التعبيرية، يتم توظيفها إلى

1 - سهيلة العسافين، لغة الجسد أو كيف تقرأ أفكار الآخرين من خلال إيماءاتهم، مؤسسة علاء الدين، دمشق، سوريا، 2004، ص 102.

- يمثل الهتاف ورفع اللافتات والرسوم الكاريكاتورية والكتابة على الجدران والوشم في الجسد أشكالاً تعبيرية يعتمدها المتظاهرون باعتبارها تمثل سلطة في مواجهة خطاب السلطة.

- إن دراسة العلامات غير اللفظية لا تتم بمعزل عن العلامات اللفظية في الخطاب السمعي البصري. فدلالة الصورة البصرية تظل عائمة منفتحة على مجموعة من التأويلات؛ إذ يتم الانتقال من معنى إلى معنى إلى أن يقوم المكون اللساني مستنداً إلى السياق، بتجذير (إرساء Ancrage) المعنى النهائي الذي يصب في المقاصد التي يهدف إليها منتج الخطاب.

جانب العلامات اللفظية بغرض التأثير في قنوات الآخر واستمالته ودفعه إلى الاستجابة والتسليم بأطروحة منتج الخطاب. ونظرا لما تكتنزه هذه العلامات من طاقات حجاجية وإقناعية، فإن كل الأطراف سواء التي تمثل الجهات الرسمية أم التي تعارض توجهاتها، تستثمر الجانب الحجاجي للتأثير في الخصم السياسي.

ولضمان نجاعة أي خطاب سمعي بصري يتوخى منتجه التأثير والإقناع، يجب مراعاة عنصر الانسجام بين المكونين اللفظي وغير اللفظي. وهذا يتوقف على استثمار الحمولة الحجاجية التي تكتنزها لغة الجسد والعناصر غير اللفظية الأخرى وتوظيفها توظيفا جيدا في الخطاب، بحيث تبدو معضدة للمعنى الكامن في الملفوظ. وهذا لا يعني حصر وظيفتها في توكيد المعنى المرتبط بالملفوظ، وإنما ينبغي أن نشير إلى أن هذه العلامات قد تستغني عن المكون اللفظي في تأسيسها لخطاب منسجم دال يحتج به. مثال ذلك: الرسم الكاريكاتوري الذي تنوب فيه الإشارة عن العبارة.

1-4-10- لغة الجسد من خلال حركة اليدين

لغة الجسد تعبير صامت دال وصادق في نقل العواطف وإبراز الانفعالات، ومن وظائفها الإكمال، إذ تجسد الرسالة غير اللفظية الحدث من خلال الإشارة والإيماء فتبرز الصورة متكاملة أمام المشاهد، مما يؤدي إلى تفاعل جيد. إضافة إلى وظيفة الإكمال، تطلع لغة الجسد بوظيفة التكرار، إذ يعتمد على لغة الجسد في إيصال المعلومة قصد ترسيخها في ذهن المخاطب. وتوجد أيضا وظيفة التفسير حين تفسر الإشارة الكلمة، فتساعد على إنجاح عملية التفاعل. كما تتحكم الإشارة في الصوت وما يرتبط به من نبر وتنغيم، وتتحكم في الصمت حين تلجأ إلى الإيقاف المتعمد للكلام، وهذا ما يجعلها عنصرا مؤثرا في توجيه الخطاب¹.

¹ - ينظر: مقال في موقع على الإنترنت أنجزه Richard Nordquist بعنوان :

"What is nonverbal communication ?"

"Com/what-is-nonverbal-communication."

قد تعطي حركة اليدين انطباعا لدى المشاهد بأن المتكلم حازم متحكم في الأمر قوي، كما تترك لديه انطباعا بأنه منبسط ميال إلى التفاوض. فالإشارة بالسبابة مثلا، وضمها إلى الإبهام واستخدام قبضة اليد وتوجيه راحة اليد نحو الأسفل، حركات تقف دلالاتها على النقيض من دلالات التلويح باليد المبسوطة التي يتجه باطنها نحو الأعلى وتكوين اليدين وتحريكهما على مستوى الصدر. فكل حركة من هذه الحركات تمثل رسالة غير لفظية قد تتوافق مع رسالة لفظية، فهي إذن تعضد وتقوي حجة الملفوظ وتجعله أكثر تأثيرا.

2-4-10- وضعية المتكلم والارتباط بالوضع الاجتماعي

تختلف وضعية المتكلم باختلاف السياق الذي ينتج فيه القول ويرام فيه تحقيق أهداف، وتختلف كذلك حسب مواقع المتكلمين الاجتماعية. فتتنوع الوضعية يعكس التفاوت الاجتماعي بين المتكلمين، كما يعكس مدى الاطمئنان الذي يشعرون به. فحين يلقي الخطيب السياسي خطابه وهو جالس، فذاك دليل على ثقة في النفس واطمئنان على أوضاع المجتمع. هذا الشعور يخلق لدى المتحدث استقرارا نفسيا قد ينعكس على ملامح وجهه وعلى فصاحة لسانه. وقد يستوي الخطيب السياسي قائما حين تضطرب الأوضاع وتشتد احتجاجات المعارضين، وذلك لأن الإبقاء على وضعية الجلوس لا يستجيب لطبيعة الواقع الذي يموج بالحركة وينطبع بالاحتقان. ويصاحب وضعية القيام استخدام حركات اليد بشكل أفضل من استعمالها حين وضعية الجلوس، وكذلك الأمر مع الأداء الصوتي، إذ يفرض وضع القيام تحكما في كيفية تصريف الأصوات وتوظيفاً لطبقاتها التي تمنح المفردات شحنات من الطاقة الحجاجية، إضافة إلى إكسابها معاني جديدة.

3-4-10- المظهر بين الارتباط بالذات ومراعاة السياق الثقافي

يصنف المظهر ضمن وسائل الاتصال الرمزي المتعمدة وهو يعكس بعض خصائص شخصية الإنسان، ويستخدم في توصيل القيم والأحاسيس والأفكار. يتضمن المظهر عدة عناصر، منها تصنيف الشعر واللحية والشارب والوشم وارتداء الساعة اليدوية واللباس..... ويعتبر عنصر اللباس من حيث اللون والشكل من العوامل القوية التي لها تأثير في المشاهد،

فاختيار الألوان المتناسقة وارتداء نوع من اللباس يلائم المقام، يترك انطباعات مهمة لدى المشاهدين.

قد تجذب ألوان ارتبطت بأحداث مجتمعا دون غيره، لذا فقابلية ارتداء بعض الأزياء وتخير ألوان معينة لهما علاقة بالارتباط النفسي بالقضايا التي آمنت بها المجتمعات وتبنتها. مثال ذلك: القضية الفلسطينية وارتداء الكوفية ذات اللونين الأبيض والأسود. ونظرا للتأثير المزيج في المتكلم والمشاهد، أضحت العناية فائقة بانتقاء الألوان التي تنعكس إيجابا على نفسية المتكلم وتؤثر في المشاهد. إلى جانب الاهتمام بالألوان، يُنظر أيضا إلى مدى ملاءمة اللباس للموقف الذي يتبناه الخطيب السياسي، ولمضمون الرسالة المتوخاة إيصالها، وللسياق الاجتماعي والثقافي. إلى جانب عنصر اللباس واللون، يصنف المكان أيضا ضمن وسائل الاتصال الرمزي وقد ازداد الاهتمام به في العقود الأخيرة، إذ أصبح يُتحدث عن بلاغة المكان وسلطة المكان وحاجية المكان، ولم يعد الحديث عن المكان باعتباره فقط فضاء يصدر منه الخطاب ويستوعب المتخاطبين.

4-4-10- حجاجية المكان

لم يعد المكان يشكل فقط مع الزمان مجرد إحداثيات لحدث ما، ولا مستودع ذكريات للإنسان يحن إليه عندما يبتعد عنه، ولا ملاذا يأوي إليه حين يشعر بانعدام الأمن، ولكن أضحي أيضا فضاء بلاغيا يحوي أنشطة ثقافية وتظاهرات اجتماعية وسياسية، تكتسب مصداقيتها وفاعليتها في عمليتي التأثير والإقناع انطلاقا من توفر مجموعة من العناصر من ضمنها رمزية المكان. يمارس المكان إذن فعل التأثير مستثمرا رصيда نضاليا اكتسبه عبر مجموعة من المحطات التي شهدت حراكا ثقافيا واجتماعيا وسياسيا. هذا الرصيد يكون قد راكمه جراء تضحيات المتظاهرين والمعتصمين، أو جراء ارتباطه بأحداث كبرى تتعلق بمصير المواطنين والوطن، أو راكمه من خلال محكيات عن رمزيته تداولها السابقون. لم يكن المكان إذن محايدا غير معني بالأحداث التي كانت تحصل في حيزه، بل كان شاهدا حيا على كل الوقائع وما زالت ذاكرته تحتفظ بالتفاصيل وترويها كلما كان هناك موعد مع التاريخ. يستثمر المتظاهرون الرصيد النضالي الذي راكمه المكان ورمزيته في اكتساب شرعية لمطالبهم. وبهذا تتسع دائرة الصراع بين الفرقاء السياسيين لتتسع أيضا المنافسة والتسابق نحو

احتلال الفضاء العام، بعدما كانت تشمل فقط صراع الأفكار والتراشق بالاتهامات عبر وسائل الاتصال والتدافع بالحجج. يمثل الفضاء العام إذن سلطة لا يقل تأثيرها عن تأثير سلطة الكلام وسلطة الصورة. فسلطته في تقدير المحتجين على قرارات الحكومة السياسية، يُنظر إليها باعتبارها عاملاً مضاداً لاحتكار الحكومة أو الدولة للسلطة ولتمركز القوة لديهما.

يرى عبد العالي معزوز¹ أن الأكورا (Agora) الإلكترونية قد حلت محل الساحة العمومية، ومعلوم أن الأكورا ساحة تلقى منها الخطاب كان يحج إليها جمهور عريض من اليونانيين، وقد أشار إليها أرسطو في كتابه الخطابة (Rhétorique). يتابع معزوز حديثه عن الساحة العمومية أو الفضاء العمومي، مورداً مفهوم هذا الفضاء عند هابرماس الذي يراه من سمات الحداثة السياسية في القرن الثامن عشر، وهو يشمل النقابات والهيئات الثقافية والمؤسسات الحقوقية والجمعيات المهنية الحرة وهي ما يعرف بالمجتمع المدني. ونحن هنا لا نتبنى هذا المفهوم، بل ننظر إلى المكان باعتباره حيزاً جغرافياً وذاكرة ورمزاً وعنصراً حاجبياً يتمتع بسلطة.

10- 4- 5- من سلطة الخطاب إلى سلطة المكان

يشير فوكو إلى أن من يملك الخطاب يملك السلطة، وهو بهذا يضع سلطة الخطاب مقابل خطاب السلطة. وقياساً على هذا الطرح، نقول إن من يملك الفضاء العمومي - مسرح الاحتجاج -، يملك سلطة يشهرها في وجه خصمه السياسي. ونظراً لأهمية هذا الفضاء، فقد تم الاحتفاء به وإيلاؤه العناية من خلال تأثيثه بالصور والأعلام المختلفة الألوان، وتراص المتظاهرين، وانسجام حركاتهم الجسدية، وتناغم أصواتهم بترديد الأغاني وعزف الأناشيد التي تلهب المشاعر، وغير هذا من الأشكال التعبيرية التي يمتزج فيها الترفيه بالجد، وتحضر السخرية إلى جانب الخطاب الصريح. هذا التنوع في التعبير هو تنوع في طرائق اشتغال

¹ - عبد العالي معزوز، فلسفة الصورة؛ الصورة بين الفن والتواصل، أفريقيا الشرق، 2014، ص 187-188-189.

- نقصد بالإحداثيات المصطلح المقابل للمصطلح الفرنسي (Les Coordonnées)، التي يتم من خلالها تعيين الحدث (L'événement)، وتحديد زمان وقوعه.

الحجاج الذي غرضه التأثير في نفوس الحاضرين، واستمالة المحايدين، والنيل من الخصوم من خلال دحض أطروحتهم أو على الأقل التشكيك فيها.

وفعل التأثير هذا الذي قد ينتج عنه تفاعل الحاضرين ليس ناتجا فقط عن قوة الملفوظ، ولكنه ناتج أيضا عن بلاغة المكان، أي بلاغة الفضاء العام الذي أضحي سلطة قد تعادل سلطة الخطاب أو تفوق. أمام سلطة المكان الذي أصبح عنصرا مؤثرا، فقد أضحي لزاما أن يمتلك خطاب السلطة الرسمي بلاغة بشقيها الجمالي والإقناعي، ونسقا علاميا بشقيه اللفظي وغير اللفظي، يندرج ضمنه المكان الذي يصدر منه الخطاب الرسمي.

10-5- فضاء الألفة وفضاء المعادة

لا يمثل الفضاء العام الذي احتضن نضالات الجماهير الفضاء الملائم لإلقاء الخطاب الرسمي. فهو فضاء لا يشعر فيه الخطيب الرسمي - الذي يمثل الحكومة مثلا - بالراحة، بل إنه يمثل بالنسبة إليه فضاء معاديا كونه مكانا للصراع تحصن به المعارضون. لذا نجده يؤثر فضاء آخر يشعر فيه بالارتياح والأنس وهو ما يعرف بفضاء الألفة. هذا الفضاء مؤثث بالعلم الوطني، وشعارات ترمز إلى السيادة والاستقلال وأهم معالم الوطن، وهو حسب باشلار في حديثه عن فضاء الألفة، مرتبط بقيمة الحماية التي يمتلكها المكان، والتي يمكن أن تكون قيمة إيجابية¹.

وبينما مثلت ساحة التحرير بالعاصمة المصرية فضاء الألفة بالنسبة للمتظاهرين زمن الربيع العربي، فهي بالنسبة للرئيس مبارك تعتبر فضاء معاديا. ففضاء الألفة بالنسبة لمبارك يتمثل في مقر رئاسة الجمهورية بمصر الجديدة. وهذا لا يعني أن كل الأفضية العامة تمثل مكانا معاديا للزعماء السياسيين الذين يمثلون جهات رسمية، فقد مثل فضاء عام بالنسبة إلى الرئيس اليمني الأسبق علي عبد الله صالح فضاء للألفة. وهذا الفضاء هو ميدان السبعين،

¹ - اعتمدنا طبعة إلكترونية أنجزها دانييل بولاغنون Daniel Boulagnon سنة 2012 لكتاب La poétique de l'espace شعرية الفضاء للفيلسوف باشلار.
<http://classiques.uqac.ca> الموقع:

- يشير باشلار في الفقرة الثانية من كتابه هذا إلى أن الفضاء هو الذي نشعر فيه بالحماية، فهو عنده ملاذ يأوي إليه الإنسان للاحتباء به. وفي تمييزه بين المنزل باعتباره فضاء هندسيا وبين المنزل باعتباره فضاء حيا يتفاعل معه ساكنه، يقول:

- La maison vécue n'est pas une boîte inerte.
- L'espace habité transcende l'espace géométrique.

- الفقرة الثانية من الصفحة: 51 إلى 78.

الذي يمثل ذاكرة الصمود في وجه الحصار الذي شهده هذا الميدان والذي دام سبعين يوما سنة 1967.

تأسيسا على ما سبق، نخلص إلى القول إن المكان ليس حيزا محايدا، وإنما هو عنصر مؤثر له حمولة دلالية وطاقة حجاجية، إضافة إلى أنه جزء من المعنى يساهم إلى جانب عناصر أخرى لفظية وغير لفظية في تشييد معنى الخطاب. هذه العناصر اللفظية وغير اللفظية التي تشيد معنى الخطاب، تنتظم وفق سياق تراعى فيه أحوال المتخاطبين، وتتحقق فيه مقصدية منتج الخطاب، كما تتحقق الغاية التي يهدف إليها الخطاب وهي التأثير في المتلقي واستمالته. كل هذا يتم من خلال انتهاج المتكلم - المرسل - طريقة مناسبة لإيصال رسالته، وهذا المسلك هو الخطة الاستراتيجية التي يبني عليها خطابه.

10-6- استراتيجيات الخطاب

يُعرّف الشهري الاستراتيجية بأنها "مسلك مناسب يتخذه المرسل للتلفظ بخطابه، من أجل تنفيذ إرادته والتعبير عن مقاصده التي تؤدي إلى تحقيق أهدافه من خلال استعمال العلامات اللغوية وغير اللغوية وفقا لما يقتضيه سياق التلفظ بعناصره المتنوعة، ويستحسنه المرسل"¹.

10-6-1- الاستراتيجية التوجيهية

تتنوع الاستراتيجيات تبعا لطبيعة العلاقة الاجتماعية (درجات تفاوت السلم الاجتماعي بين المتخاطبين) ولعامل السلطة التي يتمتع بها كل طرف مشارك في الحوار، وتبعا أيضا لمقصدية منتج الخطاب. ومن أنواع استراتيجية الخطاب، نذكر الاستراتيجية التوجيهية التي تكون فيها العلاقة بين المرسل والمرسل إليه علاقة عمودية، إذ يعتمد المرسل على مبدأ السلطة في توجيه المخاطب نحو تحقيق مقاصده، ويحضر فيها أسلوب الإنشاء الطلبي نحو الأمر والنهي بقوة، وتغيب اللباقة واللفظ في العبارة، وذلك لأن المرسل يسعى من خلال خطابه التوجيهي إلى فرض رأيه وإلزام متلقيه بإنجازه وتبنيه. وقد يحدث أن يعدل الخطيب عن نهج أسلوب التوجيه مع امتلاكه سلطة تخول له تبني هذا الأسلوب، سالكا سبيل الاحتجاج

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب؛ مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004، ص 62.

بالعاطفة مثلا حين يستشعر عدم جدوى اعتماد وسائل التهديد والتحذير والأمر وغيرها من الأساليب التوجيهية والتنفيذية.

2-6-10- الاستراتيجية التلميحية

توجد استراتيجية يقوم فيها المرسل بالتلميح إلى ما يقصده بدلا من التصريح به، وهي استراتيجية تلميحية يعتمد إليها المرسل ليبقي على إمكان التنصل مما يعتقد المتلقي مسا به وتعريضا، من خلال فسخ مجال التأويل حول القصد من الخطاب. في هذه الاستراتيجية يتوسل المرسل بوسائل لتحقيق مراده، منها التضمين والاستلزام الذي يسع المجاز والاستعارة والكناية، وكل ما يحيل إلى المعنى المضمّر من أشكال تعبيرية متعددة. يسعى المرسل من خلال هذه الاستراتيجية إلى التعبير عن قصده، مستثمرا السياق المحيط بالخطاب ومراعي كفاءة المتلقي في الاستدلال، بحيث يستطيع تبين الانتقال من المعنى الصريح إلى المعنى المضمّر الذي يقصده المرسل. وقد يضل المعنى ويتعذر إدراك مراد المرسل في حال عدم مراعاة كل من ظروف الحدث الخطابي وقدرة المتلقي على التأويل المفصي إلى بلوغ القصد. إلى جانب استراتيجيتي التوجيه والتلميح، توجد استراتيجيتا التضامن والحجاج اللتان غالبا ما تحضران معا في الخطابات السياسية، التي يُتوخى فيها التأثير في المخاطبين واستمالتهم وتغيير قناعاتهم أو تعديلها.

3-6-10- الاستراتيجية التضامنية

تنهض الاستراتيجية التضامنية على التعامل الأخلاقي، حيث يسلك الخطيب سبيل التلطف في القول معتمدا مبدأ التأدب والإخلاص والتجرد من الذات وتقدير المخاطب، الذي يدخل معه في علاقة أفقية تشاركية، تنتفي فيها الفوارق ويزداد التقارب بين المتخاطبين حتى يبدو أن هناك تكافؤا في امتلاك السلطة. وهذا من شأنه أن يؤسس لعلاقة الثقة بين المتخاطبين ويسهل التواصل بينهما ويخلق التفاعل. في هذا الصدد يقول الشهري مبرزاً أهم سمات الفعل التضامني بأنه "يقلص المسافات ويقلل الدرجات، مما يضيق معه إطار الفرقة وتنتفي معه عوامل التشتت، حتى تصبح العلاقة في نهاية الخطاب أفضل منها في بدايته"¹. ولتشديد هذه

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص 258.

العلاقة القائمة على التضامن، يستخدم المرسل وسائل تعبيرية منها توظيف ضمير المتكلم الجمعي الذي يؤسس لعلاقة تشاركية وتآزرية، والأسماء المحبة إلى نفس السامع، وألفاظ التحية وغيرها من الأساليب التي ينفذ من خلالها المتكلم إلى قلب المستمع، ومن ثم التأثير فيه واستمالاته للاستجابة لمقاصده.

هذا البعد الحجاجي في الاستراتيجية التضامنية - التشاركية - إلى جانب الأبعاد الأخرى، تجعل هذه الاستراتيجية تتقاطع مع الاستراتيجية الإقناعية الحجاجية، وبالتالي فقد لا يشكل اعتمادهما من قبل منتج الخطاب أي تضارب ولا تنافر بين أجزاء الخطاب، ولا تشويش على مقاصد منتجه.

4-6-10- الاستراتيجية الإقناعية

يسعى المتكلم من خلال اعتماد الاستراتيجية الإقناعية إلى تغيير قنوات مخاطبه أو تعديلها، ودفعه بالتالي إلى الاستجابة لمقصده وتحقيق غرضه. ولتحقيق هذا يلجأ المتكلم إلى الاحتجاج عبر آليات تعبيرية لغوية وغير لغوية من قبيل الاستشهاد بآيات قرآنية وأبيات ومقولات مشهورة وتناصات محوِّرة وصور بيانية وبديعية، إضافة إلى الاحتجاج بآليات منطقية كما يحضر الاحتجاج بالعاطفة. هذا الازدواج بين أسلوب الإقناع وأسلوب الإمتاع يكون "أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطب، وتوجيه سلوكه لما يهبها هذا الإمتاع من قوة في استحضار الأشياء ونفوذ في إشهادها للمخاطب، كأنه يراها رأي العين"¹. ولكي يكون الخطاب مؤثراً، فإن المتكلم قد يتوسل بعناصر مصاحبة للملفوظ، مثل الألوان والمظهر والموسيقى والأعلام وكل ما يخاطب العاطفة ويستثيرها. هذا دون أن ننسى ضرورة مراعاة الاتساق بين المكونات اللغوية وانسجامها مع المكونات التعبيرية غير اللغوية.

ولقد احتفى الدرس التداولي بحضور الاستراتيجية الإقناعية أكثر من غيرها من الاستراتيجيات، من خلال نظرية أفعال الكلام واهتمامها بالتأثير الذي ينشأ عن القوة الإنجازية للفعل الكلامي، والتي استمدتها في ظل سياق التخاطب والتفاعل بين المتحاورين. لإبراز هذا الاهتمام وكشف وظيفة الفعل الخطابي، نورد قولاً لأوستين يشير فيه إلى اللغة بأنها "ليست

¹- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 38.

أداة أو وسيلة للتخاطب والتفاهم والتواصل فحسب، وإنما اللغة وسيلتنا للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كلية"¹.

11- التناص في الدراسات النقدية العربية والغربية

إنفتح النص المعاصر على نصوص سابقة عليه، وقد أثرى هذا الاستدعاء للنصوص الغائبة النص الحاضر وأكسبه خصوبة وامتلاء، حيث أضحي النص المقتبس ملتقى تتقاطع عنده عوالم محملة بأحداث وأفكار وسلوكيات. وإذا يستحضر نص نصا من خلال استشهاد بقول أو محاكاة أسلوب أو لجوء إلى امتصاص أو تحويل أو تنويع، فإنه يكون قد وافق السنن الطبيعي المتمثل في أن الشيء لا يولد من عدم، وأن الكلمة أو الفكرة أو القصيدة أو النص أو الخطاب قبل أن يتحقق، يكون قد تغدى من مخزون الذاكرة التي هي الأخرى قد تخلقت في رحم مخزونات ثقافية معرفية. هذا التعالق بين نص وآخر يسمى تناصا. وتكمن عملية الإبداع في كيفية تكيف النص المستحضر وجعله متساوقا مع النص المستحضر، وهذا يتوقف على تمثل روح النص المستدعى.

1-11 التناص في النقد العربي القديم

توجد جذور للتناص في النقد العربي القديم، حيث إن مصطلحات مثل الاقتباس والتضمين والسرقة الأدبية والمعارضة والمناقضة، تقترب إلى حد كبير من مصطلح التناص. وقد فرق النقاد العرب القدامى بين هذه المصطلحات، إذ عرف شهاب الدين الحلبي الاقتباس بقوله: "هو أن يضمّن الكلام شيئا من القرآن أو الحديث ولا ينسب إليه للعلم به"². وقد تم الالتجاء إلى الاقتباس لغرض الإقناع والتأثير في المتلقي، وذهب البعض إلى أن تضمين النص الشعري آيات قرآنية أو شيئا من الحديث يضيف عليه القداسة. وتم تعريف التضمين من لدن ابن أبي الأصبع بقوله: "هو أن يضمّن المتكلم كلامه كلمة من البيت أو من آية أو

¹ - أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، ص 6.

² - شهاب الدين محمود، حسن التوصل إلى صناعة الترسل، تحقيق أكرم عثمان يوسف، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1980، ص 323.

معنى مجردا من كلام أو مثلا سائرا أو جملة مفيدة أو فقرة من كلمة"¹. نتوقف هنا لنشير إلى أن مصطلحي الاقتباس والتضمين غديا يعنيان شيئا واحدا في معظم الدراسات النقدية المتأخرة. في ما يخص السرقة، فهي أربعة أنواع:

- سرقة تامة: يحدث فيها أخذ اللفظ والمعنى وقد أطلق عليها أسماء عدة، منها النسخ والانتحال والإغارة والغصب والاجتلاب؛
- سرقة معنوية: يتم فيها أخذ المعنى من دون لفظ ولها أسماء، منها الإلمام والاختلاس؛
- سرقات تقوم على الموازنة أو العكس، ومثال الأولى:

تقول مرضنا فما عدتنا // وكيف يعود مريض مريضا؟

فلقد وزن كثير في عجز البيت قول النابغة التغلبي:

بخلنا لبخلك قد تعلمين // وكيف يعيب بخل بخيلا؟

ومثال الأخرى حين يعكس القائل هذا القول: "سود الوجوه لئيمة أحسابهم" في قوله:

"بيض الوجوه كريمة أحسابهم". يسمى جيرار جينيت السرقات التي تقوم على الموازنة محاكاة، والتي تقوم على العكس يسميها تودوروف محاكاة ساخرة، إذ يستوحي المبدع أسلوب غيره ليقيم عليه معنى مغايرا ومناقضا للمعنى السابق؛

-سرقة لفظية: وهي أخذ بعض اللفظ أو كله.

وأما المعارضة، فيقصد بها الاحتذاء بنص لشاعر آخر في الوزن والروي والقافية. وتعتبر المناقضة نوعا من المعارضة، إلا أن المناقض يقوم بإنجاز مقولة مخالفة لما قاله الشاعر السابق. هذه المصطلحات تشهد تفاوتاً في تحقيق أعلى مستوى من التناسية. هذا المستوى الأعلى يحققه نوع السرقة المعنوية كونه يشهد امتصاصا لمعنى نص غائب وتشربا له ثم إعادة صياغته من جديد.

¹- ابن أبي الإصبع المصري، تحرير التعبير، تحقيق حنفي محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1995، ص140.

11-2- التناس في النقد الغربي

يرجع الفضل في الإشارة إلى فكرة التناس إلى شكولفسكي الذي هو أحد أقطاب المدرسة الشكلانية الروسية والذي قال: "إن العمل الفني يدرك في علاقته بالأعمال الفنية الأخرى، وبلاستناد على الترابطات التي تقيمها في ما بينها. وليس النص المعارض وحده الذي يُبدع في توازن وتقابل مع نموذج معين، بل إن كل عمل فني يُبدع على هذا النحو"¹. لكن أول من صاغ نظرية في تداخل النصوص هو باختين الذي استخدم مصطلح الحوارية، وقال إن النص تسكنه أصوات الآخرين ولا وجود لنص نقي. وحسب باختين، فإن النص هو صدى لنص آخر و"كل نص يقع عند ملتقى عدد من النصوص، وهو بإزائها في الوقت نفسه، قراءة ثانية، وإبراز، وتكشف، ونقل، وتعميق"². وباختين هو صاحب مصطلح التهجين الذي صاغ في ضوءه اللاحقون مصطلح التناس الواعي وغير الواعي، ويقصد به المزج بين لغتين مختلفتين بينهما تباين اجتماعي وحقة تاريخية، مقابل مزج لغتين متعايشتين في قول واحد بطريقة غير واعية. ونجد كذلك مصطلح الأسلبة عند باختين الذي يعني المحاكاة عند جينيت وتودوروف. ونشير هنا إلى أن التناس الأسلوبي الذي هو إقامة نص جديد على خلفية نص سابق على مستوى الإطار أو الشكل الخارجي واستلهاهم الصيغ التي قدمت بها النصوص، هو ما سمي السرقات التي تقوم على الموازنة. بالإضافة إلى هذه المصطلحات التي ذكرنا، يوجد مصطلح التنويع الذي يعني التصحيفية عند كريستيفا والتمطيط والتحويل عند جينيت، هذا المصطلح هو ما سميناه التناس الامتصاصي.

11-2-1- مفهوم التناس عند كريستيفا

ذكرنا أن شكولفسكي هو صاحب الفكرة وباختين هو الذي صاغ النظرية، وتبقى كريستيفا هي أول من استحدثت مصطلح التناس بعدما استوحته من مفهوم الحوارية، ثم قامت باستخدامه في مجال التطبيق النقدي حين حللت أشعار لوتيريامون. وتجعل كريستيفا من التصحيفية ثلاثة أنواع:

¹- تيزفيطان تودوروف، الشعرية، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، البيضاء، ط 2، 1990، ص 41.

²- بيير دوبيازي، نظرية التناسية، ترجمة الرحوتي عبد الرحيم، مجلة علامات، جدة، سبتمبر 1996، ص 309-310.

أ- النفي الكلي، إذ المقطع الدخيل منفي كلياً، ومعنى النص المرجعي مقلوب؛
ب- النفي المتوازي، إذ يظل المعنى للمقطعين ثابتاً، ويضاف معنى جديد للنص المرجعي الأول، ومثاله:

- لما أنهى الأستاذ المحاضرة، استفسره أحد الطلاب حول مسألة
- لما أنهى الأستاذ المحاضرة، استفسره أحد الطلاب حول مسألة، ثم توالى بعدها أسئلة الطلاب؛

ج- النفي الجزئي وهو نفي جزء واحد من النص المرجعي.
يتشكل التناص عند كريستيفا "ضمن الإنتاجية النصية، وهو ما يعني تداخلاً نصياً وترحالاً للنصوص؛ حيث تتقاطع الملفوظات المقطعة من نصوص أخرى وتتنافى، والنص يخلق اعتماداً على نصوص سابقة عليه". وتطلق كريستيفا على عملية تقاطع أقوال معينة مع أقوال أخرى في فضاء نصي معين اسم إيديولوجيم¹. برعت هذه الأخيرة في مجال التناص من خلال قيامها بإنشاء مصطلحات خاصة، مثل مصطلح (Intertextualité)، ومصطلح (Idéologème)، ومصطلح (Productivité du texte) واشتقت من مصطلح التصحيف (Paragramme) مصطلح التصحيفية (Paragrammatisme)، لكنها لم تضيف شيئاً مهماً وهي تتحدث عن الترابطات بين المقاطع الشعرية وتداخل النصوص وامتصاص المعاني وكون النص يُخلق من نصوص سابقة. كل ما ذكر هو صدى لما قاله باختين وهو يعرف النص باعتباره قراءة ثانية للنصوص ونقلًا وتعميقًا. لقد تحدث هذا الأخير عن التنويع وهو ما سميناه التناص الامتصاصي، هذا المفهوم يستوعب كل ما ذهبت إليه كريستيفا وهي تفصل القول في التصحيفية.

11-2-2- مقارنة ريفاتير لمفهوم التناص

استخدمت مفهوم التناص تيارات مختلفة، نذكر منها السيميائية والتفكيكية والأسلوبية التي ينتمي إليها ريفاتير. ومعلوم أن هناك اتجاهات في الأسلوبية منها اتجاه تعبيرى واتجاه تأثيرى واتجاه محاكياتى واتجاه تأليفي. هذا الأخير تنضوي تحته ثلاثة اتجاهات: أسلوبيات الانزياح، والأسلوبية الإحصائية، وأسلوبية السياق التي يعتبر ريفاتير ممثلها الأبرز. يرى

¹- كريستيفا جوليا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط 2، 1997، ص 21.

هذا الأخير أن الأسلوب هو السياق + المفارقة، بحيث إن المفارقة تنتج عن إدراك عنصر نصي متوقع متبوع بعنصر غير متوقع، ومثاله: المضحك المبكي، الحي الميت¹. إضافة إلى ارتباط ريفاتير بهذا الاتجاه، فإنه يعتبر داعياً إلى وظيفة التأثير. فقد اتجه نحو القارئ ولم يلتفت صوب الاتجاه التعبيري الذي يرى أن الأسلوب يعبر عن شخصية المرسل، فهو يرى أن الأسلوب رجلان على الأقل. وفي هذه الرؤية ما يشير إلى التناص؛ وذلك من خلال ذكر "رجلين على الأقل"، أي حضور نصين على الأقل لبلورة أسلوب معين. إن الارتباط بالأسلوبية التأثيرية كان وراء تعريف ريفاتير للتناص، بأنه إدراك القارئ للعلاقة بين نص ونصوص أخرى قد تسبقه أو تعاصره. هذا الاهتمام بالتلقي بدلاً من دائرة الإنتاج، يعني أن المتلقي هو الذي يفعل وظيفة التناص، وهو الذي يمنحه أبعاده الأدبية والنقدية والجمالية. ويذهب ريفاتير إلى القول بأن الكلمة أو العبارة لا يمكن أن تكون شعرية إلا إذا كانت تحيلنا إلى أسرة كلمات أخرى موجودة سلفاً²، وبهذا يكون التناص أساساً للشعرية. ويؤكد أن كل نص يخفي في داخله نصاً آخر، وهو تنويع على بنية واحدة أو تعديل لها³. ويتميز النص الشعري عند هذا الباحث بجملة من الخصائص، أهمها أنه غير مرجعي، وأنه حتمٌ مضاعف. ويقصد بالحثم المضاعف "تضاعف الصلات التي تجمع بين الكلمات"⁴. وللحثم المضاعف نمطان: نصي وتناسي. يميز ريفاتير في الحتم المضاعف التناصي بين نوعين تقوم عليهما عملية إنتاج النص، هما الاشتقاق الإبداعي، والتمطيط. فأما الاشتقاق الإبداعي، فهو "تحويل دلائل محاكاة إلى كلمات أو عبارات ملائمة للدلالة، أو تحويل من رحم إلى نص"⁵. والمقصود بالرحم بنية المعطى اللفظي الأولى، وبالإبداع المتناص معه، أي النص المستحضر. وأما التتمطيط، فيعرفه ريفاتير بأنه تحويل مكونات الجملة الرحمية أو النووية

1- هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ترجمة محمد العمري، منشورات دراسات سال، فاس، ص 38.

2- مايكل ريفاتير، دلالات الشعر، ترجمة ودراسة محمد معتصم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس الرباط، 1997، ص 39.

3- مايكل ريفاتير، دلالات الشعر، ص 12.

4- نفسه

5- مايكل ريفاتير، دلالات الشعر، ص 32.

دلالات الشعر ترجمة ل (Sémiotique de la poésie)، ونقترح بدلاً منها سيمياء الشعر.

إلى أشكال أكثر تعقيدا. ويتجلى التمثيط في عدة أشكال، أهمها التعويض وتغيير الطبيعة النحوية لمكونات الجمل¹.

- التعويض: حين لا يوجد حضور لفظي للنص الغائب، وهو ما سميناه التناص الامتصاصي. ومثال ذلك: في قصيدة "الملجأ العشرون"²، يستبدل البياتي بالعبرة الشهيرة "فلا نامت أعين الجبناء"، الجملة الأخيرة من المقطع الآتي:

من ههنا أماء! أعواد المشانق والحريق

من ههنا بدؤوا ونبدأ، والطريق

وعر طويل

لا عاش رعديد ذليل.

- تغيير الطبيعة النحوية لمكونات الجمل، حيث تتحول الضمائر إلى أسماء، والأسماء إلى عبارات، والصفات إلى جمل صغرى. ويعتبر العكس تحويلا كما هو التمثيط، لكنه يحول مكونات الجملة الرحمية بتعديلها كلها بالعامل الواحد. فالجملة السلبية تصبح إيجابية والإيجابية تصبح سلبية، ويتجلى العكس في عدة أشكال، منها الفكاهة والتهكم والدعابة. هذه الأشكال تدخل ضمن المحاكاة الساخرة، وقد عرفناها بالسرقات التي تقوم على العكس وسقنا لها مثالا.

يمكن القول إن ريفاتير قد اهتم بالناحية اللغوية من التناص فقط، أي بالتداخل اللفظي وهو ما أشار إليه بتولد نصوص من نصوص أخرى، كما اهتم بالقارئ باعتباره هو من يكشف مكامن التناص ويبحث في العلاقة بينه وبين النص. ونحن هنا نتساءل: هل بإمكان الدراسة التي اعتمد فيها ريفاتير على التناص باعتباره مفهوما إجرائيا في فهم النص الأدبي، أن تستوعب الأشكال الأخرى من التناص، كتضمين الأفكار أو التناص الذي يعتمد على الإشارة؟ كيف يتم ضبط العلاقة بين نص حاضر ونص غائب مثل ادعاء تولد قصيدة "أبد الصبار"³ مثلا من متناص غير لفظي؟ لنفترض أن هذا العنوان: "أبد الصبار"، اكتسب هويته

¹ - نفسه، ص 75.

² - عبد الوهاب البياتي، الأعمال الشعرية، ديوان أباريق مهشمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1995، ص 117.

³ - محمود درويش، الأعمال الجديدة الكاملة، ديوان: لماذا تركت الحصان وحيدا؟ (أباريق مهشمة)، رياض الرايس للكتب والنشر، بيروت، ط3، ص 117.

الدلالية في ظل الحديث أو قل استحضر أحداث التهجير وترحيل الإنسان واقتلاع أشجار الزيتون من أرض فلسطين، فهل كان بإمكان التناص وفق تصور ريفاتير لهذا المفهوم، أن ينظم العلاقة بين النص والمتناص؟ إن الاقتلاع وتذكر المأساة والاغتراب عن القرية "البروة" التي شهدت ميلاد محمود درويش، هو معطى غير لفظي وهو الذي أملى على الشاعر وسم القصيدة بـ "أبد الصبار". والصبار نبات معمر وهو شوكي، له قابلية على التكيف مع الأجواء الحارة. كل هذه المقومات ترشح الصبار مقرونا بمفردة "أبد" في دلالة على التجذر والاستمرار، أن يكون عنوانا لقصيدة تنتصر للانتماء إلى الوطن وعنوانا للصمود والتحمل ومقاومة الاقتلاع والتهجير.

11-2-3- مقارنة تودوروف

إن السرقات التي تقوم على العكس، أي المناقضة، يسميها تودوروف محاكاة ساخرة. وهي كما ذكرنا استيحاء المبدع أسلوب غيره ليقيم عليه معنى مغايرا ومناقضا للمعنى السابق. ويؤكد تودوروف أنه "لا نشأة للنصوص انطلاقا مما ليس نصوصا، وكل ما يوجد دائما إنما هو عمل تحويل من خطاب إلى خطاب ومن نص الى نص"¹. ويرى أن الكتابة هي تدخل نصي، وأن إنتاج الشعر ينطلق من قصائد أخرى، وإنتاج الروايات ينطلق من روايات أخرى. ويسمي عملية إنتاج نص انطلاقا من نص آخر تعليقا. ويقوم التعليق على إقامة علاقة بين النص الخاضع للدراسة وبقيّة العناصر التي تشمل سياقه. ويقدم نوعين من السياق، هما السياق الإيديولوجي الذي يتشكل من مجموعة خطابات تنتمي إلى عصر بعينه، سواء أكان الخطاب فلسفيا أم دينيا أم سياسيا... والسياق الثاني هو السياق الأدبي. ويفرق تودوروف أيضا بين نوعين من الخطاب²:

أ- خطاب أحادي القيمة، لا يستحضر شيئا مما سبقه؛

ب- خطاب متعدد القيم، يعتمد في بنائه على عملية استحضر لخطاب آخر.

ويميز في الخطاب المتعدد القيم بين ثلاثة أنواع، هي:

أ- المحاكاة الساخرة، وهي التي تقوم على الحط من خصائص الخطاب السابق؛

¹- تودوروف، الشعرية، ص 76.

²- تودوروف، الشعرية، ص 99.

ب- السرقة الأدبية، يحل فيها النص المعارض محل النص المعارض من دون الإشارة إليه؛
ج- الحوار، وفيه يتم شيء من التغيير والتبديل بين النصين المتعارضين. فالنص المعارض ليس استنساخا للنص المعارض، وإنما هناك حذف وإضافة.

ويضيف تودوروف نوعا رابعا من الخطابات متعددة القيم، حيث إن النص الجديد قد ينتج بالرجوع إلى عناصر لا تنتمي إلى الأدب، كالأسلوب أو نمط استعمال الكلمات أو الطرائق الشعرية. لقد ذكر تودوروف الخطاب أحادي القيمة الذي يعني وجود خطاب نقي، وبالتالي انتفاء التداخل النصي، وبهذا يكون تودوروف قد أعاد سؤال التوليد والإبداع إلى الواجهة. يختلف تودوروف إذن تمام الاختلاف مع النقاد الذين يقولون إن كل نص تسكنه أصوات الآخرين، وأنه يُخلق اعتمادا على نصوص سابقة، وأنه لا وجود لصاحب نص جديد. ومما نخلص إليه أن تودوروف قد اتخذ موقفا معتدلا بتقسيمه الخطاب قسمين: خطاب أحادي القيمة وخطاب متعدد القيم. وهذا ما جعله يتقاطع مع الآخرين عند الحديث عن الخطاب متعدد القيم، ويتباين معهم عند الحديث عن الخطاب أحادي القيمة.

11-2-4- التناسل والنص الموازي بين جيرار جينيت وجون بيبير

تحدث جينيت في طُروسه عن التناسل معتبرا إياه فرعاً من المتعاليات النصية. إلى جانب التناسل الذي حصره جينيت في الوجود الفعلي لنص سابق في نص لاحق، شملت هذه المتعاليات أربعة فروع هي النص المتعدد والميتانص والنص الجامع والنص الموازي. وشكل هذا الفرع الأخير منطلقاً للبحث في البعد التداولي لمكوناته، أي لمكونات النص الموازي. هذا الفرع خصه الباحث الفرنسي جون بيبير بالدراسة في سعيه إلى البحث في الجوانب التداولية من خلال مقال مطول بعنوان تداولية النص الموازي. تحدث فيه عن البعد التداولي لمكونات هذا النص التي تؤثت غلاف العمل، مثل العنوان، والعناوين الفرعية، وزمن إنجاز العمل، وتاريخ ظهوره، وطبيعة المنجز الذي قد ينضوي ضمن جنس الشعر أو جنس الرواية أو غيرهما من الأجناس التعبيرية. وقد اعتبر بيبير كلمة "رواية" المشار إليها في الغلاف فعلاً إنجازياً شبيهاً بفعل الوعد "أعدُ"؛ إذ من خلال كلمة "رواية" يتم وعد القارئ أنه سيقراً عملاً روائياً.

خلاصة وتركيب

تنازعت التداولية تعريفات متعددة وتباينت وجهات نظر الدارسين حول تحديد مجال اشتغالها، ويرجع هذا إلى اختلاف تخصصات الدارسين وتنوع مرجعياتهم الفكرية. ولئن تباينت الآراء، فثمة إجماع على اعتبارها علامة فارقة في تاريخ المعرفة شكلت منعطفًا في مسيرة التفكير الإنساني، الذي وجد في الطرح التداولي إجابات على إشكالات تتعلق بكيفية تشييد الدلالة، وتشعب مسالك البحث في المعنى، وغيرهما من القضايا المرتبطة باللغة والإنسان والواقع. تلك الإجابات راكمتها التداولية جراء تقاطعها مع علوم ونظريات، وانفتاحها على حقول ذات منزع لسانی محض وحقول تسع علومًا معرفية إدراكية. فقد أفادت من السيميائيات التأويلية طرائق اشتغال آلياتها في إنتاج الدلالة وتداولها، وأفادت من الفلسفة التحليلية ذات المنزع الذري والمنطقي تفكيكها للمركب إلى أجزائه ومعالجتها جزءًا جزءًا. وقد بدا تأثير فكتنشتاين في الدرس التداولي أقوى من مور ورسيل من خلال إشارته إلى أن توضيح المشكلات الفلسفية لا يتحقق بترجمتها إلى اللغة الصورية، وإنما يتوجب توضيحها انطلاقًا من الطريقة التي تستعمل بها في الواقع. وألقت نظرية التواصل ذات البعد التفاعلي بظلالها على حقل التداولية، وقد اتضحت معالم هذه النظرية مع أوريكيوني في تصورهما للتواصل الذي يركز على فكرة التبادل الكلامي، إذ يتعين على المرسل افتراض تأويلات المتلقي وانتظار رد فعله، كما يتعين على الفعل التأويلي الذي ينجزه المتلقي أن ينطلق من دليل المرسل وينتهي عند مقصده. وبهذا يكون التواصل قد استجاب لمعطيات التداولية.

ومن بين الحقول التي كان لها أيضًا ارتباط بالتداولية العلوم المعرفية، خصوصًا علم النفس المعرفي الذي اهتم بدراسة النشاطات الذهنية، وكيفية معالجة المعلومات انطلاقًا من النظام الطرفي، وانتهاءً بالنظام المركزي الذي ينهض بمهمة التأويل النهائي للمعلومات. ومن هذا المنطلق تأتي دراسة التأويل التداولي للأقوال التي أفضت إلى تأسيس نظرية المناسبة من لدن الباحثين سبربر وولسون اللذين طرحا تصورًا جديدًا لمفهوم السياق، واهتما بمقصد المتكلم، كما اعتنيا بالمخاطب وهو يسعى إلى إدراك هذه المقصد. وقد احتفى الدرس العربي القديم هو أيضًا بالمقاصد وأحوال المتخاطبين واهتم بدراسة الظواهر الخطابية التي تتكفل بإنتاج المعنى، مثل الاقتضاء والتضمن والاستلزام التخاطبي والسياق، وغير هذا من المفاهيم

التداولية. هذا ناهيك عن احتفاء الدرس العربي بالفعل الكلامي الإنجازي والتأثيري الذي تبلور في ظاهرة الإنشاء الطلبي بشكل جلي.

هذه الظواهر الخطابية والمفاهيم المتعددة التي تسهم في إنتاج المعنى، بقدر ما أخصبتنا حقل التداولية وأثمرتا نتائج عملية تمثلت في تحقيق تواصل تفاعلي بين المتخاطبين، بقدر ما أثار هذا التنوع في الاسترفاد من الحقول المعرفية إشكالا حول تصنيف التداولية. فقد عُدت مكونا لسانيا مستقلا، وعدت مكونا مندمجا في الدلالة، ومن الدارسين من ربطها بالعلوم المعرفية. هذا إلى جانب اكتفاء بعض الدارسين باعتماد مقاربات تداولية تقتصر على تناول ظاهرة أفعال الكلام في تحليل الخطابات، أو على تناول ظاهرة الاستلزام التخاطبي، أو على استثمار نظرية التلفظ، أو الاهتمام أكثر بالعناصر الحجاجية. وهذا يؤشر على وجود أكثر من نمط تداولي، مما يستدعي توسيع دائرة البحث لتشمل مختلف الأبعاد التداولية عند دراستنا للخطاب دراسة تداولية.

الفصل الثاني

الخطاب السياسي

المبحث الأول: مفهوم الخطاب السياسي

1- مفهوم الخطاب

تعددت تعريفات "الخطاب" بتعدد الاتجاهات الفكرية والنظريات اللسانية التي قاربت من زوايا مختلفة. وتعود نشأة هذا المفهوم إلى فيرديناند دي سوسير الذي ميز بين اللغة باعتبارها نظاماً ومؤسسة اجتماعية، وبين الكلام الذي هو فعل فردي (سلوك لفظي)¹. وقد اتخذ الخطاب مسميات متعددة، منها النص والإنجاز والرسالة والخطاب والأسلوب. تدور مصطلح الخطاب ومفهومه في التراث العربي والغربي، كما تدور بين الدارسين المعاصرين. ففي التراث العربي مثلاً، شاع استعمال مفردة "خطب" ومشتقاتها: "وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب"²، "ولا تخاطبني في الذين ظلموا"³. وسُمّي المتكلم خطيباً والكلمة أو الكلام الذي يلقيه خُطبةً.

1-1- الخطاب لغة

جاء في "لسان العرب": "خَطَبَ النَّاسَ وفيهم وعليهم أي ألقى عليهم خطبة، وخاطبه مخاطبة وخطاباً: كالمه وحادثه، وقد قيل: خاطبه في الأمر حدثه بشأنه، والمخاطبة مراجعة الكلام، والخطب الشأن والغرض"⁴. وهذا مفهوم يجعل الخطاب يطابق مصطلح الكلام لا اللغة. ويتفق الأمدي والتهانوي حول غاية الخطاب، إذ يجمعان على توجيه الكلام لغاية الإفهام، مستحضرين طرفي العملية التخاطبية واستعداد الطرف المتلقي للفهم. فالخطاب عند الأمدي هو "اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه"⁵، ويعرفه التهانوي بأنه "توجيه الكلام نحو الغير للإفهام"⁶، مجمعين في تعريفهما للخطاب على ضرورة تحقق الفهم والإفهام.

¹ - السعيد شنوكة، مدخل إلى المدارس اللسانية، المكتبة الأزهرية للتراث، 2008، ص 45.

² - سورة "هود"، الآية 37.

³ - سورة "ص"، الآية 20.

⁴ - ابن منظور، لسان العرب، مادة خَطَبَ، دار صادر، بيروت، ط3، 1994.

⁵ - علي بن محمد الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1986، ج1، ص 136.

⁶ - التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006، ج 2، ص 5.

- في المعجم الفرنسي 2012 (Le Robert)، وردت مجموعة من الدلالات للمدخل المعجمي (Discours) ، منها¹:
- أ- مجموعة من الملفوظات المنطوقة أو المكتوبة؛
- ب- خطبة شفوية أمام جمع من الناس؛
- ج- الموضوع الذي نخوض فيه؛
- د- تجسيد لفظي للفكرة (للصورة الذهنية)؛
- هـ- ملفوظ لغوي قابل للملاحظة (جملة، متوالية من الجمل، نص مكتوب).

2-1- الخطاب اصطلاحا

يُعرّف عبد الله الغدّامي الخطاب في كتابه "الخطيئة والتكفير"، فيجعله موازيا للغة المستعملة، حيث قال: "انطلقت في تصورها - اللغة - النظري للتفريق بين اللغة كنظام من الاختلافات وبين الحدث الخطابي الذي يتمخض عنه ذلك النظام فاللغة هي المخزون الديني الذي تمتلكه الجماعة، بينما الخطاب هو ما يختاره المتحدث من ذلك المخزون ليعبر به عن فكرته أو رسالته حسب عناصر الرسالة، وهي: سياق رسالة، مرسل-مرسل إليه، ووسيلة شفرة"². ويذهب طه عبد الرحمن في تعريفه للخطاب إلى أنه "كل منطوق به مُوجّه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا"³. وإذا نظرنا إلى تعريف الغربيين للخطاب، نلاحظ تعددا في مقارباتهم للمفهوم وهو ناتج عن تعدد مجالات اشتغاله. فقد عالج هاريس الخطاب مشدودا إلى المنهجية التوزيعية، معتبرا إياه ملفوظا طويلا، أو هو متتالية من الجمل تتكون من مجموعة منغلقة⁴. وتناول باحثون بعد ذلك هذا المفهوم وقاربوه من زوايا مختلفة. فهو عند فوكو "مصطلح لساني يتميز عن النص والكلام والكتابة وغيرها، بشمله لكل إنتاج ذهني سواء كان نثرا أو شعرا، منطوقا أو مكتوبا، فرديا أو جماعيا، ذاتيا أو مؤسسيا. وللخطاب منطق داخلي وارتباطات مؤسسية؛ فهو ليس ناتجا بالضرورة عن ذات فردية يُعبّر

¹ Le Robert, Paris, 2012.

² عبد الله محمد غدامي، الخطيئة والتكفير، النادي الأدبي الثقافي، جدة، 1405هـ، 1985م، ص 30.

³ عبد الرحمن طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 215.

⁴ السعيد شنوكة، مدخل إلى المدارس اللسانية، ص 107.

عنها أو يحمل معناها، أو يميل إليها، بل قد يكون خطاب مؤسسة أو فترة زمنية أو فرع معرفي ما"¹. أما بينفنست، فيَعُدّ الخطاب "كل قول يفترض متكلما و سامعا مع توفر قصد التأثير بوجه من الوجوه في هذا السامع"². ونختم بتعريف دومينيك مانكونو الذي يرى أن الخطاب يتعدى الجملة وهو موجه وتفاعلي ويترك أثرا في المتلقي، وأكد على أن الملفوظ لا يكتسب معنى خارج السياق حين تحدث عن تسييق الخطاب³.

من خلال عرض هذه التعريفات، نخلص إلى أن معالم الخطاب تتحدد انطلاقا من الحقل الذي يرد فيه والخلفية الثقافية والفلسفية للباحث، مما يضيف نوعا من الغموض والالتباس حول مفهوم الخطاب. ونخلص أيضا إلى أن الخطاب مرتبط بقائله ومتلقيه والسياق الذي يحتوي الموضوع والمؤسسة الثقافية والاجتماعية، التي ينتمي إليها طرفا العملية التخاطبية. ونلاحظ أن معظم آراء الغربيين تتقاطع مع تعريف أرسطو الذي يرى أن الخطابة فن نثري هدفه إقناع السامعين، وهو إلقاء يُكتب أو يُرتجل ليُسمع لا ليُقرأ. ومعلوم أن أرسطو وضع قواعد للخطابة وعرفها بأنها القدرة على الكشف النظري عن وسائل الإقناع الخاصة بكل حالة من الحالات، كالقضاء أو الشورى أو الحرب أو التحكيم....⁴. وكان يهدف من دراسة الخطابة إلى توضيح الأسس الفنية، التي تجعل الخطيب قادرا على الدفاع عن الحق وكشف السفسطة وتغيير قناعات المستمعين.

2- الخطاب والنص؛ ترادف أم تمايز؟

تُعرّف كريستيفا النص بقولها: "نحدد النص كجهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان بواسطة الربط بين كلام تواصل يهدف إلى الإخبار المباشر وبين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه، أو المترامنة معه"⁵. فالنص إذن إنتاجية وهو ما يعني:

¹ - ميشال فوكو، نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير، بيروت، 1984، ص 9.

² - Emile Benveniste, Problème de l'inguistique générale P1, éd. Gallimard, 1966, p 242.

³ - Dominique Maingueneau, Analyser les textes de communication, éd. Nathan, Paris, 2000, p 38 -39-40.

«Il n'ya de discours que contextualisé. On sait qu'on ne peut véritablement assigner un sens à un énoncé hors contexte».

⁴ - Aristote, rhétorique, Pochet, Département d'univers poche, 2007, p54-55-56-57.

⁵ - جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال، المغرب، 1991، ص 21.

أ- أن علاقته باللسان الذي يتموقع داخله هي علاقة إعادة توزيع، ولذلك فهو قابل للتناول عبر المقولات المنطقية، لا عبر المقولات اللسانية الخالصة.

ب- وأنه "ترحال للنصوص وتداخل نصي؛ ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى"¹. وهناك من يربط بين الملفوظ (L'énoncé) والنص، مبقيا على الفرق بين هذا الأخير والخطاب الذي هو حدث تلفظي أو هو واقعة كلامية حسب بول ريكور، وبهذا فإن "الخطاب يُدرك زمنيا وفي لحظة آنية"². ورغم وجود أصوات تمايز بين النص والخطاب جاعلة من الأول تجسيدا خطيا ماديا وسلسلة من الملفوظات تتكاتف لتحقيق اتساقه وانسجامه، فإنه قد ظهر اتجاه يقارب النص باعتباره منتجا لفظيا منطوقا أو مكتوبا، يمتد في الزمن مع إمكانية استعادته وتداوله بعيدا عن السياق الأصلي³، أي لحظة إنتاجه محاطا بظروف خاصة.

حول هذه العلاقة بين النص والخطاب، ينظر سعيد يقطين إلى النص باعتباره أشمل من الخطاب لاعتبارات متعددة منها خاصيتا التزامنية والتعاقبية - تعاقبية النص مقابل تزامنية الخطاب - . بالمقابل، يقول محمد مفتاح بأن الخطاب أعم من النص ويرى أن ثمة علاقة لزومية بين القول والنص من جهة، وبين الخطاب والتلفظ من جهة أخرى. وذلك لأن القول والنص - يقول مفتاح - يفترضان عملية التلفظ والخطاب، وعليه فإن الخطاب والتلفظ أعم من القول والنص، مضيفا أن أساس المباشرة أو الترادف تابع لاستراتيجية الباحث⁴. يتابع مفتاح حديثه عن المفهومين فيورد معاني للنص في اللغة العربية متمثلة في الإظهار والتراكم والتعيين ومنتهى الشيء، والتي تعني أن النص عبارة عن جمل متراكبة تظهر ما خفي وتعيّنه، وأن له بداية وله نهاية⁵. بعد ذلك يقترح تعريفا للنص وللخطاب، فيجعل النص عبارة عن وحدات لغوية طبيعية منضدة متسقة، والخطاب عبارة عن وحدات لغوية منضدة متسقة منسجمة، قاصدا بالتنضيد ما يضمن العلاقة بين أجزاء النص والخطاب، مثل أدوات العطف

¹ - جوليا كريستيفا، علم النص، ص21.

² - بول ريكور، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2003، ص37.

³ - نفسه، ص 42-43.

⁴ - محمد مفتاح، بعض خصائص الخطاب، علامات، مارس 2000، ص9.

⁵ - نفسه، ص 9-10.

وغيرها من الروابط، وبالتنسيق ما يحتوي أنواع العلائق بين الكلمات المعجمية، وبالانسجام ما يكون من علاقة بين عالم النص وعالم الواقع كما يقول مفتاح¹. وهذا الاهتمام بالعلاقة بين عالم النص وعالم الواقع هو اهتمام ببنية الخطاب ووظيفته، ونحن حين نذكر الوظيفة نستحضر سياق تداول اللغة، معيدين الحياة إلى الذات المنتجة للخطاب وللنص بعدما تم تغييبها في الدراسات البنيوية.

في ظل هذا التصور الجديد للخطاب، لم تعد زاوية الكتابة والمشافهة عنصرا حاسما في التفريق بين النص والخطاب. وإنما يتم التمييز بينهما من خلال ما تمليه طبيعة الحقل الذي يشتغل فيه الباحث مما يجعل البعض يرى بترادفهما، في حين يرى البعض الآخر بتقابلهما، وإن كانت معظم النظريات تتعاطى مع النص والخطاب باعتبارهما مترادفين، وما النص سوى تجسيد خطي للكتلة النطقية، أي إن الحرف يغدو مستودعا للصوت. لكن إذا كان الأمر كذلك، فكيف يتجسد النبر والتنغيم وانفعال المتكلم وكل الحركات (تلويح باليد، تقطيب الحاجبين، ضحك...) المصاحبة للكلام لحظة التلفظ به في النص المكتوب؟

3- الخطاب والسلطة

أضحى الخطاب وسيلة للتحكم في سلوك المخاطبين وتغيير معتقداتهم وتوجيههم الوجهة التي يرتضيها منجز الخطاب. ليس بالضرورة أن يكون منجز الخطاب ذا نفوذ، مالكا للقوة المادية أو للسلطة السياسية أو هما معا. فقد لا يملك الخطيب سوى سلاح اللغة وحشد من الحجج ليواجه بهما مناوئيه ويحرز تعاطف مخاطبيه. تأسيسا على ما ذكرنا، يمكن القول إن من يملك الخطاب يملك السلطة، ومن يملك السلطة قد يسخرها للتحكم والسيطرة على من حوله.

غالبا ما يتم تعريف السلطة باعتبارها كل ما يؤدي إلى الاستحواذ والتحكم والهيمنة، هيمنة مادية أو ذهنية. فالإقناع أو التضليل هو أيضا ممارسة للسلطة قصد السيطرة على عقول الناس وتغيير معتقداتهم. ومن الذين اهتموا بسلطة الخطاب، نجد ميشيل فوكو الذي يقدم الخطاب باعتباره "شكل سلطة وينقلها وينتجها ويقويها ويلغنها ويفجرها، ويمكن أن يجعلها

¹ - محمد مفتاح، بعض خصائص الخطاب، ص 11.

هزيلة ويسمح بالغائها"¹. لم يعد الخطاب إذن تعبيراً عن الفكر بواسطة الألفاظ والقضايا التي يرتبط بعضها ببعض، أو طريقة للتواصل والتفاعل بين المتخاطبين فحسب، ولكن أصبح إمكاناً وشرط وجود ونظاماً، وأصبح العنصر المؤهل لمقاومة السلطة التي تمارس الإكراه المادي، ومقاومة رموزها وإجهاض قدرة خطابها - السلطة السياسية أو غير السياسية - بالحيلولة دون التحكم في استجابات مستهلكيه، وتعرية الاستجابات المتواطئة معه. يرى الزواوي بغورة أنه لمواجهة خطاب السلطة الذي يمارس الإكراه والعسف تارة، ويمارس السفسطة والتضليل تارة أخرى، لا بد من امتلاك الخطاب - المناهض - القوة والقدرة وتحمل صراعات وما تسفر عنه من انتصارات وهزائم².

لا يخفى أن خطاب السلطة السياسية التي تمارس الحكم يستمد قوته من الوضع الاعتباري الذي يتمتع به منجزه، ويستمد قوته أيضاً من سلطة اللغة. فاستثمار هذه السلطة عبر تكييف اللغة وتطويرها وتوظيفها وفق استراتيجية معينة، يسهم في تحقيق أهداف الخطيب الذي يسعى إلى التأثير في مخاطبيه وهو واع ليس بسلطة اللغة التي تشكل خطابه فقط، ولكنه واع أيضاً بانزياحات اللغة وتقدير تداعياتها ومدى فاعليتها.

4- مفهوم السياسة

السياسة مصدر فعل ساس الذي يعني دبر ونظم وروّض وسيّر وقاد.. وكل هذه المعاني تصب في خانة تعريف السياسة بأنها القيام على الشيء بما يصلحه. وتعرف اصطلاحاً بأنها ممارسة تقوم على رعاية شؤون الدولة الداخلية والخارجية، كما تعرف بأنها الطريقة التي يتم بها اتخاذ القرارات وإجراء التدابير المتعلقة بتنظيم حياة المجتمع الإنساني. فهي إذن "آلية من أجل إقرار اتخاذ القرارات التي يمكن من خلالها طرح العديد من الأسئلة حول كيفية اتخاذ القرارات السياسية. أولاً: ما هي القيم التي تحدد هذه القرارات؟ هل يتخذها شخص واحد أو أنها تتخذ بطريقة ديمقراطية؟ هل القرارات التي تتخذ بطريقة ديمقراطية أفضل على أية حال؟ وأخيراً ما الذي يساعد صناع القرار على تطبيق هذه القرارات؟ هل يستطيعون تطبيقها فقط لأنهم يمتلكون القوة والسلطة على فعل ذلك؟ أو لأنهم أصحاب السلطة الشرعية لفعل ذلك؟ ما

¹ - ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1986، ص53.

² - الزواوي بغورة، "بين اللغة والخطاب والمجتمع، مقاربة فلسفية اجتماعية"، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، الموقع إنسانيات.

هو الفرق بين القوة والسلطة؟"¹. وقبل هذا التعريف الوارد في كتاب "تحليل الخطاب السياسي" الذي يعود إلى كارنر، وردت تعريفات لـ "كولن هي"، نذكر منها أن "السياسة معنية بتوزيع السلطة وممارستها وبنائجها"، وأنها "عملية تداولية وتفحص مسائل ذات اهتمام مشترك"².

ارتبط ذكر السياسة في العصر الحالي بممارسة الحكم، كما ارتبط بمفاهيم مثل النظام والسلطة والحزب والخطاب، إذ يوجد النظام السياسي والحكم السياسي والسلطة السياسية والتنظيم السياسي والحزب السياسي والإعلام السياسي والاجتماع السياسي والاقتصاد السياسي والخطاب السياسي وغيره. ونشير إلى أنه توجد مؤسسات غير موسومة بصفة "سياسي" ومشتقاتها، لكنها تمارس فعل السياسة مثل نقابات التعليم والطب والشغل. هذه الأخيرة - نقابة الشغل - مثلا، حين تفاوض الحكومة حول تحسين أجور العمال مطالبة إياها برفع الحد الأدنى للأجور، فإنها تعتمد إلى استراتيجية الضغط على محاورها من خلال التهديد باللجوء إلى تنظيم الإضراب عن العمل، وشل حركة الاقتصاد في حال عدم استجابة الحكومة لمطالبها. هذه الاستراتيجية هي سياسة اعتمدتها النقابة لنيل المطالب ولزيادة الثقة بينها وبين منخرطيه وكذلك لجلب مزيد من العمال قصد توسيع دائرة المنخرطين. وبهذا نخلص إلى أن ممارسة السياسة ليست حكرا على الجهاز الرسمي الحاكم وملحقاته، وإنما تتعداها إلى مؤسسات وفاعلين في المجتمع ينجزون أفعالا سياسية. هذا الفعل السياسي يقتضي فاعلا يملك سلطة لينجزه، ولن يتأتى له ذلك إلا عبر إنجاز خطاب يضمنه أفكاره وقراراته، أو تبني خطاب يعبر عن إرادته ويتناغم مع مواقفه وهو ما يعرف بالخطاب السياسي.

5- مفهوم الخطاب السياسي

يعرف فيليب بروتون الخطاب السياسي بكونه نشاطا إنسانيا تواصليا يُنجز بواسطة وسائل متنوعة، ويهدف إلى إقناع شخص أو مستمع أو جمهور بتبني موقف ما أو مشاركة في رأي ما³. يمكن القول أيضا إن الخطاب السياسي فعل خطابي مجاله السياسة، وهو شكل تعبير

¹ - إيزابيلا فيركلاو ونورمان فيركلاو، تحليل الخطاب السياسي، ترجمة عبد الفتاح عمورة، دار الفرق، دمشق، 2016، ص71.

² - نفسه، ص69 - 70.

³ - Philippe Breton, L'argumentation dans la Communication, éd. Casbah, Alger, 1998, p 3.

ينجزه في سياق معين مرسل يستهدف مخاطبا معينا، في مكان وزمان معينين. وينهض بهذا الفعل المالك للسلطة، سواء أكانت سلطة مادية أم معنوية، كأن ينجز الفعل الحاكم السياسي أو ينجزه معارضوه الذين يتمتعون بسلطة اكتسبوها من خلال حضورهم الفعلي في المشهد السياسي، ونضالهم في الساحة السياسية. ونحن هنا لا نقول كون الإنسان منجزا لخطاب فهو مالك للسلطة، سلطة الخطاب. فالسلطة مرتبطة بالقوة والقوة تسندها الشرعية والمصادقية اللتان لا تُمنحان لغير الفاعل السياسي المؤثر، سواء أكان شخصا واحدا أم مؤسسة أم حزبا أم تجمعاً لجماهير محتجة. وبهذا، فإننا ننظر إلى الخطاب السياسي باعتباره خطابا صادرا عن هذه الجهات دون غيرها مما قد يتناقله الناس في حياتهم من آراء ونقاشات حول قضايا مرتبطة بالشأن العام. فهذا نعدّه حديثا في السياسة وعنها وليس فعلا وممارسة سياسية متجلية في خطاب يملك منجزوه سلطة معينة مؤثرة في الواقع السياسي. ومن جهته ينظر ميلود بلقاضي إلى الخطاب على أنه "نظام من الأفكار التي تشكلت عبر تراكم معرفي نابع من استقراء للواقع بكل مكوناته الثقافية والاجتماعية الاقتصادية، يتمحور موضوعه حول أنساق إيديولوجية مستمدة من نظام سياسي منبثق من واقع سياسي معين، ويكون وراء إنتاجه مؤسسات سياسية نقابية أو حزبية أو حكومية"¹. كل هذه المؤسسات تملك سلطة تخول لها ممارسة الفعل السياسي عبر إنجاز خطاب سياسي.

¹- ميلود بلقاضي، الخطاب السياسي بين خطاب السلطة وسلطة الخطاب، دار السلام، المغرب، 2011، ص47.

المبحث الثاني: خصائص الخطاب السياسي

يتصف الخطاب السياسي بمجموعة من الخصائص، يشترك في بعض منها مع خطابات أخرى ويتميز بالبعض الآخر عنها. ومن بين هذه الخصائص، نذكر البساطة والاختزال والاستدلال والاحتجاج البرهاني والعاطفي. فعند الحرص على نجاعة التواصل وتبليغ القصد إلى مخاطبين تتفاوت مستوياتهم المعرفية وتتباين كفاءاتهم الاستدلالية، يضطر المتكلم إلى نهج سبيل البساطة واعتماد أسلوب الاختزال، وذلك حتى يتفادى حصول الالتباس والشعور بالملل لدى المتلقي. إن الإغراق في سرد التفاصيل وإحاطة الأفكار بكم هائل من الألفاظ والتعبير عنها بصيغ غير مباشرة، قد يفقد السامع التركيز حول مضمون الخطاب ويخلق لديه حالة الالتباس فلا يتبين المراد من العبارة، وبالتالي ينقطع حبل التواصل بينه وبين مخاطبيه. وإذا كان الاختزال يضمن مواكبة السامع، فإنه ينطوي على مزالق، فقد لا يتبين معه المتلقي القصد من القول بشكل جلي. ونشير هنا إلى وجود فرق بين التبسيط والاختزال، إذ التبسيط عرض للأفكار بطريقة واضحة ومباشرة، والاختزال اقتصاد في القول من مظاهره الحذف، وبالتالي فإننا نخالف رأي من يعتبر التبسيط محاولة اختزال.

إضافة إلى خاصيتي البساطة والاختزال، يتميز الخطاب السياسي بتوفر شرط الاستدلال الذي هو ليس استدلالاً منطقياً - وفق شارودو - ذا غايات تفسيرية أو برهانية بقدر ما يتعلق ببيان قوة العلة (raison). لا يتعلق الأمر بالحقيقة (vérité) بقدر تعلقه بما يعتقد أنه حقيقة (véracité)¹. ويوضح شارودو هذه الفكرة بقوله إنه "لا يتعلق الأمر بقول ما هو حقيقي، ولكن ما أعتقد أنه حقيقة وينبغي أن تعتقد أنه حقيقة"². ويشير شارودو إلى وجود نمطين من الاستدلال السببي في الخطاب السياسي: نمط أخلاقي ويسمى أيضاً نمطاً مبدئياً غايته جعل الأفراد يذعنون لفكرة بسيطة ينبغي أن تكون مبدأ الإذعان للمشروع السياسي المقترح، ومثاله: يقول مبارك: "فإنني إذ أعني خطورة المفترق الصعب الحالي، واقتناعاً من جانبي بأن مصر تجتاز لحظة فارقة في تاريخها تفرض علينا جميعاً تغليب المصلحة العليا للوطن.....، فقد رأيت تفويض نائب رئيس الجمهورية في اختصاصات رئيس الجمهورية على النحو الذي

¹- باتريك شارودو، "حول الإقناع في الخطاب السياسي"، ترجمة محمد الولي، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ملف العدد: البلاغة والخطاب السياسي، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، عدد 6، 2015، ص91.

²- نفسه

يحدده الدستور"¹. لقد طُرح في الأول المبدأ "مصر تجتاز لحظة فارقة في تاريخها" الذي له غاية تتمثل في وجوب أخلاقي هو فعل التفويض. والأصل أن يقال: ينبغي التفويض لتتجاوز مصر اللحظة الفارقة في تاريخها.

ويسمى شارودو النمط الثاني من الاستدلال السببي نمطا تداوليا، إذ "تطرح مقدمة تقتضي نتيجة لا محيد عنها، إن قليلا أو كثيرا، أو تتحسب غاية"²، ومثاله: "علينا أن نواصل الحوار الوطني الذي بدأناه بروح الفريق وليس الفرقاء، وبعيدا عن الخلاف والتناحر كي نتجاوز مصر أزمتها الراهنة، ولنعيد لاقتصادنا الثقة فيه، ولمواطنينا الاطمئنان والأمان وللشارع المصري حياته اليومية الطبيعية". فالمتكلم عبر هذا المثال يسعى إلى إقناع مخاطبيه بأنه لا توجد نتيجة أخرى غير تلك المصرح بها. وقد أشار شارودو إلى هذا بأنه انزلاق منطقي يندرج ضمنه أيضا النمط الأول من الاستدلال السببي الذي سماه الاستدلال الأخلاقي، كما سمي النمط الثاني الاستدلال التداولي. يضيف شارودو شرطا آخر متمثلا في القيم التي يختارها الخطيب السياسي ليتقاسمها مع الجمهور. ويشدد على أن التوظيف الجيد للقيم يكمن في استدعاء التي تتطابق بشكل أفضل مع الجزء الأكبر من الرأي العام، مع الحرص على عدم تفويض قيمه الخاصة أو قيم الجماعة السياسية التي يمثلها، حفاضا على حبل التواصل مع مناصريه. وفي هذا الصدد يضرب شارودو مثلا يبرز خطورة التماهي مع الرأي العام أو مع الخصوم السياسيين مع اهتمام باهت بقيم المناصرين. يقول شارودو بأنه حدث هذا في فرنسا خلال الانتخابات الرئاسية سنة 2002، حيث تسبب تركيز حملة ليونيل جوسبان على قيم الوسط أكثر من تركيزها على قيم اليسار في حرمانه من جزء كبير من أصوات منتخبيه. ويذكر شارودو أيضا خاصية الحجج التي "تكسب فعل الإقناع القوة"³ وهي حجج البرهان، مقتصرًا على ما يستعمل منها في إطار الخطاب السياسي. ومن بين هذه الحجج الأكثر استعمالا في هذا الخطاب، يذكر حجة افتراض البديهة التي يرى أنها تكمن في تذكير المستمع بقوة القيم المشتركة، مثال ذلك: يقول الرئيس

¹- الخطاب الأخير الذي ألقاه الرئيس المصري حسني مبارك يوم 10 فبراير 2011، في ظل الاحتجاجات التي شهدتها مصر زمن الربيع العربي.

²- باتريك شارودو، "حول الإقناع في الخطاب السياسي"، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ص 91.

³- نفسه، 93.

التونسي بن علي: "تونس بلادنا، بلاد كل التوانسة، تونس نحبوها وكل شعبها يحبها ويلزم نصونها"¹. إلى جانب افتراض حجة البديهة، يورد حججا تحيل على إيتوس الخطيب ويذكر "إيتوس الالتزام بالتعبير عن إرادة الفعل"²، ومثاله: "سأعمل على صون دستور البلاد واحترامه". ومثال آخر من خطاب بن علي: "أجدد لكم وبكل وضوح رائي باش نعمل على دعم الديمقراطية وتفعيل التعددية". ويذكر أيضا إيتوس السلطة "وهو يستند على التذكير بشرعيته ومصداقيته، أو سلطة شخص آخر"³، مثل استحضار الخطيب لشخصية تلقى إجماعا من لدن غالبية المواطنين، شخصية تاريخية أو شخصية حاضرة تتمتع بنفوذ داخل المجتمع.

حول حجة السلطة، سواء السلطة التي يتمتع بها المتكلم أم السلطة التي يملكها شخص آخر، نشير إلى أن النوع الأول يتجسد أكثر في ادعاء الرئيس التونسي الحالي قيس سعيد امتلاكه للشرعية التي تخوله تغيير مادة من مواد الدستور، والتي يتم تفعيلها في حال شعور الرئيس بخطر داهم يتعرض له البلد⁴. ويتجسد المثال الثاني في قول القذافي وهو يتباهى بأمجاد السابقين الذين واجهوا الاحتلال الإيطالي: "ها هو الشباب أبناء وأحفاد شهداء معارك الجهاد الذين حطموا الغزو الإيطالي، الإمبراطورية الإيطالية التي تحطمت على أيدي مقاومة آبائكم وأجدادكم"⁵. ومثال آخر لحجة السلطة، سلطة شخص آخر حين استدعى القذافي شخصية عمر المختار محفزا بها أنصاره للمقاومة ومذكرا بها الخصوم نكاية بهم. وهناك حجج مرتبطة بالجانب العاطفي، وذلك حين يلجأ المتكلم إلى تلمين صورته وتبخيس صورة خصمه، مثلما حدث في خطاب القذافي لما قال: "إذا كان شعبي ما يَحْبِنِي ما نَسْتَحَقُّش الحياة" بعدما بنى صورة سيئة لخصومه من بعض الدول العربية الذين سخرُوا أجهزتهم الإعلامية ضده كما يعتقد، واصفا إياها بأنها "ليس وكالات وإذاعات الإعلام، ليس إعلام، بل إذاعات الكذب، هي تسمى إذاعات الكذب".

¹ الخطاب الأخير الذي ألقاه الرئيس التونسي زين العابدين بن علي يوم 13 يناير 2011 في ظل أحداث الربيع العربي.

² باتريك شارودو، "حول الإقناع في الخطاب السياسي"، ص 94.

³ نفسه.

⁴ خطاب الرئيس التونسي قيس سعيد يوم 13 ديسمبر 2021.

⁵ خطاب ألقاه الرئيس الليبي معمر القذافي يوم 25 فبراير 2011.

لعل ما يميز الخطاب السياسي عن باقي الخطابات الأخرى أنه يعانق قضايا الواقع والقضايا التي تشغل بال الجماهير، فهو يلامس اهتماماتهم الآنية ويستجيب لتطلعاتهم المستقبلية. وهو ما جعله محطّ عناية ومركز اهتمام من لدن الفاعلين السياسيين وعلى رؤوسهم مالكو السلطة السياسية الذين أضحوا يعتنون بمضمون الخطاب وشكله وطريقة أدائه بُغية التأثير في مخاطبيهم وإقناعهم بأطروحاتهم، ومن ثم دفعهم إلى تبنيها.

المبحث الثالث: أنواع الخطاب السياسي

تندرج ضمن الخطاب السياسي أنواع من الخطاب، منها الخطابات الرسمية التي ترتبط بقضايا تدبير الشؤون الداخلية والخارجية للدولة، ويقوم بإنجاز هذه الخطابات أشخاص يمثلون الدولة أو النظام السياسي الحاكم، مثل رؤساء الدول ورؤساء الحكومات والوزراء والسفراء وأعضاء تابعين لمؤسسات حكومية. ويمثل الخطاب الرئاسي أهم هذه الخطابات الرسمية، كونه صادرا من رئيس البلاد وهو أعلى سلطة في هرم الحكم، وكونه غالبا ما يرتبط بأحداث هامة وبقضايا كبرى ومصيرية للوطن وللمواطنين. ويوجد خطاب مضاد للخطاب الرسمي يسمى خطاب المعارضة ينجزه فاعلون منتمون لهيئات متعددة تختلف مواقفها مع توجهات النظام السياسي الحاكم. ويتخذ هذا الخطاب أشكالا تعبيرية متعددة، فقد يتمثل في قول يلقيه متكلم أمام جمهور، وقد يتمثل في شعارات تُردّد بشكل جماعي، ورسوم كاريكاتورية، وأغان وأهازيج تحمل رسائل سياسية. وتمثل المناظرة أحد أوجه الخطاب السياسي وهي أبرز تجلّ للصراع أو للمنافسة والتدافع بين الفرقاء السياسيين، وهو تدافع بين خطاب وخطاب مضاد، أي بين أطروحتين متعارضتين.

إضافة إلى هذه الأنواع الخطابية، يحضر الخطاب الدبلوماسي الذي غالبا ما تنهض به جهات مسؤولة تمثل النظام الحاكم وتعبر عن سياساته، وهو خطاب يتحرى العبارة الدقيقة والحذرة. ويحضر الخطاب الانتخابي الذي تتنازعه تيارات من مختلف الأحزاب، سواء منها التي تمثل الحكومة أم التي تمثل المعارضة، أم تلك التي تمثل الوسط ويكون خطابها محايدا. وغالبا ما يكون هذا الخطاب ملتبسا، بحيث لا يكشف عن نوايا منجزيه ومواقفهم السياسية من الحكومة ومن الأحزاب المتنافسة أثناء الحملات الانتخابية وترويج كل حزب لبرنامجها السياسي.

المبحث الرابع: وظائف الخطاب السياسي

تشترك الخطابات السياسية في مجموعة من الخصائص التي أشرنا إليها في مبحث سابق، وتتقاسم أيضا مجموعة من الوظائف منها الإخبار والتأثير والإقناع وإعلان الموقف تجاه قضايا معينة، والدعاية واتخاذ القرار. ويورد محمد بنحمادة قولاً لـ "ألكسندر دورنا" من مقال له بعنوان "الآثار اللغوية للخطاب السياسي" يتحدث فيه عن وظائف الخطاب السياسي، ومما قاله عن وظيفة التقرير أن "اتخاذ القرار يشكل القاعدة المحركة لكل فعل سياسي، وكم سيكون غريبا ممارسة السياسة بعيدا عن اتخاذ قرارات لأن حينها ستفقد السياسة مبرر وجودها. إن المحرك الأساسي لكل سيرورة سياسية ليس شيئا آخر غير القرار حيث يلعب الخطاب دورا مميزا"¹. ولا تقلّ وظيفتنا التأثير والإقناع أهمية عن وظيفة اتخاذ القرار، إذ غاية الخطيب السياسي استجابة مخاطبيه لأطروحاته وإذعان خصومه لها ودفعهم إلى تبني مقترحاته، سواء تعلق الأمر بتثبيت معتقدات أم بتغييرها، أو دفعهم إلى إنجاز أفعال ملموسة على أرض الواقع. زيادة على هذا، فالخطيب السياسي المالك للسلطة يستند في اتخاذ قراراته على فعل الإقناع الذي يمارسه أثناء الخطاب، سالكا سبلا متعددة ومتنوعة من الاستدلال والاحتجاج سواء المبني منه على الحجج المنطقية أم شبه المنطقية أم العاطفية أم المغالطية. ومن ثم فالعلاقة الوطيدة بين فعل اتخاذ القرار وفعل الإقناع لها ما يبررها، إذ ينهض الفعل الأول على تحقق الثاني حين يعمد الخطيب إلى التوسل به. وهو ما أشار إليه الباحث "ألكسندر دورنا" حين قال بـ "حاجة السلطة الدائمة إلى فعل الإقناع"².

وإذا كانت الخطابات السياسية تتقاسم الوظائف المذكورة أعلاه، فإنها تتباين حول أخرى، إذ نجد الخطاب الرسمي، خطاب السلطة الحاكمة يقوم بتبرير سياسته تجاه قضايا معينة مبرزاً الجوانب الإيجابية لقراراته، وبالمقابل يجنح خطاب المعارضة إلى تبخيس هذه القرارات ومقاومتها وتقديم أطروحته هو بديلا. يتجلى هذا التباين في الوظائف أكثر أثناء الحملات الانتخابية سواء بين الأحزاب في ما بينها، أم بين الأحزاب المعارضة من جهة وبين

¹ محمد بنحمادة، الخطاب السياسي، استراتيجيات التواصل وآليات بناء الثقة، عالم الكتب الحديث، إربد، 2016، ص43.

² نفسه.

معلومة: الشاهدان اللذان استعنا بهما هنا هما للباحث ألكسندر دورنا Alexandre Dorna، وقد استقيناهما من المرجع أعلاه الذي أفدنا منه هو الآخر، في مدنا بترجمة أقوال دورنا وفي تفصيلاته عند الحديث عن وظائف الخطاب السياسي.

الحزب السياسي الحاكم من جهة أخرى. وخلافا للأحزاب التي تنتهج عبر خطاباتها سبل التضليل والاحتجاج بالعواطف وركوب أسلوب الإضرار أثناء الحملات الانتخابية، فإن الخطاب الديبلوماسي ينأى عن مثل هذه التوظيفات، متوسلا بوسائل غاية في اللباقة، منتهجا سبيل الإقناع من خلال عرض حقائق، ومعرضا عما من شأنه عرقلة التواصل مع المخاطبين، وإن كان لا يخلو هو الآخر من اللجوء إلى التستر وعدم الإفصاح تفاديا للاصطدام مع الطرف الآخر.

المبحث الخامس: تداولية الخطاب السياسي

أشرنا من قبل إلى أن الخطاب السياسي خطاب حجاجي إقناعي، يسعى فيه المتكلم إلى التأثير في مخاطبه ودفعه إلى الاستجابة لأطروحته، بحيث يبادر إلى التفكير والتسليم وتغيير سلوك وتبني اعتقاد أو تغييره، والعمل من خلال إنجاز أفعال في الواقع. والمتكلم إذ يتوجه نحو مخاطبه، فإنه يراعي كفاءته المعرفية وقدرته على الاستدلال والاستنتاج. هذا التفاعل الخطابي مرتبط بزمان ومكان محددين ويتم في سياق تراعى فيه أحوال المتخاطبين ومقام التخاطب لضمان نجاعة التواصل وإدراك قصد المتكلم. وإذا علمنا أن التداولية تهتم بدراسة المعنى عند الاستعمال بغرض التواصل وإنجاز أفعال وتحقيق قصد المتكلم، فإن هذا يجعل الخطاب السياسي في صلب اهتمام الدرس التداولي. ولأن الخطاب السياسي قد يُضمَر فيه القصد لغايات منها درء ردود فعل المتلقين في حال عدم رضاهم على توجهات منجز الخطاب، فإن التداولية تملك آليات لفهم الخطاب واستنتاج قصد منجزه بالاستعانة بالسياق الذي يشمل عناصر داخل الخطاب وعناصر خارجه، مثل زمان التلفظ بالخطاب والمكان الذي صدر منه، إلى جانب الظروف الاجتماعية والسياسية والتاريخية المحيطة بالخطاب.

يرى حمو بن ذهبية بعد أن انطلق من كون الخطاب السياسي خطاب تأثير، "أن فعل التأثير لا يأتي منعزلاً عن الفعل التلفظي والإنجازي، ويرى أن معظم الأفعال السياسية تؤدي بواسطة الخطاب، وأن التداولية التي هي استعمال للعلامات من قبل المتواصلين وعلى الخصوص استعمال العلامات اللسانية إلى جانب العلامات غير اللسانية، ساهم في تحليل الخطاب وباستغلال مجموع المعطيات السياقية والخارج سياقية، وبتوافرها كفاية يمكن إخضاع الخطاب السياسي للمنهج التداولي¹.

خلاصة وتركيب

إنطلاقاً مما ذكرنا يمكن القول إن الخطاب السياسي الذي يفترض وجود متخاطبين وموضوعاً وزمان التلفظ بالخطاب ومكان إصداره، وسياقاً متعلقاً بعناصر سوسيو-تاريخية وسياسية وثقافية، هذا الخطاب مؤهل لدراسته في ضوء المنهج التداولي. وبما أن الخطاب

¹ - حمو الحاج ذهبية، "التحليل التداولي للخطاب السياسي"، مجلة الخطاب، 01-05-2006، ص240.

السياسي يتميز بخاصية البساطة، فإنه يكون قابلاً للتداول، إذ لا يضطر المتلقي إلى بذل جهد كبير لفهم الخطاب وبلوغ قصد المتكلم مما يسهم في نجاعة التواصل. وقد يركب الخطاب أسلوب الإضمار مما يستدعي التوصل بآليات لاستنتاج المعنى وبلوغ قصد المتكلم. هذه الآليات تتمثل في الافتراض المسبق والقول المضمر والاستلزام التخاطبي، وكلها مقولات تداولية تشكل جزءاً من العدة المفهومية للمنهج التداولي. ولأن الخطاب السياسي فعل تأثيري يسعى فيه المتكلم إلى إقناع مخاطبه بتبني موقف ما أو التسليم بدعواه أو تغيير سلوكه أو إنجاز فعل، فإن هذا الموقف أو هذه المواقف والسلوكات والأفعال المتبناة، نتاج فعل تلفظي وإنجازي أي إن نظرية أفعال الكلام التي هي مقولة تداولية، بل عمادها هي التي تتكفل بإبراز البعد التأثيري في الخطاب السياسي. وكون الخطاب السياسي مرتبطاً بمخاطبين وزمان ومكان، فإن نظرية التلفظ تكون معنية بدراسته لأن تعيين لحظات التلفظ ومكانه هو إقرار بالاهتمام بالفعل الكلامي الذي يصدره متكلم إلى سامع في زمان ومكان محددين.

نتائج الباب الأول

شهدت مباحث الدرس العربي القديم قضايا تداولية لم تنتظم في حقل معرفي واحد، وإنما جاءت مبنوثة في أكثر من حقل. فقد توزعت المقولات التداولية على البلاغة وعلم الأصول وغيرهما من الحقول. من بين هذه المقولات نظرية أفعال الكلام التي تنازعها الحقلان المذكوران، وقد تجسدت في مبحث الإنشاء الطلبي بشكل جلي. مبحث حظي فيه المخاطب بأهمية لا تقل عن أهمية المتكلم، ناهيك عن العناية بالظروف التي أنجز في ظلها الخطاب. حظيت إذن العناصر السياقية باهتمام بالغ في التراث العربي، فقد اعتنى القدماء في بحثهم عن المعنى والقصد بمقام التخاطب، أو مقتضى الحال الذي أفرز مقولة لكل مقام مقال، وهي مقولة نهضت عليها البلاغة العربية برمتها. وفي هذا الصدد قال القزويني: "وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"¹.

شارك علماء الأصول البلاغيين اهتمامهم بالمقام التخاطبي الذي هو اهتمام التداوليين المعاصرين أيضا. وشكل مبحث الدلالة عند الأصوليين مجالا خصبا للاشتغال على استنباط الأحكام من الأدلة النقلية من خلال آليات المطابقة والتضمن والالتزام. هذا الضرب الأخير يشمل دلالة الاقتضاء التي تتفرع إلى ثلاثة أنواع، يتقاطع فرع منها الذي هو الاقتضاء مع مفهوم تداولي معاصر هو الافتراض المسبق. وإن كان هذا الافتراض في بعده المنطقي يتقاطع مع دلالة الاقتضاء في أحد فروعها، فإنه يكاد يتطابق مع مفهوم التضمن عند الأصوليين، وبالتالي فترجمة المصطلح الغربي (Presupposition) بالاقتضاء غير دقيقة، وإنما الترجمة الأقرب إلى هذا المفهوم هي الافتراض المسبق.

إلى جانب مفهوم الافتراض المسبق الذي استثمرنا الجانب التداولي منه، شهد التراث العربي مفاهيم أخرى مثل القول المضمر والاستلزام التخاطبي والحجاج والسياق المقامي ومبدأ التأدب وغير هذا من المفاهيم التداولية. هذه المفاهيم صاحبت مسار التداولية منذ ارتبطت بالفلسفة التحليلية إلى أن انفتحت على حقول معرفية غير لسانية مثل نظرية المناسبة التي اغترفت من علم النفس المعرفي خصوصا من نظرية القالبية عند فُودُورْ، ونظرية

¹- القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح محمد عبد المنعم خفاجي ومحمد عبد الرحمن الخطيب، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط5، 1980، ص80.

الاستلزام التخاطبي عند بول كرايس. شكلت نظرية المناسبة منعطفا مهما في مسار الدرس التداولي والدرس اللساني عموما، فقد نقلت الحديث من تداولية لسانية إلى تداولية معرفية وأنت بمفهوم جديد للسياق وتصور مختلف عن التصورات السابقة له. فقد نظرت إلى السياق باعتباره عنصرا يُبنى، كما بحثت في كيفية تكشّف التأويل في ذهن المستمع.

ولفت انتباهنا ونحن نعاين مسار التداولية اللسانية، توارى السيميائية التي غدت التداولية خصوصا مع شارل موريس الذي عرف التداولية بأنها دراسة علاقة العلامات بمستخدميها أو مؤوليها. واعتماد هذا التصور للتداولية من شأنه أن يوسع من مجال الاشتغال، فيشمل إلى جانب المجال اللساني المجال السيميائي، مما يخضع للدراسة والتحليل عناصر غير لغوية، مثل لغة الجسد واللون والإضاءة ووضعيات الخطيب ...

لم نكتف في هذا الباب بما أنتجه الغرب من مفاهيم تداولية وما طرحه من تصورات لهذه المفاهيم، ولكن عرضنا تصورات جديدة لباحثين عرب ساهموا في الدرس التداولي المعاصر وعلى رأسهم طه عبد الرحمن الذي أنجز نظرية تتدرج ضمن نظريات التأدب هي نظرية التصديق، ومحمد محمد يونس علي الذي سعى إلى تأسيس علم يمزج بين الدرس الأصولي والدرس اللساني، سمّاه علم التخاطب الإسلامي قاصدا بعلم التخاطب التداولية اللسانية، وأبو بكر العزاوي الذي أسس نظرية في الحجاج هي الحجاج الموسّع، ناهيك عن إسهامات هشام عبد الله الخليفة صاحب مشروع متكامل حول التداولية.

وعلى غرار إخراج الافتراض المسبق من بعده المنطقي إلى البعد التداولي، قمنا بإخراج التناس من بعده النصي الدلالي وإكسابه بعدا تداوليا، مُدرّجينه ضمن المفاهيم التداولية، مُستثمرينه آلية من آليات إنتاج المعنى. ولأن هذا المفهوم وغيره من المفاهيم لا يتضح بعده التداولي إلا عند دراسة الخطاب عند الاستعمال، وبما أن الخطاب السياسي خطاب موجه من متكلم إلى مستمعين في زمان ومكان معينين بقصد التأثير والإقناع، أي إنه خطاب حجاجي تداولي، فإن المجال يكون مهيا لإخضاع هذا الخطاب السياسي لدراسة تداولية.

الباب الثاني

الأبعاد التداولية في الخطاب السياسي

العربي المعاصر

تمهيد

نسعى في هذا الباب إلى مقارنة خطابات سياسية أُنجِزَت خلال العقد الثاني من هذا القرن، عبر آليات يمدنا بها المنهج التداولي قصد تحقيق دراسة وافية. تتمثل هذه الخطابات في خطابات رئاسية، وأخرى مضادة لها أنجزتها جماهير محتجة لم تكن تتمتع بأي غطاء حزبي أو توجه إيديولوجي مُعلن أو انتماء نقابي. لم يكن اختيارنا لهذا النمط الأخير من الخطاب السياسي اعتباطاً أو رغبة في توسيع دائرة المتن، وإنما جاء بناء على ما يحظى به هذا الخطاب المضاد من أهمية في فرض شروط جديدة في الساحة السياسية وفي توجيه الخطاب الرسمي، من خلال دفعه إلى الاستجابة لمطالب الجماهير التي صيغت في خطابات متنوعة. سنجري على هذه الخطابات الرسمية وغير الرسمية تطبيقات لمفاهيم تداولية تستجيب لطبيعة الخطاب المدروس. وهي مفاهيم تهتم بزوايا الخطاب المختلفة مع استحضار السياق واستثمار أنواعه في مقارنة الخطاب السياسي. ولأن زوايا الخطاب تشمل ما هو مقالي وما هو مقامي، فإن الاهتمام سينصب على الجوانب المتعلقة بعنصري الاتساق والانسجام، أي الجانب الدلالي للخطاب إلى جانب العناصر المحيطة به. لا نقصد بالعناصر المحيطة بالخطاب المتكلم والمخاطب وزمان التلفظ ومكانه والظروف النفسية والسياسية والاجتماعية والثقافية فقط، ولكن نعني بها أيضاً مجموعة من الأنساق غير اللفظية، منها الألوان ولغة الجسد وهيأة المتكلم ووضعيته - الجلوس/الوقوف - أثناء إلقاء الخطاب. وإذ نحن واعون بكون هذه الأنساق تندرج ضمن الدرس السيميائي، فإننا انضباطاً للمنهج الذي اخترناه، سنتناول الجانب الحجاجي لهذه الأنساق، مسترشدين في ذلك بدراسات أبي بكر العزاوي التي انطلق فيها من نظريته الحجاج اللغوي الموسَّع ذات النفس التداولي، محلاً خطاباً إشهارياً لشركة التبغ حول منتج مارلبورو.

تكمن أهمية المقاربة التداولية للخطاب السياسي في كونها تولي عناية كبيرة لعناصر الخطاب المختلفة قصد فهم الخطاب وبلوغ قصد المتكلم. وما كان لهذه المقاربة أن تحقق هذا الإنجاز لولا ثراؤها المعرفي، واستيعاب جهازها المفهومي لطرائق اشتغال مجموعة من آليات إنتاج المعنى، واستثمارها لمختلف أنواع السياق بدءاً بالسياق المقالي الداخلي للخطاب،

مرورا بالسياق الاجتماعي والسياسي والثقافي، وانتهاء بالسياق النفسي. هذا السياق الأخير مرتبط بنظرية الصلة أو المناسبة التي استرقدت من قواعد التخاطب ونظرية الاستلزام التخاطبي عند بول كرايس، كما استرقدت من حقل علم النفس المعرفي.

هذا الثراء وهذا التعدد في الطرائق واستثمار السياق، يمنحان المنهج التداولي الأهلية لتحليل الخطابات التي لا يُكتفى لفهمها وإدراك مقاصدها بالجانب اللفظي. ومن بين هذه الخطابات التي تستدعي منهاجاً يعتني بالسياق ويملك آليات لتفسير الظواهر اللغوية وغير اللغوية، نجد الخطاب السياسي الذي لا يُفصَح فيه عن القصد في كل مناسبة. هذا الخطاب السياسي له أهمية قصوى كونه مرتبطاً بواقع الإنسان ومصيره، وكثيراً ما يتم توظيفه لتبرير سياسات أنظمة الحكم وتضمينه مشاريع تنوي هذه الأنظمة إنجازها في المستقبل. وتلجأ المعارضة هي الأخرى إلى توظيفه للتعبير عن موقفها تجاه قضايا معينة، وتصريف غضبها عبره أو رضاها إن بدا لها استجابة للنظام السياسي الحاكم لمطالبها أو بعض منها. لا يقتصر الاهتمام بالخطاب السياسي على النظام السياسي والمعارضة، ولكن يتعداهما إلى الدارس المهتم بالشأن السياسي الذي يتناول هذا الخطاب من زوايا مختلفة وبمناهج متعددة، يسمح له بعضها بالاقتراب أكثر من مضمون الخطاب وكشف مغالطاته ومساءلته وانتقاده، كما يسمح البعض الآخر من مقاربة الخطاب السياسي مقاربة لا تنزع فيها ذات الدارس نحو الانتقاد، وإنما تقتصر على كشف المعنى الكامن في الخطاب أو إبراز الحجج التي توسل بها المتكلم في إنجاز خطابه للتأثير في مخاطبه وإقناعه. لم ينحصر المخاطب في دراستنا للخطاب السياسي في زاوية المتلقي الذي يكتفي باستقبال رسالة المتكلم، وإنما ارتقى في دراستنا إلى وضع أهله لإنجاز الخطاب، وضع شبيهه بالحالة التي تكون عليها المناظرة التي يتداول فيها المتخاطبان الكلام، وهو ما سعينا إلى تثبيته حين انفتحنا على خطاب المعارضة، باعتباره خطاباً موجهاً إلى مخاطبين من ضمنهم النظام السياسي الحاكم، مُجْرَيْنَ عليه تطبيقات لمفاهيم تداولية مثلما أجريناها في الغالب على الخطابات السياسية الرسمية التي أنجزها رؤساء دول عربية.

هذه المفاهيم التي أجريناها على الخطابات المختارة، تمثلت في الإشارات وأفعال الكلام، خصوصاً الأفعال الإنجازية والافتراض المسبق والقول المضمر والاستلزام التخاطبي

والتأدب والحجاج والمناسبة والتناص. وقد سلطنا في مقاربة هذه الخطابات نهجا تمثل في تطبيق المفهوم الواحد من المفاهيم التداولية على مجموعة من الخطابات، حتى إذا أكملنا إجراء كل المفاهيم، انتقلنا إلى دراسة خطاب أخير مقاربين إياه بهذه المفاهيم مجتمعة، مع تخصيص خطاب واحد هو خطاب الرئيس التونسي قيس سعيد بدراسة اعتمدت نظرية المناسبة عند التحليل. لم يكن اختيار الملفوظات التي أجرينا عليها تطبيق المفاهيم غير مقصود، وإنما حاولنا التقيد بالمواضع التي شهدت تشابكا خطابيا وتدافعا حجاجيا بين الخطاب والخطاب المضاد؛ خطاب السلطة الحاكمة وخطاب المعارضة المتمثلة في الجماهير المحتجة غير المؤطرة من الأحزاب والنقابات أو غيرهما من المؤسسات.

انطلقنا في اختيارنا لهذه الخطابات من كونها خطابات سياسية مرتبطة بفترة زمنية عصبية امتدت عقدا من الزمن، شهدت خلاله دول عربية احتجاجات شعبية عرفت بأحداث الربيع العربي، كما شهدت خلال باقي العقد آثار تلك الأحداث التي ظلت تداعياتها تلقي بظلالها على الأوضاع السياسية والأمنية والاجتماعية والاقتصادية. وإذا كانت خطابات الرئيس التونسي بن علي والرئيس المصري مبارك والرئيس الليبي القذافي والرئيس السوري الأسد والرئيس اليمني عبد الله صالح، قد وردت في سياق الربيع العربي متزامنة مع الاحتجاجات التي انطلقت سنة 2011، فإن خطاب الرئيس السوداني البشير الذي ألقى يوم 22 فبراير 2019 جاء في سياق تداعيات أحداث الربيع العربي. فهو، أي الخطاب، محاولة لإطفاء نار الغضب التي ظلت متأججة في صدور السودانيين الذين شهدوا موجة من الاحتجاجات التي انطلقت يوم 30 يناير 2011، وشهدوا أيضا احتجاجات سنة 2013 التي خلفت مائتي قتيل وآلاف الجرحى والمعتقلين.

ويأتي خطاب الرئيس التونسي قيس سعيد في سياق امتعاض المواطنين من سوء التدبير الحكومي لجائحة فيروس كوفيد 19، ويأتي أيضا في ظل أزمة سياسية ودستورية بين رئاسة الحكم وبين المؤسسات التنفيذية والتشريعية والقضائية، وفي ظل الصراع على السلطة بين الفرقاء السياسيين الذين ظلوا يتبادلون التهم بعدم الوفاء لشهداء ثورة الربيع العربي. وقد استثمر الرئيس سعيد حالة الاحتقان التي تشهدها البلاد في صراعه مع خصومه السياسيين، متهما إياهم بالعمالة للأجانب والارتزاق وعدم الوفاء لشهداء الثورة، معلنا عن تصحيح مسار

هذه الثورة التي اشتهرت بثورة الياسمين، والتي دشن بها التونسيون تاريخ الثورات العربية المعاصرة.

الفصل الأول

السياق العام للخطابات السياسية
الرئاسية

من سنة 2011 إلى سنة 2021

تقديم

تقتضي منا المقاربة التداولية لدراسة الخطاب السياسي قبل البحث عن المعنى، تحديد العناصر السياقية في العملية التواصلية، مثل أحوال المتخاطبين وزمان التلفظ والمكان الذي صدر منه الخطاب والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المحيطة به. فالخطابات التي بين أيدينا موجهة من رؤساء دول عربية إلى جماهير محتجة في بلدان شهدت حراكا شعبيا زمن الربيع العربي وما بعده، حراكا صاحبه مواجهات بين قوات الأمن والجماهير المحتجة، كما صاحبه مواجهات بين خطابين: خطاب السلطة الحاكمة وخطاب الجماهير. هذا الحراك نتج عنه إنجاز أفعال ملموسة على أرض الواقع تمثلت في تغيير أنظمة حكم، وتغيير مواد في الدستور، واتخاذ مبادرات نحو إصلاحات في المنظومة السياسية بعد استجابة السلطة الحاكمة لمطالب هذه الجماهير، ونتج عنه أيضا صراعات واضطرابات وفوضى ظلت تلقي بظلالها عقدا من الزمان، كما نتج عنه انتعاش في مجال البحث الخاص بتحليل الخطاب السياسي، الرسمي منه والمعارض، ولذلك وقع اختيارنا على الخطابات الآتية:

1- خطاب الرئيس التونسي زين العابدين بن علي الذي ألقاه من قصر قرطاج يوم 13 يناير 2011؛

2- خطاب الرئيس المصري حسني مبارك الذي ألقاه من قصر الجمهورية يوم 10 فبراير 2011؛

3- خطاب الرئيس الليبي معمر القذافي الذي توجه به إلى الجماهير مباشرة من قصر العزيزية يوم 25 فبراير 2011؛

4- خطاب الرئيس السوري بشار الأسد الذي أصدره بمجلس الشعب أمام ممثلي الشعب يوم 30 مارس 2011؛

5- خطاب الرئيس اليمني علي عبد الله صالح الذي توجه به إلى مخاطبيه من ميدان السبعين يوم 15 أبريل 2011. هذا الخطاب لم يقتصر فيه على تطبيق بعض المفاهيم التداولية مثلما حدث مع جلّ الخطابات المدروسة، وإنما حاولنا استثمار كل المفاهيم

التي تستجيب لطبيعة هذا الخطاب السياسي؛

6- خطاب الرئيس السوداني عمر البشير الذي ألقاه أمام قياديين من حزب المؤتمر الوطني الحاكم من داخل القصر الجمهوري يوم 22 فبراير 2019؛

7- خطاب الرئيس التونسي قيس سعيّد الذي أصدره من قصر قرطاج يوم 13 ديسمبر 2021، الذي أخضعناه لمقاربة تداولية معرفية من خلال تطبيق نظرية المناسبة.

1. السياق العام لخطاب الرئيس التونسي زين العابدين بن علي

جاء خطاب بن علي في سياق الأحداث التي عُرفت بالربيع العربي، وهو ثالث خطاب له بعد خطابين ألقاهما يومي 28 دجنبر 2010 و10 يناير 2011. هذه الأحداث انطلقت يوم 17 دجنبر 2010 من مدينة سيدي بوزيد، إثر إضرام بائع الفواكه محمد البوعزيزي النار في جسده بعد رفض المسؤولين بمقر ولاية سيدي بوزيد الاستماع إلى شكواه من مصادرة عربته، وشعوره بالظلم حين تعرض لاعتداء جسدي من قِبَل عون سلطة. وقد خلف مشهد إحراق الجسد إشعال انتفاضة شعب، انتفاضة لم تطفئ شرارتها خراطيم المياه ولم تخمدتها طلقات الرصاص الحي رغم سقوط ضحايا، بل ساهمت في تأجيجها. وساهمت حملات الاعتقالات في تعاطف التونسيين مع المحتجين وانخراط شرائح واسعة منهم في الاحتجاج، كما ساهمت في مساندتهم من قبل هيئات حقوقية ونقابية وحزبية. كل هذا أكسب المنتفضين الثقة في عدالة قضيتهم، وضاعف من إصرارهم على الصمود، وحفزهم على مزيد من التضحية، وأشعرهم بثقل المسؤولية في تدبير الصراع مع النظام والوفاء لدماء رفاقهم. ولئن شملت الثورة مشاركة هذه الشرائح العريضة من المواطنين، فإن حضور الشباب كان مهيمنا ومؤثرا وكأنهم كانوا مهيين للمواجهة؛ إذ لم يُجَد ضَخُّ الرصاص صَوْبهم في ثنيهم عن السير قدما نحو تحقيق مطالبهم. ولقد زاد من رص صفهم خبر وفاة صنوهم الشاب البوعزيزي يوم 4 يناير 2011 بمستشفى بن عروس. هذه المدينة (بن عروس)، خرج أبناؤها عن بكرة أبيهم لما علموا بمقدم البوعزيزي للاستشفاء من حروقه البالغة، منددين بسياسة القمع مستهجنين عيادة الرئيس بن علي للبوعزيزي. وكان منتظرا أن يحصل الاشتباك مع الشرطة ويخلف ضحايا بين المحتجين، كما كان منتظرا أن يزداد الاحتقان بعد سماع خبر الوفاة، وتتسع دائرة المحتجين في أرجاء الوطن، وتشهد ردود فعل مع اشتداد بطش رجال الشرطة، ويحصل انفلات أمني مثلما حصل في تالة. فقد شهدت هذه المدينة حرق مقر حزب النظام الحاكم ومقر رجال الأمن وممتلكات تابعة للشرطة. وبلغ الاحتجاج أشده في القصرين وتونس والصفاقص ومنزل بوزيان، حيث خلف الاشتباك ارتفاعا مهولا في الضحايا نتج عنه إقرار برفع سقف المطالب إلى حد تغيير النظام السياسي وتنحي رئيسه، بل محاكمته. أمام هذا الوضع، وبعد أن يؤس الرئيس بن علي من سياسة القمع والترهيب والتخوين التي مارسها

في الواقع وفي الخطابين السابقين لخطابه الأخير هذا، اضطر إلى نهج سبيل التفاوض مع الثوار. وقد أبدى حسن النية في التحاور والتفاعل مع مناوئيه من خلال إقدامه على إقالة عدد من الوزراء، من بينهم وزير الداخلية الذي حل مكانه أحمد فريعة الذي دشن مهمته بفرض حظر التجول الليلي الذي تم خرقه من قبل المحتجين.

وفي محاولة من بن علي لإرجاع الزمان إلى الوراء، من خلال إبداء الاستجابة لمطالب ذات طابع اجتماعي واقتصادي ومطالب متعلقة بحريات التعبير، مع تعمد استبعاد النقاش الأنّي حول تغيير النظام الحاكم وتنحيه هو عن الحكم، أصدر هذا الخطاب الثالث الذي سنخضعه للدراسة. وقد أنجزه يوم 13 يناير 2011 بعدما نفذت الذخيرة الحجاجية لخطاب ألقاه قبل ثلاثة أيام، والذي جاء هو الآخر في سياق رفض المحتجين لأي حوار مع النظام الحاكم. لم يكن أمام بن علي، في ظل غياب الانسجام والتنسيق الأمني بين جهاز الأمن والجيش الذي لم يتصد بعنف للمظاهرات، وفي ظل التيقن من لا جدوى المقاربة الأمنية، لم يكن أمامه سوى التلطيف في القول والاعتذار عما صدر من أخطاء، ومن ثم التفاعل مع مطالب المحتجين الذين هم في غمرة أو فورة من الغضب وشعور بالقوة ويقين بالنصر، وقد أحاطوا بقصر قرطاج الذي يبيت منه بن علي خطابه عبر قناة تلفزية. ولأن الرئيس التونسي ذو خلفية عسكرية سبق أن درس في الأكاديمية العسكرية بفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، ولأنه ألف الحكم واستأنس به طيلة ثلاث وعشرين عاما ظل يشهر خلالها ورقة المقاربة الأمنية في وجه كل مطالب بالعيش الكريم، فإنه لم يتخلص من صورة الحاكم المستبد الذي تُنفَّذُ أوامره ويطاع شخصه. فقد ألقى خطابا في ظروف عصيبة بلغ فيها الاحتقان أشده، ينعت فيه المحتجين بالمجرمين ويمتخ مفرداته من معجم التهديد، وإن بدا في مواضع من الخطاب مسالما وديعا. لم يُبدِ المحتجون تفاعلا إيجابيا مع رسائل بن علي التي أوْدَعَهَا خطابه، فودَّع تونس، بل غادرها في غفلة من أهلها أو تواطئ مع بعضهم، في اليوم التالي للخطاب بتاريخ 14 يناير 2011 الذي أضحى ذكرى للثورة التونسية.

تعريف بالمتكلم

إزداد زين العابدين بن علي بمدينة سوسة التونسية يوم 3 شتنبر 1936، عمل بالجيش وحصل على شواهد وتلقى تكوينات في فرنسا وأمريكا. شغل منصب مدير عام للأمن الوطني وكان سفيراً في بولندا، كما تقلد مهام وزير مفوض للشؤون الداخلية فوزير للداخلية عام 1986. بعد ذلك صار رئيساً للوزراء في أكتوبر 1987، ثم تولى بعد شهر رئاسة الجمهورية في انقلاب على أول رئيس لتونس بعد الاستقلال بدعوى بلوغ الرئيس الحبيب بورقيبة سن الشيخوخة. ولمحو آثار الانقلاب وإكساب الرئيس الجديد شرعية الحكم، تم عقد انتخابات في 2 أبريل 1989، فاز فيها بن علي بنسبة 99,91 في المئة من أصوات الناخبين. وقد دشّن حكمه بحملات الاعتقال لأنصار حركة النهضة التونسية ذات التوجه الإسلامي، وفي الوقت نفسه وقّع مع معارضين ومنظمات حقوقية غير حكومية على ميثاق وطني يهدف إلى إرساء نظام حكم ديمقراطي. لم ينتظر الموقعون كثيراً حتى أدانوا النظام بتقويضه للحريات العامة وتوسيع نطاق القمع ليشمل نشطاء حقوقيين وفاعلين سياسيين وطلبة جامعيين. بعد نقض الميثاق والانقضاء على الحقوق السياسية، أحكمت السلطة الحاكمة قبضتها على الإعلام والمال، فصار يُتحدث عن امبراطوريات إعلامية يملكها الأقارب والأصهار ومشاريع اقتصادية كبرى خالية من التنافس بعدما طبعها الريع. في ظل هذه الأوضاع، لم يعد النظام يتورع من الجهر بالنسب المئوية من الأصوات المزورة في كل انتخاب رئاسي أو برلماني؛ ففي 1994 أعيد انتخاب بن علي بنسبة 99,91 في المئة، وفي 1999 هُلل الإعلام الرسمي بأول عملية انتخابية تعددية أعلن فيها عن ثلاثة مرشحين للمنافسة على الرئاسة، أسفرت عن فوز بن علي بنسبة 99 في المئة من الأصوات. وفي عام 2002، تم تعديل الدستور على مقاسه، إذ تم منحه بشكل غير مباشر صلاحيات تمثلت في رفع الحد الأدنى لسن المرشحين للرئاسة، والسماح للرئيس بالحصول على فترات جديدة بعد الموعد النهائي لعام 2004، والتمتع بالحصانة القضائية مدى الحياة. ولقد نال بن علي ما أراد حين ترشح في 25 أكتوبر 2009 لولاية خامسة وأحرز نسبة 89,62 في المئة من الأصوات، والتي لم تصمد أمام أصوات الجماهير في 17 دجنبر 2010، التي ارتفع منسوب غضبها ورفضها لكل ما يصدر عن النظام الحاكم من قول أو فعل لا يستجيبان لمطالبها.

2. السياق العام لخطاب الرئيس المصري حسني مبارك

لم تكن مصر في مأمن من رياح التغيير التي هبت من غربها، فالأوضاع المعيشية صعبة، ومعدل الفقر مرتفع إلى 25.2، ناهيك عن التضيق على الحريات، واستفحال الفساد في أكثر من قطاع تديره الدولة، وسياسة القمع والتنكيل بالمعارضين، خصوصاً الناشطين الذين لا غطاء حزبي أو نقابي لهم معترفاً به من قبل السلطات الحاكمة، مثلما حصل مع خالد سعيد الذي تعرض لتعذيب أفضى إلى الموت من قبل ضابطين في 6 يونيو 2010. فعل القتل هذا كان قد فجر موجة غضب عارمة في كل مصر وأنشئت إثره صفحة في موقع التواصل بعنوان "كلنا خالد سعيد"، وتدوّل على نطاق واسع شعار "دمي في رقبتكم يا مصريين"¹. إضافة إلى هذا، توجد قضايا ظلت محل استنكار من لدن شرائح عريضة في المجتمع المصري، مثل قضية الترويج لتوريث نجل مبارك واستمرار فرض حالة الطوارئ التي استمرت ثلاثة عقود. ويلخص محمد فرج المقدمات السياسية للثورة المصرية التي راکمت الغضب في صدور المصريين وجعلتهم متأهبين للفعل الثوري، في منظومة من المواقف السياسية التي تبناها نظام مبارك وتتمثل في مجموعة من القضايا، وهي:²

أ- التنسيق والتعاون الأمني مع الكيان الإسرائيلي وإقامة علاقات اقتصادية وصناعية وزراعية وتجارية وتصدير الغاز المصري إليه بأسعار تفضيلية؛

ب- السياسات الاقتصادية التي أنتجت الفقر والبطالة والفساد عبر اعتماد الخصخصة وبيع شركات القطاع العام الصناعية والتجارية والخدمية؛

ج- الاستبداد السياسي من خلال محاصرة العمل السياسي ونزع السياسة من المجتمع وسيادة الدولة البوليسية وتصرف النظام السياسي باعتباره مالكا للدولة وليس حزبا حاكما يخضع للنقد وللمساءلة وللمحاسبة؛

د- ألعيب الإصلاح السياسي والتعديلات الدستورية التي تمثلت في دسترة التزوير والاستبداد والتمديد والتوريث؛

¹ عبد القادر ياسين، "الضلع الغائب من المثلث"، الفصل الثالث ضمن كتاب: 25 يناير، مباحث وكتابات، مجموعة من المؤلفين، 25 يناير، ص 110.

² محمد فرج، "المقدمات السياسية لثورة 25 يناير في مصر؛ الأسباب والتراكمات"، ضمن كتاب: 25 يناير، مباحث وشهادات، ص 80 – 88.

هـ- سياسة تزوير الانتخابات التي يهدف بها النظام حماية سياساته الداخلية والخارجية وذلك بخلق مؤسسات محلية ومركزية تشريعية مزورة.

كل هذا عجل بالاستجابة لأصوات شباب قلة رفعوا نداء الثورة، فانخرطوا في تظاهرات استوعبت مختلف أطراف الوطن، ولم يلتفت فيها إلى لون أو عرق أو دين. وسارع الحكماء في ميدان التحرير إلى تحصين الثورة من الوقوع في مزالق العنف وردود الأفعال، كما سارعوا إلى تثبيت المطالب باعتبارها ميثاقا ارتضاه الثوار، وإلى ترتيبها وفق سلم حاجي. وقد روعيت في هذا الترتيب الأولويات مع توقع أسوأ السيناريوهات التي قد يخلقها النظام، بدءا بمحاولات تسريب الكذب وإشاعة كل ما يُحدث الفرقة من تنابز بالانتماء العقيدي وتشكيك في النوايا، مروراً باختراق صف المعتصمين عبر استقطاب العناصر الأكثر تأثيراً في ساحة النضال، مع الرهان على عامل الزمان في فتور حماسة المنتفضين، وانتهاء باللجوء إلى العنف المادي لفض الاعتصام.

مثّل ميدان التحرير بالعاصمة القاهرة رمزا للثورة ومصدرا لإلهام الثوار ومركزا لتدبير القرارات المتعلقة بمصير البلد، كما مثّل مركزا للتفاعل مع الحركات الاحتجاجية وإدارة الصراع مع النظام الحاكم. إعتبارا لهذه الحمولة الثورية واعتبارا لهذه القوة الحجاجية المؤثرة اللتين يتمتع بهما الميدان، فقد شكّل الاعتصام بهذا الفضاء هاجسا للنظام السياسي وأرقه ارتفاع عدد الحجاج إليه، كما أرقه ارتفاع سقف مطالب المعتصمين سواء بميدان التحرير أم بساحة النهضة أم بغيرهما من الأمكنة التي شهدت احتجاجات؛ إذ طالبوا برحيل مبارك، ومن خلاله النظام السياسي. لم يستجب مبارك لهذا المطلب الأخير الذي أضحى أم مطالب المحتجين، وراهن على عامل الزمان الذي بمروره تحفّت جذوة الاحتجاج وتتفرق بالمحتجين السبل وتمسي المطالب جزءا من الذاكرة، كما راهن على تفاعل الجماهير حين أعلن في خطابه الأول يوم 28 يناير 2011، ثلاثة أيام بعد اندلاع الاحتجاجات، إقالة الحكومة. رغم الإقالة، فقد ظلت الاحتجاجات قائمة وازدادت حدة واتساعا، ولم تفلح كل محاولات النظام في إصاق تهمة العمالة للأجانب والاسترزاق بالنضال، مما حدا بالرئيس مبارك إلى التوجه بخطاب ثان يوم 01 فبراير 2011 قابله المعتصمون بساحة التحرير

بخطاب مضاد يمزج بين الجد والسخرية من خلال اللافتات والرسوم الكاريكاتورية والأناشيد الثورية وغيرها من وسائل التعبير.

أمام هذا العصيان الذي أبداه المعتصمون بساحة التحرير الذي أضحي محجا للجماهير، سلك النظام السياسي سبيل المباغطة حين اخترق أفراداً ساحة التحرير، مُمتطين الخيل والبغال والجمال يوماً واحداً بعد الخطاب الثاني. وهذا يؤشر على أن الإعداد لاقتحام الساحة وإرهاب المعتصمين الذين ينبذون العنف ويحتجون بشكل سلمي، كان يخطر على بال مبارك وهو يلقي خطابه. هذا الخطاب نهض في كثير من لحظاته على تقابلات، مثل فوضى/ استقرار، وحرب/ سلم، وتخريب/ إصلاح، وخيانة/ وفاء، وشمل الحديث عن ثنائية عنف المحتجين مقابل رد العنف من قبل رجال الأمن والجيش. هذا الخطاب الصدامي يسوّغ كل تدخل عنيف لرجال الأمن لفض الاعتصامات، وللاعتداء على المناوئين للنظام السياسي، وقد يقوض كل الفرص للتواصل والتوافق مع المحتجين مستقبلاً. وهو ما حصل حين رفض المحتجون تلبية الدعوة للقاء مسؤولين كبار في مقرات الدولة، وأرغموهم على التفاوض من داخل ساحة التحرير وهم متشبثون بمطلب رئيس متمثل في رحيل مبارك ومحاكمة الفاسدين.

لم ينل العنف من عزيمة المحتجين عبر ربوع الوطن، مثلما لم ينل من صمود المعتصمين بساحة التحرير رغم استشهاد أفراد منهم وجرح المئات في ما سمي موقعة الجمل. هذه الحادثة شكلت منعطفاً هاماً بالنسبة للمعتصمين وباقي المنتفضين في مصر، إذ جلبت تعاطف فئات عريضة من المصريين وانضمامهم إلى جموع المعتصمين، مما أربك حسابات النظام الذي راهن على مجرمين لبث الرعب في نفوس المعتصمين ومن ثم دفعهم إلى إخلاء الميدان. أمام هذا الاصطفاف الشعبي المتمسك بسلمية مظاهراته التي ألقَتْ بظلالها على مناحي الحياة، لم يعد أمام النظام سوى خيار اللجوء إلى الحوار واستبعاد المقاربة الأمنية. ولقد فطن مبارك إلى هذا التغير في ميزان القوة الذي أصبح يرجح كفة المحتجين، فجاء خطابه يوم 10 فبراير 2011 خالياً من التهديد والتخوين، مبدياً تأسفه على أرواح الضحايا الذين نعتهم بالشهداء، وواعداً ذويهم ورفاقهم بمحاسبة الذين تسببوا في إراقة دماء المحتجين.

تعريف بالمتكلم

إزداد حسني مبارك بقرية كفر المصيلحة بمحافظة المنوفية يوم 4 ماي 1928. التحق بالكلية الجوية وتخرج منها ضابطاً عام 1950. شارك طياراً في الحرب على المغرب، حرب الرمال سنة 1963 وأُسِرَ مع مجموعة من الضباط يوم تحالفت مصر تحت قيادة جمال عبد الناصر مع الجزائر في ظل حكم الهواري بومدين. وشارك في حرب 1973 ضد الاحتلال الإسرائيلي، وكان قائداً لرجال القوات الجوية ونائبا لوزير الدفاع، يدير المعارك الجوية من غرفة العمليات. ومن إنجازاته تدمير مركز الاتصالات الإسرائيلي بأَمَ خشب في عمق صحراء سيناء المحتلة آنذاك تزامنا مع عبور الجنود المصريين خط بارليف الذي أقامه الاحتلال الإسرائيلي لمنع عبور قناة السويس. وفي عام 1975 عينه الرئيس محمد أنور السادات نائبا له. ولما اغتيل هذا الأخير سنة 1981 في حادثة المنصة أثناء استعراض عسكري وكان مبارك حاضرا بجانب رئيسه، تولى رئاسة الجمهورية بعد استفتاء شعبي. وظل يمارس الحكم طيلة ثلاثة عقود من الزمن كانت تتخللها استفتاءات في سنوات 1987 و1993 و1999، كما شهدت مصر أول انتخابات تعددية في 2005. عمل مبارك في السنوات الأخيرة على تعديلات في الدستور ممهدا الطريق لابنه جمال للرئاسة الجمهورية وهو ما عرف بالتوريث الذي تصدى له المجتمع المصري، مثلما تصدى للخروقات التي شابت الانتخابات خصوصا الأخيرة منها أي انتخابات 2005، والتي دفعت حركة "كفاية" للتظاهر والتهاتف بـ"يسقط يسقط حسني مبارك". لم يسقط مبارك ولم يسقط نظامه الذي سهر على "انتخابات التجديد النصفي لمجلس الشورى في يونيو 2010 حيث شهدت تجاوزات وعمليات تزوير ضخمة"¹. وتلتها انتخابات مجلس الشعب شهدت "ترشيح مجموعات متنافسة باسم الحزب الوطني في الدائرة الواحدة"²، وتزويرا سافرا في النتائج خدم النظام وأسقط منافسيه الذين يئسوا مثلما يئس الكثير من تغيير يأتي عبر صناديق الاقتراع. وهذا ما راكم في الصدور كمّا هائلا من الغضب وهيا الأنفس لثورة تقتلع جذور الفساد وملحقاته من رشوة

¹ - المقدمات السياسية لثورة 25 يناير، ص88.

² - نفسه.

وريع وتزوير واستبداد، وهو ما تكفلت به ثورة 25 يناير حين أجبرت مباركاً على التنحي في 11 فبراير 2011 وأحييت سنة التداول على السلطة ولو لبعض حين.

3. السياق العام لخطاب الزعيم الليبي معمر القذافي

مثلما هبت رياح الربيع العربي على تونس ومصر، شهدت ليبيا هبوب ريح عصفت بالنظام السياسي وبالقذافي الذي كانت كل السلطات تحت هيمنته ومقربيه. وما يميز الحياة القانونية والسياسية في ليبيا أنها تخلو من دستور مصادق عليه من قبل الشعب أو من قبل فقهاء في القانون، كما تخلو من المنافسة ولو صورية على تمثيل الشعب، إذ تنعدم فيها الانتخابات الرئاسية والانتخابات البرلمانية ويوكل فيها تسيير شؤون البلد للكتاب الأخضر الذي هو من بنات أفكار القذافي، وتتولى اللجان الشعبية مراقبة الوضع والظهور بمظهر الساهر على مصالح الشعب والوطن. وقد اشتهر القذافي بالتنكيل بمعارضيه ومطاردتهم في داخل ليبيا وخارجها، كما اشتهر بتبديد المال العام من أجل كسب ود الغرب وحمايته. وما تمويل الحملة الانتخابية للرئيس الفرنسي ساركوزي والعلاقات المالية المشبوهة مع الرئيس الإيطالي بيرلوسكوني، سوى مثال على الاستهتار بالمال العام. وقد شمل توزيع المال أفريقيا التي نَصَّبَ نفسه ملكا على ملوكها. أمام هذا الشعور بالعظمة والنفوذ، لم يكن من السهل أن ينفث القذافي على الأصوات الأخرى في المجتمع الليبي، فيتقاسم معها السلط أو يرسي مفهوم التداول على السلطة في الحياة السياسية، بله أن يتنازل عن سلطات ظلت ملكه طيلة أربعين عاما، لكن إرادة الشعوب أحيانا تكون هي الفيصل في القطع مع انحرافات السلطة السياسية وقطع دابر الفساد. هذه الإرادة بزغت في ليبيا رغم قتامة الواقع السياسي وأخذت على عاتقها تخليص الوطن والمواطن من الاستبداد. الاستبداد الذي ظل يباركه الغرب عقودا من الزمان، سيحاربه حين دعم حلف شمال الأطلسي (الناتو) الثورة الليبية التي تطالب بمحاكمة القذافي ومقربيه. أمام هذا الواقع الجديد وهذه التحديات، لم يجد القذافي سوى الخطاب لتصريف غضبه وسخطه على منائيه في الداخل ومسانديهم في الخارج عربا وعجما، مثيرا في نفوس الحاضرين في الساحة الخضراء بطرابلس وعبرهم كل الأنصار الحماسة للدفاع عن الوطن. والخطاب الذي بين أيدينا هو ثالث خطاب له مباشر في ظل أحداث الربيع العربي ألقاه من فوق قصر العزيزية المقابل للساحة يوم 25 فبراير 2011.

تعريف بالمتكلم

وُلد معمر محمد عبد السلام القذافي الملقب بـ "أبو منيار" عام 1942 في سرت الليبية،

وهو رجل عسكري قام ومجموعة من الضباط بانقلاب عسكري على الملك إدريس السنوسي سنة 1969، انتهى به رئيسا لمجلس قيادة الثورة في الجمهورية العربية الليبية. لم يرق للقذافي لقب "الرئيس" فأحلّ بدلا منه ألقابا أخرى منها الأخ والزعيم والقائد، وأحاط ليبيا بنعوت متعددة، فهي الجماهيرية العربية الشعبية الاشتراكية العظمى. وظل اللقب الأكثر تداولاً هو "قائد الثورة". ومع حلول سنة 2008 نصّب نفسه "ملك ملوك أفريقيا". وعلى غرار تسمية الولايات المتحدة الأمريكية أطلق اسم الولايات المتحدة الأفريقية التي كان يُغدق على كثير من دولها أموالا طائلة. لم يقتصر إنفاق المال على دول أفريقية، ولكن تعداها إلى تمويل حركات يسارية في العالم شملت فصائل فلسطينية، دون أن ننسى دعمه المادي لحركة التحرر بجنوب أفريقيا بقيادة نيلسون مانديلا، ثم انتهى به المطاف إلى تمويل حملات انتخابية في الغرب مثلما حصل في فرنسا مع ساركوزي. ولم يبخل في الإنفاق على إيطاليا حين ضخ ملايين الدولارات في ميزانيتها تحت ذريعة تمويل مشاريع كبرى، كما اضطر إلى دفع تعويضات مالية مهمة لعائلات ضحايا طائرة لوكربي التي أسقطها ضابطان في المخابرات الليبية فوق أراضي سكوتلاندا سنة 1988.

طبع مواقف القذافي عدم الحياد تجاه قضايا العالم، فقد ساند بالمال والسلاح جهات متعددة وجاهر بالعداء لأنظمة سياسية وتبنى قضايا خارج التراب الليبي، كما عاды الحركات الإسلامية الليبية وكل من لا يدين من الشعب الليبي بالولاء لصاحب الكتاب الأخضر. هذا الشعب اختزله في اللجان الشعبية واختزل هو اللجان والوطن في ذاته، حين قال إن العالم إذا سئل عن ليبيا اختلط عليه الأمر، أهى ليبيريا أم لبنان؟ لكن - يقول القذافي - إذا قلت لهم: "ليبيا القذافي" سيعلمون المقصود. بدهي أن يملك هذا الشعور شخصا مكث في الحكم 42 سنة، لم تشهد فيها ليبيا انتخابات برلمانية ولا رئاسية وظل يمارس مهامه بقبضة من حديد، كما هو بدهي أن تسري سنن الله في خلقه فيبعث من يلين الحديد ويرديه مادة قابلة للانتشاء.

4. السياق العام لخطاب الرئيس السوري بشار الأسد

تابع السوريون الأحداث في تونس ومصر وتفاعلوا مع نضالات شعبيهما. ومن مظاهر هذا التفاعل كتابة أطفال من درعا شعار "الشعب يريد إسقاط النظام" على حائط مدرسة الأربعين، فقامت قوات الأمن باعتقال أطفال قضى بعضهم تحت التعذيب مثلما حصل مع الطفل حمزة الخطيب الذي لم يتجاوز سن الثالثة عشر. ولما طالب الأهالي بإطلاق سراح أبنائهم تعرضوا للإهانة من مسؤول أمني فخرجوا في تظاهرة منددين بسوء المعاملة ورافعين شعارات تضمنت مطالب بإصلاحات سياسية واجتماعية، فتعرضوا هم الآخرون لعنف بلغ حد إسقاط ضحايا واعتقال كثير من المحتجين. إثر سماع باقي المحافظات خبر قيام السلطات الأمنية في درعا بالبطش بالمتظاهرين وقتل بعضهم، بدأت الاحتجاجات تتسع تضامنا مع أهالي القتلى، وتنديدا بالنظام الذي لم يبادر بإدانة المعتدين من رجال أمنه الذين واجهوا المواطنين بالرصاص الحي.

ظل النظام السوري يراهن على المقاربة الأمنية مع اتهام المتظاهرين بالعمالة للخارج والارتزاق معتبرا ما يحدث في سوريا مؤامرات من تدبير دول أجنبية معادية للنظام السياسي. فمذ انطلاق الاحتجاجات في 26 يناير 2011 إلى غاية 19 مارس من السنة نفسها لم تتوقف الاحتجاجات التي اتخذت لها أشكالا في التعبير منها الأهازيج الشعبية والأغاني الثورية، والرسوم الكاريكاتورية كرسوم الفنان أكرم رسلان الذي اغتيل، ورسوم الفنان العالمي علي فرزات الذي لم ينج من التعذيب ذهب حد كسر ذراعه وأصابع يده. لم تتوقف الاحتجاجات كما لم تتوقف آلة القمع والبطش والتتكيل بالمحتجين. أمام هذا الوضع، أبدى المجتمع الدولي استنكاره لتعامل النظام مع المحتجين، مما أشعر هؤلاء بوجود سند معنوي لانتفاضتهم واطمئنانهم على وجود شهود على المآسي التي تحدث في سوريا، كما أشعر النظام السوري أنه بأعين العالم. وهذا ما جعل بشارا يطرق باب المؤامرة وهو يبحث في أول خطاب له بعد اندلاع الاحتجاجات عن الأسباب وراء انطلاقها. خطاب اتسم بالطول، إذ استغرق مدة ثلاث ساعات إلا سبع دقائق، ألقاه يوم 30 مارس 2011 أمام ممثلي الشعب السوري بمقر مجلس الشعب بالعاصمة دمشق.

تعريف بالمتكلم

وُلد بشار الأسد يوم 11 شتنبر 1965. عمل طبيبا بالجيش السوري وتولى مسؤولية الوجود العسكري السوري في لبنان سنة 1998. وبعد عامين توفي أبوه حافظ الأسد، فخلفه بعدما تم تعديل الدستور بخفض الحد الأدنى لسن الرئاسة إلى 35 سنة، وهو عمر بشار آنذاك. تقدم لانتخابات سنة 2000 باعتباره أمينا قاطريا عاما لحزب البعث العربي الاشتراكي، والتي حصل فيها على نسبة 99,7 في المائة كما حصل في انتخابات 2007 على نسبة 97,6 في المائة.

لم يكن انتخابه رئيسا للبلاد مرحبا به من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وكثير من الدول الأوروبية والعربية، وذلك لكونه يشكل امتدادا لموقف أبيه الذي ظل يرفض إملاءات القوى الدولية بتغيير سياسته الخارجية والإقلاع عن احتضان المقاومة الفلسطينية، ناهيك عن انفتاحه على المعسكر المعادي لأمريكا من خلال التعاون مع الصين وروسيا وإيران والأنظمة اليسارية في أمريكا الجنوبية. وقد صادف بشار مشاكل كبرى في بداية ممارسة الحكم، وأيضا عبر مسيرته وهو رئيس للجمهورية، فقد أدين باغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري داخل لبنان، وتم اتهامه بارتكاب جرائم حرب ضد سوريين معارضين للنظام البعثي أثناء أحداث الربيع العربي. ورد بشار كل الاتهامات التي كانت توجه إليه إلى محاولة أعداء سوريا تغيير النظام وإسقاط قيادته المنتخبة من قبل الشعب. هذه القيادة ممثلة في الرئيس بشار، ستنتال في انتخابات 2014 نسبة 88,7 في المائة من الأصوات، وستشكك المعارضة السورية في نزاهة الانتخابات، مشيرة إلى أنها ظلت حبيسة المناطق الخاضعة لسيطرة النظام السياسي الذي دأب على التزوير - حسب قولها - من خلال اختلاق نسب مئوية من أصوات المواطنين.

5. السياق العام لخطاب الرئيس اليمني علي عبد الله صالح

شهد اليمن احتجاجات شعبية متأثرا بما شهدته بلدان عربية من ثورات خلال الربيع العربي سنة 2011. وقد رفع المتظاهرون شعارات طالبوا عبرها بحل البرلمان وتعديل الدستور وتنحية الرئيس علي عبد الله صالح، محملينه المسؤولية عن تردي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وانتشار الفساد، ومستنكرين عليه استمراره في الحكم واحتكار السلطات وحصر معظمها في دائرة عائلته. ومن بين الذين قادوا الاحتجاجات، نذكر مجموعة "اللقاء المشترك" التي ضمت أحزابا سياسية وطلبة جامعيين وجنودا منشقين ونشطاء الحراك الجنوبي.

أمام التصعيد الذي أبداه المحتجون الذين تمسكوا بمطلب إسقاط النظام الحاكم ورموزه، وأمام نجاح الثورة في تونس في إسقاط الرئيس بن علي، ونجاح الثورة المصرية في إسقاط مبارك، قدّم الرئيس صالح تنازلات كبيرة للمعارضة، معلنا أمام البرلمان عدم نيته الاستمرار في الحكم ولا استخلاف نجله الأكبر أحمد، قائلا: "لا للتمديد، لا للتوريث، ولا لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء"، داعيا معارضيه إلى العودة إلى الحوار والمشاركة في حكومة وحدة وطنية، وداعيا أيضا إلى إمهاله في الحكم حتى تنتهي ولايته سنة 2013. وبعدها أبدى معارضو الرئيس رفضهم للحوار معلنين في بيان لهم أنه مادام القمع ضد المحتجين فإنه "لا حوار مع الرصاص والهرات وأعمال البلطجة، ولا حوار مع سلطة تحشد المرتزقة والمأجورين لاحتلال الساحات العامة ومداخل المدن وإرهاب الأهالي وتعكير السكينة العامة"، وبعدها رفضوا أيضا توسط دول خليجية في محادثات لنقل السلطة، مراهنين على إسقاط النظام من خلال التظاهر في الساحات والشوارع وتوسيع دائرة المحتجين، لم يكن أمام الرئيس إلا أن يواجه معارضيه بحشد أنصاره في ساحة السبعين المشهورة، موجهها إليهم خطابا وموجهها عبرهم رسائل إلى خصومه يوم 15 أبريل 2011.

المراجع:

-اعتداءات على المطالبين برحيل صالح، الجزيرة نت، 2 أبريل 2011

-رؤية اللقاء المشترك لانتقال السلطة باليمن، الجزيرة نت، 3 أبريل 2011.

-تواصل المظاهرات المطالبة بتنحي صالح، الجزيرة نت، 12 أبريل 2011.

-جمعة مليونية وصالح يدعو للحوار، الجزيرة نت، 15 أبريل 2011.

تعريف بالمتكلم

إزداد علي عبد الله صالح يوم 21 مارس 1942 في قرية بيت الأحمر بمنطقة سحان التابعة لمحافظة صنعاء. التحق بالجيش في سن السادسة عشر من عمره وتدرج في المراتب من ضابط إلى رتبة مشير. شارك في الدفاع عن ثورة سبتمبر/ أيلول عام 1963 أثناء حصار دام سبعين يوما، وتخصص في حرب المدرعات سنة 1964، وتولى رئاسة اليمن الشمالي سنة 1978، وهي السنة نفسها التي اتخذ فيها قرارا بإعدام ثلاثين شخصا متهمين بالانقلاب على حكمه، ثم تولى اليمن بعد انضمام جنوبه إلى شماله سنة 1990، وهو ما يعرف بالوحدة اليمنية.

لم يشهد اليمن في ظل حكمه الاستقرار، فقد واجه النظام جماعة الحوثيين الشيعية، وقبلهم واجه متمردين من الجنوب لم يقتنعوا بقضية الوحدة، وقد جلب انتماؤه للمعسكر الاشتراكي متاعب لحكمه من قبل الغرب الرأسمالي ودول الخليج، كما تسبب موقفه من حرب الخليج التي جاءت بعد غزو العراق للكويت في مزيد من استعداد دول الجوار لنظامه.

6. السياق العام لخطاب الرئيس السوداني عمر البشير

شهد السودان موجة من الاحتجاجات يوم 30 يناير 2011، رفعت فيها شعارات تطالب بإصلاحات سياسية واجتماعية واقتصادية، ولم يتصدر مطلب تغيير النظام قائمة المطالب التي نادى بها المحتجون. فقد تدوّل هذا المطلب على نطاق ضيق ولم يصدع به كثيرا أثناء المظاهرات. وشهدت السودان أيضا احتجاجات سنة 2013 عرفت بثورة 23 سبتمبر، وقد قابلها النظام بشراسة خلفت 200 قتيلًا ومئات الجرحى وآلاف المعتقلين. تم إخماد جذوة الاحتجاج في مدن السودان، ولكنها ظلت متقدة في نفوس من عاينوا بطش الأمن، فقد راكموا كتلا من الغضب في صدورهم وظلوا يتربصون اللحظة المناسبة للتعبير عن غضبهم واستيائهم من النظام السياسي؛ وهو ما تأتى لهم حين استثمروا فرصة ارتفاع الأسعار، وغلاء المعيشة، وتذمر غالبية الشعب من قرارات النظام السياسية وتدبيره للملفات الاجتماعية والاقتصادية. استثمروا هذا الوضع فقاموا بتعبئة المواطنين الذين سرعان ما استجابوا، فخرجوا في تظاهرات عارمة مطالبين هذه المرة بصوت عال وموحد بإسقاط النظام. هذه التظاهرات استغلها الجيش السوداني ممثلا في وزير الدفاع الفريق عوض بن عوف الذي قام بانقلاب أسقط خلاله الرئيس السوداني عمر البشير. في ظل هذه الأجواء وبالضبط في الفترة التي اندلعت فيها الاحتجاجات وقبل قيام الجيش بالانقلاب، ألقى البشير خطابا أمام أعضاء المكتب القيادي لحزب المؤتمر الوطني الحاكم في بهو حديقة القصر الجمهوري بالعاصمة الخرطوم وكان ذلك يوم 22 فبراير 2019.

تعريف بالمتكلم

وُلد عمر البشير يوم 1 يناير 1944 في قرية بحوش بانكا. تخرج من الكلية الحربية السودانية عام 1967، ونال ماجستير العلوم العسكرية بكلية القادة والأركان عام 1981، وشارك في حرب أكتوبر 1973، شهد خلاله عبور قناة السويس مع الجنود المصريين إلى سيناء. تدرج في المناصب حتى عين قائدا للواء الثامن مشاة من عام 1987 إلى 30 يونيو 1989. خلال هذه السنة الأخيرة، قام بانقلاب عسكري على حكومة منتخبة يرأسها الصادق المهدي بتزكية من زعيم الجبهة القومية الإسلامية حسن الترابي، مما وفر له غطاء دينيا.

إضافة إلى التكوين العسكري، تلقى البشير تكويناً سياسياً أهله لترؤس حزب المؤتمر الوطني، وبعد أن تولى قيادة ثورة الإنقاذ الوطني في 30 يونيو 1989، جمع بين منصب رئيس الوزراء ومنصب رئيس الجمهورية حتى 2 مارس 2017.

في 26 أبريل 2010 أعيد انتخابه رئيساً في أول انتخابات تعددية منذ تسلمه للسلطة. وشهدت فترة حكمه انقلابات أبرزها انقلاب رمضان سنة 1990 الذي باء بالفشل، وتم إعدام مدبري الانقلاب. وفي أواخر 1999 حل البرلمان بعد خلاف مع زعيم الحركة الإسلامية الترابي الذي زج به في السجن في أكثر من مناسبة، ثم بادر البشير بحوار وطني انفرجت معه العلاقة بين النظام السياسي والحركة الإسلامية. ظل البشير في الحكم 30 سنة لم تشهد السودان خلالها تنظيم انتخابات رئاسية، حتى عام 2010 الذي جرت فيه انتخابات فاز فيها البشير بنسبة 68 بالمائة، بعد انسحاب المعارضة التي شكّت من غياب النزاهة.

لم تكن علاقة البشير بالمجتمع الدولي عادية، فقد نسبت إليه تهمة تتعلق بارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية. واتسمت علاقته في السنوات الأخيرة من حكمه مع الشعب بالتوتر، إذ شهدت السودان عام 2013 احتجاجات شعبية ضد الغلاء سقط إثرها 200 محتجاً¹ برصاص قوات الأمن. واتسمت سياسته وقراراته بالتذبذب، فقد سبق أن أعلن عن عدم ترشحه لانتخابات 2015، لكن سرعان ما تراجع عن قراره. وفي 2017 عين أول حكومة وفاق وطني شاركت فيها أحزاب من المعارضة، ثم في سنة 2018 قام بحلها وعين رئيساً آخر. كما قام بتقليص عدد الوزراء من 31 إلى 21 وزيراً بداعي المساهمة في حل المشكلة الاقتصادية التي يشهدها السودان. وفي 2019 تمت تنحية البشير من السلطة من قبل القوات المسلحة السودانية بعد أشهر من الاحتجاجات الشعبية العارمة.

¹ - منظمة العفو الدولية: مقتل أكثر من 200 محتج واعتقال 800 شخص بعد الاحتجاجات في السودان.

7. السياق العام لخطاب الرئيس التونسي قيس سعيّد

في ظل وجود مصاعب اقتصادية وأزمة سياسية بين رئاسة الحكم وبين المؤسسات السياسية التنفيذية والتشريعية، وفي ظل اشتداد الصراع بين الفرقاء السياسيين، إضافة إلى التدبير السيء لجائحة فيروس كورونا في تونس، انطلقت الاحتجاجات في تونس في يناير 2021 فتصدت لها قوات الأمن بعنف. وكان رئيس الوزراء هشام المشيشي قد أعلن عن تعديل وزاري شمل إحدى عشرة حقيبة وزارية وتغييرا في العديد من الوظائف الحكومية. نال الوزراء الجدد ثقة مجلس نواب الشعب الذي يرأسه راشد الغنوشي زعيم حزب النهضة الإسلامي، لكن سعيّد رفض استقبالهم لأداء اليمين متذعرا بشبهة فساد في ما يتعلق بالوزراء وعدم احترام الدستور في مداولات مجلس الوزراء على التعديل الوزاري. في أبريل 2021 رفض إصدار قانون أساسي يتعلق بإنشاء محكمة دستورية بحجة أنه لا يمكن تعديل القانون الأساسي دون موافقة المحكمة الدستورية ودعا إلى اعتماد نص جديد يؤسس لنظام رئاسي وديمقراطية مباشرة للبرلمان أو العودة إلى دستور تونس 1959. وفي 25 يوليو 2021 وهو يوم عيد الجمهورية، قام سعيّد بعزل رئيس الحكومة المشيشي ووزير الداخلية ومن خلالهما الحكومة، مستندا كما يقول إلى المادة 80 من الدستور. وفي فبراير 2022 حل المجلس الأعلى للقضاء، ثم في 30 مارس أعلن عن حل مجلس نواب الشعب. وقد أدانت أحزاب ومنظمات قرارات الرئيس سعيّد، ومن جملة هذه الهيئات المنددة بالقرارات نجد حزب النهضة والتيار الديمقراطي وائتلاف الكرامة.

في ظل هذه الأجواء التي تشهد تنافرا بين توجه الرئيس سعيّد ومجموعة من الهيئات السياسية والحقوقية، جاء خطاب الرئيس الذي ألقاه من قصر قرطاج بالعاصمة تونس يوم 13 ديسمبر 2021، والذي استغرق مدة ثمانية وثلاثين دقيقة وأربعين ثانية.

تعريف بالمتكلم

إزداد قيس سعيّد يوم 22 فبراير 1958 في مدينة تونس العاصمة. هو أستاذ جامعي متقاعد تخصص في القانون الدستوري عمل رئيسا للجمعية التونسية للقانون الدستوري من 1995 إلى 2019، وكان عضوا ضمن مجموعة من الخبراء في الأمانة العامة لجامعة

الدول العربية بين 1989 و1990، وعضو لجنة الخبراء المكلفة بمراجعة مسودة دستور تونس 2014. تقدم للانتخابات الرئاسية باعتباره مستقلا وقد دعمته أحزاب إسلامية ويسارية وجهات أخرى كانت تنظر إلى منافس سعيد كونه امتدادا للنظام السابق مما قوى حظوظ سعيد بالفوز. وقد فاز بنسبة 72,71 بالمائة من الأصوات في الدور الثاني على منافسه نبيل القروي وتولى رئاسة البلاد يوم 23 أكتوبر 2019. إلى جانب عامل رفض الشعب التونسي للنظام السياسي السابق ورفض رموزه وكل ما يمت إليه بصلة والذي بقدر ما خدم سعيد، فقد ساهم بشكل كبير في إخفاق منافسه السياسي على رئاسة الجمهورية، إلى جانب هذا العامل يوجد عامل آخر خدم سعيد في حملته الانتخابية هو فصاحته؛ إذ كان يجري حواراته بالفصح العربي دون تلثم وهو يرتجل الكلام. إضافة إلى هذين العاملين، بدا سعيد أكثر إقناعا من خصومه السياسيين المنافسين له، خصوصا أمام القروي في الدور الثاني من الانتخابات؛ إذ تركت طريقة عرضه للحجج وفصاحة لسانه واتسامه بالهدوء والرد على حجج منافسه، انطبعا جيدا واستحسانا من لدن غالبية المستمعين للمناظرة التي جرت بينه وبين منافسه.

خلاصة وتركيب

تَمَثَّلَ متنُّ المقاربة التداولية في خطابات سياسية رسمية وأخرى معارضة لها. ونقصد بالرسومية الخطابات الرئاسية التي أنجزها رؤساء دول عربية في سياق احتجاجات الربيع العربي وتداعياتها، كما نقصد بالمعارضة تلك التي أنجزتها الجماهير المحتجة ضد سياسات أنظمتها الحاكمة. هذه الخطابات أنجزت خلال العقد الثاني من هذا القرن، أي بدءا من زمان الربيع العربي عام 2011 إلى 2021. عقد شهد انتفاضات جماهيرية عارمة ضد الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي ومصادرة الحقوق في كثير من البلدان العربية. وقد صيغت هذه الخطابات بأشكال تعبيرية متنوعة، توزعت بين ما هو شفهي شمل الخطابات الرسمية وبعضها من خطاب المعارضة، وبين ما هو غير شفهي اختص به خطاب المعارضة، وتمثل في الرسوم الكاريكاتورية والكتابة على الجدران ولافتات حوت مطالب المحتجين وغير هذا من أشكال التعبير. وإذا كانت خطابات المعارضة قد أنجزت في الساحات والميادين التي شهدت احتجاجات، فإن الخطابات الرئاسية شهدت تنوعا من حيث المكان الذي صدرت منه.

فقد ألقى رؤساء خطاباتهم من مقرات إقاماتهم، كقصر قرطاج بالعاصمة تونس، والقصر الجمهوري بالقاهرة، وساحة القصر بالخرطوم، ومن مقر البرلمان بدمشق والتي بثت عبر قنوات الاتصال الرسمية. وألقى آخرون خطاباتهم مباشرة أمام الجماهير، مثلما حدث مع الرئيس الليبي القذافي الذي أطل على الجماهير من فوق قصر العزيزية بطرابلس، ومع الرئيس اليمني الذي خاطب الجماهير مباشرة بساحة السبعين بصنعاء.

الفصل الثاني

الأبعاد التداولية

المبحث الأول: الإشارات ووظائفها

1- البعد الدلالي والتداولي للضمائر الشخصية ولصيغ مرتبطة بها

لا تنحصر وظيفة الضمائر في الربط والإحالة، ولكنها تطلع أيضا بوظائف جمالية واجتماعية ودلالية وتداولية. ولأن الخطاب السياسي خطاب حجاجي يستهدف المخاطب، فقد يتم تعيينه من قبل المتكلم بضميري الخطاب "ك" و"كم" صريحين. وتتم أيضا الإشارة إليهما ضمنا عند توارى التقابل الضميري بين ضمير المتكلم وضمير الخطاب، وظهور ضمير المتكلم المفرد "أنا" الذي يفترض وجود "أنت"، وظهور المتكلم الجمعي "نا" أو "نحن" اللذين قد يحتويان المخاطب. هذا التوارى والظهور يعكسان توجهها مقصودا من لدن المتكلم الذي يقوم بتنويع في الاستخدام للاحتواء وللاستمالة، أي استمالة مخاطبه. وقبل أن نرصد بعض المظاهر المتعلقة بمقولة الإشارات، نشير إلى قضية بالغة الأهمية تخص الفرق بين مفهوم الإحالة وبين مفهوم التعيين أو المفهوم الإشاري. فأما المفهوم الأول فيتحقق حين يحضر العنصران المُحال والمحال إليه معا في النص، وأما الثاني فيتحقق حين يشار بالمحال إلى محال إليه خارج النص. الإشكال هنا متمثل في اعتبار بعض الباحثين أن في الملفوظ "أيها الشعب التونسي، نكلمكم.. فهمتكم.." لا يوجد تعيين وفق المقولة التداولية الإشارات، بدعوى أن المُحال (ضمير الخطاب الجمعي "كم") والمحال إليه (الشعب التونسي) هما موجودان معا في النص أو الخطاب (مع مراعاة الفرق بين دلالتى هذين الأخيرين). والذي نميل إليه أن المخاطب (الشعب التونسي)، رغم ذكره في الخطاب، فإن له مرجعا في الواقع، فهو إذن حقيقة موجود في العالم الخارجي يتلقى الكلام الذي يتلفظ به المتكلم بن علي، وهذا ما يضعنا أمام تحقق مقولة الإشارات.

في مستهل خطاب الرئيس التونسي زين العابدين بن علي، نجد تقابلا ضميريا بين ضمير المتكلم المستتر "نحن" وضمير الخطاب الجمعي "كم" في الملفوظ الآتي: "أيها الشعب التونسي نكلمكم اليوم...."، بحيث يحيل ضمير الخطاب "كم" إلى عنصر موجود في الواقع هو الشعب التونسي. بعد ترديد كلمة نكلمكم أربع مرات ضمّنها مطلع خطابه في محاولة لشد انتباه المستمعين إليه وتوخي تفاعلهم، توالى صيغ لسانية طبعها حضوراً لضمير الخطاب سواء الذي ورد مقابلا للضمير المتكلم، مثل أنا فهمتكم، فهمتكم، قلت لكم، أجدد لكم...، أم

الذي ورد خارج التقابل الضميري، مثل مطالبكم، سلاحك، عليك، يجبرك، عليكم. وحملت إلينا صيغ أخرى من خطاب بن علي أنواعا أخرى من الضمائر، منها ضمير المتكلم الجمعي المتصل وضمير المتكلم الجمعي المستتر اللذين وردا في أكثر من ملفوظ، مثل "كنا عملنا جهود كبيرة لمعالجتها، تونس بلادنا، تألمنا، أولادنا...."، إضافة إلى ورود الضمير المستتر "نحن" في "مستقبلها بين أيدينا فلنؤمنها جميعا، نكرر، نرفض..."، كل هذه الأفعال وأخرى، تضمنت ضمير المتكلم المستتر "نحن" الذي يعود إلى الرئيس وحكومته. هذا الضمير الذي يرتبط بلحظة فعل التألف، يفترض حضور مخاطب يعيّن بضمير منفصل "أنتم"، أو بضمير متصل "كم" أو بضمير مستتر.

في موضع آخر من الخطاب وفي سياق الإقرار بالتقصير تجاه الوطن والمواطنين وتحميل الآخرين مسؤولية هذا التقصير، يصرح بن علي: "نحن نؤكد لكم أن العديد من الأمور لم تجر كما حَبِيتُهَا، بكل صراحة كما حبيتها تكون، وخصوصا في مجالي الديمقراطية والحريات، وغلطوني أحيانا بحجم الحقائق وسيحاسبون". في هذا الملفوظ سلك بن علي سبيل الالتفات حين انتقل من التعبير بصيغة الجمع "نحن نؤكد" التي عضد فيها الضمير "نحن" فعل التوكيد، إلى التعبير بصيغة المفرد "حبيتها" وهو تعبير يترجم شعوره الخاص، لذلك لم يشرك المتكلم أحدا معه وهو يعبر عن حالة نفسية متعلقة به. وقد سلك المتكلم السبيل نفسه حين انتقل إلى التعبير بصيغة الغياب، من خلال كلمة "غلطوني" التي عنى بها إيقاعه في الغلط، وأيضا من خلال كلمة "سيحاسبون"، في دلالة على تحميل بعض المسؤولين في النظام السياسي ما آلت إليه الأوضاع في البلد وإبراء ذمته منها. يتواطأ مع دلالة الإبراء ورود ياء المتكلم في "غلطوني" في صيغة مفعول به وقع عليه التغليف من فاعل متمثل في الضمير المتصل واو الجماعة في البنية "غلطوا". ولأن مغالطة المرؤوس لرئيسه خيانة للأمانة، فإن مرتكبي هذا الفعل سيُسألون وسيحاسبون.

ولرصد البعد التداولي لضمير المتكلم الجمعي في الملفوظ "نحن نؤكد لكم أن العديد من الأمور لم تجر كما حبيتها...."، يلزم استحضار السياق المقامي للخطاب وتعيين المقابل الضميري لـ "نحن". يبدو أن هذا المقابل يشير إلى المتظاهرين الذين ناب عنهم الضمير المتصل "كم" في "نحن نؤكد لكم أن....". وإذا كان الكلام موجها إلى المتظاهرين فهو أيضا

موجه إلى الذين جعلوا الأمور "لم تجر كما" كان يحب الرئيس، وهم أعوانه الذين قدموا له "حقائق مغلوطة". وقد يستهدف هذا الملفوظ (بدرجة أقل) الأشخاص الذين التزموا الحياد ولم ينخرطوا مع المتظاهرين المناوئين للنظام السياسي.

يمكن القول إذن بأن الضمير الواحد في مقام معين قد يستدعي وجود أكثر من مقابل ضميري مستهدف من لدن المتكلم، الذي يحال إليه بالضمير "أنت" و"أنتم" وكاف الخطاب والضمير الجمعي "كم". وفي إحالة إلى الشعب، استعمل بن علي صيغة الجمع "نكلمكم، وفهمتكم"، في حين استعمل صيغة المفرد عند الإحالة إلى الجنود في الملفوظ الآتي: "يحاول يفك سلاحك ويهجم عليك بالنار وغيرها، ويجبرك على الدفاع عن النفس"، حتى يشعر كل جندي أنه المعني بالخطاب، فيتفاعل مع مخاطبه الذي أبدى تجاهه مشاعر الخوف عليه من مكروه قد يصيبه "إلا لا قدر الله حد حاول يفك سلاحك ويهجم عليك بالنار". نلاحظ هنا أن استعمال كاف الخطاب التي تؤول إلى الجندي التونسي، قد صاحبها نوع من التعاطف أبداه الحاكم تجاه هذا الأخير في دلالة على تأييده لما يقوم به رجال الأمن. وصاحب استعمال ضمير الغائب المستتر "هم" في "غلطوني" وعيداً بالعقاب متضمن في لفظة "سيحاسبون". هذا اللجوء إلى استعمال ضمير الغياب مردفاً بفعل مبني للمجهول أو لما لم يسم فاعله "سيحاسبون" هو نوع من التعمية، إذ أبقى بن علي الفاعلين المغالطين خارج دائرة التعيين ولم يشر لا إلى أسمائهم ولا إلى المصالح التي يشتغلون بها.

يراد أحيانا باستعمال ضمير الخطاب وضمير الغياب الرفع من شأن المشار إليه أو التقليل من شأنه والتحذير منه. وكثيرا ما يشار إلى الخصوم والأعداء بضمير الغياب المستتر والمنفصل. نرصد ذلك في هذا الملفوظ "يهجم عليك بالنار". فبينما تم تعيين المعتدي بضمير الغياب المستتر "هو" (يهجم هو عليك)، فقد رافق كاف الخطاب استئناس ورضى بالمعني بالكاف "شعبي العزيز، أخاطبك اليوم"، والأمر نفسه في خطاب حسني مبارك "أتوجه بحديثي اليوم... أتوجه إليكم جميعا بحديث من القلب، حديث الأب لأبنائه وبناته"؛ حيث ورد ضمير الخطاب "كم" في سياق التودد والتعبير عن المشاعر الطيبة تجاه المخاطبين الذين أشار إليهم مبارك بالأبناء والبنات. هذه الصورة التي يبدو فيها فيض المشاعر القلبية متدفقا، صورة الأب والأبناء، كان مبارك قد رسمها في مطلع الخطاب حين استهل كلامه ب"الإخوة المواطنين

الأبناء شباب مصر وشاباتهما، أتوجه إليكم..."، مقدما شخصه باعتباره مواطنا تشده إلى الشعب أسرة الأخوة التي تلغي كل الفوارق والاعتبارات الاجتماعية والسياسية والسلطوية. ولتعزيد هذا الشعور لدى المخاطب، خاطب الشريحة الأكثر تأثرا في الساحة وفاعلية في توجيه مسار المظاهرات. فقد وسم الفاعلين المؤثرين بالأبناء وتم تعيينهم من خلال التقابل الضميري في ملفوظ "أتوجه إليكم"، هذا التقابل يعكس مدى التقارب بين المتكلم والمخاطب ويمهد لبناء جسر الثقة لتيسير التواصل بين المتخاطبين.

إذا كان مطلعاً خطابي بن علي ومبارك يتقاطعان حول حضور التقابل الضميري بين ضميري المتكلم والمخاطب، فإن مطلع خطاب القذافي لم يشهد التقابل نفسه سواء من حيث البنية الصرفية أم من حيث الوظيفة. فقد صيغ المطلع في شكل أفعال أمر مثل "ردوا عليهم، ردوا على العملاء"، بحيث تم التقابل بين الذات الأمرة، ذات المتكلم التي يمثلها الضمير المستتر "أنا"، وبين جمهور مساند للنظام السياسي الذي هو محل الاستجابة لفعل الأمر "ردوا على العملاء، ردوا على الكذابين....". هذه الفئة من المخاطبين تم تعيينها بالضمير المستتر "أنتم" الذي هيمن حضوره في الخطاب "ردوا"، "استعدوا"، "تغنوا"، "ترقصوا"، "تستعدوا"، "غنوا"، "ارقصوا"، "خذوا"، "ارقصوا"، اسهروا، عيشوا، "افرحوا"، "امرحوا"، إضافة إلى ورود لفظة "انظروا" أربع مرات كان فيها المخاطب معاديا للقذافي. أمام هذا الحضور القوي للتقابل الضميري "أنا" و"أنتم"، الذي شملته صيغة فعل الأمر والذي خرج أحيانا عن غرضه إلى غرض الترغيب "ارقصوا"، "غنوا"، "افرحوا"...، فقد بدا باهتا حضور التقابل الضميري بين ضمير المتكلم وضمير الخطاب "ك" و"كم" المبتوتين في الفعل المضارع، إذ ورد في مناسبة واحدة تضمنه الملفوظ "لأحييكم". ومعلوم أن التقابل بين "أنا" و"نحن" وبين "ك" و"كم" يدل على أن المخاطب قريب من حيث المسافة من المتكلم، الذي يُشعر مخاطبه من خلال تعيينه أنه المعني بالخطاب، وقد يتولد عن هذا التعيين تفاعل مع المتكلم.

وبينما هيمن حضور التقابل بين ضمير المتكلم وضمير الخطاب في خطابي بن علي ومبارك، فقد حضر بشكل محتشم في خطاب القذافي. ولأن غياب هذا التقابل يسهم في التباعد بين المتخاطبين، فقد تكفلت كلمة "شعبي" بنسج علاقة المتكلم بمخاطبيه؛ حيث إنها وردت أربع مرات في سياق تباهي القذافي بأنصاره والاعتداد بهم إن لم يكن اعتدادا بالنفس وإيحاء

بتبعية الجماهير الشعبية للقائد الزعيم من خلال إضافة كلمة شعب إلى ياء المتكلم. وبخصوص لفظة شعب المجردة من الإضافة وبعض الصيغ الصرفية المشتقة منها، مثل "الشعوب" و"الشعبية"، فقد وردت تسع عشرة مرة في دلالة على أن المخاطب لا يقتصر على الحاضرين في الساحة المقابلة لقصر العزيزية الذي يصدر منه الخطاب، وإنما يشمل الشعب الليبي برُمَّته وشعوبا أخرى. ودل ضمير المتكلم الجمعي "نا" في "ضحاياها من إخوتنا وأبنائنا"، إلى جانب الضمير المستتر "نحن" في "لكن نحن علينا أن نبدأ..."، أن بشار الأسد عبّر هذا الاستعمال للضميرين، يقصد إشعار المخاطب بوحدة الانتماء ووحدة المصير مما يحفزه على التفاعل مع الخطاب والاستجابة لرسالته. وبالتالي يدفعه إلى الاصطفاف إلى جانبه وتبني أطروحته، أو على الأقل بناء جسر الثقة بين المتخاطبين، مما يسهل عملية التواصل وإنجاز أغراض الخطاب. وكما سنبيّن، ليس كل ملفوظ حَمَل ضمير المتكلم الجمعي ينهض بوظيفة الاحتواء، ومثال ذلك ما ورد في خطاب مبارك "سنثبت أننا لسنا أتباعا لأحد، ولا نأخذ تعليمات من أحد، وأن أحدا لا يصنع لنا قراراتنا"، وهناك صيغ لا توحى بالاحتواء مثل "حرصا منا"، "وقد ارتأينا". كل هذه الملفوظات، اختص فيها الضمير "نا" بالذات المتكلمة أو الذات القيادية الحاكمة دون أن يشمل المخاطب من الشعب، أي إن دلالة الضمير بارزا أو مستترا، لم تسع سوى ذاتي المتكلم ومعاونيه. نخلص إلى أن ذاتي المتكلم والمخاطب قد تسعهما دلالة ضمير المتكلم الجمعي، لا اعتقاد المتكلم أن ثمة مشتركا ومنطلقات مسلما بها بينه وبين مخاطبه، مثل "الثقة في اقتصادنا وسمعتنا الدولية"، وقد لا تسعهما عند استعمال المتكلم صيغا تعبيرية من قبيل "إننا نريد بلوغ سنة 2014 في إطار وفاق وطني".

ونظرا لما تتمتع به "نا" الدالة على الجمع من قدرة على التأثير في المخاطب، فقد رأينا كيف تم توظيفها في خطابات بن علي والأسد ومبارك. هذا الأخير قام باستثمار الحمولة الدلالية والحجاجية لهذا الضمير الجمعي الذي وظفه لغرض الاحتواء ولغرض الإشارة إلى التدبير الجماعي لقضايا البلاد. إلى جانب هذا الضمير، استثمر ضمير المتكلم المتصل "ت" وضميري المتكلم المستترين "أنا" و"نحن" وياء المتكلم. نلمح هذه الضمائر في ملفوظات "أعلنت بعبارات لا تحتل الجدل"، و"طرحنا رؤية محددة"، و"أوجعت قلوبنا"، و"بدأنا بالفعل حوارا وطنيا"، و"أقول لكم إنني أعتر بكم"، و"لن أتهاون"، و"سنثبت"، و"لا نأخذ

تعليمات من أحد"، و"أتوجه بحديثي"، و"أوجع قلبي"، و"استجابتي لصوتكم"، و"النهوض بمسؤوليتي"... نسجل هنا أنه رغم هذا التنوع في حضور الضمائر، إلا أن الخطاب خلا من التللف بالضمير المنفصل البارز "أنا". وقد يعود هذا الغياب إلى تفادي المتكلم الظهور بمظهر المتعالي، نظرا لما استقر في الوعي الجمعي العربي من تمثّل سلبي لدلالة العنصر الإشاري "أنا"، باعتباره حاملا لمعاني التفضيم والتعظيم والاستعلاء. وهي معان تنسف جهود المتكلم في محو صورة الشخص المستبد، ورسم صورة الأب الحاني الذي أنزل الشباب المنتفض منزلة أبنائه متوجها إليهم "جميعا بحديث من القلب"، وصورة رئيس الدولة الذي لا يجد "حرجا أو غضاضة في الاستماع لشباب بلاده والتجاوب معه"، وأيضا صورة المؤمن بالديمقراطية وعمادها تداول السلطة الذي يعلن "بعبارات لا تحتل الجدل أو التأويل عدم ترشحه للانتخابات الرئاسية المقبلة". وقد يحتمل خلو الخطاب من استعمال الضمير البارز "أنا" شعور المتكلم بأن السلطة لم تعد حكرا على النظام السياسي وأجهزته، ولكن أصبح الشارع هو الآخر يمتلك السلطة ويحاول فرض واقع سياسي جديد يقطع مع مظاهر تمجيد ذات الزعيم. وقد كان اللجوء إلى السخرية من الرئيس عبر الكاريكاتير أحد أوجه نزع هالة التمجيد، وهو ما فطن له مبارك حين لم يسند ذاته المتكلمة إلى الضمير المنفصل البارز "أنا"، مراعاة للمقام التخاطبي واستجابة لإكراهات الواقع الجديد.

وإذا نظرنا في خطاب عمر البشير، فإننا سنلاحظ أن هذا الضمير البارز "أنا" وضمير المتكلم "ت" لم يردا في كل الخطاب، ولم يرد كثيرا الضمير المستتر "أنا". وحضر بقوة الحديث بصيغة الجمع وتم إفراغ ضميري المتكلم المفرد "ت" و"أنا" في خانة الضمير المستتر الجمعي "نحن"، وبدرجة أكبر في خانة الضمير المتصل "نا" دون أن يعني هذا احتواء لضمائر الخطاب مثل ما حصل مع الضمير "نا" في خطاب بن علي حين قال: "مستقبلها بين أيدينا"، و"تونس بلادنا"، و"تألمنا"....، حيث تم احتواء ضمائر الخطاب الذي هو في الحقيقة محاولة احتواء لغضب الجماهير التي أصبحت تطالب برحيل الرئيس بن علي. ولئن اختلفت وظيفة الضمير "نا" من خطاب عمر البشير إلى خطاب بن علي، فإن دلالة الضمير في كلا الخطابين جاءت محملة بالدعوة إلى تبني الإنجاز الجماعي عبر إشراك الغير، سواء أكان هذا الغير ممثلا للقيادة السياسية أم ممثلا للجماهير. لم يقتصر الغياب التام في خطاب البشير على

الضميرين "أنا" و"ت"، وإنما شهد الخطاب أيضا عدم ورود ضمائر الخطاب سواء المتصلة منها أم المنفصلة البارزة "ك"، و"كم"، و"أنت"، و"أنتم". وقد يقصد بهذا الغياب رسالة مفادها أن ليس هناك تصادم بين إرادة القيادة السياسية وإرادة الجماهير المحتجة، ومن ثم استبعاد الحديث عن تقابل بين طرفين. وقد تجسد هذا من خلال انتفاء وجود تقابل ضميري في الخطاب، وتصريف التأشير على المخاطب بعبارة الضمير المتصل الجمعي "نا" والضمير المنفصل المستتر والبارز "نحن"، في دلالة على التلاحم ووحدة الموقف وانصهار الإرادتين في بوتقة الصالح العام.

في سياق ذكر محاسن المتكلم وسياق الاعتداد بالنفس الذي يدعمه الاستناد إلى الضمير المنفصل البارز "أنا"، ورد اسم العلم معمر القذافي خمس مرات وورد الضمير "أنا" ست مرات، وهما يستمدان معا فاعليتهما وقوتهما التأثيرية من قوة الجماهير "ها هو معمر القذافي وسط الجماهير"، "أنا وسط الجماهير وسنقاتل وسنهزمهم". ويقصد بالضمير الغائب "هم" المعتدين الأجانب الذين يُلْمَس وجودهم في التعبير الآتي: "سنهزم أي محاولة خارجية تمس أي جزء من تراب ليبيا". وتوحي عبارة "أنا وسط الجماهير" بتحول المخاطب "الجماهير" التي من ضمنها المتكلم، إلى ذات مخاطبة لجهة تحاشى المتكلم تعيينها بإحدى ضمائر المخاطب، مستعيضا عنها بضمير الغائب الجمعي، وهذا التحول من شأنه تعضيد موقف المقاومة للتصدي للعدو المشترك لكل الليبيين.

2- الإشارات الاجتماعية؛ بين الوظيفة التعيينية والوظيفة الاجتماعية

تحقق التعيين بواسطة الضمائر وتحقق أيضا عبر استخدام الإشارات الاجتماعية، مثل "شعب" في خطاب القذافي "كل الشعوب... ها هو صوت الشعوب"، و"الإخوة المواطنون" في مطلع خطاب مبارك "بسم الله الرحمن الرحيم.. الإخوة المواطنون، الأبناء شباب مصر". هذا النوع الأخير من الإشارات الاجتماعية يَطَّلِع هنا بوظائف متعددة، منها إكساب معنى مرجعي خارج النص للعنصر الإشاري "الإخوة المواطنون"، بحيث تصبح هوية العنصر المحال إليه معلومة، ويضحي فعل الاحتجاج ضد الفساد وقمع الحريات لا يخلع عن صاحبه صفة الانتماء إلى الوطن ولا يعرضه لتهمة الخيانة والعمالة للأجانب. وهذا من شأنه المساهمة في بناء الثقة والتفاعل إيجابيا بين المتخاطبين. وقد استخدم القذافي كلمة "شعوب" التي وردت

في صيغة جمع التكسير، واستخدم كلمة "شعب" الواردة في صيغة المفرد والدالة على الجمع مضافة إلى ياء المتكلم (شعبي) عند تعيينه الجماهير الحاضرة أمامه في الساحة الخضراء بطرابلس، محملاً إياها دلالة تحريضية ضد من اعتبرهم "عملاء كذابين الذين يديرون وكالات وإذاعات الإعلام". وقد تجلّى هذا الاستخدام في الملفوظ "ها هو شعبي، ها هي الشعوب، ها هو صوت الشعوب، استعدوا للدفاع عن ليبيا... استعدوا للدفاع عن الكرامة، عن الاستقلال، عن العزة، عن المجد...". ولأن أنصار القذافي موجودون في كل الوطن الليبي، فإن دلالة كلمة "شعبي" تسع كل هؤلاء، فحين يخاطب المتكلم الجموع الحاضرة فهو يخاطب عبرهم باقي المواطنين المؤيدين له. في هذا السياق، سياق حشد مزيد من التأييد وإبلاغ الخصوم مدى مناصرة الكثيرين له، يذكر كلمة "الشعوب" التي سبق أن قرنها بكلمة الإفريقية، ويعني بهم شعوب غرب إفريقيا والساحل وجنوب الصحراء الذين ضح في ميزانيات دولهم أموالاً طائلة وأضحى ذا نفوذ في أوساطها. هذه الشعوب هي الأخرى تمثل مخاطباً مستهدفًا من قبل القذافي إلى جانب المخاطب المباشر الحاضر في الساحة الخضراء الذي أشير إليه بـ "ها هو شعبي"، الذي يسع كما أسلفنا الذكر مخاطبين خارج الساحة. وإذا كان القذافي قد استعمل كلمة "شعب" مضافة إلى ياء المتكلم في دلالة على قوة الارتباط بالمخاطب وعلى السعي إلى استمالته أيضاً، فإن خطابي مبارك وبن علي خليا من استعمال المركب الإضافي شعبي، وحل محل الياء الضمير المتصل "ها" في "مصر وشعبها" و"كل شعبها يحبها"، إلى جانب استعمالات أخرى مثل "مصالح الشعب" و"أيها الشعب"... هاته الاستعمالات تضع مصير الوطن بين يدي الشعب وتحمله مسؤولية حمايته والدّؤد عنه، وهي حماية لمصالحه هو أيضاً و تأمين عليها.

بناء على ما سبق، نخلص إلى القول بأن إفراغ الضمائر في خانة الضمير "نا" هو امتصاص لها، بل هو امتصاص لغضب الجماهير التي تم الاعتراف بمشروعية تطلعاتها والاعتزاز بها. مقابل هذا الحضور القوي للضمير "نا" في خطاب البشير، رصدنا هيمنة لضمائر المتكلم المتصلة وضمائر المتكلم المستترة في الخطابات الأخرى، كما شهدنا غياباً تاماً لضمير المتكلم المفرد "أنا" في خطابي مبارك والبشير، وفي خطاب القذافي ذكر الضمير

المنفصل "أنا" ست مرات، وفي خطاب بن علي خمس مرات، ووقفنا كذلك على ورود اسم العلم للمتكلم وسجلنا تفاوت نسب حضوره من خطاب لآخر.

الخطاب الضمير + اسم العلم	خ. عمر البشير	خ. بن علي	خ. مبارك	خ. القذافي
الضمير المنفصل البارز "أنا"	—	5	—	6
اسم العلم	—	—	2	5

من خلال المعطيات الواردة في الجدول يتبين أن العقيد الليبي استعمل الضمير "أنا" ست مرات واسم العلم "معمر القذافي" خمس مرات، والرئيس التونسي الذي له هو الآخر خلفية عسكرية تلفظ بالضمير "أنا" خمس مرات، وتردد اسم حسني مبارك مرتين في خطاب الرئيس المصري الذي خبر الحرب وشهد بعض المعارك. في المقابل لم يرد لا الضمير "أنا" ولا اسم العلم للمتكلم في خطاب عمر البشير الذي له هو الآخر تكوين عسكري. إن الظروف التي أحاطت بإنجاز الخطاب وقبله اتسمت بالتوجس من قيادات عسكرية أبدت عدم رضاها على أداء البشير لكثير من الملفات وعلى رأسها تدبيره للشأن السياسي والاجتماعي

والاقتصادي، ناهيك عن انخراط المجتمع المدني والهيآت النقابية والسياسية في الحراك إلى جانب الحشود العريضة من المحتجين المطالبين بإسقاط نظام البشير ومحاكمته، وهذا ما أشعره بحالة الضعف وجعله ينأى عن استعمال ضمير المتكلم البارز "أنا"، الذي غالبا ما يرافق النطق به إحساس بالقوة وشعور بالثقة في النفس.

3- أسماء الإشارة الشخصية؛ بين دلالة الترابط وغرض التداول

يُقصد باسم الإشارة الشخصية اسم الإشارة الذي يحيل على شخص في سياق مقامي محدد. هذا العنصر الإشاري يقوم بوظيفة الربط بين مكونات الخطاب، ويساهم إلى جانب عناصر السبك الأخرى في انسجام الخطاب، إضافة إلى تحيينه وتحقيق التواصل بين المتكلم والمخاطب وتفاعلهم. سنعرض لهذا العنصر الإشاري في خطاب القذافي الذي استخدمه في أكثر من موضع، في حين لم نرصد استعمالا واحدا للعنصر الإشاري في خطابي مبارك وبن علي.

في سياق التماهي مع الجماهير الحاضرة والتباهي بها، ورد قول القذافي: "هذا الشعب الذي جعل إيطاليا تعتذر وتدفع التعويض غصبا عنها". في هذا الملفوظ تكفل اسم الإشارة "هذا" بوظيفة الربط بين قولين، إذ نقلت الرابطة "هذا" ما سبقها إلى معنى ما لحقها، والذي سبق اسم الإشارة هو "الشعب الذي رگع إيطاليا"، في حين أن اللاحق من القول هو "الشعب الذي جعل إيطاليا تعتذر". والمتكلم هنا يعني بـ "هذا الشعب" المخاطب الذي يستمع إليه ويتفاعل معه وهو يلقي خطابه من فوق قصر العزيزية، المخاطب الحاضر الذي يحاول المتكلم إذكاء روح الحماسة فيه بتذكيره بنضالات الأجداد، ويبقي شعلة مقاومة أعداء الوطن متقدة في نفسه. "هذا الشعب" المخاطب الحاضر أمام القصر ليس المستهدف الوحيد من الخطاب، ولكن يعني أيضا كل المؤيدين له في كامل الوطن، وقد يعني إلى جانب هؤلاء فئات من المواطنين اختاروا الحياد أو لهم توجهات سياسية مخالفة لتوجه النظام السياسي¹. والمتكلم

¹ - أشار شارودو في كتابه *Langage et discours* إلى إمكان تعدد المستهدفين من الفعل الكلامي الواحد، وهو يتحدث عن صناعة Tu من قبل Je .

- Le "Tud" est cet interlocuteur fabriqué par le "Je" comme destinataire idéal, adéquat à son acte d'énonciation Il faut également ajouter qu'il peut y avoir plusieurs "Tud".

من خلال استخدام عبارة "هذا الشعب" يتوخى تحقيق غرض تداولي متمثل في إدراك المستمع أنه المعني بالإشارة، وأنه جزء من الشعب الذي ينبغي أن يستجيب لقصد مخاطبه وينخرط في الدفاع عن الوطن.

وفي سياق الرفع من معنويات أنصاره وإثارة غيظ منائيه، نجد المتكلم يصرخ بصوت عال "انظروا يا أوروبا، انظروا يا أمريكا، انظروا أيها العرب، انظروا إلى الشعب الليبي، ها هو معمر القذافي وسط الجماهير، وسط الشباب. هذا هو الشعب الليبي، هذا هو، هذا هو أمر الثورة، هذا الشعب متحمس". في هذا الملفوظ لا تخفى وظيفة الربط التي يقوم بها اسم الإشارة بين مكونات الخطاب التي تتناغم دلاليا، إذ يصب المعنى في خانة استعداد الجماهير وتأهبها لصد العدوان. "هذا هو أمر الثورة، هذا الشعب متحمس، لأنه يرى أن الثورة هي العزة، هي الكرامة، هي المجد، هي التاريخ". لإبراز التقاطع الدلالي بين القول الذي سبق اسم الإشارة "هذا" والذي لحقه، نشير إلى أن المتكلم ذكر الثورة وقصد الثوار الذين وسمهم بالشباب رمز القوة والعنفوان، ثم انتقل بواسطة الأداة الرابطة "هذا" إلى إخبارنا بأنهم شعب متحمس، لتتضح العلاقة بين معاني القوة والعنفوان ومعنى الحماسة، ومن ثم بين ما سبق اسم الإشارة ومعنى ما لحقها. وفي ما يتعلق بالبعد التداولي لهذا العنصر الإشاري، فقد تم تعيين المخاطب المباشر الموجود في الساحة الخضراء، هذا التعيين يقصي عددا هائلا من الليبيين المعارضين للقذافي من الانتماء للوطن ويعزلهم عن الشعب، لأن من يدعي الانتماء إلى الشعب وفق المتكلم هو الحاضر بين الجماهير في الساحة وهو من يتبنى موقفهم ويشاركهم الولاء للقائد الزعيم.

4- تداولية الإشارات الزمانية¹

يكاد يحضر العنصر الإشاري الزماني في كل مطالع الخطابات السياسية، حيث يصدر المتكلم خطابه بكلام من قبيل "أتوجه بحديثي إليكم"، أو "أخاطبكم اليوم"، أو "نكلمكم اليوم"، إذ يحيل العنصر الإشاري "اليوم" على زمان التلفظ وهو معلوم لدى المتخاطبين ولدى متلقي

(destinataire) à même acte de langage. P.Charaudeau. Langage et discours, éléments de sémiolinguistique (théorie et Pratique),éd. HACHETTE, Paris, 1983, p 39.

1- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2002، ص19.

الخطاب حين استعانتهم بالسياق. هذا العنصر الإشاري مساهم إلى جانب عناصر أخرى في توجيه الدلالة، ففي قول مبارك الذي يتعهد فيه بتسليم السلطة لمن يفوز في الانتخابات القادمة: "أعلنت تمسكا... بالمضي في النهوض بمسؤوليتي في حماية الدستور ومصالح الشعب حتى يتم تسليم السلطة والمسؤولية لمن يختاره الناخبون في شهر سبتمبر المقبل"، في هذا القول تم تحديد الزمان الذي سيتم فيه التسليم وهو شهر سبتمبر المقبل. هذا الزمان يهتدي إليه المخاطب انطلاقا من معرفته بزمان تلفظ المتكلم، أي الزمان المركزي للخطاب. ويبدو زمان تسليم مبارك للسلطة بعيدا، نظرا لكون الشارع بلغ ذروة الاحتقان وهو مستعجل أمر الرحيل وتغيير النظام السياسي. فالمدة الزمنية التي سيستغرقها انتظار تسليم السلطة تقدر بسبعة أشهر تمتد من فبراير إلى سبتمبر، وهي مدة كافية للتوصل من الوعود والإجهاز على مطالب المحتجين. ولأن المتكلم يعي ما يجول بخاطر الشارع المنتفض من خوف من نقض العهد ومن لجوء إلى تسويغ خرق أي اتفاق مع مرور الزمان، فقد بادر مبارك إلى أداء "القسم أمام الله والوطن" بأن يقوم بـ "حماية الدستور ومصالح الشعب حتى يتم تسليم السلطة والمسؤولية". ولبلوغ هدف تسليم السلطة، دشن مبارك حوارا مع الشباب الذين قادوا الدعوة إلى التغيير وكافة القوى السياسية على أمل إيجاد خريطة طريق واضحة وبجدول زمني محدد، ليتم "الانتقال السلمي للسلطة من الآن وحتى سبتمبر المقبل". ويمثل ظرف المكان "الآن" عنصرا دالا على زمان كوني يجسد زمان التلفظ بالخطاب، ومنه يتجه الزمان نحو زمان المستقبل. إن معرفة المخاطب بالزمان المركزي للخطاب الذي يحيل عليه العنصر الإشاري "الآن"، تُنتج تواسلا مع المتكلم وتخلق تفاعلا مع خطابه، وهو ما يسعى إليه هذا الأخير حين يُؤسس خطابه في ضوء ما تحيل إليه الإشارات. إلى جانب الإشارات التي تحيل على الزمان الحاضر وزمان المستقبل، توجد إشارات على الزمان الماضي. ولأن خطاب مبارك شهد توظيفاً للإشارات الدالة على الأزمنة الثلاثة، فإننا سنعتمده أيضا في رصد الإشارات الدالة على الزمان الماضي.

في معرض جبر ضرر أهالي "شهداء من أبناء مصر"، أصدر مبارك تعليماته "بسرعة للانتهاء من التحقيقات حول أحداث الأسبوع الماضي، وإحالة نتائجها على الفور إلى النائب العام ليتخذ إجراءات قانونية رادعة". فالزمان هنا كما هو مصرح به في الملفوظ "الأسبوع

الماضي" زمان منتم إلى الماضي ومدة استغراقه أسبوع، لكن تحديده لا يتم إلا بالقياس إلى مركز الإشارة الزمانية الذي هو زمان تلفظ المتكلم بالخطاب. ودون اعتماد زمان التلفظ، يظل اللبس محيطا بالملفوظ ولا يستطيع المخاطب معرفة الأحداث المرتبطة بذلك الأسبوع، وبالتالي يتعذر التواصل مع المتكلم. ويَطال التعذر أيضا متلقي الخطاب دون أن يكون مخاطباً مستهدفاً من قبل المتكلم. فنحن حين نعاين العبارة الآتية: "الأسبوع الماضي"، لا نتبين الزمان الكوني الذي يحيل إليه العنصر الإشاري، لكن بالتوسل بالسياق المقامي الذي يدلنا على زمان التلفظ، نستطيع إزالة اللبس ومعرفة الزمان الذي يحيل إليه العنصر الإشاري. ومن بين الإشارات الدالة على الزمان الماضي التي وردت في الخطاب، نذكر كلمة "أمس" في الملفوظ "لقد تلقيت أمس التقرير الأول بالتعديلات الدستورية" والذي يحيل على الزمان الماضي القريب، وقد وظفه المتكلم لإبراز التفاعل الإيجابي مع مطالب المحتجين سواء من لدنه أم من لدن اللجنة التي شكلها بغرض دراسة التعديلات الدستورية والتشريعية المطلوبة. وبلاستناد إلى زمان التلفظ الذي هو مركز الإشارة الزمانية في هذا القول، يتبين للمخاطب الزمان الكوني الحقيقي الذي يحيل إليه الزمان الإشاري "أمس" وهو زمان في الماضي القريب من زمان التلفظ. إن الوقوف على دلالة الزمن الكوني "أمس"، يُطمئن المخاطب ويشعره بجدوى المستجد الذي طرأ حديثاً، كما يشعره بجدوى استجابة رئيس الدولة لبعض مطالبه.

5- تداولية الإشارات المكانية

إذا كانت مطالع الخطابات شهدت حضور العنصر الإشاري الزماني "اليوم"، ثم توزعت ومجموعة من العناصر الإشارية في باقي الخطاب، فإن هذه الخطابات قد شهدت شحاً في حضور الإشارات المكانية. ففي خطاب بن علي، رصدنا استخدام هذا العنصر الإشاري للمكان مرة واحدة وقد ورد في الملفوظ الآتي: "نحن نكرر هنا وخلافاً لما ادعاه البعض أنني تعهدت يوم السابع من نوفمبر بأن لا رئاسة مدى الحياة". يشير العنصر الإشاري "هنا" إلى المكان الذي يرسل منه المتكلم خطابه، وهو قصر قرطاج مقر سكنى الرئيس. هذا المكان معلوم لدى كل التونسيين، وبالتالي فإنهم لن يختلفوا حول الذي يحيل إليه ظرف المكان "هنا". وشهد خطاب القذافي هو الآخر استخداماً للعنصر الإشاري المكاني مرة واحدة، وقد ورد في

الملفوظ "أنا وسط الجماهير في طرابلس في الساحة الخضراء". هذه الساحة توجد أمام قصر العزيزية الذي اعتلى المتكلم سطحه ليخاطب أنصاره، والقصر يمثل مركز الإشارة المكانية، فمنه يرسل المتكلم كلامه. وكون القذافي يحدد وجوده بالساحة الخضراء، فللدلالة على الانخراط مع الجماهير الحاضرة واندماجه فيها. إن إعلان القذافي حضوره وسط الجماهير محاطا بها في الساحة المقابلة للقصر هو ضرب من المجاز حَمَلَه المتكلم محمل الحقيقة، يبتغي به حماية الأنصار له كما يبتغي به الرد على من أشاعوا خبر مغادرته طرابلس.

لم يرد ملفوظ دال على عنصر إشاري مكاني في خطاب الرئيس المصري الذي اكتفى بتعيين مكان مخاطبيه حين قال: "أتوجه بحديثي اليوم لشباب مصر بميدان التحرير وعلى اتساع أرضها"، دون تعيين للمكان الذي يتوجه منه هو نحو مخاطبه. بالمقابل نجد الرئيس السوري بشار الأسد يستهل خطابه بذكر المركز الإشاري للمكان، مُبْدِياً سعادته وهو يلتقي بممثلي المواطنين تحت قبة مجلس الشعب الذي يمثل السلطة التشريعية. يقول الأسد: "يسعدني أن ألتقي بكم مرة أخرى تحت قبة مجلسكم". هذا التعيين للمكان هو إضفاء للشرعية على اللقاء وإكساب للخطاب مصداقية كونه يستمد قوة حاجبية تمنحها إياه رمزية القبة التي تأوي مجلساً أفرزته انتخابات تجري كل أربع سنوات. جسد أعضاء مجلس النواب الحاضرون في القبة المخاطبين المباشرين الذين خاطب المتكلم عبرهم "أبناء سورية الأعزاء". وقد يتعدد المخاطب ليشمل أيضاً جهات في العالم العربي وخارجه. هذا المخاطب يدرك مكان التلفظ ويعتمده في فهم دلالات العناصر الإشارية المكانية، مثل "هنا"، و"هناك"، و"هناك". نتوقف هنا لتشير إلى أن ورود هذه العناصر الإشارية التي هي ظروف مكان، لا يعني بالضرورة ارتباطها بالمركز الإشاري المحيل إلى مكان التلفظ وتبعيتها له. فقد جاء ظرف المكان "هناك" غير مرتبط بالمركز الإشاري "قبة مجلس الشعب" في الملفوظ "إذا أردنا أن ننظر إلى ما يعيننا نحن كسوريا في ما حصل حتى الآن في هذه الساحة العربية الكبيرة نقول: إن ما حصل يعبر عن إجماع شعبي.. عندما يكون هناك إجماع شعبي يجب أن نكون مرتاحين سواء كنا نوافق أو لا نوافق على كثير من النقاط". فالساحة العربية المشار إليها "هناك"، تمثل الساحة السورية مركزها الإشاري المكاني، وليس قبة مجلس الشعب. وكأن المتكلم يتموضع في إحدى الساحات السورية لحظة التلفظ. وقد تكون القبة مركزاً إشارياً إذا ركب المتكلم أسلوب

المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية، أي إنه ذكر القبة وقصد الساحة التي هي بلاد سوريا. وقد وظف المتكلم ظرف المكان "هناك" الدال على القرب للدلالة على تجاور الساحتين، مقلصا المسافة التي تفصل بينهما، بل إنه أشار إلى الساحة العربية باعتبارها قريبة جدا منه، وهو قرب عاطفي يؤشر عليه اسم الإشارة "هذه" الوارد في قوله: "في هذه الساحة العربية الكبيرة". وقد أبقى بشار بلده خارج الساحة العربية الكبيرة ولم يشملها التعيين باسم الإشارة "هذه"، حتى يبين الفرق والتمايز بين النظام السوري والأنظمة الحاكمة الأخرى في التعامل مع "الحالة الشعبية العربية" التي يقول إنها "كانت مهمشة لعقود على الأقل ثلاثة أو أربعة عقود"، والتي "عادت إلى قلب الأحداث" في المنطقة العربية. ومما يؤكد وجهة نظرنا، تصريح المتكلم باهتمامه "في كثير من الخطابات بالشارع العربي وبوصلة الشارع ورأي المواطن". وقد تجسد هذا الاهتمام جليا في قوله: "بنيت سياستنا على التواصل بيني وبين الشعب والمواطنين"، ليخلص إلى نتيجة مفادها أن الاحتجاجات التي تشهدها الساحة العربية والتي أجمع عليها الشعب العربي، سببها تهميش أنظمة الحكم العربية لقضايا المواطنين. إن الأمر مختلف في سوريا - يدعي الأسد - حيث إن هناك تواصلا واستجابة لمطالب المواطنين، وأن ما تشهده بلاده مرتبط بـ "مؤامرة كبيرة خيوطها تمتد من دول بعيدة ودول قريبة، ولها بعض الخيوط داخل الوطن".

في هذا السياق، سياق ربط ما يحدث في سوريا من احتجاجات بفعل المؤامرة، ذكر المتكلم أن المتأمرين لا يتوانون في استغلال ما تموج به الساحة العربية من حراك بإسقاطه على محافظات سوريا، إذ سارع هؤلاء إلى وصف ما حدث في محافظة درعا بأنه ثورة. وقد اعترض المتكلم على استعمال كلمة الثورة وأحل محلها "حالة شعبية"، نافيا وجود ثورات سواء في سوريا أم في الدول العربية التي شهدت الحراك من خلال قوله: "اليوم هناك صرعة جديدة. هي ثورات بالنسبة لهم ونحن لا نسميها كذلك، فهي ليست كذلك. هي حالة شعبية بمعظمها". في هذا القول يحيل ظرف المكان "هناك" على بلدان عربية خارج سوريا شهدت احتجاجات زمن الربيع العربي. وهذا العنصر الإشاري غير مرتبط بمركز الإشارة لمكان التلفظ، إذ لا تسعف المخاطب معرفته بمكان التلفظ "قبة مجلس الشعب" في معرفة ما يحيل إليه العنصر الإشاري "هناك"، وإنما يدرك المحال إليه بالوقوف على دلالة العنصر الإشاري

"هناك" من خلال القول الذي ورد فيه. وإذا كان ثمة اعتراض على ما أشرنا إليه من قول حول إمكان عدم ارتباط العنصر الإشاري بمركز الإشارة الذي يمثل مكان التلفظ، فإن المتكلم لم يُحلّ بالعنصر الإشاري "هنا" في الملفوظ "ثورة هناك وثورة هنا... إصلاح هناك وإصلاح هنا" إلى مركز الإشارة لمكان التلفظ الذي هو قبة مجلس الشعب، وإنما أحال على ربوع الوطن، أي على كل محافظات سوريا.

المبحث الثاني: تداولية الأفعال الإنجازية

1- الأفعال الإنجازية وارتباط المعنى بالسياق والقصد

ترى نظرية أفعال الكلام أن الأقوال التي نتلفظ بها لا تكتفي بنقل المعلومات، ولكنها تنجز أيضا أفعالا وأن السياق والقصد هما المحددان فيما إذا كان التلفظ أمرا أو نهيا أو تهديدا أو مدحا. وترى هذه النظرية أن قصد المتكلم مرتبط بالفعل الإنجازي الذي يتوقف نجاحه على فهم المتلقي لمقصده أو لمقاصده، ذلك لأن الفعل الكلامي قد يحمل عدة إنجازات مما يجعل الملفوظ الواحد يتسع لأكثر من غرض إنجازي مثلما جاء في الملفوظ "سيكون التغيير الذي أعلنت عليه الآن استجابة لمطالبكم التي تفاعلنا معها". قد يُقصد بهذا القول إنجاز فعل الاعتراف بشرعية مطالب المحتجين ما عدا مطلب إسقاط النظام طبعاً، وقد يُقصد به الدعوة إلى التوقف عن الاحتجاج.

ولأن الاحتجاجات قد اشتدت حدتها، ولأن الرهان على المقاربة الأمنية لم يُجد في كبح جماح الثائرين الذين أريق دمائهم واستشهد منهم رفاق، انتقل بن علي من حال الاعتراف إلى حال التأسف، قاطعا على نفسه إنهاء بطش رجال الأمن بالمحتجين من خلال قوله: "ما نقبلش باش تسيل قطرة دم واحدة". توحى صيغة هذا الملفوظ أنه ينتمي إلى دائرة أفعال العرض - الإثبات؛ إذ تم فيه إثبات رفض بن علي لإراقة دماء المحتجين، كما توحى دلالة محتواه القضي أن يندرج ضمن أفعال السلوك أو التعبيرات وفق سورل. لكن باستحضار السياق ومحاولة فهم قصد المتكلم، نهتدي إلى أن المقصود هو إنجاز قوة فعل كلامي من أفعال الإلزام أي ما يعرف بالوعديات عند أوستين. هذا الفعل الإنجازي يلزم المتكلم جوابا متمثلا في الوفاء بالوعد، ويكمن هذا الوفاء في القيام بحماية المحتجين من بطش رجال الأمن. تنوعت قوى أفعال الكلام في خطاب بن علي، وكان للأفعال الإنجازية الدالة على السلوك حضور قوي. ومن بين الملفوظات التي حوت هذه الأفعال، نذكر "تألما لما حدث شديد الألم"، و"حزني وألمي كبيران"، و"تألما لسقوط ضحايا وتضرر أشخاص"، و"أسفي كبير جدا وعميق جدا"، و"أجدد الشكر"، و"تونس نحبها". هذه الأفعال السلوكية التي يسميها سورل أفعالا تعبيرية، يجسد من خلالها المتكلم حالته النفسية ويشعر المواطنون بمدى تأثره بما يجري في الواقع. فحين يتلفظ بـ"أولادنا في الدار، وموش في المدرسة وهذا حرام وعيب

لأننا أصبحنا خائفين عليهم من عنف مجموعات سطو ونهب واعتداء"، فإن مدلول المحتوى القضوي هو شعور المتكلم بالخوف على أطفال تونس من عنف المجموعات التي تعتدي عليهم، وقوة فعل الكلام تتمثل في إبداء الخوف الذي يقصد به استثارة عاطفة التونسيين ودفعهم إلى إدانة من كانوا وراء إبقاء الأولاد حبيسي المنازل ومنعهم من الالتحاق بالمدارس، وهذا من شأنه تسريب الشك لدى الناس حول مصداقية الاحتجاج وأهداف المحتجين.

يُعزّد هذا الطرح إرداف بن علي قولا يصف فيه المحتجين بالإجرام "هذا إجرام... مش احتجاج"، حيث تضمّن هذا الملفوظ فعلا إنجازيا من أفعال العَرَض تمثل في إثبات هوية المحتجين الذين يميلون إلى العنف، هذا الوصف قد يترك لدى السامعين انطبعا سيئا عن المحتجين. بعد إرساء صورة الذين وصفهم بالمجرمين في ذهن السامعين، بادر بن علي إلى إصدار التعليمات إلى قوات الأمن لملاحقة من يعتبرهم معتدين، داعيا المواطنين إلى التعاون لمواجهتهم "وَحْنَا اعطينا التعليمات ونُعَوِّل على تعاون الجميع". هذا الملفوظ يتضمن فعلا إنجازيا من الأفعال التوجيهية، متمثلا في إصدار الأوامر لفرض واقع جديد يقطع مع الممارسات المنحرفة، وينفتح على الاحتجاجات المشروعة "حتى نفرق بين هذه العصابات والمجموعات من المنحرفين.... وبين الاحتجاجات المشروعة التي لا نرى مانعا فيها". هذا الفعل الإنجازي قادر على إحداث أثر في المخاطبين، مثل توقعهم بأن الأوضاع لن تؤول إلى الانفلات والتسيب، وأن السلطة السياسية ما زالت تملك القدرة على السيطرة واستتباب الأمن، مما يخلق توجهها شعبيا يراهن على السلطة ويصطفّ ضد المحتجين.

إلى جانب هذه الصيغ التعبيرية التي تضمنت أفعال العرض والوعد والسلوك والتوجيه، وردت ملفوظات في صيغة جمل خبرية لم يقصد منها المتكلم إفادة السامع شيئا مما تضمنه الكلام من أحكام، وذلك لأن الخبر معلوم لدى السامع. من بين هذه الملفوظات، نذكر "جرحي وألمي كبيران، لأنني بدلت أكثر من خمسين سنة من عمري في خدمة تونس في مختلف المواقع من الجيش الوطني إلى المسؤوليات المختلفة، وثلاثة وعشرين سنة على رأس الدولة". في هذا التعبير يندرج الخبر ضمن أغراض منها التضحية والاستعطاف. وقد يكون خرج إلى الفخر من خلال استعراض ما بدله طيلة خمسين سنة في خدمة الوطن، إلا أن المقام ليس مقام فخر، إذ يحاول بن علي في أكثر من موضع من الخطاب الظهور بمظهر الإنسان المسالم

الذي يتألم مثلما يتألم أهل الضحايا، وبمظهر البريء مما شهدته تونس من تراجعات وارتكاسات في المجال الحقوقي والاقتصادي والاجتماعي، وأيضا بمظهر الضحية كون أعوانه ومستشاريه قد قاموا بمغالطته حين لم يكشفوا له الحقائق في مجالي الديمقراطية والحريات "غلطوني أحيانا بحجب الحقائق". لم يصرح بن علي بهوية من أخفوا عنه الحقائق، فقد أشار إليهم بضمير الجمع الغائب "هم"، مبقيا باب الاتهام بالتقصير والإخلال بالمهام مُشرعا في وجه كل مسؤول في النظام، ومُبرّئا ذاته هو مما آلت إليه الأوضاع في البلاد. هذه الذات الحاكمة ستقدم أوراق اعتمادها على أفراد أمام المتظاهرين، وستباشر العمل "بكل وضوح" على "دعم الديمقراطية والتعددية"، و"على صون دستور البلاد واحترامه" دون الإشارة إلى إشراك الغير من خلال استخدام الضمير الجمعي "نحن" في هذا العمل، الذي ينهض على تدبير جماعي للقيادة السياسية ورعاية مؤسسية وتنسيق مع القوى المجتمعية. هذه الذات لم تتعهد بتصفية التجربة الفاشلة للديمقراطية المتعاشية مع الاستبداد، والتي كانت أحد أسباب تأجيج الاحتجاج، وإنما اكتفت بالقول إنها ستعمل على "دعم الديمقراطية"، وكأن التجربة السياسية للنظام لم تكن تشكو سوى من غياب سند يمثل دعامة لبيت الديمقراطية الذي هو قائم، لكن فقط تخترق جدرانه بعض التصدعات. والمتكلم من خلال استخدام كلمة "دعم" يوجه ذهن المخاطب نحو التفكير بعيدا عن كون بيت الديمقراطية أمسى منقضا منهذما نتيجة احتكار كل السلطات من لدن فرد واحد وغياب تداول الحكم بين الفرقاء السياسيين. ولأن هذه المدة الزمنية من ممارسة الحكم لم تشهد تفعيلا للتعددية ولا حرية للتعبير ولا احتراماً للدستور كما يقر الحاكم نفسه، فإن هذا الأخير قطع على نفسه تدارك ما فات من إنجازات "مازال أمامنا مجهود أكبر لتدارك النقائص"، وتعويض ما شمله تقصير أو إهمال، وإصلاح ما فسد في مختلف المجالات وعلى رأسها مجال الحريات والديمقراطية، متوسلا بصيغ تعبيرية تحتوي أفعالا كلامية تدرج ضمن الوعديات تلزم صاحبها بإنجازها في المستقبل. وقد تجلّى هذا الفعل الإنجازي للوعد في مواضع من الخطاب، منها "راني باشن نعمل على دعم الديمقراطية وتفعيل التعددية، نعم على دعم الديمقراطية وتفعيل التعددية وصون الدستور واحترامه"، حيث استمد الفعل الكلامي قوته الإنجازية من التأكيد على دعم الديمقراطية وتفعيل التعددية والتعهد بحماية الدستور والامتثال لقوانينه. وتمثّل التأكيد على دعم الديمقراطية من

خلال تعضيد القول بحرف الجواب نعم، الذي أفاد التوكيد كما أفاد إنجاز فعل الوعد بعد التعهد بالعمل على دعم الديمقراطية وتفعيل التعددية. ولأن السياق الذي وردت فيه هذه الأفعال الإنجازية للوعد سياق تبرئة الذات من الخروقات التي شهدتها مجالا الحريات والديمقراطية، فإن المتكلم قد يقصد معنى مضمرا متمثلا في إثبات التقصير لدى الآخرين في هذين المجالين وغيرهما، واتهامهم بتعطيل العمل بالدستور وخرقه. وبهذا يكون المتكلم قد أنجز أفعالا كلامية غير مباشرة تندرج ضمن التقريريات وفق تصنيف سورل. هذه الأفعال الإنجازية لم ترد بشكل صريح سواء حين توجه المتكلم بالخطاب نحو الذين "غلطوه" أم حين خاطب المحتجين. قد يرجع هذا إلى شعور المتكلم باهتزاز مكانته الاعتبارية بوصفه حاكما، وبالتالي فقدانه الأهلية لإصدار الأحكام وإثبات الاتهام. وقد يكون السبب سعيه إلى تجسير الهوة بينه وبين المتظاهرين، وتقليص دائرة الاستعداد عليه بتعمده تحاشي الاتهام المباشر لمسؤولين في النظام، إذ لم يتم تعيينهم وتحديد هوياتهم، مكتفيا بالقول "أخطاء المسؤولين".

في ظل التصعيد الذي شهدته المظاهرات التي عمت كل أرجاء تونس، وانسداد الأفق أمام الحوار بإعلان الثوار إصرارهم على رحيل بن علي بعدما أخفقت المقاربة الأمنية ولغة التهديد الصريحة، سلك هذا الأخير سبيلين في مواجهة خصومه متوسلا بصيغ تعبيرية مضمنا إيها أفعالا إنجازية غير مباشرة. فأما السبيل الأول، فيتمثل في استعداد الكتلة المحايدة التي لم تتخرط في مسيرات الاحتجاج على المتظاهرين أو فئات منهم الذين وصفهم تلميحا بغير المتحضرين وغير المتسامحين، لأنهم على غير عادات التونسيين يقومون بالتخريب "ما هُوش من عادات التونسي، التونسي المتحضر، التونسي المتسامح". وزاد فحملهم تصريحاً سقوط ضحايا، مبرئاً رجال الأمن من فعل القتل وإسقاط الضحايا. وأما السبيل الثاني فسعيه إلى بث الشك في صفوف المتظاهرين لإحداث تصدع بها من خلال حديثه عن وجود عصابات ومجموعات من المنحرفين وسط المحتجين، واصفا تظاهراتهم بأنها "إجرام مش احتجاج". وكون المتظاهرين مجرمين، فإن "المواطنين، كل المواطنين لابد أن يقفوا أمامهم". هؤلاء المواطنون هم الكتلة المحايدة وأنصاره، الذين راهن عليهم بن علي في مواجهة المتظاهرين الذين جرّدهم المتكلم من صفة المواطنة. لم يكن القصد من دعوة المواطنين إلى "الوقوف أمام" المتظاهرين منع الاعتداء على الأشخاص والممتلكات وتأمين عودة التلاميذ إلى

المدارس ليزول خوف بن علي "عليهم من عنف مجموعات سطو ونهب واعتداء على الأشخاص"، وإنما كان القصد إنجاز فعل كلامي توجيهي أشد قوة من حيث الإنجاز من الفعل التوجيهي السابق. ويتمثل الفعل الأشد قوة في دفع المواطنين إلى الاشتباك مع المتظاهرين المنادين برحيل بن علي، ومن ثم تحريف بوصلة الثورة من فعل الاحتجاج السلمي ضد النظام السياسي إلى صراع بين أفراد الشعب. هذا الصراع ستصّحبه مساندة رجال الأمن لكل من يصطف ضد المتظاهرين "كل المواطنين لابد أن يقفوا أمامهم، واحنا اعطينا التعليمات ونعول على تعاون الجميع".

وخرج أيضا الخبر في مواضع من خطاب مبارك لأغراض متعددة. ففي سياق إبداء التأسف والمواساة والتنديد بالجرائم التي خلفت شهداء وجرحى في صفوف المحتجين والتعهد بمحاسبة مقترفيها، جاء الملفوظ "الأخطاء واردة في كل نظام سياسي وفي أي دولة" في صيغة تقريرية خرجت من غرض الإخبار إلى غرض الاعتراف الذي يندرج ضمن التعبيريات. وعكس بن علي الذي ألقى باللائمة على المحتجين حين نسب إليهم سقوط الضحايا مدعيا أنه كان "بسبب تواصل العنف والنهب"، فإن مباركا عيّن الجهة المسؤولة عن إسقاط الضحايا وهي النظام السياسي الحاكم حين أقر بأن أي نظام سياسي غير معصوم من الأخطاء. لم يكن الغرض من وراء هذه الصيغة التقريرية إفادة المحتجين وغيرهم من المستمعين الحكم المضمن في المحتوى القضوي للملفوظ الذي هو عدم عصمة الحاكمين من الأخطاء، وذلك لأن المخاطبين ليسوا خاليي الذهن، بل هم على علم باستحالة خلو سجل أي نظام سياسي من الأخطاء، وإنما كان الغرض الاعتراف بقصور هذا الأخير في التعامل مع الأحداث قصد امتصاص غضب الجماهير الذي تأجج مع تصاعد العنف من قبل رجال الأمن، الذين هم جزء من النظام السياسي ويخضعون لتعليماته. ومع ذلك، فإن مباركا نسب إليهم فعل الإجرام "الذين أجرموا في حق شبابنا"، لكنه اعتبر ما صدر عن مسؤولين كبار في نظامه مجرد أخطاء، متوعدا إياهم بأقصى ما تقرره أحكام القانون من عقوبات رادعة.

لم يكن ركوب المتكلم أسلوب الوعيد سوى تمويه لجعل قوات الشرطة المتهم الرئيس والمسؤول المباشر عن أعمال العنف، وبالتالي توارى الانتقادات تجاه مبارك ومقربيه. لقد اتضح أمام الجميع أن الثورة ماضية نحو تحقيق أهدافها، وأن دائرة المؤيدين بقدر ما يتسع

نطاقها، تُضَيِّق الخناقَ على خصومها، وأن الثوار في ميدان التحرير غير مستعدين للتفاوض مع النظام إلا بعد تحقيق أحد الشرطين: رحيل فوري للرئيس مبارك رحيلا ماديا حقيقيا أو رحيل معنوي سياسي بتفعيل المادة 139 من الدستور، والتي يفوض فيها صلاحياته لنائبه. أمام هذا المعطى الذي شكل إلى جانب رفض الجيش طلب مبارك بالتدخل في الصراع، سارع مبارك إلى طرح رؤية محددة للخروج من الأزمة. فلتحقيق مطالب الثوار، اقترح تنظيم انتخابات حرة ونزيهة بعد مضي ثمانية أشهر واقترح عقد "حوار مسؤول بين كافة قوى المجتمع". وحول هذا الاقتراح الأخير، صرح مبارك "لقد بدأنا بالفعل حوارا وطنيا بناء يضم شباب مصر الذين قادوا الدعوة إلى التغيير وكافة القوى السياسية، ولقد أسفر هذا الحوار عن توافق مبدئي في الآراء والمواقف يضع أقدامنا على بداية الطريق الصحيح للخروج من الأزمة". وردَ هذا التصريح في صيغة جملة خبرية تحوي فعلا إنجازيا منوطا به الإخبار عن عقد حوار بين النظام وبين القيادة الثورية والقوى السياسية، ومحاطا بأكثر من مؤكد: لام القسم، وأداة التحقيق قد، ولفظة "بالفعل". وقد سعى مبارك عبر استخدام أدوات التوكيد إلى تعزيز الفعل الإخباري، ودفع الثوار خصوصا المعتصمين بميدان التحرير، الذين أنزلهم المتكلم منزلة المُنْكَرِ للحكم الذي هو إجراء حوار مع "الذين قادوا الدعوة إلى التغيير"، إلى التسليم بالحكم. هذا التسليم يترتب عنه انتظار ما سيسفر عنه من نتائج، وهو ما صرح به المتكلم حين تحدث عن حصول توافق مبدئي في الآراء والمواقف، كما يترتب عنه انتظار تحقيق ما توافق عليه طرفا الحوار على أرض الواقع، وهو ما يعني إمهال مبارك ونظامه مدة زمنية قد يفتر خلالها حماس الثوار وتتوارى فيها المطالبة بالرحيل وتغيير النظام. وقد يتعدى القصد غرض فعل الإنجاز المباشر الذي هو الإخبار إلى أغراض غير مباشرة، منها الحث على العمل سويا على تدشين مرحلة جديدة يطبعها التواصل والتفاهم، وينتهي فيها العنف المادي والمعنوي، ويُحتكم فيها إلى العقل وتُراعى فيها مصالح الوطن والمواطنين. وقد يخرج الخبر إلى غرض توجيهي يَصْبُ في ما يريده المتكلم. وهو ما حصل حين تم دفع المستمعين سواء المعارضين أم المحايدون إلى التشكيك في مصداقية القيادة الثورية، التي أخَلَّت بمطلب رئيس من مطالب الثوار لما أقبلت على التحاور مع النظام. ونحن نُرجِّح فرضية تعمُد مبارك تسريب الشك وتداوله بين الثوار، وهو فعل إنجازي مستلزم يندرج ضمن

التوجيهيات أراد به إحداث شرخ في صفوف مناوئيه. وحتى إذا سلّمنا بعدم حصول الحوار حقيقة، فإن ترجيحنا سيظل قائما وذلك لأن مجرد ادعاء اللقاء بـ"شباب قادوا إلى الدعوة إلى التغيير"، وليس ممن قادوا إلى الدعوة إلى التغيير، قد يُدخل الرّيبة في الأنفس ويدفع إلى التّلاؤم ويخلق حالة من الاضطراب لدى المعتصمين وباقي الثّوار. وهو ما يراهن عليه مبارك في سعيه إلى إضعاف خصمه الذي يستعجل رحيله. وإن كنا نطمئن إلى عدم مشاركة القيادة الثورية المنبثقة من ميدان التحرير في الحوار، فإننا لا نستبعد إمكان انخراط مناضلين دعوا إلى التغيير في الحوار. يستند استبعادنا لحضور القيادة المفوضة من لدن المعتصمين بميدان التحرير رمز الشرعية الثورية للحوار إلى كون هؤلاء الثّوار قد اشترطوا على أنفسهم عدم مغادرة الميدان إلا بعد رحيل مبارك، مع إبقاء جذوة الاحتجاج متقدة حتى تحقيق المطالب الستة الأخرى التي حوتها لافتات، ولم تُعَي من الصّدّع بها الحناجر ولم تَمَلّ من ترديدها الأنفس. وقد تجسّد رفض مغادرة الثّوار وقياديتهم الميدان سواء أَدْعُوا إلى حوار أم لم يُدْعُوا إليه، حين أرغموا وزير الدفاع محمد حسين طنطاوي على الحضور إلى الميدان للتفاوض، رافضين إجراء أي لقاء خارجه ورافضين أيضا إجراء الحوار مع النظام وعلى رأسه مبارك. فكيف إذا يمكن أن ينعقد حوار يرفض أحد طرفيه الآخر ويؤسس هويته الثورية على الصراع السلمي مع خصمه؟

ومن الحجج التي تُعضد رأينا حول عدم حضور القيادة المنبثقة من الميدان المفوّضة من لدن المعتصمين للحوار مع النظام السياسي، استنكار إجراءاته من قبل تنسيقيتي حركتي كفاية و6 أبريل اللتين كانتا السباقتين إلى الدعوة إلى التغيير قبل بداية ثورة 25 يناير وخلالها، وأيضا اعتقال نشطاء شباب كانوا أول من دعا إلى التظاهر وعلى رأسهم وائل غنيم الذي يُعد مُلهم الثورة، والذي ظل قابعا في السجن اثني عشر يوما معصوب العينين من اليوم الثالث للثورة إلى ثاني يوم بعد الحوار. انطلاقا من هذه المعطيات، كيف يستقيم ادعاء المتكلم بإجراء نظامه ممثلا في نائب الرئيس عمر سليمان، حوارا مع "شباب مصر الذين قادوا الدعوة إلى التغيير" ومُلهم هذه الدعوة وكثير من رفاقه في السجن؟ تأسيسا على ما أوردناه هنا، يمكن القول إن مباركا قد لجأ إلى إنجاز فعل مستلزم هو تسريب التشكيك بين معارضيه في محاولة لتجريب آليات أخرى أكثر نجاعة من حيث التأثير من غيرها من الآليات المتوسّل بها في

الخطابين السابقين له. وبهذا نخلص إلى أن قصد مبارك لم يكن دفعه المعتصمين إلى التسليم بعقد الحوار مع ثوار شباب وقوى سياسية فقط، ولكن كان القصد أيضا إدخال الشك وتداول الاتهام بالخيانة، وبالتالي إحداث تصدعات في جدار الثقة الذي يستند إليه المعتصمون. وهو ما كادت تشهده الساحة السياسية زمن إجراء الحوار يوم السادس من فبراير، حين انبرى ائتلاف ثورة الغضب الذي يمثل معظم المجموعات المنظّمة للاحتجاجات لرفض الحوار وإدانة المشاركين فيه، وحين أيضا عاب المنسق العام لحركة كفاية عبد الحليم قنديل على جماعة الإخوان المسلمين وحزب التجمع اليساري وحزب الغد، وغير هؤلاء من المشاركين في الحوار رغم تبريراتهم إجراء الحوار لغرض حقن الدماء وعرض مطالب الثوار مع استمرار في الثورة، ورغم تصريحهم بعدم التوقيع على البيان الذي أصدره النظام. كاد الجدار أن يتصدع لما علّم المعتصمون في ميدان التحرير بالحوار الذي انعقد قبل أربعة أيام من إلقاء هذا الخطاب. خطاب وصف فيه مبارك الحوار بالبناء وثمن التوافق بين النظام ومحاوريه، معتبرا إياه بداية الانطلاق للخروج من الأزمة. هذه الإشادة بالحوار تغيظ المعتصمين وكل الرافضين له، وتشعرهم مرة ثانية بالإحباط بعدما ذاقوه حين علموا بمشاركة بعض المناضلين فيه، وكأن المتكلم يُعمّق من الشرخ الذي أصاب جدار الثقة بين الرافضين للحوار وجهات محسوبة على المعارضة استجابت للدعوة إليه.

من سعي نحو إفقاد الثقة بين الخصوم وهو فعل إنجازي غير مباشر، إلى إنجاز فعل مباشر توجيهي متمثل في دعوة المواطنين إلى استعادة الثقة بينهم والثقة في اقتصاد مصر وسمعتها الدولية، ثم الثقة والاطمئنان إلى تنفيذ الوعود وما حصل حوله توافق أثناء الحوار، يكون مبارك قد استنفذ كل السبل واستغرق كل الجهد الذي أفرغه في خطاب مشحون بالعاطفة والوعود والاتهامات المبطنة "لسنا أتباعا لأحد ولا نأخذ تعليمات من أحد"، دون أن يظفر بما كان يطمح إليه من تحويل بوصلة الاحتجاجات من المطالبة بتغيير النظام إلى قضايا أخرى، مثل الإصلاح الدستوري والتشريعي والاقتصادي. فقد ظل الثوار متمسكين بمطالبهم وتزايد عدد المتعاطفين معهم وشهدت المظاهرات تصعيدا في أرجاء مصر وإصرارا على الصمود. ولما أحس مبارك منهم هذا الإصرار، وتيقن أن سقف مطالب خصومه يفوق سقف مطالب نظامه، ولى خطابَه وجهة الاستلطاف بتحسيس الداعين إلى التغيير والإصلاح بما ألحقته

الاحتجاجات من أضرار وخسائر بالأفراد وبالاقتصاد، وبإشعارهم بأنهم سيُمسون أول المتضررين إذا لم يبادروا بالتوقف عن الاحتجاجات، وذلك لـ"أن مصر تجتاز أوقاتا صعبة". لم يكن الغرض من هذا التعبير التقريري إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنه الملفوظ، وذلك لأنه يعلم من قبل خطورة الوضع الذي تعيشه بلاده مصر. ولم يكن الغرض أيضا باستخدام أداة التوكيد "أن" إنزال المواطنين للنظام أو المناوئين له منزلة الشاك في كون مصر تمر بظروف عصيبة، وإنما كان الغرض إنجاز قوة فعل مستلزم توجيهي متمثلة في الدعوة إلى التكتاف لإخراج مصر من الأزمات التي تجتازها، وعلى رأسها تراجع الاقتصاد الذي لحقته أضرار وخسائر. وبالتالي فهي دعوة إلى تأجيل المطالبة بتغيير النظام والتعجيل بالعمل على تحسين الأوضاع من خلال إنعاش الاقتصاد حتى لا "يصبح الشباب الذين دعوا إلى التغيير والإصلاح أول المتضررين" إذا لم يتعاف الاقتصاد. وهي دعوة أيضا إلى الحفاظ على سمعة البلاد التي أدرجها مبارك ضمن الأولويات حين قال: "إن الأولوية الآن هي استعادة الثقة بين المصريين والثقة في اقتصادنا وسمعتنا الدولية".

إذا كنا في التقارير التي يندرج ضمنها الملفوظ "إن مصر تجتاز أوقاتا عصيبة"، نشهد تطابقا للخطاب مع العالم، أي تطابق خبر اجتياز مصر لأزمة خطيرة مع ما هو حاصل في الواقع، فإننا في التوجيهيات نشهد إخضاعا للعالم ليتطابق الخطاب، أي إن اتجاه المطابقة يكون من العالم نحو الخطاب. وهذا ما حدث حين سعى مبارك إلى إحداث تغيير في فكر الثورة من خلال دفع الثوار إلى التخلي عن الاحتجاج، والتخلي بالعمل المشترك كون "المصريين جميعا في خندق واحد" لإيجاد حلول للأزمة التي تعصف بمصر. ولـ"كي تتجاوز مصر أزمتها الراهنة"، يقترح مبارك ضرورة "مواصلة الحوار الوطني بروح الفريق وليس الفرقاء، وبعيدا عن الخلاف والتناحر"، منجزا قوة فعل مباشر من صنف التوجيهيات متمثلة في الحث على الاستمرار في الحوار، لأنه السبيل الوحيد الذي يعيد للوطن عافيته و"للمواطنين الاطمئنان والأمان". هذا الوطن كلف مباركا تقديم تضحيات من أجله، وقد عبر عنها في قوله: "أفنييت عمري دفاعا عن أرضه وسيادته. شهدت حروبه بهزائمها وانتصاراتها. عشت أيام الانكسار والاحتلال وأيام العبور والنصر والتحرير... واجهت الموت مرات عديدة طيارا وفي أديس أبابا وغير ذلك كثير". في هذا الملفوظ صرح المتكلم بأكثر من خبر. كل هذه

الأخبار تصبّ في اتجاه التعريف بتضحياته في دلالة على إخلاصه للوطن وولائه له. وهو من خلال سرد تفاصيل عن مساره العسكري، تفاصيل يعلمها ويقر بها مؤيدوه ومعارضوه إلى حد ما، يريد تحفيز الذاكرة الجماعية لاستحضار ما قدمه للوطن، مما يستوجب تكريمه والاعتزاز به بدلا من اتهامه بالفساد وحماية المفسدين والإلحاح على تنحيته من الحكم مهانا. ولكم تلقى مبارك طيلة أيام الاحتجاج من الإهانة صنوفا. فقد أمسى مادة للتفكه، إذ خاطبه أحد المحتجين ساخرا وهو يطلب منه الرحيل: "يعني بالهيروغليفي ارحل"¹. وتنافس فنانون الكاريكاتير في السخرية منه، وهتفت ملايين المصريين برحيله، ورشقت صورته بالأحذية، وهجاه الشعراء وبالغوا في الهجاء حتى بلغوا به حد الشتم والشماتة. فلننصت إلى مقطع من قصيدة الطريدة لعبد الرحمن يوسف يخاطب مباركا.

قد صرت عبئا

فاستبق ما سوف يجري قبل أن تبكي وحيدا كالنساء

ما زلت تطمع تدخل التاريخ من بهو المديح

وإن شعري قال:

تدخله، ولكن من مواسير الهجاء! ...

في خاطري يعلو نداء...

من عاش فوق العرش بالتزوير يرحل بالحذاء!²

ويختم بمقطع شامتا في الرئيس، متوقعا أن ينتهي به المطاف هاربا:

مازلت محتارا...؟

¹- نادر سراج، مصر الثورة وشعارات شبابها؛ دراسة لسانية في عفوية التعبير، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2014، ص 192.

²- عبد الرحمن يوسف، قصيدة الطريدة، مجموعة مؤلفين، 25 يناير، مباحث وشهادات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013، ص 298.

أقول لك إنتبه

دوما علامات النهاية في اقترابٍ حينما تبدو بعيدة!

في الصفحة الأولى نراك مُتَوَجًّا

ولسوف نبصر هروبك مُعلنًا ومُوثَّقًا

بشماتةٍ طُبعت على نفس الجريدة!¹...

تنوعت أساليب التعبير لدى المعارضين وتفاوتت من حيث الحدة في التشهير بشخص مبارك ونظام حكمه، ولم تصمد قوة الفعل الإخباري التي أنجزها هذا الأخير وهو يذُكر بتضحياته أمام حدة التشهير، مما جعله يلجأ إلى إنجاز فعل تعبيرى - سلوكى - للتنفيس عما لحقه من ضرر ولتحقيق أغراض أخرى، مثل إثارة الشفقة وإبداء الاستغراب. وقد عبر المتكلم عن شعوره قائلاً: "يحز في نفسي ما ألاقه اليوم من بعض بني وطني"، حيث يفصح عن تدمره وخيبة أفق انتظاره. وهو بهذا الإنجاز، يعبر عن حالة نفسية لا يملك صاحبها إحداث تغيير في الواقع الذي يشهد احتقاناً، ولا يملك أيضاً إخضاع خطابه للعالم. فالمفوز أعلاه "يحز في نفسي..."، لا يحمل خبراً نطابقه مع الواقع، وبالتالي لا يكون اتجاه من المفوز إلى هذا الأخير.

لم يستطع مبارك أن يفارق دائرة التعبيريات، فقد أُرْدِف إلى الفعل الإنجازي السابق أفعالا تعبيرية عبّر من خلالها عن انفعال لم يتعد الذات ولم تحصل معه مطابقة، مثلما لم تحصل في حالات التأسف والمواساة والاعتذار. لقد بدا المتكلم متأثراً لا مؤثراً، منفعلاً لا فاعلاً ينهض بوظيفة التغيير ويخلق مسبباته، وقد تجلّى هذا في قوله: "على أية حال، فإنني إذ أعى خطورة المفترق الصعب الحالي، واقتناعاً من جانبي بأن مصر تجتاز لحظة فارقة في تاريخها تفرض علينا جميعاً تغليب المصلحة العليا للوطن، وأن نضع مصر أولاً فوق أي اعتبار آخر، فقد رأيت تفويض نائب رئيس الجمهورية في اختصاصات رئيس الجمهورية على النحو الذي يحدده الدستور. إنني أعلم علم اليقين أن مصر ستتجاوز أزمتها". تتمثل هذه

¹ - عبد الرحمن يوسف، قصيدة الطريدة، مجموعة مؤلفين، 25 يناير، مباحث وشهادات، ص 303.

الأفعال التعبيرية في حصول الوعي بالظرف الصعب الذي تمر به مصر، والاقتناع بضرورة التوضيحية من أجلها، ثم نشدان الرجاء بتجاوز الأزمة من خلال تعبير "أعلم علم اليقين أن مصر ستتجاوز أزمتها". هذه الأفعال السلوكية تكشف لنا حالة منجزها النفسية التي تبدو غير مهيأة لإحداث تغيير في المشهد السياسي وغير مؤهلة لإقناع المعارضين، لذا أقدم على التقليل من صلاحياته التي كان يتمتع بها باعتباره رئيسا للبلاد، حين أعلن "تفويض نائب رئيس الجمهورية في اختصاصات رئيس الجمهورية على النحو الذي يحدده الدستور". وفعل التفويض وإن كان من صنف التوجيهيات التي يملك منجزها سلطة تؤهلها لإصدار الأوامر ومن ثم تغيير الواقع، فإنه قد جاء في سياق شعور مبارك بانفراط عقد السلطة الأمرة التي ظل يملكها ثلاثين سنة، وباقتناعه بفشل الرهان على الزمان الذي لم تخفت مع مروره حماسة الجماهير المنتفضة. يؤشر على هذا توارى لغة التهديد الصريحة والمضمرة، وحضور الخطاب العاطفي لاستدراار الشفقة. وتؤشر عليه أيضا عناصر سياقية خارج الخطاب مؤثرة فيه، منها عدم استجابة المؤسسة العسكرية لدعوة مبارك بالتدخل لفض الاعتصام في ميدان التحرير ومنع الاحتجاجات في كل البلاد، ورفض القيادة المنبثقة من الميدان رمز الشرعية الثورية المشاركة في الحوار، ومواصلة الثوار التصعيد مع تزايد أعداد هائلة من المناصرين لهم، إضافة إلى دعوة الرئيس الأمريكي باراك أوباما نظيره المصري بالتنحي عن السلطة واستنكاره لممارسة العنف ضد المتظاهرين.

لم يكن لموقف الرئيس الأمريكي أن يمر دون أن يستتبعه تفاعل. فقد جاء رد مبارك على دعوة أوباما في صيغة أفعال التزامية، تعهد فيها منجزها ب"تحقيق مطالب الشعب بالحوار المتحضر والواعي" في دلالة على رفض الاستجابة للدعوة، وأن الحل لا يكمن في التنحي عن السلطة وإنما هو في الحوار. وتعهد بعدم الانصياع لأي كان من القوى الخارجية من خلال قوله: "سنثبت أننا لسنا أتباعا لأحد، ولا نأخذ تعليمات من أحد"، مؤكدا أن مصير مصر يحدده أبنائها وأنها "ستقف على أقدامها من جديد بصدق وإخلاص أبنائها، كل أبنائها. وسترد كيد الكائدين وشماتة الشامتين". وإذ لم يستثن مبارك مناوئيه حين استعمل أسلوب التوكيد "أبنائها كل أبنائها"، فإنه ابتغى من ذلك خلق جبهة وطنية موحدة لمواجهة قوى خارجية تعادي الوطن، مما يستوجب احتواء التباينات وتجاوز الخلافات بين الفرقاء وتأجيل

المطالبة بتغيير النظام وذلك لـ "تغليب المصلحة العليا للوطن" على ما سواها من مصالح. ولأن اتجاه المطابقة في الالتزاميات يكون من العالم الخارجي إلى الخطاب، أي جعل الواقع مطابقاً للمفوض، فإن المتكلم سعى إلى تجسيد هذا المنحى حين تعهد بتحقيق مطالب الثوار ورفض التعليمات التي تحاول فرضها قوى اجنبية. هذان التعهدان هما إنجازان يوجهان الأحداث نحو مطابقة دلالاتي المحتويين القضويين المشار إليهما أعلاه "تحقيق مطالب الشعب بالحوار" و"عدم الانصياع لأوامر القوى الخارجية". لكن كيف ستتحقق المطالب والثوار يرفضون الحوار ويضعون على رأس مطالبهم تنحية الرئيس التي أصبحت أيضاً مطلب الولايات المتحدة الأمريكية وقوى أوروبية (تصريحات المفوضة الأوروبية أشتون لم تكن مساندة للنظام) وغيرهما من القوى الدولية. كل هذا أفقد التعهد قوته الإنجازية الفعلية المؤثرة في مسار الأحداث.

تنوعت إذن الصيغ التي حوت أفعال الالتزام - الوعد - من حيث إسناد إنجاز الفعل، إذ أسند إلى الضمير المتكلم في "سأحاسب" تارة، وأسند إلى الضمير الجمعي في "سنثبت" تارة أخرى. إلى جانب الالتزاميات، حضرت أفعال إنجازية أخرى مباشرة وغير مباشرة توزعت في الخطاب على الشكل الآتي:

الصيغ التي تضمنت أفعالا إنجازية وفق تصنيف سورل				
الإلزاميات	التوجيهيات	التعابيريات	الإثباتات	التقريريات
<u>فعل إنجازي مباشر</u>	<u>فعل إنجازي مباشر</u>	<u>فعل إنجازي مباشر</u>	<u>فعل إنجازي مباشر</u>	<u>فعل إنجازي مباشر</u>
1. لن أتهاون		1. أتوجه	1. إنجازي مباشر	1. مكثفيا بما
2. سأحاسب الذين...		إليكم بحديث من القلب	1. إن مباشر	قدمته من
3. إن استجابتي لمطالبكم ..التزام.		2. إني أعتز بكم	هي مطالب عادلة	عطاء للوطن
4. إني عازم على الوفاء بما تعهدت به		3. إنني تألمت كل الألم	2. أعلنت تمسكي بذلك	(إنجاز الفخر)
5. حريص على تنفيذه		4. أوجع قلبي كما أوجع قلبكم	3. اقترح بإلغاء المادة 179 من الدستور	2. لقد بدأنا بالفعل حوارا وطنيا
6. لقد أعلنت عدم ترشحي للانتخابات المقبلة		5. إن هذا الالتزام ينطلق من اقتناع بصدق ونقاء نواياكم		3. لقد أسفر هذا الحوار عن توافق مبدئي
7. أعلنت تمسكا مماثلا حتى يتم تسليم السلطة لمن يختاره الناخبون				4. إن هذا الحوار الوطني قد تلاقى حول تشكيل لجنة دستورية

5. لقد حرصت على أن يأتي تشكيل كلتا اللجنتين من الشخصيات المصرية	6. المهم هو الاعتراف	6. المهم هو الاعتراف	في شهر سبتمبر المقبل
6. تلقيت الأمس التقرير	7. لا أجد حرجا أو غضاضة أبدا في الاستماع لشباب بلادي	7. لا أجد حرجا أو غضاضة أبدا في الاستماع لشباب بلادي	8. سوف أحافظ عليه
7. تعلمت شرف العسكرية	8. أحداث مأساوية أوجعت قلوبنا	8. أحداث مأساوية أوجعت قلوبنا	9. الاستعداد للتقدم في وقت لاحق
8. أفنيت عمري دفاعا عن أرضه	9. واجهت الموت مرات	9. واجهت الموت مرات	10. التغيير لا رجعة فيه
9. عشت أيام الانكسار.. وأيام العبور	10. أثق أن الأغلبية يعرفون من هو حسني مبارك	10. أثق أن الأغلبية يعرفون من هو حسني مبارك	11. سنثبت قدرتنا.....
10. لم أخضع يوما لضغوط أجنبية	11. يحز في نفسي ما ألاقه من بني وطني	11. يحز في نفسي ما ألاقه من بني وطني	12. سنثبت على أننا.....
11. عملت من أجل مصر			<u>فعل إنجازي غير مباشر</u>
			1. إن مصر تجتاز أوقاتا صعبة (خروج إلى غرض استنهاض الهمم للدفاع عن الوطن)
			2. إن مصر تجتاز أوقاتا صعبة (خروج إلى غرض استنهاض الهمم للدفاع عن الوطن)
			3. يصبح معها الشباب.. أول المتضررين منها (خروج إلى التحذير)
			4. علينا أن نواصل الحوار الوطني

12. اجتهدت من أجل نهضتها 13. إنني عشت من أجل هذا الوطن 14. رفعت علم مصر فوق سيناء 15. واجهت الموت مرات عديدة طيارا المجموع 15	المجموع 3	12. أعي خطورة المفترق 13. اقتناعا من جانبي... 14. أعلم علم اليقين المجموع 14	دعوة إلى نبذ العنف والتخلي عن التظاهر 5. رأيت تفويض نائب رئيس الجمهورية في اختصاصات رئيس الجمهورية (خروج إلى تكليف النائب) 6. أصدرت تعليماتي (خروج إلى فعل الأمر) 7. تقدمت اليوم بطلب تعديل ست مواد دستورية (خروج إلى الأمر) يتعين مواصلته للانتقال به إلى خريطة طريق واضحة (ترغيب في الحوار) المجموع 8	المجموع 14
--	----------------------	--	---	-----------------------

إنطلاقاً من المعطيات الواردة في الجدول، نسجل غياب استعمال التوجيهيات المباشرة وشبه غياب للإثباتات. ويرجع ذلك إلى شعور المتكلم بفقدانه السلطة التي تخول له إنجاز أفعال توجيهية مباشرة وإصدار أحكام إثباتية. إضافة إلى هذا الشعور، فإن تغييب هذه الأفعال الإنجازية يجد له مسوغاً متمثلاً في كون مبارك يطرح آلية الحوار مع مخاطبه للخروج من الأزمة، في دلالة على نهجه لاستراتيجية تضامنية تستدعي إشراك الطرف الآخر في الحوار وتتوخى تعاونه، وهذا يستوجب انتفاء استعمال خطاب متعال وخطاب سلطوي. وبدلاً من الخطاب التوجيهي المباشر، فقد صرف المتكلم سلطته عبر توظيف آلية التلميح من خلال استعمال أفعال إنجازية غير مباشرة ثماني مرات. كلها صبت في مسار إبداء التضامن، ولم تجد عن نهجه في كل محطات ورودها حتى التي بدا فيها المتكلم وهو ينزع نحو إنجاز فعل الأمر. ففي الملفوظ "أصدرت تعليماتي بسرعة الانتهاء من التحقيقات"، يخطب المتكلم ود الثوار معلناً تضامنه معهم حول محاسبة المعتدين من رجال الأمن، ناهيك عن الاستعمالات الأخرى لهذه الأفعال التي تعلق أكثرها بمصلحة المخاطبين. بينما نحن نشهد غياب إنجاز أفعال التوجيه المباشرة، فإن الجدول يمدنا بمعطيات تعكس حضوراً قوياً للإلزاميات والتعابيريات. فقد وردت الأولى أربعة عشر مرة (14)، اثنان منها غير مباشرة. وتنوعت الصيغ التي ضمت هذه الأفعال، سواء من حيث إسناد إنجاز الفعل حين أسند إلى المتكلم "سأحاسب" تارة، وأسند إلى الضمير الجمعي تارة أخرى "سنثبت"، أم من حيث ورودها منزوعة الواسم والاستعاضة عنه بعناصر تؤثر على زمن المستقبل، مثل حروف الاستقبال المقرونة بأفعال المضارع "لن أتهاون"، "سأحاسب"، "سوف أحافظ"، حتى يتم تسليم السلطة... وعناصر لسانية، مثل "شهر شتنبر المقبل"، "وقت لاحق"، وورودها متضمنة لواسمات تنتمي إلى حقل معجمي واحد هو حقل الوعد، مثل "التزام"، و"الوفاء بما تعهدت به"، و"لا ارتداد عنه أو رجعة فيه". كل هذه التنويعات في أداء أفعال الالتزام - الوعد - التي حضرت في الخطاب، استثمرها مبارك في محاولة منه لصرف أنظار الثوار الذين بدا لهم أن صلاحيات النظام قد انتهت. فقد خاطب أحد المحتجين مباركاً قائلاً: "رئيس الجمهورية عفوا لقد نفذ رصيدكم"¹. لكن الرئيس كان يمني النفس بالاستمرار في الحكم ولو لبضعة أشهر

حتى موعد الانتخابات الرئاسية، لذا ظل يراهن على المستقبل محاولاً صرف الأنظار عن المطالب المستعجلة وعلى رأسها مطلب الرحيل، وشدّها إلى وعود قطع مبارك على نفسه إنجازها في القادم من الأيام. هذه الوعود عضدت قوتها الإنجازية صيغ التوكيد، مثل "إني عازم"، "لقد أعلنت"، "سنثبت" لإشعار المستمع بمدى حرص المتكلم على تنفيذ ما التزم به.

واستحوذت التعبيرات هي الأخرى على نصيب وافر من الاستعمال. وهذا يتساق مع توجه مبارك نحو "الحديث من القلب" الذي صدر به خطابه، كما تساق الحضور الباهت للتعبيرات - فعلان تعبيريان فقط - في خطابه السابق يوم فاتح فبراير، مع توجهه بحديث الإدانة والوعيد للخصوم. وقد ورد هذان الفعلان الإنجازيان بصيغة الجمع "نعيش معا أيما مؤلمة"، و"أكثر ما يوجع قلوبنا"، في دلالة على وحدة الشعور من خلال تقاسم الألم بين المتكلم ومخاطبيه، لكن المتكلم وفقاً للمعطيات المستمدة من الجدول الذي بين أيدينا، حمّل ذاته الفردية دون غيرها طاقة هائلة من الألم والحزن والوجع والحسرة من خلال توظيف ضمير المتكلم "إنني تألمت كل الألم"، و"أوجع قلبي"، و"يحز في نفسي ما ألاقه اليوم من بعض بني وطني". إلى جانب إنجاز فعل يجسد حالة التألم وإنجاز أفعال تتدرج ضمن الحقل الدلالي للمعاناة، يمدنا الجدول بسبل من الأفعال التعبيرية، مثل تلك التي تعكس الحالة النفسية للمتكلم وهي تتدفق بمشاعر التخوف والاطمئنان والتيقن والاعتراف والاعتزاز بالآخر، فضلاً عن الاعتزاز بالذات الذي يمكن أن يندرج هو الآخر ضمن التعبيرات أي السلوكيات عند أوستين. وإذا ما سلطنا سبيل أوستين في تصنيف الأفعال الدالة على سلوك اجتماعي نحو الآخرين، فإن عشرة أفعال (10) كنا قد أدرجناها ضمن التقريرات حسب سورل، تصلح أن تلحق بالتعبيرات المشار إليها هنا في الجدول. وبالتالي يصبح مجموع هذه الأخيرة أربعاً وعشرين فعلاً إنجازياً. وتعليل هذا الإلحاق ينطلق من كون المتكلم قد ينجز سلوكاً استدعى إنجاز سلوك آخر، أي إنه يصدر سلوكاً رداً على سلوك أو سلوكات صادرة عن غيره. فحين يذكر مبارك مناقبه ويعتز بما قدمه "من عطاء للوطن لأكثر من ستين عاماً (60) في سنوات الحرب والسلام" وما واجهه من أخطار، لم يكن غرضه الإخبار بتضحياته، وإنما كان الغرض استثارة عاطفة المخاطبين والرد على المنكرين منهم لما أسداه من تضحيات استرخص فيها روحه فداء لمصر.

يمكن القول إن سلوك المعارضين المتمثل في نكران جميل خصمهم مبارك، بل تحميله كل مآسي مصر، هو الذي دفع هذا الأخير إلى إنجاز سلوك مضاد. هذه الأفعال التعبيرية التي مدنا بها الجدول تصب في غرض التعبير عن الحالة النفسية للمتكلم الذي سعى إلى التأثير في مخاطبيه من خلال مخاطبة الجانب العاطفي فيهم.

المبحث الثالث: القول المضمّر والافتراض المسبق

1- دور القول المضمّر والافتراض المسبق في توجيه السلوك التخاطبي

يدخل القول المضمّر والافتراض المسبق في نمط متضمنات القول التي تسمى أيضا إضمارات. من مميزات هذا النمط أنه يشهد جملة من التأويلات تفضي إلى أكثر من معنى مضمّر ويمنح المتوسّل به إمكان التخفي وراء المعنى المراد، والتّصل مما قد يعتقده المخاطّبون سلوكا مضرا بهم، تفاديا لردود أفعالهم تجاهه. ويتميز هذا النمط أيضا بإسهامه في إنجاح عملية التواصل والتبليغ وتيسير سبل فهم المقاصد، من خلال تأسيس أرضية معرفية مشتركة يتم الانطلاق منها باعتبارها معلومات مسلما بها بين المتخاطبين، أو بالأحرى باعتبارها واقعا جديدا يدفع المتكلم مخاطبه إلى التسليم به.

1-1- القول المضمّر

إذا كان الافتراض المسبق قد أخرجه كرايس وسورل من دائرتي اهتمامهما نظرا لكون المعنى مسجلا في الملفوظ، فإنهما قد اهتمتا بالقول المضمّر الذي هو مرتبط بسياق الخطاب ومتعلق بقصد المتكلم الذي يلجأ إلى التلميح حين يستدعي المقام ذلك، وقد شهدت الخطابات التي بين أيدينا لجوءا إلى أسلوب التلميح وتوظيفه لغايات متعددة. بعد الحملة التي شنّها الإعلام المصري الرسمي على المعتصمين في ميدان التحرير واتهامهم بالعمالة للأجانب حين ادعوا أن كل واحد منهم يحصل يوميا على مبلغ خمسين دولارا، ووجبة غذائية لم يتعود الفقراء تناولها لارتفاع تكلفتها معروفة باسم "كُنْتَاكِي"، مقابل اشتراكه في الاعتصام داخل الميدان، رد المعتصمون بشعارات تنفي عنهم العمالة وأمريكا وخدمة أجنّات أجنبية، كما تنفي عنهم استفادتهم من الوجبات. من بين هذه الشعارات التي تنفي الشبهة وتثبت الهوية الثورية، نذكر:

"إِحْنَا رَجَالَة التَّحْرِير... قالوا علينا شباب كُنْتَاكِي... وإحنا يا مصر نَزَلْنَا فِدَاكِي"¹.

وصرف أحد المعتصمين بميدان التحرير عنه التهمة ساخرا عبر لافتة كتب عليها "أنا زَهْفُتْ مِن الكنتاكي .. إرْحَمْنِي وارحل"، كما استهجن الثوار خارج الميدان هذا الادعاء للإعلام

¹ - عبد اللطيف عماد، "بلاغة الثورة المصرية؛ تجليات وسمات"، مجموعة مؤلفين، كتاب 25 يناير؛ مباحث وشهادات، ص 172.

الرسمي الذي جِيشَ فرقا من الممثلين والفنانين والمثقفين والسياسيين لتدعيمه في حملته ضد تشويه صورة الثورة.

في خضم هذا السجال وتدايعياته وفي استحضار لما أضحت تملكه الجماهير المعتصمة بالميدان وغيره من الميادين من قوة ومن تعاطف المصريين، جاء خطاب مبارك مبطنا تهمة ولاء المعتصمين للخارج التي صرح بها الإعلام الرسمي. ففي الملفوظ "لكن الحرج كل الحرج، والعيب كل العيب، وما لم ولن أقبله أبدا... أن أستمع لإملاءات أجنبية تأتي من الخارج، أيا كان مصدرها"، نجد مباركا يثبت ولاء المعتصمين للخارج دون التصريح به، ويساعدنا في الوصول إلى هذا الاستنتاج وفهم قصد المتكلم، السجال الذي حصل بين الإعلام الرسمي والمعتصمين. وفي موضع آخر من الخطاب، يضمّر مبارك انتفاء الانتماء إلى الوطن بالنسبة لمناوئيه الذين يطالبون برحيله، فلنستمع إلى قوله: "وأن أحدا لا يصنع لنا قراراتنا سوى نبض الشارع ومطالب أبناء الوطن". لقد صرف مبارك تهمة عدم الانتماء تلميحا حين قال: "أبناء الوطن"، وقد عنى بالأبناء كل الذين لا يطالبون بإسقاط النظام ولم يَعْزِ غيرهم من الذين تشبثوا بمطلب الرحيل، وهو مطلب لا يُتصور أن يكون من "مطالب أبناء الوطن" التي أشاد بها، فلا يعقل أن يرحب المرء بله الحاكم بمطلب إقالته ومحاكمته!

إن من شأن هذا التلميح أن يدخل الريبة في نفوس البعض فيتهم البعض البعض الآخر، مما قد يترتب عن هذا الاتهام بداية تصدع جدار الثقة الذي كان يستند إليه المعتصمون وباقي المحتجين، فشرخ حد الفصل، ثم تلاش للصفوف. وقد يفطن المحتجون إلى قصد خصمهم الذي راهن على قوله المضمّر في تسريب الشك في نفوس المخاطبين، فتزداد الصفوف أعدادا وتراصا، وتقل حظوظ خصمها في الاستجابة له عند كل دعوة منه إلى الحوار. والمتكلم من خلال الإضمار يملك إمكان التنصل من تأويل معارضيته فيتهمهم بسوء فهم قصده، متهما خصومه بسوء فهم لقصده نافيا عنه ما استقر من فهم في أذهانهم. ويحتمل الملفوظ تأويلا آخر لعله أرجح من سابقه، فقد يكون قصد مبارك رفضه الاستجابة لدعوة الرئيس الأمريكي باراك أوباما التي ألح فيها لنظيره المصري بالتنحي عن السلطة، ولدعوة الممثلة العليا للشؤون الخارجية والأمنية في الاتحاد الأوروبي كاثرين أشتون بتنظيم انتخابات حرة وديمقراطية في إشارة إلى أن سابقتها غير حرة ولا ديمقراطية، وأيضا رفضه لتحذير رئيس

الوزراء البريطاني ديفيد كاميرون له من اللجوء إلى "رد فعل قمعي" تجاه الاحتجاجات. إلى جانب رفض مبارك تعاطي هذه القوى الدولية مع الأزمة المصرية، طال الرفض أيضا تعامل النظام القطري ونظيره التركي مع الأزمة حين ساندوا الاحتجاجات السلمية بطريقة غير مباشرة.

التجأ بن علي هو الآخر إلى التلميح واصفا المحتجين بالمنحرفين مدعيا أن الاحتجاج غير سلمي، حين قال: "الكرطوش مُوش مقبول، ما عُنْدوش مبرر، إلا لا قدر الله حَذِّ يحاول يفك سلاحك ويهجم عليك بالنار وغيرها ويجبرك على الدفاع عن النفس". وقد جاء هذا القول مباشرة بعد قوله: "واخنا اعطينا التعليمات ونعول على تعاون الجميع، حتى نفرق بين هذه العصابات والمجموعات من المنحرفين الذين يستغلون الظرف، وبين الاحتجاجات السلمية المشروعة التي لا نرى مانعا فيها". ففي الملفوظ الأول الذي تخللته عبارة "يحاول يفك سلاحك ويهجم عليك بالنار وغيرها"، يشير بن علي إلى إمكان إقدام بعض المحتجين على تجريد أفراد من رجال الأمن من أسلحتهم وقتلهم بها أو بغيرها من الوسائل. وهذا يستوجب الدفاع عن النفس ويسوغ استخدام السلاح من لدن رجال الأمن، حينها يصبح "الكرطوش" مقبولا ومبررا استعماله.

لم يكن قصد بن علي تبرير استخدام السلاح في حال حصول الاعتداء على رجل أمن أو جندي، بل قصد الإخبار بأن المتظاهرين غير سلمييين وهم ميالون إلى العنف والإجرام. وحتى إذا افترضنا أن بن علي يقصد البعض منهم، فهذا يطعن في شرعية الاحتجاجات وسلمية التظاهرات. لم يكن بمقدور بن علي أن يصرح بأن المحتجين الذين يطالبون برحيله منحرفون مجرمون، وذلك لأن التصريح قد يؤجج الاحتجاج، لكنه عمد إلى التلميح مضمرا قصده بين ثنايا الملفوظ "يحاول يفك سلاحك ويهجم عليك بالنار"، حتى يمنح لنفسه إمكان التبرئ من القصد المضمّن في ملفوظه.

وفي موضع آخر من الخطاب، أخرج بن علي المحتجين من دائرة المواطنة دون أن يفصح عن ذلك، حين قال: "أولادنا اليوم في الدار، ومُش في المدرسة، وهذا حرام وعيب، لأننا أصبحنا خايفين عليهم من عنف مجموعة سطو ونهب واعتداء على الأشخاص. هذا إجرام، مش إحتجاج وهذا حرام. والمواطنيين كل المواطنين، لابد أن يقفوا أمامهم وَاخْنَا اعطينا

التعليمات". لقد أعطى الرئيس تعليماته لمواجهة من كانوا سببا في لزوم الأولاد بيوتهم بدلا من الذهاب إلى المدرسة، وذلك لأن الخوف قد استبد بالآباء، فآثروا أن يلزم أبناءهم البيت حتى لا يتعرضوا للاعتداء من لدن مجموعات تسلك سبيل العنف، وهي حسب بن علي، أقرب إلى الإجرام أبعد عن الاحتجاج، لذا يتحتم على كل المواطنين التصدي للمجرمين "لا بد أن يقفوا أمامهم". ويحيل ضمير الغائب "هم" إلى المحتجين الذين أخرجهم المتكلم من دائرة المواطنين، وذلك لإثارتهم الرعب في نفوس الأولاد واعتدائهم على الناس كما ادعى بن علي. لم يصرح المتكلم بأن المجموعة التي تثير الخوف في الكبار آباء ومسؤولين على الأطفال الصغار، وتسلك مسلك العصابات المجرمة التي تقوم بعمليات السطو والنهب والاعتداء على الناس، لم يعتمد إلى التصريح بأن هذه المجموعة هي تلك الحشود المحتجة، ولم يشر بطريقة مباشرة إلى أن مناوئيه الذين يطالبون برحيله ليسوا مواطنين، وإنما لمح إلى ذلك مقدّرا حالة الاحتقان وتذمر المتظاهرين. ولكي يسبغ بن علي على كلامه نوعا من المصادقية، أردف قائلا: "حتى نفرق بين هذه العصابات والمجموعات من المنحرفين الذين يستغلون الظرف، وبين الاحتجاجات السلمية المشروعة التي لا نرى مانعا فيها". لم تشفع سلمية الاحتجاجات للقائمين بها فتيقهم رصاص رجال الأمن الذي أردى خمسة وثلاثين شخصا منهم قتيلا خلال يومين فقط، ولم يُثنِ المحتجين بطش السلطة بهم فازدادوا تشبثا بمطلب الرحيل وفاء لدماء رفاقهم، ولم يفارق حناجرهم ترديد شعار الوفاء "أوفياء أوفياء لدماء الشهداء". وقد صاحب الاحتجاجات التي رُفعت فيها شعارات مطالبة بتنحي الرئيس ومحاكمة المسؤولين عن هدر الدماء ونهب الأموال، حرق مقرات الحزب الحاكم ومقرات الشرطة. هذا التخريب الذي لحق المقرات هو الذي بنى عليه بن علي حكمه حين أدان المحتجين المطالبين برحيله والذين أشار إليهم بـ "مجموعات تسلك سبيل العنف".

لم يخل خطاب الرئيس السوري بشار هو الآخر من تبخيس وتهوين من عدد المحتجين ونعت لهم بالعمالة للأجانب وبالمروق. فقد ألمح إلى هذا من خلال حديثه عن تعرض سوريا "لمؤامرة كبيرة خيوطها تمتد من دول بعيدة ودول قريبة ولها بعض الخيوط داخل الوطن". وكون المحتجين يمثلون هذا البعض و"دائما المتآمرون هم قلة"، فهم خارج الإجماع الشعبي المساند للنظام. هذا النظام يتعرض لمؤامرات نتيجة تحقيقه للنجاحات في سياسته الداخلية

التي "بُنيت على التطوير وعلى الانفتاح... وعلى التواصل بيني (بشار) وبين الشعب والمواطنين"، وللنجاحات في "السياسة الخارجية (التي) بُنيت على التمسك بالحقوق الوطنية والتمسك بالحقوق القومية الاستقلالية ودعم المقاومات العربية عندما يكون هناك احتلال"، وعلى رأس هذه المقاومات المقاومة الفلسطينية. هذه النجاحات تحفز كل مواطن سوري على التشبث أكثر بالنظام السياسي صانع هذه النجاحات، بالدفاع عنه ومساندته كلما تعرض لمؤامرة تسعى إلى تقويض أركانه، لكن أن يجنح بعض المواطنين للاحتجاج ضد النظام، فهذا يعني - حسب بشار - خدمة أجندات أجنبية تسعى إلى إضعاف سوريا التي تحمل مشروعا قوميا ممانعا مناهضا لقوى تعادي التحرر والاستقلال...

يكفي إذن أن تحتج فتطالب بتداول سلمي للسلطة واحترام للحقوق وتقديس للعدالة والحرية، بل يكفي أحيانا أن تطالب بعيش كريم حتى يغمرك سيل من التهم الجاهزة، مثل العمالة للأجانب والارتزاق والخيانة والتخابر والمروق والتآمر على الوطن. وهذا ما حصل لمواطنين سوريين حين تظاهروا في درعا مهد الثورة السورية، مطالبين بعيش كريم وإقلاع المسؤولين الأمنيين بمحافظتهم عن التعامل غير اللائق مع المواطنين، فنكّل بهم النظام متهما إياهم بإثارة الفتن. ولما اتسع نطاق الاحتجاجات وعمّت مناطق عديدة من أرض سوريا وتضاعفت أعداد المحتجين مطالبة برحيل بشار، سارع هذا الأخير إلى تخوين مناوئيه من خلال إنجاز فعل تقريرى غير مباشر، يصفهم فيه بالقلّة المتآمرة التي تسخرها قوى أجنبية ضد سوريا. وفي السياق ذاته، سياق اتهام الخصم المحلي بإثارة الفتن وتقويض الوطن تنفيذا لأجندات قوى أجنبية، تنبّه بشار إلى نهج سلوك جرى على إثره بن علي ومبارك والقذافي وسيقتفي أثرهم الرئيس السوداني البشير كما سنرى. يتمثل هذا السلوك في السعي إلى إحداث شروخ في جدار المحتجين من خلال التفرقة بينهم وتصنيفهم فريقين: فريق وطني وآخر غير ذلك؛ فأما الأول فاحتججه مشروع وقصده الإصلاح، وأما الثاني فعميل للأجانب وساع إلى التخريب. فإذا كان هذا التوجه في تقييم الأوضاع هو القاسم المشترك بين كثير من الحكام، فإن بشارا قد زاد عليهم حين أدخل في المعادلة معطى المغرر بهم، في إحالة على البعض الآخر غير "بعض" الذين عناهم في قوله: "بعض الخيوط داخل الوطن"، المتآمرين الذين هم "قلّة"، وبالتالي يمسي المحتج في سوريا إما متآمرا أو مغررا به. لتوضيح هذا التوجه الخاص

ببشار، نستعرض قوله الآتي: "قاموا بالخلط بين ثلاثة عناصر: الفتنة والإصلاح والحاجات اليومية ... ولكن الفتنة دخلت على الموضوع وبدأت تقود العاملين الآخرين وتغطي بهما ولذلك كان من السهل التغرير بالكثير من الأشخاص". وفي خطوة لامتناص غضب أهل درعا وعبرهم ملايين السوريين الذين استنكروا بطش رجال الشرطة بالمحتجين في هذه المحافظة، أو على الأقل تقليص دائرة استعداد أهل درعا عليه، بادر بشار إلى الثناء عليهم واصفا إياهم بأنهم "أهل الوطنية الصادقة والعروبة الأصيلة.. أهل النخوة والشهامة والكرامة"، مراهنًا عليهم في القيام "بتطويق القلة القليلة التي أرادت إثارة الفوضى" ومن ثم "وأد الفتنة". تُضمّر الصيغة التقريرية للملفوظ أعلاه دعوة أهل درعا إلى التبرئ من المحتجين الذين يفتقدون قيم الانتماء الصادق للوطن، ولا يتحلون بالصفات الحميدة التي يتحلى بها أهل البلد. وتضمّر أيضا تكذيب الخبر المتعلق بتتكيل رجال الشرطة بأهالي درعا وبضخ الرصاص الحي في صدورهم. وإذ لم يصرح بشار بعدم تورط قواته الأمنية بمحافظة درعا في قتل المنتفضين من أهلها، فلكي يبعد عن رجاله تهمة فعل القتل، بل ليصرف الأنظار عن وقوع هذا الفعل، ويحصر النقاش في وجود "قلة قليلة" من المحتجين المتآمرين تسعى إلى "إثارة الفوضى" واستعداد الأهالي للتصدي لها درعا للفتنة. لم يكن بشار ليشيد بمناقب أهل درعا وهو يعلم أنهم أول من أطلق شرارة الانتفاضة ضد نظامه، لولا علمه بمدى الغضب والاستياء والتذمر الذي عم أرجاء سوريا جراء سماع خبر سقوط ضحايا، ولولا علمه بحجم التضامن الذي أبداه المواطنون تجاه درعا. ومن مظاهر الاستياء والإدانة للنظام والتضامن مع درعا، إنجاز المغني السوري سميح شقير لأغنية بعنوان "يا حيف" ألهمت الثوار فأبدعوا أهازيج صاحبت كل الاحتجاجات. هذه الأغنية طفحت بمشاعر الحزن والتحسر والغضب والإدانة ولم يلتبس عليها من قام بفعل القتل حين صرحت على لسان الضحايا أن رجال الأمن:

"ضربونا يَمًا بالرصاص الحَيّ

مُتْنَا بِإِيْدٍ إِخْوَانْنَا

باسم أمن الوطن".

وبعد تعيين مصدر القتل وتحميل المسؤولية للنظام الحاكم، انبرى هذا الأخير في شخص رئيسه لتبرئة نفسه عبر نفي فعل القتل عن المسؤولين الأمنيين بمحافظة درعا بركوبه أسلوب

الإضرار والتجاوز حين تعمد إغفال الحديث عن حدث القتل، إذ أخفى معالم وقوع جرائم، بل إنه تغاضى عن ذكر حصول مواجهات بين الشرطة والمحتجين من خلال صرف الخطاب عن الحديث عنها. مقابل خطاب السلطة الذي يبرر به الحاكم تصرفاته الفعلية ويضمّر فيه أفعالا وسلوكات ومقاصد، يوجد خطاب مضاد يتمتع بسلطة يستند إليها المعارضون لخطاب السلطة. هذا الخطاب المضاد لا ينهض دائما بوظيفة الرد على الخطاب الرسمي، ولكن قد يكون دافعا أو سببا في إنجاز خطاب مضاد له هو الآخر، وهذا ما حصل مع إنجاز أغنية "يا حيف" التي حملت النظام مسؤولية الجرائم في درعا وهو ما ذهب إليه كثير من السوريين حين أعلنوا جهارا مسؤولية النظام، مما دفع بشارا إلى تضمين خطابه عدم تورط قوات الأمن في أي عمل إجرامي.

ثمة خطابان إذن يتنازعان موضوعا واحدا متعلقا بأحداث درعا التي خلفت ضحايا: خطاب جنح عبر آلية الإضرار نحو تبرئة الذات والتغاضي عن الحديث عن الأحداث، صارفا الأنظار نحو وجود "قلة قليلة من المتأمرين" دون ذكر إن كانت قوات الأمن قد تصدت لهم أم لا، وخطاب آخر اصطف إلى جانب أهل درعا وواساهم في ضحاياهم وشاركهم إدانة المعتدين وتحميلهم مسؤولية إراقة دماء أبنائهم. هذا الخطاب وإن كان متوحدا من حيث الغرض، فإنه متعدد من حيث المسلك، إذ سلك معارضو النظام السياسي أكثر من سبيل للتعبير عن غضبهم ورفضهم لبقاء بشار ومقربيه في الحكم. فقد توسل الثوار ومعارضو النظام بأشكال تعبيرية متنوعة، منها الكاريكاتير والرسم على الجدران والهتاف وترديد الشعارات وتعليق اللافتات على المباني والقيام بمسيرات والأهازيج وإنشاد الأغاني. ومن أشهر الأغاني أغنية: "يا حيف" التي أشرنا إليها سابقا، والتي كان لها تأثير كبير في الثوار وفي كثير من المواطنين. ويُحسب لها أنها عُدّت أول عمل إبداعي يواجه النظام فيشتبك معه، ويحتاج إعلامه فيخرس أبواقه، وذلك لما ملكه من صدق في التعبير وعمق في الانتماء الوطني والإنساني وجرأة في طرح الفكرة وجمالية في الأداء. أمام هذه القوة الإنجازية للفعل الغنائي التي بلغت أشدها، أضحت الأغنية أكثر تداولاً بين السوريين وأكثر إلهاماً للثوار الذين اقتبسوا منها روح الصمود وصفاء المشاعر وحقيقة الوفاء للوطن وللإنسان، يقول سميح شقير:

"يا حيف آخ ويا حيف!"

زُحْ رُصَاصُنْ عَلَى النَّاسِ الْعُزْلُ يَا حَيْفُ!
وَأَطْفَالُ بَعْمَرِ الْوَرْدُ تَغْتَقِلُنْ كَيْفُ؟
وَأَنْتِ ابْنُ بِلَادِي تَقْتُلُ بُولَادِي
وَضَهْرَكَ لِلْعَادِي وَعَلِيَّ هَاجِمُ بِالسَّيْفِ!
يَا حَيْفُ وَيَا حَيْفُ!
وَهَا اللَّيْ صَايِرُ يَا حَيْفُ!
وَبَدْرُ عَا وَيَا يَمَّا وَيَا حَيْفُ!
سَمِعْتُ هَا الشُّبَابُ يَمَّا الْحَرِيَّةَ عَ الْبَابِ يَمَّا.... طَلَعُوا يَهْتَفُونَ لَهَا (لَهَا)
شَافُوا الْبَوَارِيذُ يَمَّا قَالُوا إِخْوَتُنَا هُونُ.... وَمُشْنُ رَحْ يَضْرِبُونَا
ضَرَبُونَا يَمَّا بِالرُّصَاصِ الْحَيِّ
مُتْنَا بِإِيْدِ إِخْوَتُنَا
بِاسْمِ أَمْنِ الْوِطْنِ
وَإِحْنَا مِينِ إِحْنَا؟
وَاسْأَلُوا التَّارِيخُ يَقْرَأُ صَفْحَتُنَا
مُشْنُ تَارِي السَّجَانِ يَمَّا كَلِمَةُ حَرِيَّةٍ وَحْدَةً... هَزَّتْ لُو أَرْكَانُو
وَمِنْ هَتَفَتْ الْجَمُوعُ يَمَّا، أَصْبَحْ كَالْمَلْسُوعِ يَمَّا.... يَصْلِيْنَا بِنِيرَانُو
وَإِحْنَا اللَّيْ قَلْنَا اللَّيْ بِيَقْتُلُ شَعْبُو
حَايْنُ يَكُونُ مِنْ كَايْنُ
وَالشَّعْبُ مِثْلُ الْقَدَرِ
مِنْ يَنْتَخِي مَايْنُ
وَالشَّعْبُ مِثْلُ الْقَدَرِ
وَالْأَمَلُ بَايْنُ
يَا حَيْفُ! يَا حَيْفُ!"

هذه الأغنية، مع الأخذ بالاعتبار زمن إنجازها وتداولها ومدى تأثيرها في المجتمع السوري، هي عنصر سياقي يُعتمد في مُحاجة الملفوظ الذي ضمّن فيه بشار تبرئة نظامه

من سفك الدماء، واقتصر فيه على الإشارة إلى وجود محتجين يمثلون "قلة قليلة" لا يمتون بصلة إلى أهل درعا. وقد قادنا استثمار هذا العنصر السياقي بما حواه من معلومات وبما تركه من أثر، إلى الإقرار بتورط النظام الذي رمز إليه بـ"أمن الوطن" في "زخ الرصاص على الناس العزل" واعتقال "أطفال بعمر الورد"، وطعن الشباب الذين "طلعوا يهتفون للحرية" بالرصاص الحي. وبهذا يمتسي أهل درعا حسب سامح شقير أسرا مكلومة تبكي فقد أبنائها تارة، وتبكي اعتقال الناجين من الموت تارة أخرى. بعد عرضنا لأمثلة من النمط الأول من متضمنات القول، نقدم النمط الثاني وهو ذو طبيعة لسانية ونفس منطقي، أي إنه يُدرك دون الحاجة إلى السياق الذي يستوجبه القول المضمّر¹. هذا النمط يُستثمر أيضا باعتباره بعدا تداوليا يمثل خلفية معرفية مشتركة لدى المتخاطبين.

2-1- الافتراض المسبق

يطّلع الافتراض المسبق بوظيفتين رئيسيتين، هما تحقيق الانسجام في الخطاب والإسهام في نجاح التواصل بين المتخاطبين. نسوق هنا بعض الملفوظات وسنعمل على رصد بعض الافتراضات المسبقة، سواء تلك التي تمثل شرطا للمحتوى؛ أي التي يكون فيها الافتراض المسبق دائما صادقا، بغض النظر عن كون الملفوظ صادقا أو كاذبا، أم تلك التي تكون شرطا للاستعمال، أي التي يكون فيها الافتراض المسبق صادقا ويكون للملفوظ معنى. أما إذا كان الافتراض المسبق كاذبا، فلا يُعتدّ بالملفوظ - يُمتسي الخطاب متهافتا - لأنه لا معنى له، أي لا يمكن وصفه لا بالصدق ولا بالكذب. وحول هذا الموقف التداولي من مسألة الافتراض المسبق، يرى كل من موشلار وروبول أنه "لم يقدم حلا لهذه المسألة أكثر إقناعا من الموقف المنطقي، إلا أنه سجل نجاحا كبيرا لأنه جعل من الافتراض الذي كان في أول الأمر مشكلا منطقيا يستتبع مفاهيم مثل الصدق والاستلزام مسألة تداولية؛ فالافتراض ينبغي قبوله في التواصل حتى يتسنى للمتخاطبين أن يتفاهموا"². وبتعبير آخر فإن الافتراض المسبق يستمد بعده التداولي من كونه يمثل الخلفية المعرفية المشتركة التي يسلم بها كل من المتكلم

¹ -Oswald Ducrot, Le dire et le dit, présumés et sous-entendus, éd. Minuit, 1984, p33-46.

² - أن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، دار الطليعة، بيروت، 2003، ص 48.

والمخاطب. وبهذا يصبح الافتراض المسبق عنصرا مساهما في نجاح التواصل وتيسير سبل إدراك المقاصد.

. الافتراض المسبق بين البعد المنطقي الدلالي والبعد التداولي

يقول بن علي: "أما بالنسبة للجنة التي أعلنت عليها منذ يومين للنظر في ظواهر الفساد والرشوة وأخطاء المسؤولين، وباش تكون هذه اللجنة مستقلة، نعم باش تكون مستقلة، وسنحرص على نزاهتها وإنصافها والمجال مفتوح من اليوم لحرية التعبير السياسي". يتضمن هذا الملفوظ افتراضين مسبقين:

أولهما متضمن في العبارة "أعلنت عليها منذ يومين للنظر في ظواهر الفساد والرشوة وأخطاء المسؤولين". يبدو أن تكليف لجنة للتحقيق في قضايا الفساد والرشوة - التي هي شكل من الفساد - وأخطاء المسؤولين، هو إشارة قوية من قبل بن علي إلى المحتجين على أنه عازم على القطع مع أشكال الفساد، وعازم أيضا على محاسبة المخطئين من المسؤولين إسوة بعامّة المواطنين حين يخطئون. يمكن القول إن إعلان بن علي النظر في هذه القضايا هو إقرار بوجود الفساد والرشوة والأخطاء في فترة من فترات حكمه. هذا الإقرار مسجل في الملفوظ ولا يتأثر بنفيه.

أ- أعلنت اللجنة أن تنتظر في قضايا الفساد والرشوة وأخطاء المسؤولين.

ب- لم أعلن اللجنة أن تنتظر في قضايا الفساد والرشوة وأخطاء المسؤولين.

ج- يوجد الفساد والرشوة وأخطاء المسؤولين في فترة سابقة من فترات حكم بن علي.

تمثل (ب) صيغة نفي (أ)، وتمثل العبارة (ج) التي لا تتأثر بنفي (أ) الافتراض المسبق، أو قل تمثل افتراضا مسبقا واحدا، وذلك لأننا نستطيع أن نحصل على أكثر من افتراض مسبق. هذا الافتراض (ج) هو معلومة محصلة سلفا، والتي لا يملك إلا أن يسلم بها كل من بن علي ومخاطبه، ضمانا لاستمرار الخطاب ونجاح التواصل وإدراك القصد من الكلام الذي هو مطمح الفعل التداولي.

بعد عرضنا للعبارة الأولى التي انتهينا فيها إلى استجلاء افتراض مسبق يشكل خلفية معرفية لدى المتخاطبين، نمر إلى العبارة الثانية في الملفوظ للوقوف على الافتراض الآخر.

ثاني الافتراضين المسبقين متضمن في العبارة الآتية: "والمجال مفتوح من اليوم لحرية التعبير السياسي". يصب مضمون هذه العبارة في اتجاه تحقيق أحد مطالب الشعب التونسي سنوات قبل إضرام محمد البوعزيزي النار في جسده، أما وبعد أن فارق الحياة فلم تعد مطالب المحتجين تتمثل في "تخفيض في أسعار المواد والمرافق الأساسية: السكر والحليب والخبز والرفع في ميزانية التعويض"، ولم تعد المطالب المنشودة مختزلة في "الحرية الكاملة للإعلام بكل وسائله وعدم غلق مواقع الأنترنت ورفض أي شكل من أشكال الرقابة عليها". لم يعد المحتجون يطالبون سوى برحيل رئيس البلاد عن السلطة ومحاكمته هو وأعوانه. وبين علي يعلم هذا، ولكنه يقدم عرضا علّه يغري المحتجين الذين حُرّموا سنوات من حرية التعبير عن آرائهم السياسية، فـ"المجال مفتوح من اليوم لحرية التعبير السياسي".

تتضمن هذه العبارة افتراضا مسبقا - مع احتمال ورود أكثر من افتراض - متمثلا في وجود تضيق على حرية التعبير السياسي في السابق، أو بصيغة أخرى: المجال بالأمس كان مغلقا في وجه حرية التعبير السياسي. هذه العبارة الأخيرة التي تمثل افتراضا مسبقا تعتبر صادقة، وذلك لأسباب تعود إلى تحقق التماسك المنطقي، بغض النظر عن كون هذه العبارة (س) "المجال مفتوح من اليوم لحرية التعبير السياسي" صادقة أو كاذبة. فالتماسك المنطقي لا يترك لنا مجالا في ما إذا كان الخطاب ذا معنى أو ليس له معنى، إنه يهدينا إلى الافتراض المسبق الذي يكون دائما صادقا. فالعبارة (س)، عند حديثنا عن الافتراض المسبق باعتباره شرطا للمحتوى، لا تكلفنا التحقق في ما إذا كانت ذات معنى، بل نكتفي بالحكم بصدقها أو بكذبها. إن العبارة (س) إذا كانت صادقة، أي فعلا "المجال مفتوح لحرية التعبير"، فإن الافتراض المسبق المضمن في (س) يكون هو (ط) "المجال كان مغلقا في وجه حرية التعبير السياسي"، الذي هو غير متأثر بالنفي الذي يمثله (ص).

(س) المجال مفتوح من اليوم لحرية التعبير السياسي.

(ص) المجال غير مفتوح من اليوم لحرية التعبير السياسي.

(ط) المجال كان مغلقا في وجه حرية التعبير السياسي.

يمثل (ط) افتراضا مسبقا يسلم به كل من بن علي والمحتجين، وهو فعل إنجازي تعبيرى جسد من خلاله المتكلم فعل الاعتراف بتحملة مسؤولية التضيق على حرية التعبير

أثناء حكمه. وهو إذ يبني خطابه على هذا الافتراض، فإنه يوسّع من دائرة التفاعل مع مخاطبيه وذلك لعلم هؤلاء المخاطبين بأن المجال كان مغلقا في وجه حرية التعبير السياسي. هذه المعلومة تمثل إذن خلفية معرفية مشتركة يسلم بها المتكلم ومخاطبوه، وهذا من شأنه أن يساهم في نجاعة الخطاب وتحقيق التواصل.

نسوق مثالا آخر من الافتراض المسبق مع التنبيه إلى أن مفردات من قبيل "فهمتكم"، قد وردت بصيغة فعل الماضي، لكنها استعملت استعمالات تدل على فعل المضارع، وإليكم مثالا: "أنا فُهِمْتُكُمْ وفهمت الجميع: البطل والمحتاج والسياسي واللي طالب مزيد من الحريات. فهمتكم وفهمت الكل". يقف بنا ظاهر القول على فهم بن علي لفحوى الرسالة التي يريد الشعب التونسي ومن ضمنهم المحتجون تبليغها. فقد فهم أن العاقل يشكو من البطالة وأن من واجب الدولة أن توفر له العمل، وفهم المحتاج الذي يئن تحت وطأة غلاء الأسعار، وفهم السياسي الذي لم يعد يتمتع بحقه في ممارسة السياسة ضمن قواعد المتعارف عليها، كما فهم الذي لم يعد هامش الحرية يسع تطلعاته. لقد فهم الكل، فهم الجميع، وهو من خلال توظيف فعل الفهم الذي مجاله العقل، يرسم في ذهن المواطن التونسي صورة مغايرة للصورة التي ظلت راسخة لديه، أي صورة المقاربة الأمنية التي كانت تستند إلى العنف بوصفه آلية للرد على المطالبين بتحسين الأوضاع الاجتماعية والمنادين بالإصلاح السياسي.

تكررت كلمة "فهمت" سبع مرات، توزعت في الخطاب لتفيد التأكيد على تجاوب الرئيس مع فحوى مطالب الشعب، وبالتالي تدشين مرحلة جديدة عنوانها الإصلاح. هذا الإصلاح ظل مغيبا لا اعتبار واحد تمثل في عدم حصول الفهم حسب بن علي، وهذا ما تضمنته عبارة "فهمتكم". وبتعبير آخر نقول: إن ظاهر الجملة "فهمتكم" يفترض معنى ضميا متمثلا في "لم أفهمكم من قبل"، وهو ما حال دون القيام بمبادرات إصلاح الظروف الاجتماعية وتحسينها. ويرجع بن علي جهله بالأوضاع المعيشية المزرية وعدم إدراكه لمعاناة السواد الأعظم من المواطنين وقمع الحريات، يرجع كل هذا إلى كون مسؤولين حجبوا عنه الحقائق وقد صرح بهذا حين قال: "غلطوني أحيانا بحجب الحقائق". وهو إذ يستثمر الافتراض المسبق المتمثل في "عدم الفهم لما كان يجري في تونس"، فلكي يبرئ ذاته ويحمل غيره مسؤولية ما وقع وما ترتب عنه من سوء الوضع في أكثر من مجال.

حضر الحديث أيضا عن الإصلاح والسعي إلى تحقيق تطلعات المواطنين وممارسة الحقوق في خطاب عمر البشير من خلال قوله: "لذلك لم يكن مرفوضا عندنا أن تخرج فئة من الشعب تطالب بترقية الأوضاع الهامة ومعالجة جوانب الخلل في الأداء الحكومي". إن كلمة ترقية تفترض أن الأوضاع لم تكن سيئة جدا، وأنها كانت فقط تعثرها بعض النقائص. هذه النقائص نتجت عن "خلل في الأداء الحكومي"، وبالتالي فمطالبة المحتجين الذين هم "فئة من الشعب" بـ "معالجة جوانب الخلل"، تبدو مرحبا بها من قبل رئيس الدولة الذي يعترف بوجود تقصير في الأداء الحكومي. هذا الافتراض المسبق المتمثل في "الأوضاع لم تكن سيئة للغاية" والذي لم يتأثر بالنفي "لم تطالب بترقية الأوضاع"، يدفع في اتجاه استدراج المحتجين والسامعين عموما نحو التسليم بمحتوى القول الذي أشير فيه إلى المطالبة بترقية الأوضاع. هذا الاتجاه خدم فقط الموقف الخطابي للبشير، ولم يسع إلى تأسيس معطى يمثل خلفية مشتركة بين المتخاطبين، إذ الجماهير في ربوع السودان إنما انتفضت ضد تدهور الأوضاع المعيشية وضد قمع الحريات واضطهاد المعارضين لسياسة النظام طيلة عقود. وهذا يعني أن المحتجين لم يسلّموا بالافتراض المسبق الذي انطلق منه المتكلم، وهذا من شأنه ألا يسهم في خلق تفاعل إيجابي بين المتخاطبين ولا حتى في ضمان استمرار التواصل. إلى جانب كلمة "ترقية"، تضمنت كلمة "فئة" في الملفوظ "فئة من الشعب تطالب بترقية الأوضاع"، افتراضا تمثل في كون عدد المحتجين قليلا وأن الغالبية من الشعب غير منخرطة في الاحتجاج. هذا الافتراض ليس من طبيعة الافتراض المسبق الذي يصمد أمام النفي، وإنما هو أقرب إلى القول المضمر الذي تناولناه سابقا، وإن كان مسجلا في كلمة فئة؛ إذ لم نحتج في استجلائه إلى معطيات سياقية، ولكن اكتفينا بالنظر في الخصائص اللسانية لكلمة فئة. ويتمثل الافتراض المسبق للملفوظ "فئة من الشعب تطالب بترقية الأوضاع الهامة" في العبارة الآتية: "فئة من الشعب"؛ حيث عمد المتكلم إلى تمريره باعتباره معطى مسلما به، موجهًا اهتمام السامعين نحو الشق المتعلق بالمطالبة بترقية الأوضاع. ولأن أعداد المحتجين كبيرة، إذ هم حشود هائلة امتلأت بهم الساحات والميادين في غالبية مدن السودان، فإن محاولة المتكلم تسريب فكرة أن المحتجين قلة من خلال ذكر "فئة من الشعب"، وتقديمها على أساس أنها مسلمة، فإنهم - المحتجين - سيرفضون التسليم بالافتراض المسبق كونه لا يشكل خلفية لديهم.

ولمزيد من توضيح الفرق بين الافتراض المسبق باعتباره شرطاً للاستعمال والذي يُهتم فيه بتحقيق المعنى للملفوظ أو للجملة، وبين الافتراض المسبق باعتباره شرطاً للمحتوى الذي يخضع للتماسك المنطقي، نورد ملفوظاً للرئيس المصري مبارك يشيد فيه بما قدمه من تضحيات من أجل الوطن. "أفنيث عمري دفاعاً عن أرضه وسيادته، شهدت حروبه بهزائمها وانتصاراتها، عشت أيام الانكسار والاحتلال وأيام العبور والنصر والتحرير... أسعد أيام حياتي يوم رفعت علم مصر فوق سيناء...". في هذا الملفوظ حشد مبارك مجموعة من الصفات الإيجابية حول ذاته لبناء النموذج، وأعرب عن سعادته كونه رفع علم مصر فوق سيناء أثناء حرب أكتوبر. إن القول برفع العلم فوق سيناء يفترض أن مباركاً كان حاضراً لحظة رفع العلم في صحراء سيناء. وأن تشهد رفع العلم في سيناء، يعني أنك نجحت في الهجوم على خط الدفاع الإسرائيلي بارليف، أي إنك من أبطال العبور، عبور قناة السويس، وهذا من شأنه أن يدفع المخاطبين إلى الاعتزاز بالمتكلم كونه بطلاً من أبطال العبور لا ينبغي أن يستهدفه الاحتجاج مطالباً إياه بالرحيل عن الحكم. يمكن القول إن حضور مبارك لحظة رفع العلم هو افتراض من طبيعة الافتراض المسبق باعتباره شرطاً للمحتوى، والذي يكون دائماً صادقاً ولا يُنظر فيه إن كان المحتوى صادقاً أو كاذباً، ولا إن كان المحتوى ذا معنى أو لا، لكن إذا أخضعنا الملفوظ "رفعت علم مصر في سيناء" إلى اشتراطات اعتبار الافتراض شرطاً للاستعمال، حكمنا عليه بالتهافت لكون افتراضه كاذباً. وقد دلنا على الكذب معرفتنا بالذي رفع علم مصر، وهو الجندي محمد العباسي الذي ضل يُحتفى به في مصر، ويستضاف في قنواتها الرسمية وغير الرسمية باعتباره أول من رفع علم مصر في سيناء. هذا المعطى وحده كفيلاً بإسقاط ادعاء مبارك رفعه للعلم وبالحكم بتهافت خطابه.

أ- رفعت علم مصر في سيناء.

ب- لم أرفع علم مصر في سيناء.

ج- حضرت لحظة رفع العلم في سيناء.

د- لم أحضر لحظة رفع العلم في سيناء.

يمثل (أ) محتوى الملفوظ ويمثل (ب) نفي (أ). نشير هنا أن النفي لا يمنع من الحضور، فقد يكون مبارك حاضراً ولا يقوم برفع العلم. وبالتالي يمكن لـ (ج) أن يصمد أمام النفي ولا

يتأثر به. و(ج) يمثل هنا الافتراض المسبق باعتباره شرطاً للمحتوى الذي استنتجناه من البنية التركيبية لـ(أ)، فهو إذاً غير سياقي. في حين أننا استنتجنا (د) من السياق من خلال واقعة تكذب الافتراض المسبق (ج)، وتجعل ملفوظ الخطاب بلا معنى، - أي متهافتاً -، فيفشل التواصل بين المتكلم مبارك وبين مخاطبيه.

المبحث الرابع: الاستلزام التخاطبي

ينشأ الاستلزام التخاطبي عن خرق قاعدة أو أكثر من قواعد مبدأ التعاون وفق كرايس، وهذا له مظاهر في التراث اللغوي العربي. فقد تحدث عنه الجرجاني من خلال معنى المعنى، وتناوله السكاكي وغيره من البلاغيين من خلال الحديث عن خروج اللفظ إلى غير ما وُضع له، وعن أساليب الحذف والتقديم والتأخير. كما تناوله الأصوليون حين تحدثوا عن الاقتضاء الذي يندرج ضمن دلالة الالتزام وعن مفهومي المخالفة والموافقة. هذه المفاهيم وغيرها حضرت في أكثر من خطاب رئاسي، يقول القذافي: "هذا هو الشعب الذي رُكّع إيطاليا، الثورة التي ركعت إيطاليا". في هذا الملفوظ الذي يشيد فيه المتكلم بالحاضرين وعبرهم كل مناصريه، استثمر القذافي أسلوب المجاز وهو مجاز مرسل علاقته المحلية. فقد أريد بإيطاليا رئيسها بيرلسكوني الذي قَبِل يد القذافي تحت أنظار العالم ذات لقاء تزامن مع عقد مؤتمر للجامعة العربية بلبيبا. هذا المعنى المستلزم الذي قصده المتكلم حصل بعد خرق قاعدتي الكم والصيغة. وخرق المتكلم أيضا هاتين القاعدتين معا حين قال: "الثورة التي ركعت إيطاليا وجعلتها تقبل يد ابن عمر المختار". فقد ذكر الثورة وقصد الثوار وهو مجاز علاقته المصدرية. والمعنى المستلزم هو أن الثوار هم من دحروا الاحتلال الإيطالي ويستلزم من هذا المعنى أيضا أن الثوار هم الشعب الليبي وأنصار القائد القذافي خاصة. هذا القائد أحال إلى ذاته من خلال ذكر "ابن عمر المختار"، مُحدثا نوعا من الالتباس على المستمع الذي يضطر إلى بذل جهد لمعرفة المقصود بـ "ابن عمر المختار" وهو خرق لقاعدة الصيغة أو الطريقة، خرق قصد به اقتداءه بالقائد التاريخي عمر المختار الذي قاد معارك بطولية ضد الاحتلال الإيطالي.

وفي الملفوظ "عشت أيام الانكسار والاحتلال وأيام العبور والنصر"، خرق فيه مبارك قاعدة الكم، إذ لم تتم إحاطة المخاطب بقدر كاف من المعلومات حتى يستطيع معرفة المقصود بالعبور. وقد راهن المتكلم على كفاءة المخاطب الموسوعية كون حدث العبور حدثا مرتبطا بالنصر وتحرير سيناء عام 1973. وخرق أيضا قاعدة المناسبة حين استحضر أحداثا حصلت قبل ثمان وثلاثين سنة (38) كان خلالها طيارا، بدلا من التفاعل مع مطالب محددة من قبل

الجماهير التي تحاكم مبارك باعتباره رئيس الدولة المسؤول الأول عما آلت إليه أحوال المصريين، وما أصاب المؤسسات السياسية والدستورية وغيرهما من القطاعات الحيوية من اختلالات عميقة. فالمقام إذا مقام إدانة المحتجين للنظام السياسي، ومقام مطالبة بتنحي رأس النظام الذي فرض حالة الطوارئ طيلة ثلاث وعشرين سنة (23) من حكمه، شهدت مصر خلالها تدنيا في مستوى التنمية. هذا المقام يستوجب تقديم حصيلة مقنعة لأداء الحكومات المتعاقبة في ظل حكم الرئيس مبارك وتقديم اقتراحات عملية للخروج من الأزمات التي تعصف بالبلاد، كما تستوجب التفاعل الإيجابي مع المطالب الآنية للمحتجين بدلا من سرد أحداث غير معني بها النقاش العام المتداول بين المصريين. لم يكن مبارك وهو يخرق قاعدة المناسبة غير مدرك بأنه مطالب بالتفاعل الإيجابي مع أحداث الواقع، ولكنه أراد بهذا الخرق معنى مستلزما هو تشييد صورة لذاته وتثمينها. هذه الذات شهدت إخفاقا ونجاحا، نكسة ونصرا، هذه الذات المتكلمة تراهن على كفاءة مخاطبها في رصد المعنى الذي تقصده وهو مشاركتها في حربين عامي 1967 و1973 ضد الإسرائيليين، مما يستوجب تثمينها من قبل كل المصريين.

المبحث الخامس: استثمار مبدأ التصديق عند طه، ومبدأ الخلق واللفظ عند ليتش في التواصل

لم يسلم مبدأ التعاون عند كرايس من الانتقاد، فقد اقترحت روبن لاكوف نظرية مبدأ التأذب لتدارك النقص الذي اعترى المبدأ الكرايسي، وعرض ليفنسن مبدأ التواجه، كما طرح ليتش قواعد فن التأذب واللياقة التي اعتبرها مكملية لمبدأ التعاون، في حين قدم طه مبدأ التصديق الذي قوامه: لا تقل لغيرك قولاً لا يصدقه فعلك. تتفرع عن هذا المبدأ الأخير قواعد تخص الجانب التهذيبي منه وأخرى تخص جانبه التبليغي¹. ولأن القواعد التي تهم الجانب الأخير تكاد تتطابق مع قواعد مبدأ التعاون عند كرايس الذي لم يهتم بالجانب الجمالي والأخلاقي في مبدئه، فإننا سنعتمد قواعد الجانب التهذيبي عند طه، كما سنعتمد على طرح ليتش. ولنبدأ بقاعدة الإخلاص التي هي من قواعد التصديق والتي محتواها هو "التجرد من أغراضك".

في الرد على طروحات صحافيين وسياسيين أجانب بدت لبشار معاكسة ومناقضة لمصالح السوريين، ورغم اشتداد الضغط عليه للتخلي عن دعم المقاومة الفلسطينية، تخلّى يخرج النظام السوري من دائرة الدول المارقة وفق التصنيف الأمريكي، في ظل كل هذا كان بشار يقول: "حتى لو قبلتُ بهذا الطرح فالشعب لن يقبل به، وإذا لم يقبل به الشعب فسوف ينبذني، وإذا نبذني فهذا يعني انتحاراً سياسياً". يتضح من خلال هذا الملفوظ أن المتكلم قد تجرد من غرضه، ملبياً غرض غيره حين أعلن انحيازه إلى رأي شعبه، غير مكترث للضغوط الأجنبية التي خلقت وما زالت تخلق متاعب لنظام الحكم، وغير طامع في شهادة حسن السلوك موقعة من القوى الدولية المعادية للنظام. وفي سياق تبرئة أهل درعا من الأحداث التي شهدتها محافظتهم، ورد هذا الملفوظ "درعا محافظة نسقٍ أول مع العدو الإسرائيلي. النسق الأول يدافع عن الأنساق الخلفية... النسق الأول مع محافظة القنيطرة وجزء من ريف دمشق هم يدافعون عن الأنساق الأخرى في الخلف. ولا يمكن لشخص أن يكون من موقعه يدافع عن

¹ - عبد الرحمن طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 250.

الوطن وبنفس الوقت يتآمر على الوطن أو يضر بالوطن. فهذا الكلام مستحيل وغير مقبول، وبالتالي أهل درعا لا يحملون أي مسؤولية في ما حصل، ولكنهم يحملون معنا المسؤولية في وأد الفتنة". لقد سعى بشار من خلال هذا الملفوظ إلى محو الصورة المتعلقة ببطش المسؤولين الأمنيين بأهل درعا الذين قاموا بأول تظاهرة في سوريا. وهو إذ يعتمد إلى تبرئة أهل درعا من مسؤولية ما حصل وتثمين مواقفهم كونهم موجودين في الصفوف الأمامية من المواجهة مع العدو الإسرائيلي، فإنما هو يعتمد إلى تبرئة نظامه من تهمة التنكيل بالمتظاهرين السلميين في الوقت الذي يشهد الواقع بتورطه ويقر بإدانته. وبهذا يخرق بشار قاعدة من قواعد التهذيب عند طه، متمثلة في الصدق والتي مفادها أن تكون صادقا في ما تنقله إلى غيرك. وهذه القاعدة تصب مباشرة في مبدأ التصديق الذي يُختزل في عبارة "لا تقل لغيرك قولا لا يصدقه فعلك". وهو ما لم يلمسه أهل درعا حين خاطبهم بشار معتبرا إياهم شركاء في تحمل "المسؤولية في وأد الفتنة"، معربا عن مكانتهم إذ هم "في قلب الوفاء لسوريا ولكل السوريين"، وأنهم "أهل الوطنية الصادقة والعروبة الأصيلة، وهم أهل النخوة والشهامة والكرامة".

وحفل خطاب بن علي بمظاهر التأدب، فقد بادر منذ اللحظات الأولى من زمن التلفظ بإبداء تفاعله الإيجابي مع مطالب ذات طابع اجتماعي وسياسي وحقوقى من خلال قوله: "أنا فهمتكم، فهمت الجميع: البطال والمحتاج والسياسي واللي طالب مزيد من الحريات"، والذي يقصد به العمل على تدارك أخطائه بإيجاد حلول للمشاكل التي تؤرق الشعب. هذه الاستجابة للمطالب تصب في مصلحة الآخرين وهي تعبر عن تجرد المتكلم من أغراضه، تجرد تم تعضيده في موضعين آخرين من الخطاب: مرة بفعل إنجازي إلزامي في الملفوظ "سيكون التغيير اللي أعلن عليه الآن استجابة لمطالبكم اللي تفعّلنا معها"، ومرة أخرى بفعل إنجازي تقريرى وارد في هذا الملفوظ "كل يوم من حياتي كان وما زال لخدمه البلاد، وقدمت التضحيات ومُنَحَبَشْ نُعَدَّهَا". وبهذا تتحقق قاعدة الإخلاص من خلال التلفظ بالأقوال الثلاثة الأخيرة. استثمر الرئيس السوداني البشير هو الآخر الجانب التهذيبي في خطابه، معتبرا مطالب المحتجين مشروعة شريطة الالتزام بسلمية الاحتجاجات، عندما أعلن أنه لا يرفض أن تخرج فئة من الشعب تطالب بترقية الأوضاع العامة ومعالجة جوانب الخلل في الأداء الحكومي. وهو من خلال هذا الإعلان والإشادة، يثمن صورة المحتجين الذين يسعون إلى

تحسين الأوضاع، وبالمقابل يبخس ذاته - ذات الحاكم المسؤول - من خلال الاعتراف بوجود الخلل في الأداء الحكومي. واستثمر مبدأ التهذيب أيضا حين أشاد بالمحتجين عبر إشادته بالشباب الذين يمثلون الشريحة الواسعة التي تقود الاحتجاجات قائلا: "كل المشروعات الكبرى التي قامت في عهد الإنقاذ من طرق وجسور وجامعات والتصنيع الحربي والمدني والسدود وشبكات الكهرباء والمياه، إنما قامت بأفكار وطاقات الشباب السوداني الخالص". فهو حسب لیتش، قد أنجز فعل الاستحسان الذي توطئه قاعدة تُلَخَّص في التحقق الزوجي:

أ- تقليل التنقيص من الآخر؛

ب- تكثير إطراء الآخر¹.

وبعد أن أنجز فعل الاستحسان بتقريضه للمحتجين، قام بتجسيد سلوك يندرج ضمن قاعدة التواضع التي تنزع هي الأخرى نحو الزوجية:

أ- تقليل إطراء الذات؛

ب- المبالغة في التنقيص من الذات².

وقد جسد هذا السلوك حين أقر بالخلل في الأداء الحكومي، وبالتالي فهو إقرار بتقصير الذات باعتبارها المسؤول الأول عن حصول الخلل.

لم يكن الغرض من استثمار قاعدتي الاستحسان والتواضع تثمين صورة المحتجين على حساب صورة الذات المتكلمة، ذات الرئيس، وإنما كان الغرض تكملة أغراض قواعد مبدأ التعاون وتيسير سبل التواصل والتفاعل المثمر بين المتخاطبين. وهذا ما كان يهدف إليه البشير من دعوته المحتجين وخصومه السياسيين إلى الحوار مع التأكيد أنه لا بديل من الحوار إلا الحوار "أدعوكم جميعا إلى التحرك إلى الأمام من أجل الوطن". هذه الدعوة إلى الحوار تستهدف أيضا تقليل الاختلاف بينه وبين معارضيهِ، وتقليل الاختلاف هو فرع من قاعدة الموافقة ضمن قواعد حسن التأدب واللفظ، وهو أكثر أهمية حسب لیتش من الفرع الثاني

¹ - جيوفري لیتش، مبادئ التداولية، ص 174.

² - نفسه.

التمثّل في تكثير الموافقة بين ذات المتكلم ومخاطبيه. فتجنّب الخلاف أولى من البحث عن التوافق¹، ولكن عمر البشير له توجه خاص يخالف فيه طرح ليتش إذ يرى أنه لتجاوز الأزمة التي يمر بها السودان، لا بد من تعاون الجميع والانطلاق في الحوار باعتماد المتفق حوله مدخلا لمناقشة المختلف حوله، وقد عبر عن هذا بقوله: "فلنمض للبناء على ما هو متوافق عليه، ونتحاور حول ما هو مختلف عليه".

مقابل هذا الجنوح نحو الجانب التهذيبي من قبل منجزى خطاب السلطة وتوسلهم به، بغية تلطيف الخطاب والنفاذ عبره لخلق جسور التواصل والتفاعل الإيجابي مع المحتجين، فإن الخطاب المضاد للخطاب الرسمي اتسم أحيانا بالشدة وخلا من صور التأدب، فقد جاءت المطالب في صيغة الأمر وفي صيغة خبرية خرجت إلى غرض الأمر، مثل شعارات "إرحل"، و"إرحل يعني إرحل"، و"الشعب يريد تغيير النظام"... التي تنحاز إلى الذات المنجزة للشعار وتنفر من ذات المخاطب وتلغي الصلة به. وتمثل السخرية التي تندرج ضمنها الرسوم الكاريكاتورية أقصى مظاهر غياب التأدب، حيث يمسي فيها المخاطب الذي هو النظام السياسي الحاكم محطّ تبخيس ومحلّ سخط ومثار استهزاء، مثلما حصل مع رسومات الفنان السوري علي فرزات الذي انتقد فيها النظام السياسي أشد انتقاد. لم يقتصر خلو مظاهر التأدب على رسوم الكاريكاتير واللافتات التي حوت صيغا دالة على الأمر، ولكن خلت منها أيضا بعض أغاني الثورة وكثير من الأشعار المبتدعة والمقتبسة التي تم تحويلها، مثل التعابير الآتية:

"إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب البقر"

فإذا كان الخرق لقواعد التأدب واضحا جليا في هذا البيت الشعري الذي تناصّ مع بيت للشاعر أبي القاسم الشابي، فإنه غير ذلك في اللافتة التي رفعها المتظاهرون السوريون في اعتصام حي الخالدية بحمص.

"باقون هنا"

¹ - جيوفري ليتش، مبادئ التداولية، ص 174 - 175.

كالسنديان العتيق

فهذا البحر لنا

وهذا الهواء الدافئ لنا

وهذا الرصيف وما عليه

من دماننا وأشلائنا لنا"¹.

وإن لم يواز هذا القول البيت السابق من حيث العنف اللفظي والمبالغة في الاستهزاء بالخصم، فإنه شهد هو الآخر خرقاً لقاعدة من قواعد فن التأدب والتلطف، إذ الانحياز إلى الذات والتمايز عن الآخر باديان للعيان. هذه القاعدة التي تم خرقها هي قاعدة التعاطف التي تنقسم إلى فرعين، هما:

1- تقليل التنافر والعداوة بين الذات والآخر؛

2- تكثير التوادد والتعاطف بين الأنا والآخر².

خلال هذا العرض لمجموعة من الملفوظات التي وردت في خطابات رسمية وخطابات معارضة، لاحظنا أن الخطابات الرسمية شملت جملة من قواعد التأدب وتكاد تخلو من مظاهر السخرية، في حين أن الخطابات المضادة حفلت بمظاهر العنف اللفظي والرمزي، كما حفلت بصور جسدت بعض قواعد مبدأ التصديق عند طه، خصوصاً قاعدة الإخلاص التي محتواها "التجرد من أغراضك". فقد أبدى المحتجون من خلال الشعارات انحيازهم للوطن واستعدادهم للتضحية من أجل القضايا العادلة. فهل لاشتداد الأزمة وصلابة موقف المعارضة واحتمال هبوب رياح قد تعصف بوجود النظام السياسي، هل له علاقة باللجوء إلى التأدب والتلطف عند مخاطبة الخصوم؟ ولم يظل الخطاب المضاد، خطاب المعارضة ينزع نحو لغة التنافر عبر اعتماد العنف اللفظي من خلال التوسل بالسخرية وغيرها من الوسائل التي يُتوسل بها

¹ - من شعارات الثورة السورية أثناء أحداث الربيع العربي

² - جيوغري ليتش، مبادئ التداولية، ص 174.

لتبخيس الآخرين؟ هل السخرية مثلاً أداة للتنفيس عن الذات، أم هل هي عنصر حجاجي يقارع بها من لا يملك السلطة السياسية والمادية مآلَهما؟

المبحث السادس: حجاجية الخطاب السياسي

من بين وظائف الصورة البلاغية تقريب المعنى وإيضاحه للمتلقي قصد التأثير فيه، إذ يتم من خلال الصورة الانتقال من المعقول إلى المحسوس وهذا تجد فيه النفوس أنساً، إضافة إلى أن المتلقي لا يستطيع إنكار الأمور "لانتماؤها إلى عالم خطابه الحسي والقيمي الذي يشكل قاعدة مشتركة بينه وبين المرسل، فيحظى بموافقة الجميع عليه وتسليمه به"¹. إضافة إلى الصورة البلاغية، توجد آليات لغوية أخرى تطلع بوظائف حجاجية إلى جانب وظائف تحقق اتساق الخطاب وانسجامه.

1- حجاجية الصورة البيانية

1-1- الاستعارة والحجاج العاطفي

حرص بشار مذ مطلع الخطاب على التنسيق بين الجمل وحسن الترتيب بين الكلمات. فبعدما ذكر كلمة محافظة، أرففها بكلمة مدينة فبلدة ثم قرية، مراعيًا التفاوت من حيث حجم المساحة بين الأمكنة. وحرص أيضاً على تأثيث فضاء المطلع بصور بيانية ذات أبعاد حجاجية من خلال قوله: "وأنا أخطب عبركم أبناء سوريا الأعزاء، سوريا التي تنبض في قلب كل واحد فينا حبا وكرامة، سوريا القلعة الحصينة بتلاحمها، العظيمة بأمجادها، الشامخة بشعبها... أتحدث إليكم في لحظة استثنائية تزداد التطورات فيها كامتحن لوحدتنا".

في هذا الملفوظ تبرز سوريا في صورة قلب ينبض في وجدان الإنسان السوري بالحب والكرامة. فبعد ترسيخ هذه الصورة التي تشكلت بالاستعارة المكنية في ذهن المستمع، تحصل الدهشة. فبدلاً من أن يوجد الإنسان في وطنه، نجد هذا الوطن في قلب المواطن، وسرعان ما تزول الدهشة إذا علمنا أن الوطن في ظل الأزمة، هو أولى أن يحضنه أبناؤه ويدافعوا عنه ويجعلوا من الحفاظ عليه حفاظاً على المودة والكرامة.

¹ - عبد العالي قادة، الحجاج في الخطاب السياسي، دار كنوز المعرفة، عمان، 2015، ص314.

1-2- التشبيه وتقوية شعور المخاطب بالاعتزاز بالوطن

بعد إرساء هذه الصورة الاستعارية، انتقل المتكلم إلى صورة أخرى خدمت دلالة الملفوظ التي حصرها في تمجيد وطنه، فقد انتقل إلى تصوير المجرد بالمحسوس، حيث شبه سوريا بالقلعة الحصينة، وهو تشبيه مؤكد مفصل حذف فيه الأداة وذكر وجه الشبه "التلاحم". هذا الانتقال من المعقول إلى المحسوس قرّب المعنى من المتلقين وأوضحه في أذهانهم، مما يسّر لهم فهم المراد من التصوير. فمعرفتهم بقوة القلاع الحصينة ومتانتها وصعوبة اختراقها سرّعت من وتيرة الفهم وإدراك قصد المتكلم، الذي صور سوريا بلدا عصيا على اختراقه والنيل منه. وبعد أن تنفذ هذه الصورة إلى قلوب المتلقين وعقولهم، يحصل إقناعهم بما أريد إقناعهم به من ضرورة تكثيف الجهود لحماية الوطن. وتنتال الصور في هذا المشهد، مشهد الاعتزاز بالوطن وتُقدّم سوريا في صورة البلاد "العظيمة" و"الشامخة"، وكأن كل مظاهر العظمة والشموخ قد تجلت في سوريا، كما توحى بذلك أداة التعريف "ال" التي تفيد هنا الاستغراق.

بعد تصوير المجرد بالمحسوس، انتقل المتكلم إلى تصوير المجرد بالمجرد حين شبه بشار التطورات التي تعرفها سوريا والمتمثلة في الاحتجاجات بامتحان. ومعلوم أن هذا التصوير "يتطلب مشقة في الفهم وكلفة على المتلقي في إدراك كنه المجرد البعيد عن الحاسة"¹، لكن إذا استحضرنا المرجعية المشتركة بين المتكلم والمخاطب وتداولية كلمة امتحان وسياق ورودها، إضافة إلى كفاءة المتلقي المعرفية والثقافية، فإن المعنى المراد من التصوير سيتضح في الذهن. لا تقتصر وظيفة التشبيه على تقريب المعنى من المتلقي وإيضاحه فقط، وإنما تتعداه إلى تأكيد المعنى وتثبيتته. فتصوير الأحداث التي تشهدها سوريا والمتمثلة في الاحتجاجات بامتحان لوحدة سوريا والسوريين، يراد منه التأكيد على ضرورة انخراط الجميع في مسلسل الحد من استفحال هذه الاحتجاجات، ذلك لأنها تهدد وحدة السوريين وتُزدي القلعة إن لم تُحصن عنها منقوشا. وبشار من خلال هذا التشبيه يصور وحدة سوريا كونها على المحك؛ فإما أن تجتاز الاختبار فتتقوى، وإما أن ترسب فيه فتتهار وتتفتت. وهكذا

¹ - علي عمران، حجاجية الصورة الفنية في الخطاب العربي، خطب الإمام علي أنموذجا، دار نينوى، دمشق، د.ط، 2009، ص 205.

فتقوية الشعور بما تنبئ به "التطورات" وتأكيد خطورة الأحداث في نفس المخاطب، تدفعه إلى الفعل لإنقاذ وحدة سوريا والسوريين. وبعدها وصف المحتجين بأنهم قلة من المتأمرين، وبعد ازدياد أعدادهم وارتفاع أصواتهم مطالبين بتنحي الرئيس، قام بتشبيههم بالجراثيم من خلال قوله: "فالمؤامرات كالجراثيم تتكاثر في كل لحظة وفي كل مكان ولا يمكن إبادة وإبادة وإنما يمكن العمل على تقوية المناعة في أجسادنا لصدها". وقد جَرَّ هذا التشبيه الأخير على بشار ردودا من قبل المحتجين، نذكر منها وصفه بـ "أبو رقبة ونص لسان" في إشارة إلى طول العنق وقصر الفكر الذي أبان عنه لسانه حين عمد إلى تشبيه المواطنين بالجراثيم.

وعبر آلية التشبيه أيضا لجأ مبارك في خطابه إلى تثبيت تقاسمه للألم مع عائلات الضحايا حين قال: "إنني تألمت كل الألم من أجلهم مثلما تألمتم، وأوجع قلبي ما حدث لهم كما أوجع قلوبكم". وبهذا يكون مبارك قد أنجز فعل المواساة المصحوب بالتألم حين خاطب أهالي الضحايا. وهو حين خاطبهم، خاطب وجدانهم ليثير انفعالاتهم ويمهد بالتالي لبناء جسر الثقة بينه وبين مخاطبيه. جسر يسهل عبور الخطاب نحو صفتهم محملا بمشاعر عاطفية قد تؤثر في متلقي هذا الخطاب.

1-3- توظيف المجاز في حفز المناصرين

من بين الصور البلاغية التي أدت أدوارا حجاجية المجاز، وقد وظفه القذافي مثيرا الإحساس بالعظمة في النفوس. وهذا من شأنه أن يزيد المتلقين حماسة وإحساسا بالثقة في النفس، فينبهون للدفاع عن الوطن والنظام السياسي. وقد سيق هذا المجاز الذي علاقه المحلية في الملفوظ الآتي: "هذا الشعب الذي ركع إيطاليا"، بهدف حفز الشعب الليبي على المقاومة والاقتراء بالأجداد الذين كانوا تحت إمرة عمر المختار حين أذل المحتلين. وإذا كان الأجداد يمثلون القدوة بالنسبة للشعب الليبي الحالي، فإن عمر المختار هو قدوة القائد الليبي القذافي الذي نعت نفسه بـابن عمر المختار. ويأتي وصف القذافي لعمر المختار ببطل الغابة للدلالة على شجاعته وقوته واندفاعه، مشبها إياه بالأسد الذي هو بطل الغابة. هذه الصورة، صورة البطولة، سعى القذافي إلى وسم أنصاره بها لشحذ العزائم ضد أعداء الوطن.

2- أدوات الوصل؛ بين وظيفتي الاتساق والانسجام ووظيفة الحجاج

لا يتحقق اتساق الخطاب وانسجامه إلا بمراعاة قواعد النحو. والنحو عند البعض هو التركيب، وعند آخرين علم المعاني، وهناك من اعتبره حقلاً يضم علم الدلالة والتركيب وعلم وظائف الأصوات. ونحن هنا نعني بالنحو النسق اللغوي الذي يحتوي المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية. سنستهل الحديث بأدوات الربط التي تتعدى وظيفة الوصل إلى وظائف أخرى دلالية وحجاجية وتداولية. هذه الأدوات التي تربط بين الجملتين أو بين المقطعين، يسميها اللغويون أدوات منطقية لأنها تقوم "بتحديد أنواع التعالق بين الجمل وتسهم كذلك في بناء النص منطقياً"¹. ويقصد علماء المعاني بكلمة الوصل عطف جملة على أخرى بحروف، مثل الواو والفاء وحتى ولكن ...

2-1- واو العطف بين إدراج الحجج أفقياً وإدراجها عمودياً - تراتبية الحجج -

تمثلت واو العطف في صور مختلفة، منها عطف الاسم على الاسم، والفعل على الفعل، والجملة على الجملة في مثل "أتوجه إليكم جميعاً بحديث من القلب، حديث الأب لأبنائه وبناته"، حيث تم عطف الاسم على الاسم لتفادي التكرار المتمثل في المركب الإضافي "حديث الأب"، إذ الأصل هو حديث الأب لأبنائه وحديث الأب لبناته. وفي الملفوظ "أقول لكم إنني أعتز بكم رمزا لجيل مصري جديد يدعو إلى التغيير إلى الأفضل، ويتمسك به ويحلم بالمستقبل ويصنعه"، يصل مبارك الجملة الفعلية بالجملة الفعلية. وقد تمثل الوصل في "يدعو ويتمسك" وفي "يحلم ويصنع"؛ حيث أفادت الواو وجوب فعل الدعوة والتمسك بالتغيير للمخاطب الذي وصفه المتكلم بالرمز للجيل المصري الجديد، كما أفادت في الجملة الأخرى الوجوب للمخاطب فعلى الحلم بالمستقبل وصنعه. في مثل هاتين الصيغتين يُستبعد تقدير الأفراد في أحد الفعلين عن الآخر، كتقدير فعل الحلم بالمستقبل وعدم القدرة على فعل صناعته وتحقيقه، أو فعل المطالبة بالتغيير وغياب فعل التمسك به. يقول الجرجاني في باب الفصل والوصل: "واعلم أنه إذا كان المُخبر عنه في الجملتين واحداً كقولنا: هو يقول ويفعل.. يضر وينفع، ويأخذ ويعطي...، ويأكل ويشرب وأشبه ذلك، ازداد معنى الجمع في الواو قوة وظهوراً،

1- الأزهر الزناد، نسيج النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993، ص37.

وكان الأمر حينئذ صريحا. وذلك أنك إذا قلت: هو "يضر وينفع"، كنت قد أفدت بالواو أنك أوجبت له الفعلين جميعا، وجعلته يفعلهما معا. ولو قلت: "يضر ينفع" من غير واو لم يُجَبْ ذلك، بل قد يجوز أن يكون قولك ينفع رجوعا عن قولك يضر وإبطالا له¹.

من خلال ما ذكر في هذا الباب، تبين أن أداة العطف لا تتوقف وظيفتها على الربط فقط بين اللاحق والسابق من القول، وإنما تتعدى ذلك إلى تبيان مدى اشتباك الفعلين المعطوف والمعطوف عليه واقتترانهما، أو عدم اقتترانهما لغياب عنصر التشاكل بين الفعلين، مما يوجب للمُخْبِر عنه - وفق تعبير الجرجاني - القيام بالفعلين، أو وجوب فعل دون وجوب الفعل الآخر. وأثار الجرجاني مسألة غاية في الأهمية وهي تتعلق بالمناسبة بين المعطوف عليه والمعطوف، بعدما عاب على أبي تمام قوله: "لا والذي هو عالمٌ أن النوى... صَبِرٌ وأن أبا الحسين كريمٌ. وذلك لأنه لا مناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى"². ويشدد الجرجاني في باب الوصل بالواو على حصول التعلق والتشاكل بين الخبر عن الجملة الثانية والخبر عن الأولى.

إلى جانب تحقق الوظيفة التركيبية والوظيفة الدلالية، قامت أداة العطف الواو بالعمل على الجمع بين الحجج ووصفها ووصلها بالنتيجة. ففي الملفوظ أعلاه "أقول لكم إنني أعتز بكم رمزا لجيل مصري جديد يدعو إلى الأفضل ويتمسك به ويحلم بالمستقبل ويصنعه"، وصلت الواو بين أكثر من حجة "يدعو إلى الأفضل"، و"يتمسك به"، و"يحلم بالمستقبل"، و"يصنعه"، وبين نتيجة معلنة في الملفوظ هي "إنني أعتز بكم رمزا لجيل جديد". وإذا ما شئنا إدراج الموضع - حسب ديكر - الذي يضمن تسويق هذا الانتقال من الحجج إلى النتيجة، قلنا إن مبعث اعتزاز مبارك بالشباب يكمن في حسن صنيعهم وقوة عزيمتهم. يمكن أن نرمز للعلاقة بين الحجج والنتيجة بالشكل الآتي³:

ح1.....ح2.....ح3.....ح4.....← ن

1- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، علق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط 3، 1992، ص 226.

2- نفسه، ص 225.

3- يراجع مبحث السلم الحجاجي ومبحث الروابط والعوامل الحجاجية ضمن كتاب اللغة والحجاج لأبي بكر العزاوي، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، 2009.

يدعو إلى الأفضل... يتمسك به... يحلم بالمستقبل... يصنعه أعتز بكم رمزا لجيل جديد
قد ترد النتيجة هي الأولى ثم تتبعها الحجج كما هو حاصل في الملفوظ أعلاه، فنرمز
للعلاقة بينهما بالشكل الآتي:

ن..... ح1..... ح2..... ح3..... ح4

نشير هنا إلى أن إدراجنا للحجج بشكل أفقي يرجع إلى عدم تبين الحجة الأقوى بين فعل
التمسك بالأفضل وبين فعل صنع المستقبل، وإن كنا قد حسمنا في التفاوت في القوة بين الدعوة
إلى الأفضل وبين التمسك به بترجيحنا لهذه الحجة الأخيرة، وبترجيحنا لصنع المستقبل على
الحلم به، ومن خلال هذه المعطيات تعذر إخضاع هذه الحجج إلى تراتبية - سلم حاجي -
بحسب قوتها.

نورد مثالا آخر حصل فيه تعلّق بين المعطوف عليه والمعطوف بعد تحقق المناسبة.
في الملفوظ "إنني عشت من أجل هذا الوطن حافظا على مسؤوليته وأمانته، وستظل مصر
هي الباقية فوق الأشخاص وفوق الجميع"، أفادت أداة العطف الأولى وجوب فعل المحافظة
على المسؤولية وفعل المحافظة على الأمانة معا، وذلك لوجود مناسبة بين المعطوف
والمعطوف عليه، أي وجود تشاكل دلالي بينهما. وأنجزت الواو أيضا وظيفة حاجية، إذ
قامت بالربط بين الحجتين "حافظا على مسؤوليته" و"حافظا على أمانته". وتمثلت النتيجة في
"إنني عشت من أجل هذا الوطن"، بينما تمثّل الموضع في "لأنني مخلص لوطني، قمت
بالحفاظ على مسؤوليته وعلى أمانته"، ولأن الحفاظ على المسؤولية يعادل الحفاظ على الأمانة،
فإن إدراج الحجتين سيتم على غرار سابقه.

بعد إدراجنا للعلاقات الحاجية الخالية من تراتبية الحجج فيها، نورد أمثلة عن تفاوت
قوى الحجج فيها، حجج وردت موصولة بواو العطف متماسكة من حيث التركيب ومنسجمة
من حيث الدلالة. في الملفوظ "لقد كنت شابا مثل شباب مصر الآن، عندما تعلمت شرف
العسكرية المصرية والولاء للوطن والتضحية من أجله"، توجد ثلاثة أقوال تشكل قسما حاجيا
تتفاوت من حيث القوة الحاجية لكل قول؛ إذ الحجة "الولاء للوطن" أقوى من الحجة "شرف

العسكرية"، والحجة "التضحية من أجل الوطن" أقوى من الحجة "الولاء للوطن". هذه الحجج المنتمية إلى فئة حجاجية واحدة تنتظم في علاقة تراتبية تُعرّف بالسلم الحجاجي، حيث ترد الحجة الأقوى "التضحية من أجل الوطن" في أعلى درجات السلم.

ن	المواطن المثالي
ح3	التضحية من أجل الوطن
ح2	الولاء للوطن
ح1	شرف العسكرية

تمثل ح1 وح2 وح3 الحجج المدعمة للنتيجة ن التي جاءت مضمرة، وتم تقديرها ب"المواطن المثالي" الذي ينبغي أن يحظى بالاحترام والاحتفاء بدلا من التنكر لما أسداه للوطن والمطالبة برحيله.

2-2- الرابط الحجاجي "لكن" وتراتبية الحجج

من بين الروابط الحجاجية التي تقوم بوظيفة التمييز بين الملفوظات من حيث درجات قوتها الحجاجية، نجد أداة الاستدراك "لكن" التي تقوم بالربط بين هذه الملفوظات وتستعمل أيضا للحجاج حين يكون تعارض بين ما تقدمها وما تلاها، فتوهن حجاجية السابق وتخدم النتيجة المضادة للنتيجة السابقة. في قول مبارك: "لا أجد حرجا.. في الاستماع لشباب بلادي...، لكن الحرج كل الحرج.. أن أستمع لإملاءات أجنبية"، دُعِمت الرابطة "لكن" النتيجة المتمثلة في "الحرج أن أستمع لإملاءات أجنبية"، في حين أضعفت النتيجة "لا أجد حرجا في الاستماع لشباب بلادي". فعدم الشعور بالإحراج عند الاستماع لأهل بلدك هو أمر عادي لا يدعو إلى الاستغراب، في حين أن الذي يدعو إليه هو الخضوع للأجانب من خلال الاستماع إلى إملاءاتهم. هذه النتيجة التي وردت قبل الأداة "لكن" قد يرتبط بها أكثر من حجة.

ح1- إن كوني مسؤولا مهتما بقضايا الشعب والوطن، فإنني "لا أجد حرجا في الاستماع لشباب بلادي"؛

ح2- ولو أني رئيس للبلاد، فإنني "لا أجد حرجا في الاستماع لشباب بلادي"؛

ح3- من أجل التعاون لإيجاد حل للأزمة، فإنني "لا أجد حرجا في الاستماع لشباب بلادي".....

هذه الحجج ليست أقوى من الحجة المتضمنة في النتيجة "أجد حرجا في الاستماع لإملاءات أجنبية"، والتي هي "إنني رئيس دولة ذات سيادة وإنني لست عميلا ولن أقبل أن أرهن وطني وشعبي ونفسي للأجانب". وبالتالي فالحجة الأقوى بدعامة "لكن" هي التي ستوجه القول كله نحو هذه النتيجة. ومبارك عبر توجيهه للقول، يقصد تبرئة نفسه من العمالة للأجانب، وبالتالي اتهام خصومه بالولاء لغير مصر ودفع بعضهم إلى التشكيك في انتماء البعض الآخر للوطن.

2-3- واو الاستئناف ووصل الفقرتين باعتبارهما حجتين

يشير العزاوي إلى أن الحجة في التصور الجديد لديهم قد أعطيت لها دلالة واسعة ومجردة. فقد "ترد على شكل قول أو فقرة أو نص أو قد تكون مشهدا طبيعيا أو سلوكا غير لفظي". وبما أن الحجة قد يتم ربطها بحجة أخرى، فإن الفقرة مثلا التي هي حجة، قد يتم وصلها بفقرة تمثل حجة أخرى بواسطة أداة من أدوات الربط كحرف الاستئناف الواو.

هذه الواو تنصدر الكلام لإضافة معنى جديد له علاقة بما قبل. وقد حضرت في خطاب مبارك الذي هو عبارة عن مقاطع تم الربط بينها بأدوات، منها لام التوكيد مقرونة بأداة التحقيق لقد وأداة الاستئناف الواو. ففي الفقرة التي تبتدئ بـ "ولقد تلقيت أمس التقرير الأول بالتعديلات الدستورية ذات الأولوية المقترحة من اللجنة التي شكلتها من رجال القضاء وفقهاء القانون لدراسة التعديلات الدستورية والتشريعية المطلوبة"، جيء بالواو بعد أن أشار مبارك في فقرة سابقة إلى ما أسفر عنه الحوار الوطني من "تلاق حول تشكيل لجنة دستورية تتولى دراسة التعديلات المطلوبة في الدستور.... (و) تلاق حول تشكيل لجنة للمتابعة تتولى متابعة التنفيذ الأمين لما تعهد به (الرئيس) أمام الشعب". وقد ساهمت هذه الواو في الربط بين الفقرتين اللتين تتقاطعان دلاليا، كما ساهمت في ترتيب الحججتين المتمثلتين في "الاتفاق على

تشكيل لجنة دستورية تدرس التعديلات ولجنة تتابع تنفيذ ما تعهد به الرئيس" وفي "إنجاز تقرير خاص بالتعديلات". وهما حجتان لنتائج مضمرة منها "إبداء مبارك عزمه على تغيير مواد في الدستور" قد يتفاعل معه المخاطبون إيجاباً، و"إكساب الحوار مصداقية" في ظل رفض المشاركة فيه من قبل غالبية المعتصمين بميدان التحرير. يظهر جلياً أن واو الاستئناف متعددة الوظائف، ولعل أبرزها جعل الخطاب ينمو دون أن يفقد اتساقه وانسجامه فيفقد تداوله بين متلقيه. وتكرر ورودها في هذا الخطاب حيث برزت مباشرة بعد الحديث عن التعديلات المضمنة في الملفوظ السابق، عندما أبدى المتكلم تجاوباً مع تقرير اللجنة التي كُلفت بإعداد مقترحات تخص الجانب الدستوري. وقد عبر عن تفاعله مع التقرير بالقول: "وإنني تجاوباً مع ما تضمنه تقرير اللجنة من مقترحات ومقتضى الصلاحيات المخولة لرئيس الجمهورية..، فقد تقدمت اليوم بطلب تعديل ست مواد دستورية". ولكي ينتقل مبارك من الحديث عن التعديلات وتجاوبه مع تقرير اللجنة إلى تبيان الغرض من الإجراء الذي اتخذته، صدر كلامه بواو الاستئناف الذي تكفل بوصل السابق من القول باللاحق، محققاً تساوفاً بين دالتي الفقرتين وترتيباً بين ما تضمنته من حجج.

2-4- فاء التعليل ودفع المخاطب إلى التسليم بالنتيجة

من بين أدوات الربط الحجاجية التي وردت أيضاً في هذا الخطاب، نجد فاء التعليل التي تعد من الروابط المدرجة للنتائج. في سياق عرض المواد المقترحة للتعديل، خص مبارك المادة 179 بالحديث عن الغاية من إلغائها وليس تعديلها قائلاً: "أما الاقتراح بإلغاء المادة 179 من الدستور، فإنه يستهدف تحقيق التوازن المطلوب بين حماية الوطن من مخاطر الإرهاب وضمان احترام الحقوق والحريات المدنية للمواطنين، بما يفتح الباب أمام إيقاف العمل بقانون الطوارئ فور استعادة الهدوء والاستقرار". فقد تم تعليل فكرة إلغاء المادة من الدستور لأن الغاية هي تحقيق التوازن. لهذا جيء بالرباط الفاء التي هي فاء تعليلية يكون ما بعدها علة لما قبلها. وكون هذا الرابط يتمتع بقوة حجاجية مركوزة في بنيته المنطقية، فإن مباركاً قد سعى من خلال توظيفه إلى دفع مخاطبيه إلى التسليم بكل ما يترتب عليه من نتائج. وحضرت قبل فاء التعليل رابطة حجاجية هي فاء السببية في الملفوظ "تجاوباً مع ما تضمنه

تقرير اللجنة من مقترحات، فقد تقدمت اليوم بتعديل ست مواد دستورية"، مدشنا مسارا من الروابط المدرجة للنتائج التي سعى المتكلم إلى تثبيتها في أذهان المتلقين.

من خلال ما تقدم، لاحظنا أن حروف العطف هي أدوات للتماسك النصي، تصل اللاحق بالسابق من خلال علاقات منطقية. وإن كان الوصل من خلال عناصره اللغوية يجعل النص متسقا ومنسجما، فإنه يطلع أيضا بوظائف حجاجية.

2-5- آلية التوكيد؛ تثبيت المعنى وحفز على التفاعل

من الآليات الحجاجية التي شهدت حضورا في كل الخطابات الرسمية والمعارضة، نجد آلية التوكيد التي سعى من خلالها المتكلم إلى لفت انتباه المستمع وإزالة الشك من ذهنه، وإنهاء حالة الإنكار لديه باستعمال أداة واحدة للتوكيد أو أكثر. كل هذه الأغراض تضمن تفاعلا إيجابيا بين المشاركين في العملية التخاطبية، مما يمهد لحصول الإقناع. يتحقق التوكيد بمؤكدات، منها حرف إنّ وأداة التحقيق قد ونونا التوكيد ولام الابتداء ولام القسم وكلّ وجميع وعين ونفس، ونشير أيضا إلى أن حرف السين يُستخدم في توكيد الوعد. وقد رصدنا استخدام التوكيد اللفظي بكثرة في خطابي بن علي والقذافي المرتجلين؛ ذلك لأن طبيعة الخطاب المنطوق خصوصا المرتجل منه، تقتضي أحيانا تكرار اللفظة والجملة حتى يتسنى للسامع مواكبة الخطيب والتمكن من الإمساك بالرباط بين الألفاظ. إضافة إلى هذا يمنح التكرار إمكانية التحكم في توجيه الخطاب، ويبرز أهمية المؤكّد ويرسخه في ذهن السامع. فالرئيس بن علي حين يكرر كلمة أو قل جملة "فهمتكم" في الملفوظ "فهمتكم، فهمت الجميع: البطل والمحتاج والسياسي....، فهمتكم، فهمت الكل"، فهو يؤكد على أن سوء الفهم الذي حصل بينه وبين الشعب طوال فترة حكمه قد زال، وأن المشاكل ستعرف طريقها نحو الحل. وحضر أيضا التوكيد اللفظي حين طالب الجميع بالكف عن العنف مرددا جملة "فكفى عنفا" في الملفوظ "فكفى عنفا، كفى عنفا" دون توجيه الاتهام إلى رجال الأمن وحدهم باعتبارهم حاملين للسلاح. وهذا من شأنه أن يجعل المتظاهرين مقتنعين بانحياز الرئيس إلى الذين يقتلونهم في شوارع تونس، إذ كيف يُسوَّى هذا الأخير بين القاتل والمقتول؟ لكن سرعان ما يتدارك بن علي الأمر، فيعلن أنه لا داعي إلى "اللجوء إلى الكرطوش الحي، الكرطوش مُشّ مقبول، مَعْدُوش مبرّر".

وخوفا من أن يتهمة رجال الأمن هم الآخرون بانحيازهم إلى المتظاهرين، يرد قائلا: "إلا لا قدر الله أحد حاول يفك سلاحك، ويهجم عليك بالنار وغيرها، ويجبرك على الدفاع على النفس". وتحقق التوكيد اللفظي في سياق الحديث عن الديمقراطية، وإدانة من ساهم من معاونيه في تعطيل تطبيقها وتقديم معلومات مغلوطة عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والحقوقية. فقد أكد بن علي أنه سيحاسب من حجب عنه الحقائق وأظهر له تونس في صورة وردية، خصوصا في مجالي الحريات والديمقراطية التي شملها التوكيد هي الأخرى إلى جانب محاسبة من "غلطوه". ولتوكيد الوعد بمحاسبة المخلين بواجباتهم، استخدم المتكلم حرف السين في الملفوظ "سيحاسبون... ولذا أجدد لكم وبكل وضوح راني باش نعمل على دعم الديمقراطية وتفعيل التعددية، نعم على دعم الديمقراطية وتفعيل التعددية". ولامتصاص غضب الجماهير المطالبة برحيله، عمد إلى أسلوب التوكيد معربا عن عدم رغبته في الاستمرار في الحكم من خلال قوله: "لا رئاسة مدى الحياة، لا رئاسة مدى الحياة".

لم يهدأ غضب الجماهير التي وصفها بن علي بـ"مجموعات سطو ونهب واعتداء على الأشخاص...، وبالعصابات المنحرفة". فقد تصاعد الاحتجاج واشتد وأبدى المحتجون موقفا محددا وموحدا تمثل في إسقاط النظام السياسي من خلال رفع شعارات، منها "إرحل" و"الشعب يريد إسقاط النظام" و"لن نعود لبيوتنا حتى ترحلوا من حياتنا"¹. في ظل هذا الاحتقان، ما كان أمام بن علي إلا أن يحرص "المواطنين، كل المواطنين" بأن يتصدوا لمن ساهم منحرفين. إن ورود لفظة "كل" في الملفوظ جاء للتأكيد على أن جميع التونسيين بلا استثناء مطالبون بالتصدي للمحتجين، وكأن هؤلاء ليسوا مواطنين تونسيين. لقد أحاطت لفظة "كل" بالمواطنة غير مانحة إمكان وصف المحتجين بالمواطنين. وعكس بن علي، لم يجرّد مبارك المحتجين من صفة المواطنة، وإنما سماهم "شباب مصر" حين توجه بحديثه إليهم وهم معتمدون بميدان التحرير قائلا: "أتوجه بحديثي لشباب مصر بميدان التحرير". ومعلوم أنه لا يوجد بهذا الميدان سوى المحتجين المطالبين برحيله. وزاد مبارك فعبر عن اعتزازه بهم حين انتقل بعد الحديث الأبوي العاطفي، إلى تأكيده على معاقبة من سفك دماء المحتجين وبالغ في تعنيف المسالمين. فقد قال: "أؤكد أنني لن أنهار في معاقبة المتسببين بها بكل الشدة

¹ - نادر سراج، مصر الثورة وشعارات شبابها، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2014، ص210.

والحسم"، مُنزِلا السامعين منزلة المنكرين لحديثه، وذلك لشعوره أن المتظاهرين قد تعودوا عدم تنفيذ الوعود التي طالما وعدهم بها طيلة ثلاثين سنة من الحكم.

هذا الاختلاف بين بن علي ومبارك حول تثبيت الهوية الوطنية للمتظاهرين أو تجريدهم منها، لم يمنع من القول بوجود قواسم مشتركة بين خطابينهما، نذكر منها لجوءهما إلى أسلوب الاستعطاف لاستدراار عطف الجماهير والتأثير فيها. فحين ردد بن علي "فهمتكم"، لم يكن قصده الإخبار وإنما الاعتذار ورجاء الصفح، ومبارك هو أيضا بدا منكسر الخاطر، مثيرا للشفقة يرجو عطف أبنائه وبناته وهو ينجز فعلا تعبيريا من خلال قوله: "ويحز في نفسي ما ألاقيه اليوم من بعض بني وطني". هذا ناهيك عن ظهور كل واحد منهما بملح حزين، وصورة للوجه شاحبة، وبحة في الصوت، وميل إلى خفض في النبر.

2-6- النبر والتنغيم¹؛ تعضيد المعنى وإثارة السامعين

إتسم الأداء الصوتي في الخطاب الأول للرئيس بن علي أثناء أحداث الربيع العربي بالثبات، فلم تكن طبقة الصوت تعلو وتنخفض. فقد جاء الأداء على وتيرة واحدة، وهذا من شأنه أن يسبب مللا لنفوس السامعين، لكن في الخطاب الأخير شهدنا تنوعا في الأداء الصوتي، إذ تم استخدام طبقة المتوسط في الجمل الخبرية "هذا حرام واحنا اعطينا التعليمات.. ونعول على الجميع"، واستخدام طبقة القرار وهي مستوى منخفض للتعبير عن تضامنه مع الضحايا في "أسفي كبير أسفي كبير وكبير جدا". بعده صار الجnoch نحو الارتفاع لتأكيد مدى تأثيره "وعميق جدا عميق جدا، فكفى عنفا كفى عنفا". ووقع النبر في أكثر من موضع على المقطع داخل الملفوظ، وهو له علاقة بالدلالة التي يقصدها المتكلم. فمثلا حين يقع النبر على "كل" في الملفوظ: "والمواطنين كل المواطنين لا بد أن يقفوا أمامهم"، فلأن كلمة "كل" هي المراد، أي إن المتكلم يؤكد ضرورة تصدي كل مواطن للمحتجين ومنعهم من التقدم والتظاهر في الساحات. ولجأ بن علي في خطابه إلى استخدام النبر إلى جانب التكرار في "فهمتكم، نعم فهمتكم وفهمت الجميع"، ليقوي حظوظ استقبال الأذان بشكل أوضح الإشارة الناتجة عنذببات الوترين الصوتيين المتوترين، حتى إذا استقرت كلمة "فهمتكم" في أذن السامع، شرع

1- كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، 2000، ص533-540.

في تعيين من يعود عليهم ضمير الجمع "كم" عبر الملفوظ "البطال والمحتاج والسياسي واللي طالب مزيد من الحريات". هذه الصفات لم يخلُ النبر منها في دلالة على تفاعل الرئيس بن علي مع مختلف الشرائح الاجتماعية والاستجابة لمطالبها، التي يُعدّ "التخفيض في أسعار المواد والمرافق الأساسية" أحد مظاهر هذه الاستجابة. والمتكلم إذ يتلفظ بقوة بأنواع هذه المواد التي ستشهد أسعارها تخفيضا "السكر، الحليب، الخبز"، إنما ينتظر من الشريحة الاجتماعية العريضة حصول استجابة فورية وتفاعل إيجابي مع مبادرته.

تراوح الصوت في خطاب بن علي بين الانخفاض والارتفاع، مما خلق تنغيما - يسمى أيضا موسيقى الكلام - قطع مع الصوت الرتيب الذي يشعر معه السامع بالملل. ومع أن النبر كان يشتد فيرتفع الصوت، إلا أنه لم يبلغ المستوى العالي من الطبقة الصوتية التي هي منطقة الجواب، منطقة تم بلوغها في خطاب القذافي، إذ تلقت أفعال الأمر مثل "ردوا عليهم" و"استعدوا للدفاع" نبرا قويا أعلى من منطقة الجواب. وتلقت أيضا جمل خبرية نبرا شديدا بلغ الطبقة العالية جواب الجواب، مثل "هذا الشعب الذي ركع إيطاليا"، و"أنا وسط الجماهير، في طرابلس، في الساحة الخضراء"، و"الشعب المسلح"، و"تصبح ليبيا نار حمرًا". هذا الخطاب هيمن فيه استخدام نبر قوي بلغ طبقة جواب الجواب وذلك لبث الحماسة في نفوس المستمعين للدفاع عن الوطن "استعدوا للدفاع"، وللتذكير أيضا ببطولات الأجداد والتركيز على النصر الذي سيكون حليف الأحفاد "هذا الشعب الذي ركع إيطاليا". إيطاليا التي دحرها عمر المختار وأرغمها القذافي على تقديم الاعتذار والتعويض. والقذافي حين يذكر كلمة "الشعب" فهو يعني ذاته؛ أليس هو من أرغم الرئيس الإيطالي بيرلسكوني على تقبيل يده، في إحدى المشاهد الأكثر غرابة واستهتارا بالمراسم الخاصة باللقاءات الرسمية بين رؤساء الدول؟

لم يختزل القذافي الشعب الليبي في ذاته فقط، وإنما اختزل أيضا ليبيا تاريخا وجغرافيا حين أعلن في إحدى خطبه أن العالم إذا سئل عن ليبيا قال: (Lebanon. Libéria)، أي إن الأمر سيختلط عليهم، لكن - يقول القذافي - : "إذا قلت لهم: ليبيا القذافي"، فإن الالتباس سيزول لا محالة. في كل خطاباته، يقدم نفسه صانع التاريخ المعاصر لليبيا، ويعلن أنه ليس رئيسا ولا ملكا وإنما هو زعيم يستمد قوته من حب الشعب له. هذا الشعب الذي يراه القذافي

ذا قوة معنوية عالية لا تُقهر، هو من يملأ الساحة الخضراء ويهتف للزعيم ملوحا بالرايات الخضراء. وكان إذا تصاعد الهتاف بدا منفعلا ومتأثرا بموقف الجماهير، وانعكس ذلك على أدائه الصوتي، إذ يتغير معدل السرعة في الأداء ويعلو الصوت حتى يبلغ أعلى طبقة وهو يصيح: "وعند اللزوم ستُفتَح المخازن ليتسلح الشعب الليبي، كل القبائل الليبية... تصبح ليبيا نارَ حَمْرًا، تصبح جَمْرًا". وبعدما يُفرغ شحنة الغضب ويُصرّف انفعاله كلاما تحريضيًا، موجهًا عبره رسالة إلى الخصوم، تنتابه حالة من الهدوء فيتوقف عن الكلام، ثم يعاود مرة أخرى حديثه بصوت منخفض وقد خَفَّتْ الانفعال وذهب عنه الغضب "أنا أتيت إليكم لأحييكم وأحيي شجاعتكم". ولكي يُبقي على حماسة الجماهير وحتى لا يفتر تفاعله بعد لحظة التوقف عن الكلام، جعل صوته يتدرج من طبقة القرار إلى المتوسط، وقد تجلّى هذا التدرج في قوله: "وأقول لكم.. أنا وسط الشعب وسط الجماهير. معمر القذافي ما عُنْدُو أي صلاحيات دستورية ولا إدارية ولكن شعبه يحبه. يرى بأننا العزة، نحن العزة والكرامة والمجد والتاريخ والكفاح". يتدرج الصوت فيصل إلى أقصى درجاته مصحوبا بحركة انفعالية قوية حين يرفع عقيرته، مذكرا الجماهير الحاضرة بالساحة وعبرهم كل مناصريه بثورة الفاتح من شتنبر 1969، مشيدا بالشعب الذي صنع النصر "هذا الشعب الذي رَغَّع إيطاليا" و"الثورة التي ركعت إيطاليا" و"الثورة التي جعلت ليبيا في القمة" مع نبر أقوى على "القمة" ليرفع منسوب الاعتزاز بالوطن لدى السامعين فيهبوا للدفاع عنه.

2-7- التضام وإشراك السامع في بناء الخطاب

2-7-1- التضام الذي تقوم فيه العلاقة على التضاد

يكون التضام بين كلمتين تنتميان إلى حقل دلالي واحد وتحملان متقابلين متضادين. ويكون التضام في الأسماء والأفعال والصفات والظروف. يمثل التضام أحد المحاور الهامة في علاقات المصاحبة المعجمية للعنصر المقابل للكلمة التي ذُكرت. وهذه المصاحبة تخلق تماسكا للنص وتقرب المعنى المراد من منتج الخطاب إلى متلقيه. وقد تمثلت المصاحبة المعجمية في هذا الملفوظ "أفنيثُ عمري دفاعا عن أرضه وسيادته. شهدتُ حروبهَ بهزائمها وانتصاراتها. عشت أيام الانكسار والاحتلال وأيام العبور والنصر والتحرير"، بحيث إن

السامع يتوقع بعد ذكر كلمة "هزائم"، كلمة "انتصارات". وجاء ذكر لفظة انتصارات بعد هزائم لتظل صورة النصر وحدها ماثلة في ذهن السامع، وبالمقابل تكون صورة الهزيمة قد انمحت أو بدأ يخفت حضورها وأثرها. تخللت هذا الملفوظ كذلك مفردات متقابلة، مثل مقابلة الانكسار والنصر بالاحتلال والتحرير، أي مقابلة بين جملتين تحملان متضادين وهو ما يسمى أسلوب المقابلة في البلاغة العربية. بعد ذلك تتوالى سلسلة من الألفاظ تجعل المخاطب يتوقع مقابلا لها. نلمح هذا في الملفوظ "ستبقى حتى أسلم أمانتها ورايتها. هي الهدف والغاية، والمسؤولية والواجب. بداية العمر ومشواره ومنتهاه. وأرض المحيا والممات. ستظل بلدا عزيزا لا يفارقني أو أفارقه حتى يواريني ترابه وثراره"، إذ لا يكاد المتكلم ينتهي من ذكر لفظة "بداية" حتى تتبادر إلى ذهن السامع لفظة "نهاية"، التي تحمل المقومات الدلالية نفسها المتضمنة في "منتهى". وذكر لفظتي "بداية" و"منتهى" إشارة إلى أن المتكلم قد تشرب الوطنية منذ نعومة أظافره، ورضع من ثديها حليب الانتماء إلى مصر، وهو انتماء لن تشوبه شائبة إلى أن ينقضي العمر.

هي البداية والمنتهى، هي أرض المحيا والممات، يتابع المتكلم معربا عن سبب انتمائه إلى الوطن من خلال توظيف التضاد الذي يجعل المخاطب يتوقع الآتي من القول، وكأن المتكلم يدفع مخاطبه إلى المشاركة في إنتاج الخطاب، وبالتالي يشاركه أحاسيسه تجاه الوطن. هذا الوطن الذي لا يفارق المتكلم ولا يفارقه هو أيضا. إنهما متلازمان، وهو تلازم ورد في صيغة طباق السلب: لا يفارق / أفارق، عبّر عن خلاله مبارك عن مدى التحامه بالوطن، متوسلا بآلية التضاد التي ساهمت في التحام الخطاب وانسجامه، وساهمت أيضا في إشراك المخاطب من خلال دفعه إلى توقع الآتي من القول بعد ذكر كلمة تستدعي كلمة أو كلمات تشترك معها من حيث الانتماء إلى الحقل الدلالي الواحد.

2-7-2- التضام الذي تحكمه علاقة الكل بالجزء

يقول محمد الخطابي: "هناك علاقات أخرى إضافة إلى علاقة التعارض، مثل: الكل والجزء أو الجزء والكل، أو عناصر من نفس القسم العام: كرسي- طاولة، وهما عنصران

من قسم عام هو التجهيز"¹. يمكن القول إن هذا النوع من التضام ينهض على علاقة بين عنصرين: أحدهما خاص والآخر عام. وقد يكون الغرض من ذكر الخاص بعد العام إثارة الانتباه إلى هذا الخاص.

من بين الملفوظات التي ورد فيها هذا النمط من التضام، نذكر "سأعمل على دعم الديمقراطية وتفعيل التعددية، وسأعمل على صون الدستور" في إشارة إلى استجابة الحاكم لمطالب المحتجين، الذين نادوا بإصلاحات سياسية ودستورية وتوسيع مجالات الحرية ومحاسبة المفسدين إضافة إلى مطالب اجتماعية أخرى. جاء ذكر تفعيل التعددية مباشرة بعد ذكر الديمقراطية، وذلك لأن التعددية مقوم من مقومات الديمقراطية بل مرتكزها، إذ لا يمكن تصور تجربة ديمقراطية تستبعد مشاركة مختلف القوى والتيارات السياسية والانفتاح على مختلف الآراء. وإن كانت التعددية تمثل مرتكزا للديمقراطية، فإن الدستور هو الضامن لتفعيلها والمرجع الذي يُستند إليه عند كل ممارسة ديمقراطية. وصون الدستور سواء أكان الحكم ديمقراطيا أم غير ديمقراطي مهمة يتكفل بها النظام السياسي الحاكم، فهو - صون الدستور - إلى جانب تفعيل التعددية من مقومات الديمقراطية، وبهذا تتضح علاقة صون الدستور بتحقيق الديمقراطية والتي هي علاقة الجزء بالكل أو علاقة الخاص بالعام.

ومن مظاهر التضام التي وردت في خطاب بن علي، نذكر "اللجنة اللي أعلنت عليها منذ يومين للنظر في ظواهر الفساد والرشوة وأخطاء المسؤولين"، حيث ارتبط ذكر الرشوة بالفساد في علاقة بين العام والخاص. فالرشوة جزء من الفساد تم ذكرها للتنبيه على ضرورة محاربتها والحد من استفحالها. ولأن حصول الرشوة يستوجب وجود راش ومرتش، وفي محاولة لإبعاد التهمة عن الذات، فقد ألقى بن علي باللائمة على المسؤولين الذين اقترفوا أخطاء "أخطاء المسؤولين"، وهي أخطاء تمثلت كما قلنا في ارتكاب فعل الرشوة. والرشوة تعني الفساد وقد لا يعني الفساد الرشوة، فالفساد أعم. إذا عمّ اختل النظام وانهار، في حين أن الرشوة أخص، لكنها تنذر بحصول الانهيار.

¹ - محمد خطابي، لسانيات النص، "مدخل إلى انسجام الخطاب"، دار قباء، القاهرة، ص 25.

2-8- الترادف؛ تحقيق الانسجام وتثبيت المعنى

هو تطابق بين ألفاظ مختلفة تحمل مدلولاً مشتركاً. وقد لاحظنا ظاهرة الترادف في أكثر من موضع من خطابي مبارك وابن علي ولاحظنا اشتغالا مشتركاً على أكثر من حقل دلالي، لكننا سنقتصر على ذكر حقل الألم. في الخطاب الأول "إنني تألمت كل الألم من أجلهم مثلما تألمتم، وأوجع قلبي كما أوجع قلبكم"، وظف المتكلم لفظتي "تألمت" و "أوجع" اللتين تظهران ما يعتمل في نفس المتكلم من حرقه الوجع. وهو يروم من وراء ذلك إشعار المخاطب بما ينطوي عليه من حس إنساني نبيل. ويشعر ابن علي هو الآخر بالألم ذاته، لا بل هو أشد. فحزنه وألمه كبيران بسبب ما حدث "وتألمت لما حدث شديد الألم. حزني وألمي كبيران، وتألمنا لسقوط ضحايا وتضرر أشخاص". في هذا الملفوظ ترادف الحزن والألم فحقاً اتساقاً في الخطاب، وهذا الترادف يدل على تفاعل ابن علي مع الأحداث إلى درجة أنه قد أرقته المشاهد المروعة، مشاهد سقوط الضحايا، فكان بالتالي الحزن كبيراً والألم شديداً.

2-9- الاستبدال؛ اقتصاد في اللغة واتساق في الخطاب

يُقصد بالاستبدال إحلال اسم محل اسم تقدم عليه، أو فعل محل فعل، أو عنصر لغوي محل جملة أو أكثر داخل النص شريطة أن يتضمن العنصر المستبدل به محتوى الملفوظ المستبدل منه. والاستبدال يعمل على سبك النص وعلى اختصاره دون الإخلال بالمعنى، مما يجعل المتلقي يُقبل على النص دون شعور منه بالملل جراء تكرار الكلمات التي سبق ذكرها. في خطاب مبارك نلمح الاستبدال في مواضع كثيرة، منها "لقد بدأنا بالفعل حواراً وطنياً ببناء، يضم شباب مصر الذين قادوا الدعوة إلى التغيير..، ولقد أسفر هذا الحوار عن توافق مبدئي في الآراء.."، حيث جاء اسم الإشارة "هذا" بدلاً من "حواراً وطنياً ببناء"، محققاً ترابطاً نصياً واقتصاداً. ورغم أن الحوار حصل في الماضي "بدأنا"، فقد أشير إليه باسم الإشارة "هذا" الدال على القرب والحضور ليكون ماثلاً أمام الأعين. وحضر الاستبدال في خطاب ابن علي حين قال: "ولم أقبل يوماً، وَمَنْقُبْلَشْ باش تسيل قطرة دم واحدة من دماء التونسيين، تألمنا لسقوط ضحايا وتضرر أشخاص، وأنا نرفض أن يسقط المزيد....". فقد حل اسم "ضحايا"

بدلاً من "التونسيين" الذين سألت دماؤهم "دماء التونسيين"، ليعوّض البديل هو الآخر بكلمة "المزيد".

يبدو موقف الرئيس بن علي من خلال قوله: "أنا نرفض أن يسقط المزيد" مثيراً، إذ اكتفى بإبداء الرفض مثل أي مواطن رافض لسقوط ضحايا جدد. وبدلاً من أن يجهر بالقول معلناً أنه سيمنع رجال الأمن من مواجهة المحتجين بالرصاص، اكتفى بالشجب والرفض من خلال الملفوظ "أنا نرفض" التي تتشاكل مع عبارة وردت في موضوع آخر هي "فكفى عنفاً، كفى عنفاً"، وهو تشاكل في المعنى، إذ يشترك الملفوظان في أكثر من مقوم دلالي:

+ الدعوة إلى الهدوء؛

+ الحفاظ على الأرواح؛

+ الاحتجاجات تخلف الضحايا.

2-10- الإيجاز؛ تكثيف المعنى وقوة في الإنجاز

مقابل اعتماد الخطاب الرسمي على الإطناب من أجل الإقناع، اتسم خطاب المعارضة بالإيجاز مما رشحه إلى التداول بين المحتجين وأيضاً بين الكثير من الناس داخل الوطن وخارجه. فقد تضمنت بعض الشعارات كلمة واحدة، مثل "ارحل" مشكلة خطاباً. وهو خطاب يختزل كل مطالب الثوار ولا يضمّر معنى ثاوياً يستدعي تقديره. واتسم كثير من شعارات المعارضة بالإيجاز، شعارات حملت معاني ضمنية استدعت استدلالاً خطابياً للوصول إليها. من بين هذه الشعارات، نذكر "لو كان عفريت كان انصرف"، حيث يبدي منتج الشعار استغرابه من تمسك مبارك بالحكم رغم مطالبة الملايين من الشعب برحيله. وتضمنت بعض اللافتات رموزاً سيميائية وأشكالاً تعبيرية موجزة قارعت بها حجج الخطاب الرسمي. وهذا لا يعني عدم وجود خطاب مضاد للسلطة الحاكمة يتسم بالطول. ففي اليمن مثلاً أوجز المحتجون حين صرخوا في وجه علي عبد الله صالح ونظامه قائلين: "ارحلوا بكل فسادكم"، كما أطنبوا حين اعتلوا منبر الخطابة في ميدان التغيير بالعاصمة صنعاء. وبهذا فإن توظيف آلية الإطناب أو الإيجاز مرتبط بمقتضيات السياق وطبيعة مقام منتج الخطاب، إذ إن الإطناب

قد يكون أبلغ في مقام ما، كما قد يكون غير مقبول في مقام آخر، وكذلك الأمر مع الخاصية البلاغية الإيجاز. وإن كنا نشهد حضوراً للإطناب في خطاب المحتجين، فإنه يظل باهتاً عكس الإيجاز الذي يبقى مهيمناً في خطابهم الذي يُصَرَّف شعاراتٍ ولافتات ورسوماً على الجدران وغيرها من الأشكال التعبيرية. ولأن الإيجاز قد يتحقق باللجوء إلى الحذف، مثل التصريح بالحجج مع إضمار النتيجة أو إظهار النتيجة مع إضمار الحجة، فإن المتكلم يعتمد أحياناً إلى نهج هذا الأسلوب بقصد. وحول إظهار النتيجة وإضمار الحجة، نورد قول مبارك: "الأخطاء واردة في أي نظام سياسي وفي أي دولة"، حيث صرح بالنتيجة ولم يصرح بالحجة التي هي "لا توجد أنظمة سياسية أو دول معصومة من الأخطاء"، وهي حجة يتم الاتكاء عليها لتسويق تصرفات خاطئة تجاه الشعوب.

عندما يلجأ منتج النص إلى الإيجاز، فإنه يراهن على فهم المتلقي الذي يأخذ بالاعتبار سياق النص الداخلي والظروف المحيطة به. اخترنا نماذج من خطاب مكتوب بدلاً من المرتجل لاعتبارات منها أن الخطاب الأول يكون فيه استثمار الحذف مقصوداً، في حين ينتفي القصد في الثاني. وانتفاء القصد لا يعني تعذر وروده، فقد لمحنا حضوراً للحذف في خطابي القذافي وبن علي المرتجلين.

جاء في خطاب مبارك "لقد طرحت رؤية محددة للخروج من الأزمة". بعدما طرح رؤيته، استهل مقطعاً بعبارة "طرحت هذه الرؤية" وقد حذف لفظة "محددة" التي لم تفارق سمع المخاطب بعد، وذلك لكونها حديثة الالتصاق بأذنه. ويضيف "لقد بدأنا بالفعل حواراً وطنياً بناءً يضم شباب مصر الذين قادوا الدعوة إلى التغيير، وكافة القوى السياسية"؛ حيث حذف الجملة الفعلية "يضم"، التي موقعها صدارة الجملة الثانية التي ورد فيها اسم "كافة" معطوفاً على شباب. والأصل هو "لقد بدأنا بالفعل حواراً وطنياً بناءً يضم شباب مصر الذين قادوا الدعوة إلى التغيير، ويضم كافة القوى السياسية". وكون الجملة الفعلية "يضم" أصابها الحذف، انتفى الحديث عن إسناد الفعل إلى الفاعل وتعديه إلى المفعول "كافة"، وانصب الاهتمام حول العلاقة بين المعطوف عليه والمعطوف، التي اكتسب فيها العنصر الأول أفضلية كونه المستهدف الرئيس من الحوار، وهذا ما جعل "كافة القوى السياسية" تكون معطوفة على شباب مصر.

2-11- الإطناب وبناء النموذج

من بين الآليات الأكثر استخداما في الخطاب السياسي نجد الإطناب، إذ يحتاج الخطيب إلى التكرار والتفصيل وإغناء الفكرة وتعزيدها بشواهد لإقناع المخاطب وتثبيت الفكرة المراد إيصالها في ذهنه. فلكي يثبت بشار أن ما تشهده سوريا من مظاهرات هو نتيجة مؤامرة من الخارج، انخرط في الحديث عن المواقف السورية تجاه ما يحدث في العالم العربي، وأن سوريا تؤدي فاتورة موقفها من الاحتلال الإسرائيلي ومساندتها للقضايا العربية العادلة ورفض خضوعها للإملاءات الأمريكية، إضافة إلى أن نجاح سوريا واستقرارها والتحام الشعب مع القيادة البعثية قد أفلق أعداء سوريا، مما دفعهم إلى خلق التشويش والتآمر على السوريين. فقد أشار بشار في بداية خطابه إلى المؤامرة حين ذكر أن العدو "يعمل كل يوم وبشكل منظم وعلمي من أجل ضرب استقرار سوريا". وكرر لفظة مؤامرة مرات عديدة، فقد وصف الذين قاموا بالتغريب بغالبية المتظاهرين "بالقلة المتآمرة"، مشددا على أن "ليس كل ما يحصل مؤامرة" و "أن كل من خرج متآمر"، معتبرا "هذا الكلام غير صحيح"، مصنفا المتظاهرين فئتين: فئة متآمرة مع الأجانب تسعى إلى الفتنة، وأخرى مغرر بها وهي الغالبية.

عمد بن علي هو الآخر إلى الإطناب عند تشييده لصورة إيجابية للذات - النموذج حسب بيرلمان -. فقد سرد بالتفصيل المدة التي قضاها في خدمة الوطن، حيث بذل "أكثر من خمسين سنة" من عمره في خدمة تونس في مختلف المواقع؛ من الجيش الوطني إلى المسؤوليات المختلفة، منها "ثلاث وعشرون سنة على رأس الدولة"، وأن كل يوم في حياته في "خدمة البلاد"، وأنه لا يحب أن يذكر تضحياته لأن الجميع يعرفها. وبن علي من خلال هذا السرد، يعمق فكرة في ذهن السامع كونه قدم خدمات للوطن مما يسهل التأثير فيه وإقناعه. حشد مبارك هو الآخر مجموعة من الصفات الإيجابية حول ذاته في خطوة إلى انتزاع تقدير له من السامعين، إضافة إلى أن تثمين الذات أريد به أيضا الرد على الخصوم الذين أوغلوا في تبخيسه حين جردوه من كل صفة حميدة، مُشَبِّهِيَه بالزعيم النازي هتلر لما استعاروا له منه شكلَ شَنِيَه وتسريحة شعره. هذه الصورة هي حجة ظاهرة لنتيجة مضمرة متمثلة في "مبارك مستبد"، ولقد ازدادوا إيغالا في التبخيس حين رفعوا شعارا مزجوا فيه بين الجد والسخرية

"رئيس الجمهورية لقد نفذ رصيدكم"، مختزلين تجربته السياسية وممارسته للحكم في بطاقة تعبئة، مجرد بطاقة انتهت صلاحيتها. وإن كانت كلمة "صلاحية" تحمل على القول إن "رئيس الجمهورية" المخاطب كان في الماضي ينجز عملا صالحا، فإن منجز هذا الشعار لم يكن يقصد سوى إذلال مخاطبه، وهو يُفرغ تاريخا امتزجت فيه السياسة بالسلطة في سلة الإهمال. رغم احتداد معاول الهدم لصورة الرئيس، فإن هذا الأخير أبى إلا أن يواصل مسيرة البناء، بناء النموذج وتلميع صورته. وقد تجلّى هذا واضحا في الملفوظ الآتي: "لم أخضع يوما لضغوط أجنبية أو إملاءات. حافظت على السلام. عملت من أجل أمن مصر واستقرارها"، حيث صرح بحجج تمثل مقدمات تخدم نتيجة أو نتائج مضمرة، هي إخلاص مبارك للوطن وحسن تدبيره السياسي، وهي فكرة سعى إلى إثباتها طوال خطابه أو على الأقل تذكير الشعب المصري بها لكسب تعاطفهم.

2-12- الاحتجاج بأخلاق المتكلم ومشاعر المخاطب

إلى جانب استثمار الآليات اللغوية في الحجاج، حضر الاستدلال الخطابي من خلال الاحتجاج بأخلاق الخطيب، إذ عرض مبارك صورة عن نفسه وسعى إلى تثبيتها في أذهان مخاطبيه؛ فهو الأب الحاني على أولاده حين يخاطبهم "جميعا بحديث من القلب، حديث الأب لأبنائه وبناته"، وحين تتحرك مشاعر الأبوة فيتألم ويتوجع لما حدث لهم ويترجم اللسان المعاناة "إنني تألمت كل الألم من أجلكم". وسعى كذلك إلى الظهور بمظهر رجل التضحيات حين أعلن أنه أجزل في العطاء للوطن طيلة ستين عاما، وبمظهر الوفي للوطن وللشعب معلنا استجابته لمطالب المتظاهرين "وإنني عازم كل العزم على الوفاء بما تعهدت به بكل الجدية والصدق". هذا إلى جانب إبدائه للحزم حين تعلق الأمر بمحاسبة "الذين أجرموا في حق شباب مصر"، إذ أعلن أنه لن يتهاون "في معاقبة المتسببين بها (الدماء) بكل الشدة والحسم". كل هذه الصور سعى مبارك إلى تثبيتها في ذهن الجماهير لتمتين العلاقة وضمان مشاركة عاطفية، إذ النفوس تستهويها صور الحنان والوفاء والحزم، فتدعن وتستجيب لدعوة المتكلم. لم يكتف مبارك بالاحتجاج بالأخلاق، وإنما سعى إلى إثارة انفعالات الشعب المصري من خلال إبداء اعتزازه به "إنني أعتز بكم رمزا لجيل مصري جديد يدعو إلى التغيير إلى الأفضل

ويتمسك به ويحلم بالمستقبل ويصنعه". بعد إثارة الإحساس بالعظمة، يلجأ إلى إثارة شفقة الشعب المصري في تبادل للأدوار عجيب؛ فبعدما قدم نفسه في صورة الأب الحاني يشارك أبناءه الألم، وبعدما بدا حازما في مواقف الانتصار لمن أهدر دمه، رغم ما تخللها من هفوات حين نسب الشهداء والجرحى إلى المتظاهرين بقوله: "دماء شهدائكم وجرحاكم" بدلا من شهدائنا وجرحانا أو شهداء مصر وجرحى مصر، بعد كل هذا نجد مباركا يستجدي عطف من عطف عليهم حين قال: "ويحز في نفسي ما ألاقه اليوم من بعض بني وطني". وعلى المنوال نفسه نسج بن علي خيوط صورة ألبسها خطابه، بدا من خلالها مثيرا للشفقة، متذلا في خطابه منكسرا في مشهد لم يَجُلْ من قبل في خاطره حتى، نظرا لما كان يرقل فيه من نعيم وما كان يملكه من نفوذ وجاه وسلطة. فهو حين قدم عرضا بدا له مغريا للمحتجين، عرضا متعلقا بجملته من الإصلاحات، كان يعلم حجم الاحتقان وسقف مطالب مناوئيه ومدى قوتهم. وكان طبيعيا أن يجنح نحو العاطفة متوسلا بها إلى مخاطبه "ليعطف عليه عطفه الماجد ويحنو عليه حنو الوالد"، لأنه أحس أنه أمسى من الذين "قد شملهم الفرار، ونبا بهم القرار، وغوّضوا البؤس من النعيم، وأدبلوا بالحزن من السرور المقيم"¹.

2-13- حجة السلطة

تنوع الاستدلال في الخطابات السياسية وشمل حججا مؤسسة على بنية الواقع - وفق بيرلمان وتيتيكا -، نذكر منها حجة السلطة وهي حجة تستند إلى سلطة دينية أو سياسية، وقد تكون مبادئ، وذكرنا لأسماء أشخاص مشهورين ومعتزفا بهم من قبل الجمهور المتلقي للخطاب، كما قد تكون هذه الحجة مكانا لما أصبح يتمتع به الفضاء من سلطة. وقد سبق أن تحدثنا عن سلطة ميدان التحرير ورمزيته وحمولته الدلالية والثقافية، إذ أضحي يختزن نضالات الربيع العربي بمصر ومسرحا للتكاتف والصمود وحصنا يأوي إليه الناس للتعبير عن رفضهم للسلطة السياسية.

¹ - أبو الحسن علي الشنتري بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص160.

لقد تم توظيف حجة السلطة في خطاب القذافي وهو يشدّ عزيمة الجمهور الحاضر في الساحة الخضراء، حين ذكر شخصية ارتبط ذكرها بالمقاومة والدفاع عن أرض ليبيا. فقد شكلت شخصية عمر المختار رمزا للثوار وللأحرار ليس في ليبيا فقط، وإنما في بلدان كثيرة يخوض فيها الثوار معارك للتحرير. استثمر القذافي الرصيد الجهادي لعمر المختار وإجماع الجمهور على تقديره لإقناع الحاضرين بالدفاع عن أرض الأجداد والوفاء للشهداء، الذين ضحوا من أجل الوطن وعلى رأسهم عمر المختار الذي حشد حوله القذافي مجموعة من الصفات الإيجابية، منها شيخ الشهداء، وبطل الغابة، وقائد المقاومة. والقذافي وهو يستحضر عمر المختار، يعلن نفسه ابنا لهذا البطل في إشارة إلى تبنيه النهج نفسه الذي سلكه سلفه.

2-14- استخدام حجة الوقائع للمغالطة

حاول مبارك أن يبني حججا انطلاقا من الواقع مستعرضا وقائع لا يملك السامع إلا التسليم بها، وبالتالي الإذعان للفكرة التي يحاول المتكلم إقناعه بها، يقول مبارك: "أسعد أيام حياتي يوم رفعت علم مصر فوق سيناء، واجهت الموت مرات عديدة، طيارا وفي أديس أبابا وغير ذلك كثير". لقد واجه مبارك الموت مرات عديدة في مصر وأديس أبابا، وأسر مع مجموعة من الضباط في حرب الرمال بالمغرب سنة 1963 يوم تحالفت مصر مع الجزائر، وحارب المحتل الإسرائيلي في 1973، كل هذه الأحداث وقعت ولا يمكن للمخاطب إلا التسليم بها، لكن هل فعلا رفع علم مصر فوق سيناء؟

سبق أن ذكرنا في هذا البحث أن مباركا قد خرق قاعدة من مبدأ التعاون وهي قاعدة الكيف التي تُعرّف أيضا بقانون الصدق حين ادعى رفع العلم، إذ يجمع العالم على أن الجندي محمد عبد السلام العباسي هو الذي تسلم شهادة تقدير من وزارة الحربية، تقرر له فيها أنه أول من رفع علم جمهورية مصر على الضفة الشرقية لقناة السويس في حرب أكتوبر يوم 10 رمضان 1394هـ الموافق ل 6 أكتوبر 1973 م. ويُجمع العالم أيضا على أن اللواء باقي زكي يوسف هو صاحب فكرة عبور خط بارليف الذي أقامه الاحتلال الإسرائيلي على طول قناة السويس بعد هزيمة الجيش المصري في 1967. وتجاوز هذا الخط يضعك في شبه جزيرة سيناء المحتلة وهو ما قام به العباسي صحبة فريق المشاة، لكن رجال القوات الجوية

الذين هم تحت قيادة حسني مبارك عبروا القناة جوا وليس بحرا، وقاموا بدك حصون الجيش الإسرائيلي في أعماق سيناء وبالذات مركز الاتصالات في أُم حَشَب. وبهذا يتبين أن مباركاً أدار المعارك الجوية من غرفة العمليات ولم يديرها برا ولا بحرا، وأن بطل العبور هو الفريق سعد الدين الشاذلي. هذا الرجل هو رئيس سابق لأركان حرب القوات المسلحة المصرية سيُظلم مرتين: مرة حين جرده الرئيس السادات من مهامه العسكرية مباشرة بعد عودته منتصرا وصانع نصر في حرب أكتوبر 1973، ومرة حين كذب عليه الرئيس مبارك يوم رحيله، إذ رحل الشاذلي عن حياة الدنيا يوم 2011-2-10 وهو اليوم نفسه الذي خطب فيه مبارك خطابه الأخير قبل أن يرحل هو الآخر عن الحياة السياسية.

رحل الشاذلي ورحل مبارك، لكن الكذب ظل ثابتا مستقرا محتلا لحيز مكاني في الخطاب، شاهدا على مغالطة قصد منها صاحبها تقوية حججه المؤسسة على بنية الواقع، وحشد المزيد من الصفات الإيجابية حول ذاته لبناء النموذج، محاولا تأسيس واقع جديد انطلاقا من حجج مؤسسة لبنية الواقع، بعدما اتكأ على حجج مستمدة من الواقع وأخرى مغالطة.

2-15- من نموذج الذات إلى نموذج خارج الذات وعكس النموذج

رغم حالة الانكسار التي طبعت خطابي بن علي ومبارك، فإنهما سعيا إلى تثمين ذاتيهما، وقد سعى القذافي سعيهما في تشييد نموذج الذات، إذ أحاط كل واحد منهم ذاته بصفات إيجابية وسعى إلى إلصاق كل الإنجازات التي شهدتها فترة حكمه إلى ذاته لا سواها. إضافة إلى بناء النموذج المتعلق بذات الحاكم تم تشييد نموذج خارج الذات، إذ حضر اسم عمر المختار في خطاب القذافي نظرا لما تتمتع به هذه الشخصية من مكانة في وجدان الشعب الليبي، وهيبة فرضت احترامها على الجميع مما أهلها أن تكون قدوة تستوجب الاحتذاء بها، وبالتالي رفض كل النماذج التي يبينها الغرب وخصوم ليبيا، أي رفض عكس النموذج. وقد تجسدت صورة عكس النموذج في الملفوظ "الثورة التي ركعت إيطاليا وجعلتها تقبل يد ابن عمر المختار". فقد قدم القذافي إيطاليا المتحالفة مع أمريكا ودول غربية أخرى ضد ليبيا في صورة المهزوم المسلوب كرامته، وهذا من شأنه تنفير المخاطب من هذه الصورة والتمسك بالمقابل بالنموذج الذي ينشد النصر ويحفظ الكرامة. لم يسلم الإعلام العربي الذي اعتبره القذافي مناوئا له من

الانتقاد الحاد، فقد وصفه بالكذب ونعت العاملين به بالعملاء وبالكذابين وأمعن في الإيذاء، فنعته بـ"الأذلاء الأخساء". وهو من خلال وصم الإعلام بالكذب، فإنه يجرده من المصداقية ويدفع أنصاره ومستمعيه إلى عدم اعتماد الأخبار التي يبثها هذا الإعلام لكونها مغرضة وغير صادقة. وبهذا يقدم القذافي الإعلام العربي في صورة عكس النموذج الذي لا يستحق أن يحتذى به.

2-16- سفسطة الأكثرية - سفسطة الجماهير

في الخطاب السياسي الذي يتوجه من خلاله المتكلم إلى الحشود مباشرة، تحضر غالبا حجة من حجج المغالطة تسمى سفسطة الجماهير أو سفسطة الأكثرية. وقد احتج بها مبارك حين ادعى أن مواقفه السياسية منسجمة مع ما تعتقده وتتبناه الأغلبية. فبعد انتهائه من بناء نموذج الذات، يدرج فعلا من أفعال التعبيرات متضمنا في قوله: "أثق أن الأغلبية الكاسحة من أبناء الشعب يعرفون من هو حسني مبارك". هذا القول يشير إلى أن هذه الأغلبية قد خبرت رئيسها طيلة حكمه كما خبرته من قبل أن يتقلد الرئاسة، فوجدت فيه الإنسان المسؤول المتفاني في خدمة المواطنين، واستحسن دفاعه عن الوطن، وباركت له تدبيره السياسي ومبادراته نحو السلام، وأجلت فيه حفاظه على استقرار مصر وسيادتها. كل هذه الأعمال تجد لها قبولا لدى السواد الأعظم من المواطنين مما يعزز الثقة بين مدعيها وسامعيه. ويتضح هذا النمط من الحجج أكثر في الملفوظين الآتيين:

أ- "لقد طرحت رؤية محددة للخروج من الأزمة الراهنة ولتحقيق ما دعا إليه الشباب والمواطنون، بما يحترم الشرعية الدستورية وعلى نحو يحقق استقرار مجتمعنا ومطالب أبنائه، ويطرح في ذات الوقت إطارا متفقا عليه للانتقال السلمي للسلطة من خلال حوار مسؤول بين كافة قوى المجتمع"؛

ب- "لقد بدأنا بالفعل حوارا وطنيا بناء يضم شباب مصر.. وكافة القوى السياسية، ولقد أسفر هذا الحوار عن توافق مبدئي في الآراء والمواقف يضع أقدامنا على بداية الطريق الصحيح للخروج من الأزمة".

تصدّر الملفوظين لام التوكيد مُعَصِّدَة بحرف التحقيق قد لإكساب القول قوة في الصدق وحمل المخاطب على التسليم بمضمونه، وهو ما سعى إليه مبارك حين ادعى أن ثمة اتفاقا مشتركا بينه وبين شباب وقوى سياسية. هذا الاتفاق يؤشر على حصول انسجام في المواقف وهو يشكل منطلقا للخروج من الأزمة التي تشهدها البلاد. نسوق مثالا آخر عن سفسطة الجماهير أنجزها القذافي حين أعلن أن الشعب الليبي يحبه وأن هذا الحب هو الذي يمنحه مسوغ استحقاقه للحياة، وحب الشعب له يقتضي استحسانا ورضا كاملين على أفعاله ومواقفه السياسية التي ينبغي أن تعبر عن إرادة الجماهير الشعبية. يقول القذافي: "إذا كان شعبي ما يحبني ما نستحقش الحياة"، ثم يدلل في موضع آخر على انسجام مواقفه مع ما يعتقد الشعب ويستحسنه بقوله إنه وشعبه يمثلان العزة والكرامة والمجد والتاريخ والكفاح "معمر القذافي ليس برئيس ولا ملك ولا رئيس حكومة... ولكن الشعب يحبه، يرى بأننا العزة والكرامة والمجد...".

3- المكان باعتباره عنصرا سياقيا وحجاجيا

3-1- سياقية المكان

لا يكتمل الحديث عن سياق الخطاب إلا بالحديث عن المرجعيات الإحالية المبنية على شروط التلفظ وهوية المتكلم وهوية المخاطب وزمان التلفظ ومكانه... وقد اهتمت نظرية التلفظ التي هي في صلب التداولية بالمكان من خلال موضوع المعيّنات والتي تعرف أيضا بالإشارات. فالمكان هو الفضاء الذي يشهد حدث التلفظ بالخطاب، بحيث تتم فيه العملية التواصلية وتتأثر بتغير معالم المكان. إلى جانب ما ذكرنا، يبرز هذا المكان باعتباره عنصرا مساهما في بناء المعنى، لذا أضحى عنصرا دالا إلى جانب عنصر الزمان - زمان التلفظ -، بحيث لا يمكن أن يُستغنى عنهما في أي مقارنة تروم دراسة الخطاب دراسة تداولية. وكما تتعدد خصائص المكان، إذ يُتحدث عن الفضاء المحايد وفضاء الألفة والفضاء المعادي، تتعدد وظائفه أيضا، إذ يطّلع المكان بوظيفة جمالية ووظيفة بلاغية ووظيفة حجاجية إقناعية، وقد يطّلع المكان بهذه الوظائف مجتمعة، وهذا ما جعل الخطباء السياسيين يتخيرون فضاءات بعينها، وبهذا أضحى الاهتمام بالفضاء جزءا من الاهتمام بالخطاب.

3-2- حاجية المكان

لم يعد المكان يشكل مع الزمن مجرد إحدائيات لحدث ما، ولا مستودع ذكريات للإنسان يحن إليه حين يبتعد عنه، ولا ملاذا يأوي إليه عندما يشعر بانعدام الأمن، وإنما أضحى فضاء بلاغيا يحوي أنشطة تواصلية ورمزا يُكسب الممارسات والأنشطة الثقافية والسياسية مصداقية وفاعلية مؤثرة. ينهض المكان إذن بفعل التأثير مستثمرا رصيده النضالي مثلما يستثمر الإنسان رصيده النضالي. ويتحصل المكان على هذا الرصيد عبر مجموعة من المحطات التي شهدت حراكا اجتماعيا أو سياسيا أو حدثا تاريخيا، وشهدت اعتصامات وملتقيات تضامنا مع قضايا عادلة داخل الوطن أو خارجه. هذا الرصيد الذي راكمه جراء تضحيات المتظاهرين والمعتصمين بحيزه، يظل شاهدا حيا على كل الوقائع وتظل ذاكرة المكان تحتفظ بالتفاصيل وترويها كلما كان هناك موعد مع التاريخ.

لم يعد إذن فعل التأثير والإقناع في الجماهير ناتجا عن القوة الحجاجية للملفوظ فقط، ولكن هو ناتج أيضا عن قوى حجاجية لعناصر أخرى، منها المكان الذي أضحى يتمتع بسلطة ويؤثر في مسار الأحداث. وقد أحاطت دراسات متعددة الشارع العام باعتباره فضاء عاما بالاهتمام، حين أشارت إلى امتلاكه سلطة يُستند إليها لدعم المواقف. فإصرار المعتصمين على عدم مغادرة ميدان التحرير حتى تحقيق مطالبهم وإرغامهم جنرالات الجيش المصري على التفاوض بالميدان بعد رفض إجراءاته في أي مكان آخر له طابع مؤسسي رسمي أو غير رسمي، يُظهر القوة والمصداقية والرمزية التي يتمتع بها ميدان التحرير الذي أصبح عنصرا مؤثرا وموجّها للأحداث. لم تقتصر وظيفة المكان - ميدان التحرير - على الجانب الحجاجي من خلال فعل التأثير الذي تمارسه سلطة المكان، ولكن له وظيفة جمالية تُستثمر هي الأخرى في الجانب التأثيري. فمن تأثيث الفضاء بصور لأيقونات الثورة والنضال وتلويع بأعلام ولافتات محملة برسائل تجسد مطالب المحتجين ورسوم على الجدران، إلى تراص للصفوف وانتظام في حلقات وغير هذا من مظاهر الجمال، أضحى المكان مسرحا للإبداع. لقد ألهم ميدان التحرير فنانيين وأدباء وشعراء فأبدعوا وصارت أعمالهم ذات صلة متينة بالمكان، مثلما حدث مع الشاعر المصري أمل دنقل الذي نظم قصيدة "الكعكة الحجرية" سنة 1972

حين رأى المتظاهرين متجمعين حول نصب تذكاري - رآه دنقل كعكة حجرية - في ميدان التحرير قبل تفريقهم من رجال الأمن. هذه القصيدة تُدوِّلت في الميدان زمن الربيع العربي بعد مرور تسعة وثلاثين (39) عاما على نظمها، مما يعني أن للمكان ذاكرة. يقول دنقل وهو يصف المعتصمين الذين يبيتون في العراء مفترشين أرض الميدان متشبثين به رغم أن الجو قارس والجند قساة:

"دقت الساعة الخامسة

ظهر الجندُ دائرة من دروع وخوذات حرب

ها هم الآن يقتربون رويدا.. رويدا

يجيئون من كل صوب

والمغنون في الكعكة الحجرية ينقبضون

وينفرون

كنبضة قلب.

يشعلون الحناجر

يستدفئون من البرد والظلمة القارسة

يرفعون الأناشيد في أوجه الحرس المقترَب

يشبكون أيديهم الغضة البائسة

لتصير سياجا يصد الرصاصَ

الرصاص....

الرصاص....

وآه

يغنون "نحن فداؤك يا مصر"

نحن فداؤ...

وتسقط حنجرة مُخَرَّسَة

معها يسقط اسمك يا مصر في الأرض

لا يتبقى سوى الجسد المتهشم والصرخات"¹.

أمام سلطة المكان، سلطة الشارع العام وما أصبح يتمتع به من قوة أهّلتة إلى إنجاز فعل التأثير والإقناع، أضحي لزاما أن يمتلك خطاب السلطة فضاء يدعمه ويحميه ويحضنه وينظر به فضاء المعارضة الذي يمثل فضاء معاديا لمنجز خطاب السلطة. فميدان التحرير مثلا هو فضاء معاد لمبارك، في حين يمثل مقر رئاسة الجمهورية بمصر الجديدة فضاء الألفة بالنسبة إليه². هذا الفضاء الأخير هو الذي خاطب منه مبارك المصريين، وقد تم تأنيثه بالعلم الوطني وشعار يحمل صورة نسر. إضافة إلى العلم والشعار، تم تلوين الإطار الخلفي باللون الأزرق مع انتشار ضوء خفيف على صورة المكان التي تمت إذاعتها عبر التلفاز، مما أضفى على المشهد المتلفز مسحة من الحزن في تناغم مع مقصدية المتكلم، الذي أراد أن يكون خطابه حديثا من القلب الذي تألم و"أوجعه ما حدث للضحايا الأبرياء".

من خلال ما سبق، نخلص إلى أن المكان ليس حيزا محايدا، وإنما هو جزء من المعنى يساهم إلى جانب عناصر أخرى في تشييد دلالة الخطاب وإنجاز فعل التأثير والإقناع، وهذا ما جعل المكان العام مجال صراع. فبعدما كان خاضعا لسيطرة النظام السياسي الحاكم، أصبح المحتجون هم من يمتلكونه فترة من الزمن في بعض البلدان العربية التي شهدت أحداث الربيع العربي وما بعد الربيع، وذلك عندما احتلت جماهير من الشعب السوداني معارضة للرئيس عمر البشير ساحات وميادين في الخرطوم وخارجه. وما كان لهذه الحركات الاحتجاجية أن

1- الأعمال الكاملة، أمل دنقل، سفر الخروج؛ الإصحاح السادس - أغنية الكعكة الحجرية -، دار الشروق الأولى، القاهرة، ط2، 2012، ص 271.

2- كاستون باشلار، جمالية المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط2، 1984، ص43-46.

تظفر بهذه الأماكن العامة وتقوم باستثمارها وتوظيفها في صراعها ضد الأنظمة السياسية المناوئة لها لولا استفادتها "من مناخ الانفتاح التدريجي على الحقوق والحريات، ومن الأثر السياسي للتحويلات الدولية في الأنظمة السياسية"¹، وكذلك من حالة الاحتقان الذي تشهده دول الربيع العربي وتتبع الرأي العام الدولي لمجريات الأحداث في البلدان التي تشهد الحراك.

¹- عبد الرحيم السليمي، المسار والمآل، فصل؛ الحركات الاحتجاجية والصراع حول الفضاءات العامة، مجموعة من الكتاب، الحركات الاحتجاجية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2014، ص 44.

المبحث السابع: المناسبة

شكلت إسهامات بول كرايس في مجال التداولية اللسانية منطلقاً للبحث في جوانب مهمة متعلقة بالتواصل والتأويل والسياق والقصد. فقد مهدت نظرية مبدأ التعاون لظهور نظريات، مثل مبدأ التأدب ومبدأ التواجه ومبدأ التصديق، كما مهدت نظرية الاستلزام التخاطبي وقاعدة المناسبة المتفرعة عن مبدأ التعاون لظهور نظرية تداولية معرفية هي نظرية المناسبة. هذه النظرية استفادت هي الأخرى من نظرية القالبية التي تندرج ضمن علم النفس المعرفي. وتتمركز نظرية المناسبة حول مفهوم الجهد والنتيجة، ذلك أن المتلقي يسعى إلى تحقيق فوائد متمثلة في إدراك مقاصد المتكلم بعد سلسلة من الجهود التأويلية، التي تحتكم إلى السياق الذي له تصور خاص عند صاحبي النظرية سبربر وويلسن. فالسياق وفهما لا يعطى دفعة واحدة، وإنما يتولد مع تنامي الخطاب، وهو يشمل المحيط الفيزيائي الذي يجري فيه الخطاب، والقدرات المعرفية للمخاطب في الفهم والاستيعاب والاستدلال، والمعلومات المخزنة في ذاكرته، إضافة إلى الافتراضات السابقة المستنبطة من كل عملية استدلالية. وهذا يعني أن تأويل الملفوظات السابقة للملفوظ المعالج هو جزء من السياق. وتؤول عملية الاستدلال إلى المتلقي الذي ينطلق من المنه الذي يكون لغوياً وغير لغوي، وذلك حسب طبيعة التواصل. أثناء العملية التخاطبية يراعي المتكلم طبيعة مخاطبه ومدى قدراته المعرفية وظروف محيطه - البيئة المادية - التي تتحكم إلى جانب القدرات المعرفية في البيئة المعرفية للشخص، فيتخير من القول ما لا يكلف متلقيه جهداً كبيراً لإدراك قصده، وذلك حتى يضمن حصول تواصل مناسب.

وإذا كنا قد قمنا بتطبيق مفاهيم تداولية على ملفوظات من الخطابات المختارة، فإننا ملزمون في المنهج التداولي المعرفي بتأويل الخطاب كله دون الاقتصار على تأويل بعض ملفوظاته. وذلك لأنه يمكن أن ينشأ عن الملفوظ افتراضات جديدة قد تقوي الافتراضات السابقة وقد تلغيها، وهكذا دواليك كلما تقدم بنا الخطاب، وبهذا تصبح الافتراضات السابقة جزءاً من السياق. وبالتالي فإن إدراك قصد المتكلم، وتقييم التواصل كونه مناسباً أو غير مناسب من خلال جهود تأويلية قليلة أو كثيرة، يتوقفان على معالجة الخطاب برمته مع الإشارة إلى أن

ليس كل ملفوظ يحتوي بالضرورة على افتراضات. سننطلق في تأويل الملفوظات من البحث في القصد الإخباري من خلال تحديد الدلالة اللغوية للملفوظ. ونواصل تأويله بواسطة آليات استنباطية تتخذ الدلالة اللغوية وعددا من المعطيات اللغوية وغير اللغوية مقدمات لذلك، مع التأكيد على أن تأويل الخطاب ليس محصل تأويلات ملفوظاته.

استهل الرئيس التونسي قيس سعيد خطابه بإعلانه تخصيص حديثه عن تصحيح مساري الثورة والتاريخ قائلا: "أثرت أن أتوجه إليكم للحديث إليكم عن المستقبل، بل عن تصحيح مسار الثورة وتصحيح مسار التاريخ" دون تعيين للثورة. وهذا من شأنه دفع السامع إلى بذل جهد لإدراك القصد الإخباري، الذي لم تسهم الدلالة المعجمية للملفوظ المتضمن لكلمة الثورة في الوصول إليه، كما لم ترشد إليه عناصر لغوية أخرى. ولأن كلمة ثورة تحتمل أكثر من دلالة وأكثر من إحالة، إذ قد يعني بها المتكلم أي ثورة شهدتها تونس في تاريخها الحديث، فإن المتلقي يضع أمامه افتراضات استنبطها من الملفوظ بترشيد من منه لغوي ومن عناصر سياقية أخرى. هذه الافتراضات قد تجد ما يدعمها أو يضعفها أو يقصدها أثناء المسار التأويلي. من بين هذه الافتراضات، افتراض أن الثورة المعنية هي الانتفاضة التي انطلقت يوم 17 ديسمبر 2010 زمن الربيع العربي، وقد تكون الثورة التي يُحتفى بها يوم 14 يناير والتي أفرزت تحولات على مستوى الممارسة السياسية وعلى مستوى النصوص الدستورية. إن أقصى ما يزودنا به الملفوظ هو وجود انحراف في مسار الثورة التي لم تتضح طبيعتها ولا طبيعة الزمان الذي احتضنها، ومما يزيد الملفوظ التباسا الحديث عن تصحيح مسار التاريخ. ومعلوم أن التاريخ ممتد في الزمان الماضي، وبالتالي يصعب تحديده إلا إذا أنبأ به دليل لغوي وحدد المقصود منه. كل هذا يفضي إلى القول إن الافتراضات التي قد تُستنتج من الملفوظ هي جزء من المقدمات، أي من السياق الذي قد يفضي إلى القصد التواصلية حين ينتهي التأويل ويُحدّد الأثر أو الآثار السياقية للخطاب برمته. بعد هذا الملفوظ الملتبس، أردف سعيد ملفوظا أكثر التباسا حين قال: "لم أتردد قط في اختيار هذه الساعة حتى ينقشع ما بقي من سراب، وحتى لا يبقى التونسيون والتونسيات تائهين وراء الأكاذيب أحيانا، أو يسировون في العتمة والظلام أحيانا أخرى". لا يستطيع متلقي هذه المعلومات التي وردت في الملفوظ تفكيك شفراتها، إذ الغموض يحجب القصد الإخباري، وبالتالي يصعب الإمساك بالقصد التواصلية

للمتكلم، ولا يبقى أمام المخاطب إلا اللجوء إلى استنتاج افتراضات بعد جهد معرفي مكثف. من بين هذه الافتراضات، نذكر:

أ- تسريب مناوئي سعيّد للأكاذيب بين المواطنين والتأثير فيهم؛

ب- تصديق المواطنين للأكاذيب؛

ج- ضياع بوصلة الحقيقة حين حجب مناوئو الرئيس الرؤية عن المواطنين؛

د- المواطنون ضحايا خداع يمارسه خصوم سعيّد...

يستنتج المتلقي هذه الافتراضات وغيرها من الملفوظ، وهي كما رأينا لا يُهتدى إليها دون بذل جهد فكري، وهذا شأن كل ملفوظ غير صريح خال من روابط يُسترشد بها عند التأويل، وتُوظف لتخفف من جهود معالجة المعلومات. إضافة إلى طرح هذه الافتراضات، يدرج المتلقي معطى سياقيا متمثلا في معارفه السابقة المخزنة في الذاكرة، معارف متعلقة بنوع العلاقات التي تربط الرئيس سعيّد بالمجتمع السياسي. وبعد أن يهتدي إلى وجود تنافر في الرؤى بين المؤسسة الرئاسية من جهة، وبين المؤسسة البرلمانية التي يرأسها حزب النهضة ذو المرجعية الإسلامية الذي تباينت خياراته السياسية مع خيارات الرئيس، وأبدى كل واحد عدم رضاه على أداء الآخر، بعد أن يعلم أو بالأحرى بعد أن يستحضر هذا المعطى، يبدأ في إجراء تعديلات على افتراضاته. قد يتوصل إلى أن المقصود بمن يظل التونسيين والتونسيات هو حزب النهضة الذي يرأس مجلس النواب، والأحزاب المناوئة للرئيس قيس سعيّد وعلى رأسها حزب قلب تونس، وحزب ائتلاف الكرامة، وحزب حراك تونس الإرادة الذي أسسه الرئيس السابق منصف المرزوقي. نتساءل هنا، هل هذا المعطى السياقي كاف إلى جانب الافتراضات المستنتجة لبلوغ القصد التواصل لل متكلم عند إنجاز الملفوظ أعلاه؟ طبعاً لا، ذلك لأننا وإن وقفنا على من حملهم سعيّد تضليل المواطنين من خلال تسريب أكاذيب، فإننا لم نتبين طبيعة هذه الأكاذيب ومعنى الملفوظ "يسيرون في العتمة والظلام" وقصد المتلفّظ به.

نتوقف هنا لنشير إلى مسألة تناولها كل من سبربر وويلسن، وهي تتعلق بمتلقي الخطاب وبالمستهدف منه وهو الذي يعيّنه المتكلم. فالمخاطب هنا هو الشعب التونسي الذي استهل سعيّد خطابه بالتوجه إليه مباشرة "يا شعب تونس العظيم في كل مكان"، إلا أن صاحبي المناسبة أوليا اهتماما لجهة ثالثة غير المتكلم والمخاطب قطبي العملية التواصلية. هذه الجهة هي السامع غير المستهدف من قبل المتكلم. والسامع هو الآخر متلق للخطاب ومنخرط في عملية التأويل، ويبدل جهدا معرفيا مكثفا أو غير مكلف حسب درجة اللبس في الخطاب، وتتفاوت لديه نسب الآثار - النتائج - السياقية. فقد يحصل على نتائج أقل فائدة أو أكثر فائدة، وقد تنعدم حين يكون الخطاب غير متسق من حيث التركيب وغير منسجم من حيث الدلالة. وبهذا يكون السامع معيارا للحكم بمناسبة الخطاب أو بغير مناسبته. بناء على ما ذكرنا، يمكن القول إن في استعمالنا لضمير المتكلم الجمعي البارز والمستتر، الذي يمثل الجهة الثالثة التي هي السامع غير المستهدف من المتكلم له ما يسوغه.

بعدما أشار سعيّد إلى وجود أشخاص ينشرون الأكاذيب بين أبناء شعب تونس، متعهدا بوقف مسلسل التضليل الذي ظل "التونسيون والتونسيات تائهيّن يلهثون وراءه"، انتقل في الملفوظ الموالي إلى التقليل من دائرة الالتباس بخصوص مروجي الأكاذيب. ففي الملفوظ الذي ورد في سياق حديث سعيّد عن معاناة المجتمع والفقراء منهم خاصة، الذين زاد تفكيرهم وتجويعهم والتكليل بهم، يصرح المتكلم بانعقاد لقاءات تمت مع الذين اعتبرهم مضللين للشعب التونسي، والذين حملهم مسؤولية معاناة المجتمع وفقرائه. وكون هؤلاء "المضللين" يحضرون الجلسات والاجتماعات مع الرئيس سعيّد، فهذا يؤشر على أنهم شركاء في صنع القرار السياسي أو يمثلون مؤسسات وازنة في المشهد السياسي، وإلا لما كان يتجدد لقاءهم برئيس الدولة في جلسات واجتماعات متعددة.

لم يعيّن سعيّد من جالسه ولا من اجتمع به. فقد اكتفى بالإحالة إليهم بضمير الغائب "هم" في دلالة على تعمد تجاهلهم حين قال: "كانت الجلسات والاجتماعات التي كنت أنظمها معهم في البداية بمثابة جلسات تعذيب. كنت أستمع إليهم وأصغي إلى كل ما يقولون، ولكن كانوا يعتقدون في المقابل أنهم قادرون على المناورة وعلى الكذب وعلى أن أصدق أكاذيبهم". هذه الإحالة إلى أشخاص لم يعيّنوا من قبل في الملفوظات السابقة، تكلف المخاطب جهدا

معرفيا لإدراك المقصود بمن أحيل إليهم، مما يدفعه إلى إنجاز الافتراضات الآتية: قد يكون المقصود حزب النهضة أو حزب قلب تونس أو ائتلاف الكرامة أو حراك تونس الإرادة أو يكونون هم جميعا، كما قد يكون المقصود أفرادا من مشارب سياسية ونقابية وحقوقية مختلفة. ونظرا لأن حزب النهضة كان قد أدان رئيس البلاد بخرق الدستور، حين أقال رئيس الحكومة هشام مشيشي وحل البرلمان وتدخل في شؤون القضاء، فإن هذا الحزب يبقى المرشح الأرجح لاعتلاء قائمة الافتراضات حول من تمت الإحالة إليه بالضمير الغائب.

ومع تنامي الخطاب تبرز معطيات يصرح بها الملفوظ تدعّم افتراضات سابقة مثلما حصل مع الملفوظ الآتي: "تم اتخاذ القرارات التي تعرفون في 25 جويلية المنقضي لا بسبب الجائحة فقط، ولكن بسبب الجائحة التي جثمت على البلاد منذ 14 من شهر جونفي 2011. انطلقت الثورة في 17 ديسمبر وهو عيد الثورة ليتم الالتفاف عليها في التاريخ الذي كان مذكورا". يوضح سعيّد من خلال هذا القول الدافع إلى اتخاذه قرارات يوم 25 يوليوز. وإن لم يفصح عن طبيعة هذه القرارات فلكونها معلومة لدى المخاطب، وبالتالي فهي تشكل خلفية معرفية مشتركة بين المتخاطبين "القرارات التي تعرفون"، مما يجعل التأويل خاليا من الافتراضات. وبناء على هذه المعرفة القبلية، يهتدي المخاطب إلى المقصود بالقرارات دون بذل جهد معرفي. هذه القرارات هي التي سبق أن أدانها حزب النهضة، وهي إقالة رئيس الوزراء، وتجميد أعمال البرلمان، ورفع الحصانة عن نوابه، وتولي الرئيس لكافة السلطات بعد تأويل المادة 80 من الدستور 2014، وتغيير يوم الاحتفال بذكرى الثورة؛ إذ حل يوم 17 ديسمبر بدلا من 14 يناير. ويتضح أيضا أن الافتراضين اللذين وضعهما المتلقي حول المقصود بالثورة، والمتمثلين في ثورة ارتبطت بتاريخ 17 ديسمبر 2010 وأخرى ارتبطت بتاريخ 14 يناير 2011، قد ضعُف أحدهما أمام الآخر وتبين من خلال دلالة الملفوظ المباشرة أن المقصود بالثورة هو الملفوظ الأول الذي أضى أثرا سياقيا.

في سياق تثمين صورة الذات وتبخيس صورة الخصوم، يسرد سعيّد إنجازاته أثناء جائحة كوفيد 19 حول خدمة الشعب التونسي. لم يفوّت الفرصة للطعن في خصومه الذين اتهمهم بالالتجار في آلام الشعب، وعلى غرار تعمد الإحالة بضمير الغائب إلى الخصوم بغرض التبخيس، سلك السبيل ذاته حين تجاهل الذين أخلوا بواجباتهم أثناء تفشي الجائحة

والذين خلوا من الشعور الإنساني، فقد أشار إليهم بـ"هؤلاء الذين لا أود ذكر أسمائهم، ولكن بالتأكيد الشعب التونسي يعرف الأسماء ويعرف الجهات". من بين ما بات معلوما يعرفه الشعب التونسي، هو أن وزير الصحة فوزي مهدي المقرب من الرئيس سعيد قد تسبب في أحداث عنف وفوضى في مراكز التطعيم حين استدعى كل التونسيين لأخذ جرعات من اللقاح ضد فيروس كوفيد يوم عيد الأضحى، وأن الرئيس بدلا من أن يوجه اللوم إلى الوزير، ألقى باللائمة على جهات تسببت في الفوضى، معتبرا ما حدث يوم عيد الأضحى "تضحية بالتونسيين"، مثنيا على الوزير "استقبلتكم حتى أبين الجهد الكبير الذي قمت به سيما في ما يتعلق بإيصال اللقاحات". هذا الوزير كان قد أقاله رئيس الوزراء المشيشي واصفا قراراته بأنها "شعبوية وإجرامية".

لم تُفُض الدلالة المعجمية لكلمة "الجهات" إلى تحديد القصد الإخباري للملفوظ الذي وردت فيه، ولم يسعف السياق في معرفة المقصود بالجهات مما يدفع المخاطب إلى طرح الافتراضين الآتيين:

أ- قد يُعنى بالجهات حزب النهضة ومساندوه من الأحزاب؛

ب- قد يُعنى بها رئيس الوزراء المشيشي وأعضاء من حكومته.

إن سبب طرح الافتراض (ب) هو وجود نزاع بين المشيشي وبين سعيد حول الصلاحيات والتحالفات السياسية. ولتحقيق الأثر السياقي لكلمة الجهات التي كلفت بهذا معرّفا عند معالجة الملفوظ، نستدعي المعلومات السابقة التي تجعلنا ننتقي الافتراض (أ). هذه الجهات التي ألصق بها سعيد أفعالا قدحية، مثل "التخابر مع دول أجنبية، وبيع ذممهم إلى قوى خارجية"، تعاكس إرادة الشعب صاحب السيادة الذي يطمح إلى تحقيق العدل والحرية والكرامة. هذه المطالب يحول دون تحقيقها هذه "الجهات التي تدعي الشرعية المزعومة". وكون الشرعية مزعومة، شرعية الذين قاموا بـ"الالتفاف على الثورة" وبخدمة أجندات أجنبية وبتعريض الوطن للضياع، فإن هذا يسوغ رفضها، وهو ما فعل سعيد حين لجأ إلى المادة 80 من دستور 2014 الذي توافق عليه أصحاب هذه الشرعية كما يقول سعيد. فهذه المادة تمنح رئيس الدولة في

حال شعوره بخطر داهم يهدد الوطن، القيام بنزع السلطة عن الآخرين من خلال تعطيل أعمال المؤسسات السياسية وتولييه هو وحده تسيير شؤون البلاد وهو ما قام به.

هذا الاستدلال الخطابي يضاعف من كلفة الجهد المعرفي لدى المخاطبين الذين تتفاوت قدراتهم التأويلية، ويجعل التواصل غير مناسب في حال حضور مخاطب لا يتمتع بكفاءة معرفية، وقدرة على الربط بين الأحداث، وتوظيف المعارف القبلية لديه، واستحضار السياق الذي أنتج فيه الخطاب. كل هذا يجعل المتكلم هو المسؤول عن نجاعة الخطاب أو إخفاقه، عن مناسبة التواصل أو عدم مناسبته، لأنه أولا هو منجز الخطاب الذي ضمّنه مقاصده، وثانيا لأنه أثناء إنجاز الخطاب يستحضر كفاءة المخاطب المعرفية وقدرته الاستدلالية اللتين تمكنانه من إدراك المعنى في الخطاب وبلوغ قصد المتكلم. وإذا تأملنا الملفوظ الذي تلا الحديث عن الشرعية المزعومة التي تنبئ فيه لفظة "المزعومة" بالدعوة إلى التمرد على الشرعية التي تم الاتجار بها، إذا تأملنا قول سعيد: "ولا أذيع سرا إذا قلت إن هناك من تدخل في الخارج حتى لا تتم مساعدة تونس....."، وتحدثت إليهم في أكثر من مناسبة لعلمهم يفهمون، ولعل بعض الرشد يحد من تصرفاتهم ومن ممارساتهم، وبل من إجرامهم. ولكن... لا حياة لمن تنادي، بل لا وطنية لمن تنادي"، سنخلص إلى أن هناك تقاطعا دلاليا بين هذا الملفوظ والذي سبقه، إذ خصوم سعيد لم يبرحوا - حسب هذا الأخير - دائرة الاتجار بالآلام التونسيين والتنسيق مع الخارج ضد تونس. وإن لم يفصح المتكلم عن أسماء خصومه معرضا عن تعيينهم، فإن المخاطب يكون قد اهتمى، مع تنامي الخطاب ومواكبته ملفوظا إثر ملفوظ، إلى المقصود بمن أحيل إليهم بضمير الغياب بعد إقصاء افتراضات وترجيح أخرى في عملية استدلالية تأويلية استدعت عناصر سياقية لغوية وغير لغوية.

بعدما نسب سعيد لخصومه فعل التخابر مع الأجانب ونعتهم بالكذب والإجرام، توجه إلى خصم آخر لم يبلغ من الخلاف معه مبلغ خلافه مع خصومه السابقين. فقد أشار إلى وجود صف واحد هو صف الشعب الذي أعلن اصطفاؤه معه. وعبر عن هذا في الملفوظ الآتي: "وصار الحديث هذه الأيام متواترا عن صف ثالث يصطف صفا صفا، وإن أرادوا فليزيدوا صفا رابعا أو صفا خامسا. أما الصف الوحيد الذي أنتمي إليه، فهو صف الشعب وليس الاصطفاف مع من يريدون صناعة الصفوف". هذا الملفوظ لا يمدنا بالقصد الإخباري ويقف

بنا عند الدلالة المباشرة، لكن عند استحضارنا لمعارف قبلية متعلقة بالخيارات المقترحة في الساحة السياسية، والتي تُدوولت على أوسع نطاق عبر الإعلام التونسي، نستطيع تبين المراد بالصف الثالث والجهة المقترحة أو المتبينة لهذا الخيار. لم تكن هذه الجهة سوى النقابة الأكثر تمثيلية وهي الاتحاد العام التونسي للشغل، الذي طرح خيارا ثالثا للخروج من الأزمة السياسية التي تعيشها تونس. في غياب المعطى السياقي الذي أوردناه، لم يكن بإمكان المتلقي للخطاب معرفة المقصود بالصف الثالث، ولا حتى مناسبة الحديث عن اختيار سعيّد التخذيق في صف الشعب، وبهذا يمكن القول إن التواصل قد يكون مناسباً عند وجود متلق له معرفة قبلية بموضوع خيار الصف الثالث، كما يمكن ألا يكون مناسباً عند متلق آخر تخلو ذاكرته من المعلومة المتعلقة بطرح النقابة لخيار الصف الثالث. هذا الانحياز إلى صف الشعب هو تعبير عن الاستعداد لتلبية مطالبه بعدما التف عليها "مدّعو الشرعية المزعومة" - حسب سعيّد - وزادوا على ذلك فأغرقوا البلاد في "الظلام"، وساهموا في "تفاقم البؤس واشتداده"، ناهيك عن "بيع الأوهام والأحلام للشعب". أمام هذا الوضع الذي هو "خطر داهم وخطر جاثم وخطر قادم"، أقبل سعيّد على العمل بالمادة 80 من الدستور التي تخول له في حالة شعوره بخطر داهم يهدد أمن البلاد، الانفراد باتخاذ القرارات دون الرجوع إلى المؤسسات النيابية والقضائية وغيرهما. فعبارة "خطر داهم" لها ارتباط بإقدام الرئيس على تعطيل المؤسسات وإقالة رئيس الوزراء، ووحده السياق المتمثل في معلومة سابقة مخزنة في الذاكرة الذي منحنا إدراك الغرض من إدراجها ضمن الملفوظ وأوصلنا إلى القصد التواصلّي للمتكلم.

لم يفارق المتكلم في ما تبقى من خطابه الذي أوشك على الانتهاء الاحتجاج بالمادة 80 لتسويغ انفراده بالسلطة، وإقناع المواطنين بالموقف الذي اتخذه تجاه مجموعة من القضايا. لم يقف الأمر عند إقناع التونسيين واستمالتهم، ولكن تعدى إلى تحريضهم ضد من "جثم على صدورهم وصادر حريتهم وصادر حقهم في الحياة"، وحرّمهم من "الشغل والحرية والكرامة الوطنية". وظلت الإحالة بضمير الغائب إلى الخصوم قائمة أيضاً، فقد تعمد المتكلم عدم ذكرهم مراراً على كفاءة مخاطبته للتعرف عليهم. وقد حمل الخطاب أكثر من مقصد اهتدى المخاطب إلى بعضها دون طرح افتراضات حين أفصح الملفوظ عن قصد محتواه، مؤقراً على متلقيه الجهد في التأويل مما جعل التواصل مناسباً، وهذا من شأنه إحداث تفاعل بين المتخاطبين.

مقابل هذه الملفوظات التي صرح من خلالها المتكلم بالقصد الإخباري ممهدا به إدراك قصده التواصلية، وردت ملفوظات استدعت طرح افتراضات، واستدعاء معارف قبلية، وقيامها باستدلالات للوصول إلى مقصد المتكلم. وهذا كلف المخاطب بذل جهد حينا وجهدا أكبر حينا آخر، مما جعل التواصل مناسبا في مواضع من الخطاب وغير مناسب في مواضع أخرى. وإن كنا قد عرضنا خطاب الرئيس سعيّد كاملا تحت أنظار نظرية المناسبة، فإننا ركزنا فيه على الملفوظات الملتبسة التي استدعت افتراضات شكلت مع عناصر أخرى غير لغوية مقدمات - السياق وفق هذه النظرية - لإدراك القصد التواصلية. وكوننا لم نهتم بالروابط التي تخللت الملفوظات، لا يعني أننا أهملنا الآثار السياقية لهذه الأدوات اللغوية، ولكننا وجدنا في الربط بين الملفوظات بدلا من الربط بين الكلمات عملا إجرائيا للتحكم في مفاصل الخطاب وإخضاعه ملفوظا إثر ملفوظ للتحليل، دون أن نعيد معالجة الملفوظ الحامل للدلالة نفسها. بعد هذا التوضيح واستحضارا لكل النتائج الجزئية التي اهتدينا إليها عبر هذا المسار التأويلي، واعتبارا أن تأويل الخطاب ليس حصيلة تأويلات الملفوظات المكونة له، نخلص إلى القول بأن الخطاب شهد حضورا قويا لصيغ لم تستدع كثيرا طرح افتراضات. وحتى التي استدعتها سرعان ما تم تقويضها أو إضعافها أو دعمها بواسطة معلومات أفرزتها ملفوظات لاحقة. وإذا كان الحكم بمناسبة التواصل يتوقف على قياس الجهد من قبل المخاطبين والآثار السياقية المحصل عليها عند نهاية كل استدلال، فإن التواصل بين الرئيس سعيّد ومخاطبيه المستهدفين من الخطاب والسامعين إليه كان مناسبا، وذلك نظرا لأن الخطاب لم يجنح كثيرا نحو الالتباس، واستطاع المتلقي إدراك مقاصد المتكلم بتكلفة في الجهد أقل. وقد تمثلت هذه المقاصد في دعوة سعيّد الشعب التونسي إلى عدم تصديق مناوئيه وعلى رأسهم حزب النهضة، ورفض مقترح النقابة العتيدة الاتحاد العام التونسي للشغل المتعلق بخيار الصف الثالث، إضافة إلى إقناع مخاطبيه بالسبب وراء لجوئه إلى تعطيل أعمال البرلمان، وإقالة رئيس الوزراء، وانفراذه بكل السلطات.

المبحث الثامن: التناص

أحيط بمصطلح التناص أكثر من تعريف، وكل هذه التعريفات تتقاطع حول اعتبار التناص تعالقا بين نصوص سابقة وأخرى لاحقة، وبالتالي لم يخرج مفهوم التناص عما أشار إليه أحد أقطاب المدرسة الشكلانية الروسية الذي سبق باختين إلى فكرة التناص بقوله: "إن العمل الفني يُدرّك في علاقته بالأعمال الفنية الأخرى، وبالاستناد إلى الترابطات التي تقيمها في ما بينها"¹. لم تبرح ظاهرة التناص دائرة التفسير البنيوي وما بعد البنيوي منذ شكولوفسكي، مروراً بباختين وتودوروف وكريستيفا وبارث ودريدا وريفاتير ومحمد مفتاح وعبد الله الغدامي، وانتهاءً بجينيت الذي تحدث في طروسه عن المتعاليات النصية التي تشمل التناص الذي حصره في الوجود الفعلي لنص سابق في نص لاحق، والنص المتعدد والميتانص والنص الجامع والنص الموازي. هذا الفرع الأخير حصّه جون بيبير باهتمام أكبر من خلال مقال مطول بعنوان تداولية النص الموازي. تحدث فيه عن البعد التداولي لمكوناته التي تؤثت غلاف العمل، مثل العنوان والعناوين الفرعية وزمن إنجاز العمل وتاريخ ظهوره وطبيعة العمل؛ أهو شعر أم قصة أم رواية. واعتبر كلمة "رواية" المشار إليها في الغلاف فعلا إنجازيا شبيها بفعل الوعد "أعد"، إذ من خلال كلمة "رواية" يتم وعد القارئ أنه سيقراً عملاً روائياً.

وسمى عبد الرحمن طه التناص محاورة بعيدة غير مبتعد عن الطرح الغربي، وإن تفرد بالقول بالتفارق بدلا من التعالق حين "يعرض المحاور شواهد من أقوال الغير"²، دون الاعتراض عليها حتى لا يُكسب أصحابها صفة "المشاركة في تكوين النص" ويُبقي على "إظهار انفراده هو بهذا التكوين". لم يبرح التناص أو المحاورة البعيدة - الذي هو من مكونات النظرية الاعتراضية عند طه - بُعد النصي، لكن البعد التداولي كان حاضرا في المحاورة القريبة أو المناظرة التي هي مكون من هذه النظرية، والتي استأنسنا بها ونحن نؤسس لطرح جديد حول تداولية التناص يختلف تمام الاختلاف عن الطرحين السابقين.

¹- كراهام ألان، نظرية التناص، ترجمة باسل المسالمة، دار التكوين للتأليف، دمشق، 2011، ص143. (الكتاب الأصلي INTERTEXTUALITY نشر عام 2000).

²- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار، ص47.

إذا كان التناص يسهم في بناء النص أو الخطاب، فإنه من خلال توفير معلومات مشتركة يسلم بها المتخاطبان ويتفاعلان في ضوءها يسهم أيضا في إكساب الخطاب بعدا تداوليا. كل هذا يتوقف على قدرة المخاطب على التعرف على المُتناص واستيعابه وإدراك القصد من إدراجه، أي القدرة على استيعاب الغرض من توظيفه ثم التسليم به ليستوي معلومة أو معلومات قبلية مشتركة ينطلق منها المتخاطبان. إذا ما توفرت هذه القدرة كان مركز التناص هو المتلقي لأنه هو من سيتكفل باستنطاق الملفوظ وينتهي إلى كشف المتناص، أما في غياب تحقق شرط القدرة، يصبح التناص فعلا ذا بعد نصي مركزه منتج النص. يمكن القول إذن إن التناص ليس فعلا حاجيا تداوليا إذا جرى على الطريقة المتعارف عليها. إن الكيفية التي يجري بها التناص لا تضمن بالضرورة توفير مشترك معرفي بين المتخاطبين. فاستدعاء المتكلم لأحداث تاريخية أو رموز أو نصوص سابقة وتضمينها خطابه قد لا يسلم بها المخاطب لكونها غير مخزنة في ذاكرته، أو لعدم درايته بحصول امتصاص نص لاحق لنص سابق أو نسج على منواله أو لعدم اقتناعه بحجّيتها. وبهذا لن يمثل المتناص في هذه الحالة خلفية معرفية مشتركة ينطلق منها كلا المتخاطبين، ويمسي مقتصرا على وظيفة الاتساق النصي والانسجام الدلالي، وقد يطلّع بالوظيفة الجمالية. وإذا رمنا الدقة قلنا إن جهل المخاطب بالمُتناص يحدّ من تنامي الخطاب ويجعل التواصل متعذرا سواء أكان الجهل ناتجا عن فقر معرفي أم ناتجا عن عجز في استنباط المتناص إن كان غير ظاهر طبعا، أم ناتجا عن عدم إدراك الغرض من استدعاء النص ظاهرا كان أم باطنا. نسوق هنا مثالا للتوضيح:

يقول الرئيس التونسي قيس سعيّد: "وصار الحديث هذه الأيام متواترا عن صف ثالث يصطف صفا صفا، وإن أرادوا فليزيدوا صفا رابعا أو صفا خامسا". لقد ضمّن المتكلم ملفوظه كلاما تناقله بعض الناس حول "خيار ثالث". هذه العبارة "خيار ثالث" تمثل متناصا لقولة سعيّد، لكن هناك احتمال أن يكون بعض المخاطبين أو أغلبهم غير ملمّين بدلالة العبارة، وبالتالي لن تمثل لهم خلفية معرفية مشتركة مع المتكلم. وإذا حصل هذا جاز لنا القول إن ثمة شروطا وجب تحقيقها ليكون التناص بعدا حاجيا تداوليا.

بعد عرض الحالة التي لا يتبيّن فيها المخاطب حصول تناص، ننظر في الحالة التي يكون فيها المُتناص مدركا من لدنه. في سياق تشهير سعيّد بخصومه الذين قال عنهم إنهم لم

يرعوا رغم تنبيهه إياهم بسلوك سبيل الرشد للحد من تصرفات وسلوكات غير مقبولة، ورد هذا الملفوظ "لقد أسمعتم لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي، بل لا وطنية لمن تنادي". ومعلوم أن القول الوارد قبل أداة الإضراب "بل" هو بيت متداول بين كثير من الناس، يضرب مثلا للذين لا طائل منهم. والبيت هنا يتضمن حجة دعم بها سعيد كلامه لإقناع مخاطبيه برفض خطاب خصومه كونهم عديمي الجدوى. يمثل المخاطبين مؤيدو سعيد ومعارضوه. يُحتمل ألا يسلم المعارضون بالمعلومات المتضمنة في البيت لإدراكهم قصد المتكلم من إدراجه، وحينها يتعذر التواصل بينهم وبين مخاطبهم، وبالتالي لن يحصل تداول للمعنى. ومؤيدو سعيد حين يسلمون بالمتناص - البيت -، فلاقتناعهم بحجاجة المتكلم وليس بحجاجة البيت، لأن الحجة المتضمنة في البيت "بما أنهم عديمو الجدوى، فعليكم أن تنفروا من خطابهم ومنهم أيضا"، قد يرفضها أحدهم إذا تحوّل إلى المعارضة. والحكم ببطلان تداولية التناص في هذا البيت يأتي من عدم قدرة هذا الأخير على مد المخاطبين بمسلمات لا تقبل الرد، مسلمات تؤسس عليها العملية التواصلية.

متى يكون إذن التناص بعدا تداوليا؟

لنفترض وجود خطابين متزامنين يستجيب الواحد للآخر: خطاب (س) وخطاب (ص). منتج الخطاب (س) يُضمّن معلومات وردت في الخطاب (ص). هاته المعلومات تمثل خلفية معرفية مشتركة بين منتج الخطاب (س) والمخاطب الذي سبق أن أنجز الخطاب (ص) والذي هو لحظة إنجاز الخطاب (س) في وضع المتلقي. في هذه الحالة يتطابق التناص مع الافتراض المسبق (ليس في بعده المنطقي) كونهما ينتجان معرفة قبلية مشتركة يسلم بها المخاطبان. نوضح هذا من خلال المثالين الآتيين:

للخروج من الأزمة السياسية التي تمر بها تونس، اقترح الأمين العام للاتحاد العام التونسي للشغل نور الدين الطوبوي خيارا سماه "الخيار الثالث" في دلالة على تباينه مع موقف الرئيس سعيد ومع موقف المعارضة أيضا حيال الأزمة. وقد جاء رد سعيد على المقترح عبر ملفوظ سبق أن أوردناه في سياق غير السياق الذي سنورده فيه الآن. يتمثل هذا الملفوظ في

- "وصار الحديث هذه الأيام متواترا عن صف ثالث يصطف صفا صفا".

إذا افترضنا أن المخاطب هو الطوبوي باعتباره المتلفظ بعبارة "الخيار الثالث"، فإن سعيد قد أنشأ ملفوظه بطريقة باطنة - وفق تعبير طه عبد الرحمن - عبر هذه العبارة التي تمثل متناصا في خطاب الرئيس. ولأن هذا المتناص معلوم لدى هذا المخاطب وذلك لأنه هو من أنجزه، فإنه يضحى خلفية معرفية مشتركة تسهل عملية التواصل بين سعيد والطوبوي، ومن خلاله أعضاء الاتحاد العام التونسي للشغل الذين هم على علم بسياق ورود العبارة "الخيار الثالث". ولأن المخاطب متعدد، فقد يستهدف المتكلم في لحظة من زمن خطابه مخاطبا بعينه دون أن يؤثر ذلك في عملية التواصل مع باقي المخاطبين مثلما حصل في المثال أعلاه. يمكن القول إنه إذا كان الافتراض المسبق بعدا تداوليا كونه يمثل خلفية معرفية مشتركة يسلم بها المتخاطبان، فإن التناص هو أيضا بعد تداولي كونه يوفر معلومة أو معلومات قبلية مشتركة، لكن شريطة أن يكون منجز المتناص مستهدفا من قبل المتكلم ومتفاعلا مع خطابه - النص اللاحق -.

ومعلوم أن في الأنماط الأخرى من التناص سواء أكانت نقلا أم تحويلا أم امتصاصا، أي سواء أكان التعالق بين النصوص بطريقة ظاهرة أم بطريقة باطنة، لا يكون منتج النص السابق، أي منجز المتناص، مخاطبا مستهدفا من الخطاب، وإنما يُكتفى فقط باستدعاء نصه ليقوم متلقون بعد تضمين هذا النص في النص اللاحق، باستثمار ثقافتهم وحفز ذاكرتهم لمعرفة طبيعة التعالق وتحديد المتناص.

بعد عرض المثال الأول، نسوق مثالا آخر.

من بين الشروط التي وضعها المعتصمون بميدان التحرير بالقاهرة قبل إجراء حوار مع جهات مسؤولة بجهاز الدولة، نذكر شرطين نلخصهما على الشكل الآتي: إما تنحي مبارك عن الحكم، أو تفويض عمر سليمان نائب رئيس الجمهورية في اختصاصات الرئيس. وأمام إصرار المصريين على موقفهم هذا وازدياد الضغط على مبارك، لم يكن أمام هذا الأخير سوى الاستجابة لمطالب الشعب المنتفض معلنا في خطابه الأخير أنه "تغلبا للمصلحة العليا للوطن"، فقد قام "بتفويض نائب رئيس الجمهورية في اختصاصات رئيس الجمهورية".

من خلال هذا التفاعل مع مطلب المعارضة، يكون مبارك قد أنشأ ملفوظه هذا بطريقة ظاهرة عبر خطاب سابق يمثل متناصا في خطابه اللاحق. ولأن المخاطب هو من أنجز هذا المتناص، فإن هذا الأخير يغدو خلفية معرفية مشتركة يسلم بها المتخاطبان: مبارك ومعارضوه، مما ييسر سبيل التفاعل والتواصل، وبهذا يكتسب التناص بعده التداولي.

تحليل خطاب الرئيس اليمني علي عبد الله صالح

المكان: ميدان السبعين بصنعاء

المخاطب المباشر: الجماهير في ميدان السبعين

التاريخ: يوم الجمعة 15-04-2011

مدة الخطاب: خمس دقائق وأربع وعشرون ثانية

الخطاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحشد الجماهيري الكبير، أيها الأخوة والأخوات، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أولاً، أتقدم بالشكر الجزيل إلى جماهير شعبنا اليمني العظيم: شبابا وشباناً وشيوخاً رجالاً ونساءً، على هذه المشاعر الطيبة الفياضة، والذين أتوا من كل حدب وصوب يقولون: نعم للشرعية الدستورية والديمقراطية، نعم للأمن والاستقرار. تصفيق

شكراً لجماهير شعبنا في أمانة العاصمة الذين أتوا من كل المحافظات، ولجماهيرنا في محافظة تعز، ولجماهيرنا في كل المحافظات والمديريات على مشاعرهم الفياضة الطيبة. تصفيق

إن هذه الحشود الجماهيرية المليونية، المليونيات الذين أتوا إلى هذه الساحة هم يقولون: نعم نعم نعم للشرعية الدستورية. إن هذه هي، هذه هي جماهير 2006. إن هذه جماهير 2006 الذين قالوا: نعم للحرية، للديمقراطية، نعم نعم لعبد الله صالح كرئيس لهذه الأمة.

تصفيق وهتاف

إن هذه رسالة، إنها رسالة واضحة، رسالة واضحة، رسالة واضحة للداخل والخارج. إن هذا استفتاء شعبي، استفتاء شعبي على الشرعية الدستورية. إن هذه الجماهير في صنعاء،

والجماهير في تعز، وفي حضر موت، وفي إب، وفي الحديدة، وفي حجة، وفي عمران، وريمة، وفي ذمار، وفي البيضاء، وفي لحج، وفي أبين، وفي شبوه. إنها نعم للشرعية الدستورية. نعم هذه جماهيرنا في الضالع، هذه جماهيرنا في الضالع، هذه جماهيرنا في المحوزة الأبية، جماهيرنا في زعطة، في مأرب، في الحوب، في كل مكان. نعم مع الحرية مع الأمن والاستقرار. لا للفوضى، لا لقطع الطرق. نعم للحرية. لا لقطع الطرق. لا لقتل النفس المحرمة. لا لإيقاف ضخ النفط. لا لإيقاف حق الغازات، حق الغاز الذي يحتاجونه المواطنون. إنهم يتحملونها: أحزاب اللقاء المشترك قطاعين الطرق، قطاعين الطرق، الطرق، أحزاب اللقاء المشترك. هتاف

هذه هي جماهيرنا، هذه هي جماهيرنا الموجودة في ميدان السبعين، هذه الجماهير الصامدة. وكم كذب! وكم كذب! وكم كذب! عبر القنوات الفضائية لأصحاب اللقاء المشترك والنفوس الضعيفة والمرتدين. كم كذب! كفاكم كذب ودجل على الشعب. كفاكم كذب. هتاف

أيتها الجماهير العظيمة: إنا نبادلكم الوفاء بالوفاء، نبادلكم الوفاء بالوفاء، نحبيكم. وأما جماهيرهم الموجودة في شارع، في شارع الجامعة الجامعة هي جماهيرهم حق 2006 حق 2006 إننا ندعوهم، ندعو أصحاب اللقاء المشترك، ندعو أصحاب اللقاء المشترك أن يُحكموا ضمائرهم ويأتوا للحوار ونتفق على كلمة سواء من أجل الأمن واستقرار هذا الوطن. أدعوهم إلى منع الاختلاط، إلى منع الاختلاط، إلى منع الاختلاط الذي لا يقر الشرع، لا يقره الشرع، الاختلاط في شارع الجامعة. هتاف

من هذا المكان، من هذا المكان أيها الإخوة والأخوات، من هذا المكان، من ميدان السبعين أيها الإخوة والأخوات، أحيي المؤسسة العسكرية البطلة ورجال الأمن البواسل على تحملهم، وعلى ما يبذلونه من واجب. ولن يصدقوا الخارجين عن النظام والقانون ودعواتهم، ودعواتهم للخروج عن الشرعية الدستورية. أحيي المؤسسة العسكرية والأمنية أينما وجدت وأين ما كانوا. مرة أخرى أحيي هذه المشاعر الفياضة وأناي أبادل الوفاء بالوفاء، وهذه رسالتنا للداخل والخارج، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تحليل الخطاب

تقتضي منا المقاربة التداولية تحديد العناصر السياقية في العملية التخاطبية قبل البحث في الأبعاد التداولية وتجليه وظائفها. فالخطاب الذي بين أيدينا موجّه من الرئيس اليمني علي عبد الله صالح إلى الجماهير المحتشدة في ميدان السبعين بصنعاء، التي شهدت حصاراً في 1967 لمدة سبعين يوماً لغرض إجهاض الثورة والقضاء على النظام الجمهوري الذي صمد وتمكن من خلال قوات الصاعقة من فك الحصار عن صنعاء¹.

لا شك أن لميدان السبعين قيمة كبرى عند اليمنيين، وذلك لكونه يمثل ذاكرة الصمود والاستبسال والوقوف في وجه الحصار بكل قوة. وما اختيار صالح لهذا المكان بالذات إلا لغرض استثمار هذه المعاني التي يمثلها لدى الشعب اليمني. فكما انتصرت الجماهير اليمنية في الماضي على أعداء النظام الجمهوري، ستنصر اليوم على المعارضين. إضافة إلى استثمار صالح للمكان، استثمر أيضاً عنصر الزمان حين اختار يوم الجمعة ليخاطب الجماهير نظراً لما يحمله من قدسية ودلالات دينية عميقة عند المسلمين. ولمخاطبة الجانب العاطفي في الجماهير قصد التأثير فيها وإقناعها، أبدى المتكلم اهتماماً بلباسه للظهور بمظهر يليق باعتباره رئيساً لدولة يستوعب الرأي والرأي المضاد. فقد ارتدى بذلة رمادية رسمية تتناسب مع مقام يستوجب فرض الاحترام ونيل الإجماع والإحساس بالهدوء والسيطرة على الوضع. هذا اللون الرمادي الذي يصنّف محورَ عالم الألوان مؤهلاً لاحتضان "الثنائيات المتعارضة التي تؤلف كرة لونية منسجمة"². وهذا يتناغم مع وظائف اللون الرمادي الذي يمتص الألوان المتعارضة ويملك التأثير في الألوان المحيطة به والتي تتوافق معه، إذ يخفّض شدة قوة الألوان ولمعانها ويهيمن عليها خالقا إحساساً بالهدوء³.

1- فيصل الصوفي، حصار السبعين.. معلومات وعبر، موقع المؤتمر نت، ويراجع أيضاً الموقع الآتي: ar.Wikipedia.org/Wiki

2- كلود عبيد، الألوان: دورها، تصنيفها، مصادرها، رمزياتها، ودلالاتها، مراجعة وتقديم محمد حمود، مجد: المؤسسة الجامعية، بيروت، 2013، ص 116.

3- تشير كلود عبيد في الصفحة نفسها إلى أن اللون الرمادي يمثل الوسط بين الألوان المتضادة: بين الأصفر والأزرق، وبين الأحمر والأخضر، وبين الأبيض والأسود. وتذكر أيضاً أن "الإنسان رمادي في وسط العالم اللوني كما الكرة السماوية داخل الكرة اللونية. الإنسان نتيجة لجنسين متعارضين، وإذا كان في الوسط الرمادي بين الألوان المتعارضة التي تؤلف كرة لونية منسجمة، فإن كل زوجين للونين ضدين في توازن كامل".

من ميدان السبعين، يوجه عبد الله صالح خطابه في ظرف تشهد فيه اليمن حراكا شعبيا أيدته أحزاب اللقاء المشترك المعارضة، وساندت فيه المحتجين المطالبين برحيل الرئيس. هذه الأحزاب كانت هي الأخرى مستهدفة من الخطاب، إذ دعاها عبد الله صالح إلى الحوار من أجل استقرار الوطن. ونظرا لأن هذا الخطاب يغلب عليه طابع الموضوعات، ارتأينا تقسيمه وفقها، فكان الخطاب خمسة مقاطع.

يبدأ المقطع الأول من "الحشد الجماهيري الكبير" إلى "على مشاعرهم الفياضة الطيبة"، وفيه يشكر عبد الله صالح الجماهير التي حجت إلى الميدان لدعم الشرعية الدستورية والحفاظ على الأمن والاستقرار اللذين تنعم بهما البلاد في ظل حكمه.

ويتحدد المقطع الثاني من "إن هذه الحشود الجماهيرية المليونية" إلى "هذه جماهيرنا في كل مكان. نعم نعم الحرية مع الأمن والاستقرار"، وفيه يتحدث الرئيس عن الرسالة التي يحملها حضور الجماهير والمتمثلة في مناصرة الشرعية الدستورية والحرية والديمقراطية ومساندة صالح باعتباره رئيسا شرعيا منتخبا من الشعب خلال آخر انتخابات شهدتها اليمن.

وينطلق المقطع الثالث من "لا للفوضى، لا لقطع الطرق" وينتهي إلى "وأما جماهيرهم الموجودة في شارع الجامعة هي جماهير"، وفيه يصف أعضاء أحزاب اللقاء المشترك بـ"فُطّاع الطرق والمُرتدّين ويصف إعلامهم بالكذب والدجل.

ويبتدئ المقطع الرابع بـ"إننا ندعوهم، ندعو أصحاب اللقاء المشترك" وينتهي عند "لا يقرّه الشرع، الاختلاط في شارع الجامعة"، وفيه يدعو عبد الله صالح أحزاب اللقاء المشترك إلى الحوار، ويدعوهم كذلك إلى عدم الاختلاط في ساحة الجامعة، حيث يجتمع أنصار اللقاء، وهي دعوة أقرب إلى التشهير بالخصوم منها إلى النصيحة.

ثم يأتي المقطع الخامس من "من هذا المكان، أيها الإخوة والأخوات" إلى "والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، حيث يحيي فيه عبد الله صالح رجال المؤسسة العسكرية والأمنية لما يبذلونه من واجب، داعيا إياهم إلى عدم تصديق دعوات الخارجين عن النظام والقانون بالخروج عن الشرعية الدستورية.

في سياق الاحتقان الذي شهدته اليمن على غرار دول الربيع العربي التي رفع فيها المحتجون شعارات تطالب بالإصلاح السياسي والاجتماعي، جاء خطاب الرئيس اليمني علي عبد الله صالح الذي استهله بالبسملة، مستحضرا وقعها على أذن السامع وأثرها في نفسه. وإذا يستهل خطابه بالبسملة، فإنه يستثمر الثقافة الدينية المشتركة بينه وبين المخاطب ويعلن صلته بالله واستعانتة به واعتماده عليه. بعد البسملة يردف سلامه إلى الحاضرين في ميدان السبعين مصحوبا برحمة الله وبركاته، مُسبِغاً على حديثه مسحة من التدين والإيمان وهو يحيي الجماهير بتحية الإسلام، واصفا إياها بصفة الإخوة والأخوات، طاويا حرف النداء "يا"، مستعجلا إبداء مشاعر الود والإخاء، وكأن ذكر أداة النداء يُبطئ عجلة التعبير عن الصداقة تجاه "الإخوة والأخوات". وقد حذف المتكلم أداة النداء في الملفوظ "أيها الإخوة والأخوات" وقبله في "الحشد الجماهيري الكبير" ليشعر السامعين أنه شديد القرب منهم وأن لا شيء يحول بينه وبين الجماهير، حتى الحروف ليس بمقدورها أن تباعد بينهما. ولشد انتباه الجماهير، تكفلت الهاء في الأداة "أيها" لتنبيه المنادى وجعله يُقبل على الخطاب وينصت إليه ويتفاعل معه. وبلجوء صالح إلى وصف الجماهير بالإخوة والأخوات، يكون قد رفع من الطاقة الحجاجية لخطابه ووجه مخاطبه نحو سلوكات معينة، إذ وصفت الإنسان بالأخ يُدخله في دائرة النصرة وهو عين ما يسعى إليه عبد الله صالح، الذي هو في أمس الحاجة إلى من ينصره في هذه الأوقات العصيبة التي ينادي فيها المحتجون برحيله. إن هذا النفس الديني الذي طبع الاستهلال يحضر أيضا في صفة "الإخوة" التي نعت بها المتكلم الجماهير. ففي الثقافة الإسلامية التي ينتمي إليها المتخاطبان، يُنظر إلى المسلمين جميعا كونهم إخوة تؤاخي بينهم تعاليم الدين.

هذا الاختيار، اختيار عبد الله صالح لكلمتي "الإخوة والأخوات" يُنبئ عن الاستراتيجية التي سيعتمدها في خطابه، وهي استراتيجية تضامنية. وهو إذ ينزع نحو هذه الاستراتيجية بدلا من استراتيجية توجيهية يُخَوِّل له موقعه السياسي اعتمادها باعتباره رئيسا للبلاد، فلأن المقام يقتضي التقرب من الأنصار لحشد مزيد من التأييد ولحمايته من الأخطار المحدقة به، وهذا ما دفعه إلى إزالة معالم الفروق بينه وبين مخاطبيه، محاولا التقرب منهم أكثر، مُتَّخِذا إياهم إخوانا وأخوات. من مظاهر هذه الاستراتيجية التضامنية، استخدام الضمير الجمعي

للتعبير عن المشترك بين المشاركين في العملية التخاطبية، وللتأكيد على أن القرارات ليست فردية، وإنما هي تتجَزَّ بعدما يحصل حولها إجماع. وتجلَّى هذا واضحا حين دعا الرئيس خصومه إلى تحكيم ضمائرهم والاستجابة للحوار قائلا: "إننا ندعو أصحاب اللقاء المشترك أن يحكموا ضمائرهم"، مستخدما الضمير المستتر "نحن"، وتجلَّى كذلك من خلال استعمال الضمير المتصل "نا" حينما نادى أنصاره بـ "جماهيرنا" و "شعبنا". ولتعزيد هذا الانتماء الجماعي وتقوية الشعور بوحدة المصير، اعتمد الخطيب أداة التوكيد "إن" التي حضرت بكثرة، فقد استخدم أسلوب التوكيد حين أشار إلى أن حضور الجماهير في ميدان السبعين هو استفتاء شعبي على الشرعية الدستورية "نعم نعم للشرعية الدستورية"، موجِّها خطابه إلى أنصاره الذين يشاركونه تصوراتهِ السياسية وإلى خصومه أيضا.

صاحب نداء عبد الله صالح الجماهيرَ أداءً صوتي بلغ فيه الصوت طبقة بين المتوسط والجواب. وهي طبقة تُناسب مقام الترحيب والتسليم على المتعاطفين مع المتكلم. ولأن المقام مقام الإخاء تجاه المؤيدين، لم يستخدم عبد الله صالح حركات اليدين الموحية بالانفعال والتوتر؛ إذ ظلت اليدين هادئتين مما يدل على شعور المتكلم بالارتياح واستقرار نفسي. هذا الشعور بالارتياح تنطق به عبارات الشكر للوافدين إلى الميدان من مختلف المحافظات والمديريات اليمنية "أتقدم بالشكر الجزيل إلى جماهير شعبنا... والذين أتوا من كل حذب وصوب". وفي إطار هذه الاستراتيجية التضامنية التي نهجها، يعمد إلى الاستمالة عبر مخاطبة الجانب العاطفي للحاضرين عن طريق تقديم الشكر إليهم. هذا النوع من الخطاب العاطفي الذي يُستهل به والذي يُقصد به الاستثارة والاستمالة، يحضر بقوة في الخطابات الموجَّهة مباشرة إلى الحشود من الجماهير، وذلك لأن نفوس السامعين مهياة لتصديق كل ما سيقال.

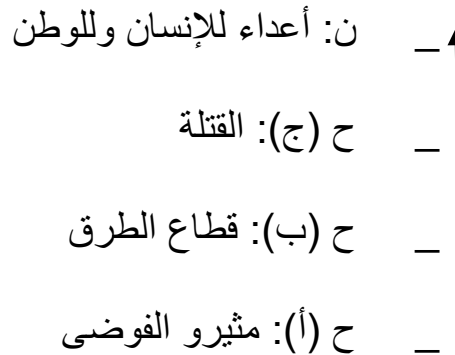
بعد تقديم الشكر للجماهير التي أتت من كل حذب وصوب، ينطلق الخطيب في ذكر أسماء بعض الأماكن التي أتت منها، وهي أمانة (أمانة العاصمة هي صنعاء) وتَعَزُّ وحضرموت وإب والحُدَيْدة..، للتنبيه عن فضل هذه المحافظات في مساندة الرئيس. وذكر هذه المناطق هو ذكر الخاص بعد العام الذي هو "كل حذب وصوب". هذه العلاقة بين العام والخاص تندرج ضمن التضام الذي هو عنصر مساهم في اتساق الخطاب، هذا الاتساق يضمن إلى جانب شروط أخرى تيسير متابعة السامع للخطاب وفهمه وتفاعله مع المتكلم. ومن مظاهر

تفاعل الجماهير في ميدان السبعين مع عبد الله صالح، هتافهم بشكل جماعي وبصوت مرتفع كلما أتى المتكلم على ذكر اسم المدينة أو المحافظة التي أتت منها الجماهير لتساند الرئيس "إن هذه الجماهير في صنعاء وفي تعز وفي حضرموت وفي إب وفي الحديدة... وفي كل مكان، مع الأمن والاستقرار". وقد استثمر الخطيب تقنية التفصيل والتراكم التي أشار إليها بيرلمان، وتبدو أهمية التفصيل في قوته الحجاجية، فهو من جهة يدل على اهتمام الرئيس بمخاطبه من خلال مخاطبة كل شخص انطلاقاً من المدينة التي ينتمي إليها، وهو من جهة أخرى يدعم حجاج الشرعية، ذلك لأن هذه المدن الكثيرة التي حج أهلها إلى ميدان السبعين مازالت على ولائها له بوصفه رئيساً للبلاد.

أمام حماسة الجماهير وارتفاع أصواتها، ارتفع صوت المتكلم مصحوباً بحركة اليد المتمثلة في الإيماء الدائرة المشكلة بين الإبهام والسبابة، وهي علامة تدل على الانفعال. ارتفع صوت المتكلم المتفاعل مع الهتافات حتى وصل إلى منطقة جواب الجواب، وهي منطقة تناسب حالة المتكلم الذي يشعر برغبة في الصراخ في وجه الذين هزمهم ديمقراطياً في الانتخابات الرئاسية عام 2006، ويطالبونه في 2011 في خرق لقواعد الديمقراطية بالرحيل. وقد عبر عن انتصاره في إحدى المعارك الانتخابية على خصومه السياسيين، مذكراً إياهم بهزيمتهم حين لم يتم انتخابهم من قبل الشعب لرئاسة البلاد، من خلال قوله: "هذه هي جماهير 2006 الذين قالوا: نعم، نعم لعبد الله صالح كرئيس لهذه الأمة". وهذه حجة تدرج ضمن الحجج المؤسسة على بنية الواقع، وهي حجة سببية؛ إذ إن التسليم بنتائج انتخابات 2006 التي أفرزت نجاح عبد الله صالح، يستوجب من كل الأطراف التي انخرطت في العملية السياسية، وقدمت مرشحياً للانتخابات الرئاسية الالتزام بالنتائج والاعتراف بعبد الله صالح رئيساً شرعياً، وهذا يعني سحب أحزاب اللقاء المشترك تأييدها للمحتجين ضد الرئيس. هذا الملفوظ يتضمن فعلاً إنجازياً غير مباشر هو الدعوة إلى الامتثال للدستور والاعتراف بشرعية الرئيس، وهو فعل يندرج ضمن التوجيهيات، إذ يسعى المتكلم إلى إخضاع الواقع للخطاب، أي بما أن الرئيس يثبت عبر خطابه أنه منتخب من قبل الشعب، فإنه يستوجب على المعارضين احترام إرادة الشعب ومن ثم الاستجابة والخضوع لما تضمنه الخطاب. ولأن خصوم الرئيس السياسيين لم تعد نتائج اقتراع 2006 تلزمهم في شيء، مستعاضين عن

إخفاقهم في الانتخابات الرئاسية بتبني مطالب الجماهير المحتجة وتمثيلها، فقد أثبت عبد الله صالح انتصاره مرة أخرى على خصومه السياسيين حين أعلن أن حضور الحشود المليونية في الساحة هو استفتاء على الشرعية الدستورية المتمثلة في بقاء عبد الله صالح حتى انتهاء ولايته الرئاسية.

وليؤكد الرئيس تمتعه بمساندة جماهير واسعة بايعته عبر صناديق الاقتراع وتبايعه الآن في الميدان وفي كل مكان، لجأ إلى التكرار ليرسخ في ذهن السامع أحقيته في ممارسة الحكم باعتباره رئيساً. ومن الملفوظات الدالة على ذلك نذكر "المليونيات الذين أتوا إلى هذه الساحة، يقولون: نعم، نعم للشرعية الدستورية". هذا الملفوظ الذي سيق للاحتجاج به ضد الخصوم السياسيين يتضمن فعلاً إنجازياً من أفعال الإثبات - العرض -، متمثلاً في التأكيد على الشرعية الدستورية وإثبات أحقية عبد الله صالح في ممارسة الصلاحيات التي يكفلها له الدستور. هذا الدستور الذي ينعم في ظله اليمن بـ "الأمن والاستقرار"، هو الآن معرض للاستهتار به من لدن أحزاب اللقاء المشترك، مما سيُعرض أمن الوطن واستقراره لكل الاحتمالات السيئة وعلى رأسها الفوضى، وهذا ما جعل عبد الله صالح يصرخ بأعلى صوته: "لا للفوضى، لا لقطع الطرق، نعم للحرية، لا لقطع الطرق، لا لقتل النفس المحرمة". في هذا الملفوظ يتهم المتكلم خصومه، منزلاً بهم أفعالا تحط من قيمتهم الإنسانية وتجردهم من صفة المواطنة، وتجعلهم عرضة لتبرئ الشعب منهم. فقد وصفهم بمثيري الفوضى وقطاع الطرق والقتلة، في تراتب للحجج يفضي إلى نتيجة مضمرة من قبيل "إنهم أعداء للوطن وللإنسان". وهذا يستوجب من الشعب الاحتراس منهم، إن لم يكن الانقضاض عليهم، أو على الأقل القبض عليهم وتقديمهم إلى العدالة قصد محاكمتهم.



قد تترتب على هذه الحجج نتيجة أو نتائج أخرى مضمرة تصب كلها في خانة تبخيس خصوم الرئيس صالح. وهذا من شأنه أن يؤدي إلى تنفير السامعين منهم ورفض أطروحتهم حول الصراع الجاري بين المعارضة والنظام الحاكم، والتي أبانوا فيها عن انحيازهم إلى الحركة الاحتجاجية من خلال تبنيهم لموقف المحتجين الذين يطالبون برحيل الرئيس. أمام هذا الموقف، لم يكن لصالح خيار سوى أن يواجه بعنف يناسب حجم الهجوم الشرس الذي يستهدفه، وهذا ما دفعه إلى نهج أسلوب المبالغة في الاحتجاج بالصفات لما لها من أهمية في الحجاج. ومعلوم أن الصفة - كما يرى بيرلمان - تعبر عن وجهة نظر صاحبها وعن الموقف الذي يتغياها منها. وصالح حين يصف خصومه بالفوضويين وقطاع الطرق والقتلة، فإنه يبتغي بهذه الصفات إدانتهم ومحاكمتهم والقصاص منهم. وقبل خلق صالح لعكس النموذج بتقديم الخصم في صورة منفرة، كان قد شيد النموذج لأنصاره في ميدان السبعين حين أسبغ عليهم صفات إيجابية، مثل " جماهير شعبنا اليمني العظيم"، و" جماهيرنا الأبية"، و" الجماهير الصامدة" وهي صفات يتمتع أصحابها ب" المشاعر الطيبة الفياضة". كل هذه الصفات وغيرها من الصفات الإيجابية، شكل منها عبد الله صالح نموذجا إيجابيا لأنصاره في محاولة منه لاستمالتهم ودفعهم إلى تصديق خطابه وتبني موقفه.

بعدما قدم الرئيس صورة سلبية عن خصومه وهو يشيد عكس النموذج، سارع إلى توضيح ما قد يخلق التباسا لدى الجماهير عند سماعها للحجة الثانية المتمثلة في " لا لقطع الطرق". فقد نعت المتكلم خصومه بقطاع الطرق، لأنهم يوقفون ضخ النفط ويمنعون وصول الغاز الذي يحتاجه المواطنون. وهذا الفعل كان كافيا بالنسبة لصالح كي يشدد على إلصاق صفة "قطاعين طرق" بأحزاب اللقاء المشترك، مكررا إياها ثلاث مرات حتى تترسخ في أذهان السامعين. وقد صاحب تشييد عكس النموذج نبر قوي على المقاطع الصوتية، بلغ فيه الصوت منطقة الجواب. وهي منطقة تناسب مقام الجهر بأفعال عكس النموذج حتى تستقر في أذهان السامعين وتنفر منها أنفسهم. وجاءت حركة اليدين المتمثلة في الإشارة بالسبابة وفي تشكيل الدائرة بضم السبابة إلى الإبهام متوافقة مع الرسالة اللفظية "قطاعين الطرق"، التي تم فيها استقباح عمل أحزاب اللقاء المشترك. فالتنقيص من عمل الخصوم تتم الإشارة إليه بالسبابة للتعبير عن الإدانة، وإنجاز هذا الفعل التعبيري "الإدانة" يعكس حالة من الغضب

تعتري منجزه، الذي يقوم بإفراغ شحنة الغضب وتصريفها عبر لغة الجسد والتعبير عنها بالإيماءة الدائرة المشكلة من الإبهام والسبابة. وحين تتوافق الرسالة اللفظية مع الرسالة غير اللفظية تكون الصورة قد اكتملت ويكون المعنى قد اتضح، مما يؤدي إلى تفاعل المتلقي مع المتكلم.

بعد تقديم صورة منفردة عن أحزاب اللقاء المشترك، يتوقف صالح عن الكلام هنيئة. هذا اللجوء إلى الصمت كان متعمداً، إذ قصد به المتكلم حصول تفاعل المستمعين إليه من خلال تنديدهم بالخصوم الذين مازال صدى انتقادهم يتردد في آذانهم. وهذا ما حصل بالفعل، فقد ارتفعت الأصوات منددة بالخصوم مستنكرة أفعالهم. أمام هذا التفاعل الذي تمثل في الهتافات وترديد الشعارات التي تشجب الخصوم وتمجد صالحاً، قام هذا الأخير بمبادلة الجماهير "الوفاء بالوفاء" حين أشاد بالحاضرين في ميدان السبعين وهو يعيّنهم باسم الإشارة "هذه" ثلاث مرات، معضداً القول "هذه هي جماهيرنا، هذه هي جماهيرنا الموجودة في ميدان السبعين، هذه الجماهير الصامدة"، مشيراً إليها بالسبابة لزيادة في التوضيح وتدقيق في تعيين المقصود بـ "الجماهير الصامدة". والخطيب إذ يتباهى بـ "الجماهير الصامدة" و "العظيمة" و "الأبية" ذات "المشاعر الفياضة الطيبة"، لا تفارق ذهنه صورة الخصم. فقد انعطف نحوه مباشرة بعد إشادته بصمود مناصريه "هذه الجماهير الصامدة"، متهماً إعلامه بالكذب، مردداً لفظة "كذب" ست مرات لتثبيت الادعاء، وقد تخللت ألفاظ الكذب لفظة "دجل" التي تنتمي هي ولفظة "كذب" إلى حقل دلالي واحد "وكم كذب، وكم كذب، وكم كذب عبر القنوات الفضائية لأصحاب اللقاء المشترك والنفوس الضعيفة والمرتدين. كم كذب، كفاكم كذب ودجل على الشعب، كفاكم كذب".

يقتضي هذا الملفوظ أن إعلام أحزاب اللقاء قد كذب على الشعب وافترى عليه مما يستوجب عدم تصديقه. وعدم تصديق الخصم هو المراد الذي يسعى عبد الله صالح إلى ترسيخه في ذهن الجماهير الموجودة في الميدان ومن خلالها كل الشعب اليمني. كما يضر هذا الملفوظ بنية عميقة مفادها أن الإعلام الصادق هو إعلام حزب المؤتمر الوطني الذي هو حزب الرئيس، أو أن حجج الخصوم واهية لذا تراهم يكذبون، أو أن الكذب يظل ملتصقا بمختلقه، فخليق بهم ألا يكونوا محل ثقة فلا تثقوا فيهم. ويمكن أن نفتح على تأويلات أخرى،

منها أن عبد الله صالح وهو يؤكد ست مرات على أن الكذب ملتصق بالخصم، فإنه يريد أن يوقع خصمه في دائرة المعنيين بهذا الشطر من الحديث النبوي: "وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذاباً"¹. ويوجد تأويل يذهب بنا إلى أن صالحاً يتهم خصمه بالنفاق متكناً على حديث آخر ورد فيه أن من علامات النفاق أن الرجل "إذا حدث كذب"². كل هذه التأويلات وغيرها قد يستحضرها المخاطب في ميدان السبعين، وذلك لتوفر مجموعة من القواسم المشتركة بين المشاركين في العملية التواصلية، نذكر منها العنصر الديني والعنصر الثقافي والعنصر اللغوي. وصفة الكذب التي تُلصق بالخصوم تتنافى مع صورة المسلم المؤمن، فقد جاء في الحديث النبوي أن المؤمن لا يكذب. وغير بعيد عن هذه الصفة، تحضر صفة الدجل أيضاً محملة بالدلالات السلبية. يستحضر المخاطبون مجموعة من التأويلات لملفوظ واحد، لكن السياق يحدد التأويل الأقرب إلى مقصدية المتكلم. ففي سياق التشهير بالمعارضة، قام صالح بتشجيع سلوك أحزاب اللقاء المشترك واستهجان قنواتها الفضائية، كما قام بتشجيع مواقف أصحاب القنوات الفضائية الأخرى التي تدعم توجهات أحزاب اللقاء. وقد أشار إلى أصحاب هذه القنوات الأخيرة بقوله: "النفوس الضعيفة والمرتدين" دون تعيين من هم أصحاب تلك النفوس ومن هم المرتدون. قد يعني بأصحاب النفوس الضعيفة والمرتدين أعضاء اللقاء المشترك، وقد يعني بهذه النفوس أصحاب القنوات الفضائية التي ساندت المحتجين وعلى رأسها قناة الجزيرة القطرية، التي أظهرت إحدى آلات التصوير الرسمية - كاميرا - علامة شعارها إلى جانب علم الاحتلال الإسرائيلي في صورة يدين متصافحتين مع تعليق مكتوب موجّه نحو المتلقي المشاهد "وجهان لعملة واحدة". وقد حدث ذلك بالتزامن مع تلفظ المتكلم بـ "عبر القنوات الفضائية لأصحاب اللقاء المشترك والنفوس المريضة والمرتدين".

لم يبادر صالح حتى الآن إلى نهج سبيل التأدب مع خصومه، بل لاحظنا خرقه إياه من خلال خرق قاعدة الاستحسان عند لیتش، حين قام بتكثير التنقيص من أحزاب اللقاء المشترك وتقليل إطرائها، بل لم يثن عليها البتة، وهذا من شأنه الإبقاء على مسافة الخلاف

¹ - علوي بن عبد القادر السقاف، الدرر السنية، موسوعة الأخلاق، موقع إلكتروني www.dorara.net.

² - البخاري، صحيح البخاري، رقم 33.

قائمة دون السعي إلى تقليصها على الأقل. ومن مشهد هيمن فيه حقل القيم السلبية - الكذب والدجل -، انتقل صالح إلى مشهد آخر يهيمن فيه حقل القيم الإيجابية - الوفاء - "إننا نبادلكم الوفاء بالوفاء، نحبيكم". وقد تضمن هذا الملفوظ فعلين إنجازيين من أفعال التعبيرات متمثلين في "إظهار الوفاء" و"تقديم التحية" للجماهير الوفية التي لم تنطل عليها أكاذيب الخصوم، ولم تنجر وراء ادعاءات المرتدين، بل ظلت على العهد والوفاء للرئيس صالح الذي منحته أصواتها في انتخابات 2006.

أمام هذا الموقف، كان لزاما على الرئيس صالح أن يقدر موقف مناصريه النبيل ويناديها بالجماهير العظيمة. وبعد إبداء مشاعر التقدير للجماهير الوفية في ميدان السبعين، ينتقل إلى الحديث عن جماهير اللقاء المشترك المعتصمة في ساحة التغيير بصنعاء، والتي أبى صالح إلا أن يسميها شارع الجامعة، متعمدا عدم التلفظ بكلمة "التغيير" نظرا لحمولتها الثورية وارتباطها بسياق الصراع بين أنصار صالح والمتظاهرين من أجل احتلال الأماكن العامة، باعتبار أن هذه الفضاءات لها رمزياتها وقوتها التأثيرية. وهذا ما فطن له أنصار صالح حين منعوا المتظاهرين من احتلال ميدان السبعين، مما اضطر هؤلاء الأخيرين إلى الانتقال إلى المنطقة المحيطة بجامعة صنعاء، مطلّقين على هذا الفضاء اسم "ميدان التغيير". هذا المكان الذي يمثل فضاء معاديا للرئيس صالح وقومه، انطلقت منه أهاريج ممزوجة بصرخات الاحتجاج، اشتدت بعد المذبحة التي شهدت مقتل اثنتين وخمسين (52) شهيدا وأكثر من سبعة مائة جريح (700) في يوم واحد هو يوم 18-3-2011، وقد أضحي هذا اليوم يعرف بجمعة الكرامة. حمل المتظاهرون قوات صالح قتل المعتصمين، لكن صالحا ادعى أن سكان الحارات المجاورة لساحة التغيير هم من ارتكبوا المجزرة. ولأن الجريمة قد أعد لها من قبل، فقد أعد لها أيضا السبب الذي كان وراء الفاجعة، إذ أرجع صالح السبب إلى تضرر السكان من وجود المعتصمين. وبهذا الادعاء يكون صالح قد خرق مبدأ التصديق عند طه الذي مفاده "لا تقل لغيرك قولا لا يصدقه فعلك". فسقوط اثنتين وخمسين فردا (52) وجرح أكثر من سبعة مائة (700) من المحتجين، لا يمكن أن يقترفهما سكان الحي المجاور لميدان التغيير، وإلا لكان رد المعتصمين على المعتدين من السكان قد وقع أو كان توجيه الاتهام إليهم قد تم.

لم يعد المكان فضاء محايدا، وإنما أضحي شاهدا على صراع بين إرادتين: إرادة تطمح إلى تداول السلطة ومحاربة الفساد وترفع شعار التغيير بميدان التغيير الذي أمسى فضاء معاديا لصالح ولأنصاره، وإرادة تتمسك بنظام الحكم القائم وتدعي الشرعية السياسية والدينية، متخذة ميدان السبعين مكانا للتعبير عن مواقفها. من بين هذه المواقف دعوة صالح لمناوئيه المعتصمين بميدان التغيير إلى الحوار، ودعوتهم أيضا إلى القيام بمنع اختلاط الذكور بالإناث "وأما جماهيرهم الموجودة في شارع الجامعة، إننا ندعوهم، ندعو أصحاب اللقاء المشترك أن يحكموا ضمائرهم ويأتوا للحوار. أدعوهم إلى منع الاختلاط الذي لا يقره الشرع، الاختلاط في شارع الجامعة".

بعدما أمطر صالح أحزاب اللقاء وعبرهم كل المحتجين المطالبين برحيله بوابل من النعوت، واصفا إياهم بقطاع الطرق والقتلة والمرتدين، متهما إياهم بالكذب والدجل، مشيرا إليهم بذوي النفوس الضعيفة، بعد هذا الكيل من النعوت يدعوهم إلى الحوار الذي انتفت شروط تحققه. ودعوة صالح إلى الحوار ممزوجة بالتشهير بالمعارضة، إذ إن هذه الأخيرة تسمح باختلاط الرجال بالنساء، وهذا يتنافى مع الشرع ومع طبيعة المجتمع اليمني المحافظ. وصالح وهو يسوق قضية الاختلاط، يريد أن يربك الخصوم من خلال استثارة المشاعر الدينية للمعتصمين أو بعضهم فيدينون الاختلاط، ويتحول النقاش من موضوع المطالبة بالرحيل إلى المطالبة بمنع الاختلاط. وهذا من شأنه أن يقلل حظوظ خصوم صالح في اكتساب تعاطف الشرائح المحايدة، التي تنزع غالبيتها نحو التدين والمحافظة على الأصول ومنها عدم الاختلاط. وصالح حين يدعو إلى عدم الاختلاط، فهو يستثمر الدين من أجل تحقيق أهداف سياسية تمنحه تقدما على خصومه. وقد يستهدف صالح بطرح قضية الاختلاط قلب الحماسة إلى فتور عبر إجهاض الدور الهام الذي تقوم به النساء في التحريض ضد النظام الحاكم. فتداول خبر الاختلاط في أوساط المجتمع قد يؤثر فيهن سلبا، مثلما قد يؤثر في قادة المعارضة عموما وعلى رأسهم أحزاب اللقاء المشترك كونهم لم يعيروا الحرمات والأعراف اهتماما، في حين حرص أنصار صالح في ميدان السبعين على مراعاة مشاعر اليمنيين واليمنيات من خلال قيامهم بمنع الاختلاط. لم تكن دعوة صالح إلى "منع الاختلاط في شارع الجامعة" دعوة نصح وإرشاد، وإنما ابتغى بها النيل من خصومه وتقديم المكان الذي يعتصمون به في صورة

منفرة. هذه الصورة تضعف حاجية مكان الخصوم، وتقوي بالمقابل حاجية مكان المتكلم التي هي بالتالي تعضد خطابه.

يكتسب ميدان السبعين قوته الحاجية من كونه لا يشهد اختلاطا، ويكتسب مزيدا من هذه القوة أيضا باعتباره شاهدا على أيام مفصلية في الثورة اليمنية التي أرست معالم النظام البرلماني عام 1968. الثورة التي حاولت القوى المعادية لها إجهاضها حين حاصرت صنعاء سبعين (70) يوما، لكن تمكّن عبد الله صالح ومجموعة من الضباط في قوات الصاعقة من فك الحصار عن العاصمة والدفاع عن النظام الجمهوري البرلماني¹.

هذه الرمزية التي يحملها ميدان السبعين الذي يشكل فضاء الألفة لصالح، هي التي جعلت هذا الأخير يتكئ على حجة المكان وهو يوجه خطابه إلى الجماهير الحاضرة أمامه، وإلى خصومه أيضا وإن كانوا خارج دائرة من عناهم بالإخوة والأخوات "من هذا المكان، أيها الإخوة والأخوات، من هذا المكان، من ميدان السبعين أحيي المؤسسة العسكرية البطلة ورجال الأمن البواسل". يتضمن هذا الملفوظ "من هذا المكان أحيي" فعلا إنجازيا من أفعال التعبيريات - السلوكيات - حيث يُبدي صالح مشاعر التقدير للعسكر ولرجال الأمن. واعتبارا للسياق الذي ورد فيه الخطاب، فإن الملفوظ قد خرج إلى غرض طلب حماية الرئيس مثلما حمى هو والضباط صنعاء يوم الحصار. ولأن المؤسسة العسكرية عرفت انشقاقات في صفها فتضامن بعض أفرادها مع المتظاهرين، فقد طلب صالح من العسكر ورجال الأمن عدم تصديق الذين تنكروا لالتزاماتهم الوطنية، ولم يحافظوا عليها حين خرجوا عن النظام والقانون ودعوا إلى الخروج عن الشرعية الدستورية وطالبوا بتنحية الرئيس.

ساند المنشقون عن المؤسسة العسكرية مطالب المتظاهرين وعلى رأسها رحيل صالح. وتعددت وسائل التعبير عن المطلب الرئيس بين الكتابة على الجدار والكتابة على الكف والساق والصدر وعلى الياфطات واللافتات وعلى نصل السيف حتى، وبين الأهازيج وترديد الشعارات والتعليقات الساخرة. ومن بين الشعارات التي رفعها المتظاهرون، نذكر:

¹ - موقع المؤتمر نت، الناطق الرسمي باسم المؤتمر الشعبي العام- اليمن، مقال بعنوان: حصار السبعين.. معلومات وعبر، فيصل الصوفي.

- ارحل تراجع تَنَحَّ حل عنا (Get lost) ¹

- ارحل الزحف قريب ²

- ارحلوا بكل فسادكم ³

- ارحل أو الشهادة ⁴.

غلب على الشعارات طابع المواجهة مع النظام الحاكم، حيث جاء معجمها مليئاً بمفردات الحرب والزحف والشهادة.....، والكتابة على نصل السيف. وترجع هيمنة حقل الحرب إلى تعامل العسكر ورجال الأمن بعنف مع المتظاهرين، إذ ارتكبت مجزرة قضى فيها خمسون معتصماً، إضافة إلى مئات الجرحى في ساحة التغيير. قوبلت المظاهرات بالرصاص، وحين تيقن النظام الحاكم أن الرهان على العنف بقمع المحتجين خاسر وأن الاحتجاجات تتصاعد وتشتد من يوم لآخر، بدأ يراهن على الجماهير المتعاطفة مع الرئيس لتوجيهها نحو تعطيل مسار الثورة الشعبية. هذه الجماهير نالت حظها الأوفر من الحضور في خطاب صالح، حيث تم تقديم الشكر لها، فالإشادة بمشاعرها الفياضة ووفائها وإبائها، ثم إنهاء الخطاب على إيقاع التحية للجماهير ومبادلتها الوفاء بالوفاء لاعتقاده أن أي رسالة يريد أن يوجهها إلى جهات داخلية أو خارجية لا تستمد قوتها وحجاجيتها إلا من خلال مساندة الجماهير لمنجزها. ولكي يضمن صالح مساندة الجماهير له، فلا بد من التأثير فيها بإثارة انفعالاتها من خلال إثارة الإحساس بالعظمة التي تجلت في مواضع من الخطاب منها "شعبنا اليميني العظيم"، و"هذه الجماهير الصامدة".

تضافر اللون الرمادي والتنويع في الأداء الصوتي والتلويع بحركة اليد مع الخطاب اللفظي ليبلِّغ المتكلم خصومه المتمثلين في أحزاب اللقاء المشترك وباقي المحتجين، رسالة مفادها أن لا سبيل إلى أمن اليمن واستقراره إلا بالعودة إلى الشرعية الدستورية واحترام القانون، وأن المظاهرات والاحتجاجات التي تساندها أحزاب المعارضة لن تنال من النظام

¹- نادر سراج، مصر الثورة وشعارات وشبابها، ص204.

²- نادر سراج، مصر الثورة وشعارات وشبابها، ص204.

³- نفسه

⁴- نفسه، ص 203.

السياسي الحاكم؛ وذلك لأنه يمتلك الشرعية النضالية الثورية، إذ هو امتداد لثورة الضباط الذين فكوا الحصار عن صنعاء وأرسوا النظام الجمهوري المدني البرلماني. ويمتلك أيضا الشرعية التي منحها وتمنحها له "ال جماهير المليونية" التي تفاعلت مع خطابه، مبقية على الوفاء للوطن وللرئيس الذي بادلها هو الآخر الوفاء، مغدقا عليها صفات إيجابية، واصفا إياها بالإباء والعظمة ليثير انفعالاتها وليؤثر فيها حتى تواصل دعمها له في المحطات القادمة.

خلاصة وتركيب

في دراستنا للخطابات السياسية التي اعتمدناها متنا للمقاربة، توصلنا بآليات تداولية متمثلة في الإشارات والأفعال الإنجازية ومتضمنات القول والحجاج والتأدب والتناسق والمناسبة. هذا دون إغفال لوظائفها التركيبية والدلالية من خلال الاهتمام بعنصري الاتساق والانسجام باعتبارهما مدخلين طبيعيين لاستجلاء البعد التداولي في الخطاب السياسي وغيره من الخطابات التي تخضع للمنهج التداولي. قمنا بتطبيق المفهوم الواحد من هذه المفاهيم التداولية على ملفوظات من الخطابات، وأخضعنا خطابا كاملا للمفاهيم التداولية مجتمعة قصد الإلمام بالجوانب المختلفة للخطاب ومن ثمة الإحاطة بالمعنى الكلي. وخصصنا خطابا آخر لتحليله من زاوية نظرية المناسبة التي تدرج ضمن التداولية المعرفية. إضافة إلى هذا، تناولنا الجوانب الحجاجية المتعلقة بالعناصر اللفظية وغير اللفظية، مسترشدين بنظرية الحجاج اللغوي الموسع التي أسسها أبوبكر العزاوي، وقد اقتصرنا في دراستنا لحجاجية العناصر غير اللغوية على لغة الجسد، ولون اللباس، ووضعية المتكلم أثناء الإلقاء، والمكان باعتباره فضاء غير محايد يتمتع بسلطة لها تأثير.

سلك الخطاب السياسي الرسمي ممثلا في الخطابات الرئاسية والذي جاء محملا بالعاطفة سبيل التبسيط والوضوح. فقد جاء الأسلوب تقريريا تكاد تنعدم فيه الصور البيانية وحظي فيه التوكيد بنصيب وافر عبر استخدام أدوات التوكيد والتكرار لنتثبيت المعنى في أذهان السامعين. وطبع هذا الخطاب الإطناب، مقابل حضور خاصية الإيجاز التي طبعت خطاب المعارضة ممثلة في الجماهير المحتجة. هذا الخطاب الأخير شهد توظيف السخرية

قصد إضعاف القوة الحجاجية لخطاب السلطة الحاكمة وتقليص دائرة تأثيره، ومن ثم النيل من السلطة التي يتمتع بها الحاكم السياسي. وتباينت استراتيجيتنا الخطابيين: الخطاب الرسمي الرئاسي وخطاب الجماهير المحتجة. فبينما اعتمد الأول استراتيجية تضامنية رغم امتلاكه السلطة والقوة والنفوذ، نهج الخطاب المضاد استراتيجية توجيهية من خلال إنجاز أفعال الأمر واعتماد أسلوب التهديد والوعيد ورفض التفاوض مع الخصم السياسي وفرض شروط للخروج من الأزمة.

نتائج الباب الثاني

بعد دراستنا لخطابات رئاسية وخطابات معارضة لها دراسة تداولية، خلصنا إلى أن الاختصار على المفهوم الواحد من المفاهيم التداولية لا يضيء إلا جانباً من جوانب الخطاب السياسي المتعددة. وبالتالي فالإكتفاء بنظرية واحدة، مثل أفعال الكلام أو نظرية التأديب أو نظرية الاستلزام التخاطبي، لا يحقق دراسة وافية لهذا الخطاب، وإن كان يمدنا ببعض الأسس وبعض الآليات التي تسهم في استجلاء بعض خصائص الخطاب السياسي، واستقصاء معانيه، وتقربنا من إدراك مقاصد المتكلم. وهذا لا يعني ضرورة حضور كل المقولات التداولية عند كل دراسة تعتمد المنهج التداولي. فطبيعة الخطاب السياسي هي التي تملي على الدارس توظيف المقولات الأكثر إجرائية. وقد رصدنا هذا في أكثر من خطاب من الخطابات التي أخضعناها هنا للدراسة وفق هذا المنهج. بالمقابل عايّنا حضوراً دائماً لمقولات تداولية، مثل نظرية التلفظ ونظرية أفعال الكلام ونظرية الحجاج عند دراستنا لكل خطاب، كما عايّنا غياباً تاماً لنظرية التأديب وكل ما يتعلق بالجانب التهذيبي في خطاب المعارضة. هذه الأخيرة اعتمدت استراتيجية توجيهية بعد شعورها بامتلاك قوة، خولت لها تأسيس خطاب تراوحت لغته بين التهديد وإصدار الأوامر والسخرية لتقويض سلطة خصمها السياسي. وهي كلها سلوكيات ينتفي معها حضور مبدأ التأديب وفق تصور كل من ليتش وروبول وبراون ولفنسن وطه.

وخلصنا أيضاً إلى أن الغالبية من منجزي الخطابات السياسية الرسمية قد اعتمدوا أسلوب الإضمار في مواضع متعددة من خطاباتهم، خصوصاً في خطابي الرئيس التونسي بن

علي والرئيس المصري مبارك. بالمقابل هناك شبه غياب لهذا الأسلوب في خطاب الرئيس اليمني صالح، وهو ما يمكن إرجاعه إلى التفاوت في الشعور الذي يدفع البعض إلى توخي الحذر من ردود فعل مناوئيه؛ إذ باعتماده الإضمار يمنح نفسه إمكان التوصل من القصد، ويدفع البعض الآخر إلى جعل قوله مطابقا لقصده، متوخيا إيصال أفكاره دون أن يعتريها التباس قد يولّد معاني غير التي يرغب المتكلم في تبليغها لمخاطبيه. وحول تفادي اللبس، سجلنا حضورا خافتا للصورة البيانية، ذلك أن لغة الخطاب السياسي تراهن على الأسلوب التقريري المباشر، وهذا لا يعني خلوه من أسلوب الإضمار البتة.

إضافة إلى هذا، وقفنا على إمكان دراسة الخطاب السياسي من خلال اعتماد نظرية المناسبة، دون الحاجة إلى نظريات أخرى بداعي تغطية الجانب غير المكتمل في الدراسة. ومما أهّل هذه النظرية منهجا متكاملا - إلى حد ما - في دراسة الخطاب السياسي، توفر عنصرين رئيسيين، هما: أولا، طبيعة هذا الخطاب الذي ينزع عموما نحو الوضوح. وثانيا، تصور النظرية لمفهوم السياق واهتمامها بالجانب التصريحي والجانب الاستلزامي للتواصل اللفظي، وبالأثر(النتيجة) والجهد الذي يبذله المتلقي لإدراك قصد المتكلم. هذا المتكلم هو المسؤول عن جعل الخطاب مناسبا أو غير مناسب، إذ يتوجب عليه إنجاز خطاب غير مكلف من حيث الجهد التأويلي الذي يبذله المتلقي ليحصل على نتائج يتوخاها هذا المتكلم.

خاتمة عامة

سمح لنا البحث بمجموعة من الخلاصات والاستنتاجات تعلق بعضها بالمنهج التداولي وتعلق بعضها الآخر بالخطاب السياسي ويمكن أن نجملها في الآتي:

- كسبت التداولية بانفتاحها على مجموعة من الحقول المعرفية ثراء وتنوعا من حيث العدة المفهومية، ومن حيث آليات الاشتغال على تحليل الخطاب السياسي؛

- يُعد الخطاب السياسي المنطوق والمكتوب مجالا للدراسة التداولية كونه يخزن أبعادا تداولية مثل السياق والقصد والحجاج والافتراض المسبق والاستلزام التخاطبي والأفعال الإنجازية والتناص والمناسبة؛

- طبع لغة الخطاب السياسي الرئاسي التبسيط والوضوح، وقد تجلّى هذا من خلال اعتماد الخطيب السياسي الأسلوب التقريرى تفاديا لسوء فهم قد يحصل لدى الجماهير المستهدفة، يتعذر معه التواصل والتفاعل ويخفق جرّاءه التأثير في المخاطبين؛

- إن المصطلح الغربى (Présupposition) أقرب إلى التضمّن منه إلى الاقتضاء الذى يتفرع إلى ثلاثة أنواع. والافتراض المسبق - المقترّح ترجمةً لهذا المصطلح الغربى - فى بعده المنطقى يتقاطع مع نوع واحد من أنواع هذه الدلالة، ويكاد يتطابق مع دلالة التضمّن عند علماء الأصول. من هنا جاز لنا القول إن ترجمة هذا المصطلح الغربى بالاقتضاء غير سليمة؛

- شكلت نظرية المناسبة أو الصلة منعطفا مهما فى مسار الدرس التداولى واللسانى عامة؛ فقد أتت بمفهوم جديد للسياق وتصور مختلف عن التصورات السابقة له. وبهذا تكون قد نقلت الحديث من تداولية لسانية إلى تداولية معرفية؛

- فى دراستنا للخطاب السياسى وفق نظرية المناسبة، وقفنا على مسؤولية المتكلم فى جعل الخطاب مناسبا أو غير مناسب، إذ يتوجب عليه إنجاز خطاب غير مكلف من الجهد التأويلى الذى يبذله المخاطب للحصول على نتائج؛

- تجاوزت نظرية المناسبة التمييز الذي أقامته التداولية بين المعنى الحرفي والمعنى الاستلزامي الناتج عن خرق قاعدة أو أكثر من قواعد المحادثة عند كرايس. فهي ترى أن الاستلزام ليس متولداً عن المعنى الحرفي، وإنما يشيده السياق عبر فرضيات يستحضرها المخاطب ويخضعها لسيرورة تأويلية، يتم عبرها الإبقاء على ما بدا من هذه الفرضيات موصلاً إلى مقاصد منتج الخطاب؛

- يرتبط مبدأ المناسبة بالمردودية التي يتم تقييمها من خلال معيار الجهد والنتيجة؛ حيث يكون القول أو الفعل الإشاري الاستدلالي مناسباً، كلما كان الجهد الذي يبذله المخاطب في التأويل أقل مع التوصل إلى نتائج أكثر؛

- حاولنا تدارك النقص الذي يعتري المنهج التداولي من خلال معالجة الجوانب غير اللغوية، التي تشكل إلى جانب العناصر اللغوية الأنساق التعبيرية للخطاب السياسي. فكون التداولية لا تتكفل بدراسة النسق الحركي والنسق البصري ومختلف العناصر الأيقونية، مثل لون اللباس الذي يرتديه الخطيب السياسي، وحركة اليدين التي هي جزء من لغة الجسد، ووضعية الجلوس أو الوقوف التي يكون عليها الخطيب أثناء إلقاء الخطاب، وهيأته، والإضاءة... ففي غياب الاهتمام بدراسة هذه العناصر التي يتكون منها الخطاب السياسي إلى جانب العناصر اللفظية، تناولنا الجانب الحجاجي لمجموعة من هذه العناصر في علاقتها بعناصر أخرى متضافرة معها لتشييد الدلالة. وقد سعينا إلى الإحاطة بجوانب من الخطاب السياسي تسهم دراستها في الاقتراب أكثر من المعنى الكامل في الخطاب، ومن ثم محاولة إدراك مقاصد منتج الخطاب ومعرفة مدى تأثير هذه العناصر في المخاطبين؛

- إلى جانب أعمال باحثين في الغرب، ساهمت أعمال باحثين عرب معاصرين في إغناء الدرس الحجاجي والدرس التداولي. وعلى رأس هذه الأعمال نذكر مبدأ التصديق عند طه عبد الرحمن، ونظرية الحجاج اللغوي الموسّع عند أبي بكر العزاوي، ونظرية التخاطب الإسلامي عند محمد محمد يونس علي؛

- لم يعد التناسق مفهوماً ذا بعد نصي دلالي يوظف في اتساق النص وانسجامه فقط، ولكن أصبح ذا بعد تداولي ليس من منطلق اعتباره آلية حجاجية، وإنما باعتباره آلية لإنتاج المعنى، وقد تم إجراء تطبيقات لهذا المفهوم على ملفوظات من الخطاب السياسي؛

- إن الاختصار على المفهوم الواحد لا يضيء إلا جانباً من جوانب الخطاب السياسي، وبهذا تدعو الحاجة إلى استثمار كل مفاهيم التداولية التي تستجيب لطبيعة هذا الخطاب؛

- شهدت بعض الخطابات السياسية حضوراً قوياً لمفاهيم تداولية، مقابل غياب أو شبه غياب لأخرى. ومن بين المفاهيم الأكثر حضوراً في الخطابات السياسية الرئاسية نذكر الحجاج والأفعال الإنجازية، في حين سجلنا حضوراً لمظاهر التأدب ولكل المظاهر التي تندرج ضمن الجانب التهذيبي من التواصل في مواضع قليلة من الخطابات. وإن كان هذا الجانب قليل الحضور في الخطابات الرسمية، فإنه منعدم في خطاب المعارضة التي اعتمدت استراتيجية توجيهية لشعورها بامتلاك قوة تمثلت في الحشود وتعاطف الناس مع قضيتها وعدم نيل عنف السلطة الحاكمة المادي والمعنوي من حركات الاحتجاج؛

- تباينت استراتيجيتنا الخطاب الرسمي الرئاسي والخطاب المضاد الممثل في مطالب الجماهير المحتجة. فقد اعتمد الخطاب الأول استراتيجية تضامنية رغم امتلاكه القوة والسلطة، في حين اعتمد خطاب المعارضة استراتيجية توجيهية من خلال إنجاز أفعال الأمر وتبني أسلوب التهديد والوعيد ورفض التفاوض وفرض شروط لإنهاء الأزمة السياسية؛

- يعد المكان عنصراً حجاجياً يملك سلطة استثمارها خطاب المعارضة وحرّم منها الخطاب الرسمي، مع استثناء وحيد تمثل في استثمار خطاب الرئيس اليمني للمكان معادلاً به سلطة المكان الذي أوى تجمع المعارضين له؛

هذه النتائج تحفزنا على البحث في الجوانب المتعددة للخطاب السياسي السمعي البصري الذي يسع الأنساق اللفظية وغير اللفظية، إضافة إلى العناصر السياقية مثل المتكلم والمخاطب والزمان والمكان والظروف المحيطة بالخطاب، وتمنحنا إمكان ارتياد آفاق أرحب في مجال دراسة أنواع الخطاب السياسي الذي يحضر فيه الخطاب والخطاب المضاد مثل المناظرة السياسية وخطابات الأحزاب السياسية المتنافسة أثناء الحملات الانتخابية وفي البرلمان والحوارات والنقاشات السياسية، التي تشهد عرض الرأي والرأي الآخر.

وأخيراً نرجو الله أن يكون هذا الجهد الذي بذلناه في هذا البحث فاتحة لمزيد من الاجتهاد.

ملحق البحث

1. خطاب الرئيس التونسي زين العابدين بن علي

2. خطاب الرئيس المصري حسني مبارك

3. خطاب الرئيس الليبي معمر القذافي

4. خطاب الرئيس السوري بشار الأسد

5. خطاب الرئيس اليمني علي عبد الله صالح

6. خطاب الرئيس السوداني عمر البشير

7. خطاب الرئيس التونسي قيس سعيد

8. خطاب المعارضة التونسية

9. خطاب المعارضة المصرية

10. خطاب المعارضة الليبية

11. خطاب المعارضة السورية

12. خطاب المعارضة اليمنية

13. خطاب المعارضة السودانية

1. خطاب الرئيس التونسي زين العابدين بن علي

العاصمة تونس، قصر قرطاج

يوم 13- 01 - 2011

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الشعب التونسي،

نكلمكم اليوم ونكلمكم لكل في تونس وخارج تونس، نكلمكم بلغة كل التونسيين والتونسيات. نكلمكم لأن الوضع يفرض تغيير عميق.. تغيير عميق وشامل. وأنا فهمتكم فهمت الجميع: البطال والمحتاج والسياسي واللي طالب مزيد من الحريات. فهمتكم، فهمتكم الكل. لكن الأحداث اللي جارية اليوم في بلادنا ماهيش متاعنا، والتخريب ما هوش من عادات التونسي، التونسي المتحضر، التونسي المتسامح.

العنف ما هوش متاعنا ولا هو من سلوكنا، ولا بد أن يتوقف التيار. يتوقف بتكاتف جهود الجميع: أحزاب سياسية، منظمات وطنية، مجتمع مدني، مثقفين ومواطنين. اليد في اليد من أجل بلادنا. اليد في اليد من أجل أماننا كل أولادنا. سيكون التغيير اللي أعلن عليه الآن استجابة لمطالبكم اللي تفاعلنا معها. وتألما لما حدث شديد الألم، حزني وألمي كبيران لأنني أمضيت أكثر من 50 سنة من عمري في خدمة تونس في مختلف المواقع من الجيش الوطني إلى المسؤوليات المختلفة، و23 سنة على رأس الدولة. كل يوم من حياتي كان وما زال لخدمة البلاد، وقدمت التضحيات ومُنَحِبْشُ نعددها، ولم أقبل يوما ومَنْقَبْلْشُ باش تسيل قطرة دم واحدة من دماء التونسيين. تألما لسقوط ضحايا وتضرر أشخاص، وأنا نرفض أن يسقط المزيد بسبب تواصل العنف والنهب. أولادنا اليوم في الدار ومُش في المدرسة، وهذا حرام وعيب، لأننا أصبحنا خائفين عليهم من عنف مجموعات سطو ونهب واعتداء على الأشخاص. وهذا إجرام مش احتجاج، وهذا حرام. والمواطنين كل المواطنين لابد أن يقفوا أمامهم، واحنا اعطينا

التعليمات ونعول على تعاون الجميع حتى نفرق بين هذه العصابات والمجموعات من المنحرفين الذين يستغلون الظرف وبين الاحتجاجات السلمية المشروعة التي لا نرى مانعا فيها. وأسفي كبير كبير جدا وعميق جدا، وعميق جدا، فكفى عنفا، كفى عنفا. واعطيت التعليمات كذلك لوزير الداخلية، وكررت واليوم نؤكد من اللجوء للكرطوش الحي. الكرطوش موش مقبول، ماعندوش مبرر إلا لا قدر الله حد يحاول يفك سلاحك ويهجم عليك بالنار وغيرها، ويجبرك على الدفاع عن النفس. وأطلب من اللجنة المستقلة، أكرر اللجنة المستقلة التي ستحقق في الأحداث والتجاوزات المأسوف عليها، تحديد مسؤوليات كل الأطراف، كل الأطراف بدون استثناء بكل إنصاف ونزاهة وموضوعية .

وَنُتَسَنَّى من كل تونسي اللي ساندنا واللي ما يساندناش باش يدعم الجهود، جهود التهدة والتخلي عن العنف والتخريب والإفساد. فالإصلاح لأزمو الهدوء والأحداث اللي شفناها كانت في منطلقها احتجاج على أوضاع اجتماعية كنا عملنا جهود كبيرة لمعالجتها. ولكن مازال أماننا مجهود أكبر لتدارك النقائص ولأزم نعطي لأنفسنا جميعا الفرصة والوقت باش تتجسد كل الإجراءات الهامة التي اتخذناها. وزيادة على هذا، كلفت الحكومة، اتصلت بالسيد الوزير الأول باش نقوم بتخفيض في أسعار المواد والمرافق الأساسية: السكر والحليب والخبز والرفع في ميزانية التعويض. أما المطالب السياسية، وقلت لكم أنا فهمتكم وقررت الحرية الكاملة للإعلام بكل وسائله وعدم غلق مواقع الإنترنت، ورفض أي شكل من أشكال الرقابة عليها، مع الحرص على احترام أخلاقياتنا ومبادئ المهنة الإعلامية. أما بالنسبة للي للجنة اللي أعلنت عليها منذ يومين للنظر في ظواهر الفساد والرشوة وأخطاء المسؤولين وباش تكون هذه اللجنة المستقلة، نعم باش تكون مستقلة، وسنحرص على نزاهتها وإنصافها. والمجال مفتوح من اليوم لحرية التعبير السياسي بما في ذلك التظاهر السلمي، التظاهر السلمي المؤطر والمنظم، التظاهر الحضاري، فلا بأس حزب أو منظمة يريد تنظيم تظاهرة سلمية يتفضل، لكن يعلم بها ويحدد وقتها ومكانها ويؤطرها، ويتعاونوا مع الأطراف المسؤولة للمحافظة على طابعها السلمي. ونحب نؤكد أن العديد من الأمور لم تجر كما حييئتها تكون، وخصوصا في مجالي الديمقراطية والحريات، وغلطوني أحيانا بحجب الحقائق وسيحاسبون. ولذا أجدد لكم وبكل وضوح راني باش نعمل على دعم الديمقراطية وتفعيل التعددية. نعم على دعم

الديمقراطية وتفعيل التعددية. وسأعمل على صون دستور البلاد واحترامه، ونحب نكرر هنا وخلافا لما ادعاه البعض، أنني تعهدت يوم السابع من نوفمبر بأن لا رئاسة مدى الحياة، لا رئاسة مدى الحياة. ولذلك فإنني أجدد الشكر لكل من ناشدني بالترشح لسنة 2014، ولكني أرفض المساس بشرط السن للترشح لرئاسة الجمهورية. إننا نريد بلوغ سنة 2014 في إطار وفاق مدني فعلي وجو من الحوار الوطني وبمشاركة الأطراف الوطنية في المسؤوليات.

تونس بلادنا الكل، بلاد كل التوانسة، تونس نحبها وكل شعبها يحبها ويلزم نصونها. فلتبق إرادة شعبها بين أيديه وبين الأيادي الأمينة التي سيختارها لتواصل المسيرة، المسيرة التي انطلقت منذ الاستقلال والتي وصلناها منذ سنة 1987، ولهذا سنكون لجنة وطنية تترأسها شخصية وطنية مستقلة لها المصادقية لدى كل الأطراف السياسية والاجتماعية، للنظر في مراجعة المجلة الانتخابية ومجلة الصحافة وقانون الجمعيات إلى غير ذلك. وتقترح اللجنة التصورات المرحلية اللازمة حتى انتخابات 2014، بما في ذلك إمكانية فصل الانتخابات التشريعية عن الانتخابات الرئاسية

تونس لنا جميعا، فلنحافظ عليها جميعا. ومستقبلها بين أيدينا جميعا، فلنؤمنه جميعا. وكل واحد منا مسؤول من موقعه على إعادة أمنها وترميم جراحها والدخول بها في مرحلة جديدة تؤهلها أكثر لمستقبل أفضل. عاشت تونس، عاش شعبها، عاشت الجمهورية. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

2. خطاب الرئيس المصري حسني مبارك القاهرة، قصر الجمهورية يوم 10 فبراير/شباط 2011

"بسم الله الرحمن الرحيم..

الإخوة المواطنون، الأبناء شباب مصر وشاباتها،

أتوجه بحديثي اليوم لشباب مصر بميدان التحرير وعلى اتساع أرضها، أتوجه إليكم جميعا بحديث من القلب، حديث الأب لأبنائه وبناته.. أقول لكم إنني أعتز بكم رمزا لجيل مصري جديد يدعو إلى التغيير إلى الأفضل ويتمسك به ويحلم بالمستقبل ويصنعه.

أقول لكم قبل كل شيء، إن دماء شهدائكم وجرحاكم لن تضيع هدرًا، وأؤكد أنني لن أتهاون في معاقبة المتسببين بها بكل الشدة والحسم، وسأحاسب الذين أجرموا في حق شبابنا بأقصى ما تقررته أحكام القانون من عقوبات رادعة. وأقول لعائلات هؤلاء الضحايا الأبرياء: إنني تألمت كل الألم من أجلهم مثلما تألمتم، وأوجع قلبي كما أوجع قلوبكم.

أقول لكم إن استجابتي لصوتكم ورسالتكم ومطالبكم هو التزام لا رجعة فيه، وإنني عازم كل العزم على الوفاء بما تعهدت به بكل الجدية والصدق، وحريص كل الحرص على تنفيذه دون ارتداد أو عودة للوراء. إن هذا الالتزام ينطلق من اقتناع بصدق ونقاء نواياكم وتحرككم، وأن مطالبكم هي مطالب عادلة ومشروعة، فالأخطاء واردة في أي نظام سياسي وفي أي دولة، ولكن المهم هو الاعتراف بها وتصحيحها في أسرع وقت ومحاسبة مرتكبيها.

وأقول لكم إنني كرئيس للجمهورية لا أجد حرجًا أو غضاظة أبدًا في الاستماع لشباب بلادي والتجاوب معه، لكن الحرج كل الحرج، والعيب كل العيب، وما لم ولن أقبله أبدًا.. أن أستمع لإملاءات أجنبية تأتي من الخارج، أيا كان مصدرها وأيا كانت ذرائعها أو مبرراتها.

الأبناء شباب مصر، الإخوة المواطنون.. لقد أعلنت بعبارات لا تحتمل الجدل أو التأويل عدم ترشيحي للانتخابات الرئاسية المقبلة، مكتفيا بما قدمته من عطاء للوطن لأكثر من 60 عاما في سنوات الحرب والسلام.. أعلنت تمسكي بذلك، وأعلنت تمسكا مماثلا وبذات القدر بالمضي في النهوض بمسؤوليتي في حماية الدستور ومصالح الشعب حتى يتم تسليم السلطة والمسؤولية لمن يختاره الناخبون في شهر سبتمبر المقبل، في انتخابات حرة ونزيهة توفر لها ضمانات

الحرية والنزاهة.. ذلك هو القسم الذي أقسمته أمام الله والوطن، وسوف أحافظ عليه حتى نبلى بمصر وشعبها بر الأمان.

لقد طرحْتُ رؤيةً محددة للخروج من الأزمة الراهنة، ولتحقيق ما دعا إليه الشباب والمواطنون، بما يحترم الشرعية الدستورية ولا يقوضها، وعلى نحو يحقق استقرار مجتمعنا ومطالب أبنائه، وي طرح في ذات الوقت إطاراً متفقاً عليه للانتقال السلمي للسلطة من خلال حوار مسؤول بين كافة قوى المجتمع وبأقصى قدر من الصدق والشفافية.

طرحْتُ هذه الرؤية ملتزماً بمسؤوليتي في الخروج بالوطن من هذه الأوقات العصيبة، وأتابع المضي في تحقيقها أولاً بأول، بل ساعة بساعة، متطلعاً لدعم ومساندة كل حريص على مصر وشعبها كي ننجح في تحويلها لواقع ملموس، وفق توافق وطني عريض ومتسع القاعدة، تسهر على ضمان تنفيذه قواتنا المسلحة الباسلة.

لقد بدأنا بالفعل حواراً وطنياً بناء يضم شباب مصر الذين قادوا الدعوة إلى التغيير وكافة القوى السياسية، ولقد أسفر هذا الحوار عن توافق مبدئي في الآراء والمواقف يضع أقدامنا على بداية الطريق الصحيح للخروج من الأزمة، ويتعين مواصلته للانتقال به من الخطوط العريضة لما تم الاتفاق عليه، إلى خريطة طريق واضحة وبجدول زمني محدد تمضي يوماً بعد يوم على طريق الانتقال السلمي للسلطة من الآن وحتى سبتمبر المقبل.

إن هذا الحوار الوطني قد تلاقى حول تشكيل لجنة دستورية تتولى دراسة التعديلات المطلوبة في الدستور وما تقتضيه من تعديلات تشريعية، كما تلاقى حول تشكيل لجنة للمتابعة تتولى متابعة التنفيذ الأمين لما تعهدت به أمام الشعب. ولقد حرصت على أن يأتي تشكيل كلتا اللجنتين من الشخصيات المصرية المشهود لها بالاستقلال والتجرد، ومن فقهاء القانون الدستوري ورجال القضاء.

وفضلاً عن ذلك فإنني إزاء ما فقدناه من شهداء من أبناء مصر في أحداث مأساوية حزينة أوجعت قلوبنا وهزت ضمير الوطن، أصدرت تعليماتي بسرعة الانتهاء من التحقيقات حول أحداث الأسبوع الماضي، وإحالة نتائجها على الفور إلى النائب العام ليتخذ بشأنها ما يلزم من إجراءات قانونية رادعة.

ولقد تلقيت أمس التقرير الأول بالتعديلات الدستورية ذات الأولوية المقترحة من اللجنة التي شكلتها من رجال القضاء وفقهاء القانون لدراسة التعديلات الدستورية والتشريعية المطلوبة. وإنني تجاوبا مع ما تضمنه تقرير اللجنة من مقترحات، ومقتضى الصلاحيات المخولة لرئيس الجمهورية وفقا للمادة 189 من الدستور، فقد تقدمت اليوم بطلب تعديل ست مواد دستورية هي المواد 76 و 77 و 88 و 93 و 189، فضلا عن إلغاء المادة 179 من الدستور، مع تأكيد الاستعداد للتقدم في وقت لاحق بطلب تعديل المواد التي تنتهي إليها هذه اللجنة الدستورية وفق ما تراه من الدواعي والمبررات.

وتستهدف هذه التعديلات ذات الأولوية تيسير شروط الترشيح لرئاسة الجمهورية، واعتماد عدد محدد لمدد الرئاسة تحقيقا لتداول السلطة، وتعزيز ضوابط الإشراف على الانتخابات ضمانا لحريتها ونزاهتها، كما تؤكد اختصاص القضاء وحده بالفصل في صحة وعضوية أعضاء البرلمان، وتعديل شروط وإجراءات طلب تعديل الدستور. أما الاقتراح بإلغاء المادة 179 من الدستور فإنه يستهدف تحقيق التوازن المطلوب بين حماية الوطن من مخاطر الإرهاب وضمان احترام الحقوق والحريات المدنية للمواطنين، بما يفتح الباب أمام إيقاف العمل بقانون الطوارئ فور استعادة الهدوء والاستقرار وتوافر الظروف المواتية لرفع حالة الطوارئ.

الإخوة المواطنون.. إن الأولوية الآن هي استعادة الثقة بين المصريين بعضهم البعض، والثقة في اقتصادنا وسمعتنا الدولية، والثقة في أن التغيير والتحول الذي بدأناه لا ارتداد عنه أو رجعة فيه. إن مصر تجتاز أوقاتا صعبة لا يصح أن نسمح باستمرارها فيزداد ما ألحقته بنا وباقتصادنا من أضرار وخسائر يوما بعد يوم، وينتهي بمصر الأمر إلى أوضاع يصبح معها الشباب الذين دعوا إلى التغيير والإصلاح أول المتضررين منها.

إن اللحظة الراهنة ليست متعلقة بشخصي، ليست متعلقة بحسني مبارك، وإنما بات الأمر متعلقا بمصر في حاضرها ومستقبل أبنائها. إن المصريين جميعا في خندق واحد الآن، وعلينا أن نواصل الحوار الوطني الذي بدأناه بروح الفريق وليس الفرقاء، وبعيدا عن الخلاف والتناحر، كي تتجاوز مصر أزمتها الراهنة، ولنعيد لاقتصادنا الثقة فيه، ولمواطنينا الاطمئنان والأمان، وللشارع المصري حياته اليومية الطبيعية.

لقد كنت شابا مثل شباب مصر الآن، عندما تعلمت شرف العسكرية المصرية والولاء للوطن والتضحية من أجله.. أفنيت عمري دفاعا عن أرضه وسيادته، شهدت حروبه بهزائمها وانت صاراتها، عشت أيام الانكسار والاحتلال وأيام العبور والنصر والتحرير.. أسعد أيام حياتي يوم رفعت علم مصر فوق سيناء، واجهت الموت مرات عديدة طيارا وفي أديس أبابا وغير ذلك كثير، لم أخضع يوما لضغوط أجنبية أو إملاءات، حافظت على السلام، عملت من أجل أمن مصر واستقرارها، اجتهدت من أجل نهضتها، لم أسع يوما لسلطة أو شعبية زائفة.. أتق أن الأغلبية الكاسحة من أبناء الشعب يعرفون من هو حسني مبارك، ويحز في نفسي ما ألاقه اليوم من بعض بني وطني.

وعلى أية حال، فإنني إذ أعي خطورة المفترق الصعب الحالي، واقتناعا من جانبي بأن مصر تجتاز لحظة فارقة في تاريخها تفرض علينا جميعا تغليب المصلحة العليا للوطن، وأن نضع مصر أولا فوق أي اعتبار وكل اعتبار آخر، فقد رأيتُ تفويض نائب رئيس الجمهورية في اختصاصات رئيس الجمهورية على النحو الذي يحدده الدستور.

إنني أعلم علم اليقين أن مصر ستتجاوز أزمتها ولن تنكسر إرادة شعبها، ستقف على أقدامها من جديد بصدق وإخلاص أبنائها كل أبنائها، وسترد كيد الكائدين وشماتة الشامتين. سنثبت نحن المصريين قدرتنا على تحقيق مطالب الشعب بالحوار المتحضر والواعي، سنثبت أننا لسنا أتباعا لأحد، ولا نأخذ تعليمات من أحد، وأن أحدا لا يصنع لنا قراراتنا سوى نبض الشارع ومطالب أبناء الوطن. سنثبت ذلك بروح وعزم المصريين، وبوحدة وتماسك هذا الشعب، وبتمسكنا بعزة مصر وكرامتها وهويتها الفريدة والخالدة، فهي أساس وجودنا وجوهره لأكثر من سبعة آلاف عام.

ستعيش هذه الروح فينا ما دامت مصر وشعبها، ستعيش هذه الروح فينا ما دامت مصر ودام شعبها، ستعيش في كل واحد من فلاحينا وعمالنا ومثقفينا، ستبقى في قلوب شيوخنا وشبابنا وأطفالنا، مسلميهم وأقباطهم، وفي عقول وضمائر من لم يولد بعد من أبنائنا. أقول من جديد إنني عشت من أجل هذا الوطن حافظا لمسؤوليته وأمانته، وستظل مصر هي الباقية فوق الأشخاص وفوق الجميع".

3. خطاب الرئيس الليبي معمر القذافي

العاصمة طرابلس، قصر العزيزية

يوم 25-02-2011

ردوا عليهم، ردوا على العملاء، ردوا على الكذابين، ردوا على وكالات وإذاعات الكذب وليس وكالات وإذاعات الإعلام. ليس إعلام، بل إذاعات الكذب. هي تسمى إذاعات الكذب. ردوا عليهم. الشعب الليبي أنا إذا كان شعبي ما يحبني، منستحقش الحياة. إذا كان شعبي والشعب العربي والشعوب الإفريقية وكل الشعوب، إذا لم تحب معمر القذافي، معمر القذافي ما يستحقش الحياة حتى يوم واحد. إذا لم يحبني شعبي، أنا من نستحقش الحياة حتى يوم واحد.

ها هو شعبي، ها هي الشعوب، ها هو صوت الشعوب. استعدوا للدفاع عن ليبيا، استعدوا للدفاع عن النهر الصناعي العظيم، استعدوا للدفاع عن البترول، استعدوا للدفاع عن الكرامة، عن الاستقلال، عن العزة، عن المجد. ردوا عليهم، ردوا عليهم. خلوهم يكسفوا، خلوهم يخللوا. أنا وسط الجماهير في طرابلس، في الساحة الخضراء.

ها هو الشباب أبناء وأحفاد شهداء معارك الجهاد الذين حطموا الغزو الإيطالي. الإمبراطورية الإيطالية تحطمت على أيدي مقاومة آبائكم وأجدادكم. نحن نستطيع، نحن نستطيع أي عدوان نحطمه بالإرادة الشعبية. الشعب المسلح، الشعب المسلح وعند اللزوم ستفتح المخازن ليتسلم كل الشعب الليبي، كل القبائل الليبية، تصبح ليبيا نار جمر، تصبح حمرا.

أنا أتيت إليكم لأحييكم وأحيي شجاعتكم، وأقول لكم كي أرد عليهم: أنا وسط الشعب، أنا وسط الجماهير. مع أن معمر القذافي ليس برئيس ولا ملك ولا رئيس حكومة، ما عنده أي صلاحيات دستورية ولا إدارية، ولكن الشعب يحبه. يرى بأننا العزة؛ نحن العزة والكرامة والمجد والتاريخ والكفاح. هذا الشعب الذي ركع إيطاليا، الثورة التي ركعت إيطاليا وجعلتها تقبل يد ابن عمر المختار شيخ الشهداء، بطل الغابة، قائد المقاومة الوطنية الليبية. هذا الشعب

الذي جعل إيطاليا تعتذر وتدفع التعويض غصبا عنها. الثورة التي جعلت ليبيا في القمة، جعلت ليبيا هي قائدة العالم الثالث، بل العالم كله. الثورة التي جعلت الشعب الليبي في العلا، جعلت الشعب الليبي عظيم، عظيم بالثورة. وعليكم أن تغنوا وترقصوا وتستعدوا، وغنوا ورقصوا واستعدوا.

هذه الروح المعنوية العالية هي أقوى من أبواق الغرب، أقوى من أبواق العرب العملاء الأذلاء الأخساء. انظروا يا أوروبا، انظر يا أمريكا، انظروا يا أوروبا، انظر يا أمريكا، انظروا يا أيها العرب، انظروا إلى الشعب الليبي. ها هو معمر القذافي وسط الجماهير، وسط الشباب. هذا هو الشعب الليبي، هذا هو، هذا هو أمر الثورة. هذا الشعب متحمس، هذا الشعب متحمس لأنه يرى أن الثورة هي العزة، هي الكرامة، هي المجد، هي التاريخ. الثورة التي أحييت عمر المختار من جديد، الثورة التي أحييت معارك الجهاد في كل مكان ونصب لها تذكارات حتى لا تضيع هذه التضحيات، لأنهم يريدون طمس التضحيات آبائنا وأجدادنا.

أنا وسط الجماهير، وسنقاتل وسننهزم إذا أرادوا أن يمسوا أي جزء من تراب ليبيا، تراب ليبيا الغالي. سنهزم أي محاولة خارجية كما هزمناهم من قبل، كما هزمنا الغزو الإيطالي والغارات الأمريكية. ها هي القوة التي لا تقهر. ها هي قوة الجماهير، قوة الشباب. الحياة بدون عزة لا قيمة لها. الحياة بدون مجد لا قيمة لها. الحياة بدون رايات مرفوعة مثل الرايات الخضراء. الحياة لها قيمة، لأن فيها العز والمجد والكبرياء والنصر والعلم الأخضر الخفاق.

أيها الشباب خذوا راحتكم في أي مكان: في الشوارع، في الميادين. أرقصوا، غنوا، اسهروا. عيشوا حياة العز. عيشوا بالروح المعنوية العالية. معمر القذافي ما هو إلا فرد منكم، واحد منكم. ارقصوا، ارقصوا، وغنوا، وافرحوا، وامرحوا.

4. خطاب الرئيس السوري بشار الأسد

دمشق، مجلس البرلمان

يوم 30-03-2011

يسعدني أن ألتقي بكم مرة أخرى تحت قبة مجلسكم وأن أتحدث إليكم اليوم وأن أخطب عبركم أبناء سورية الأعزاء.. سورية التي تنبض في قلب كل واحد فينا حباً وكرامة.. سورية القلعة الحصينة بتلاحمها.. العظيمة بأمجادها.. الشامخة بشعبها في كل محافظة ومدينة وبلدة وقرية. أتحدث إليكم في لحظة استثنائية تبدو الأحداث والتطورات فيها كامتحان لوحدتنا ولغيريتنا وهو امتحان تشاء الظروف أن يتكرر كل حين بفعل المؤامرات المتصلة على هذا الوطن.. وتشاء إرادتنا وتكاتفنا وإرادة الله أن ننجح في مواجهته في كل مرة نجاحا باهرا يزيدينا قوة ومنعة.

من ينتمي للشعب السوري دائماً رأسه مرفوع إن شاء الله.. أتحدث إليكم بحديث من القلب تختلط فيه مشاعر الفخر بالانتماء إلى هذا الشعب.. بمشاعر العرفان والتقدير لما أحاطني به من حب وتكريم وبمشاعر الحزن والأسف على الأحداث التي مرت وضحاياها من أخوتنا وأبنائنا.. وتبقى مسؤوليتي عن السهر على أمن هذا الوطن وضمان استقراره الشعور الملح الحاضر في نفسي في هذه اللحظة. أنا أعرف تمام المعرفة أن هذه الكلمة ينتظرها الشعب السوري منذ الأسبوع الماضي.. وأنا تأخرت بإلقائها بشكل مقصود ريثما تكتمل الصورة في ذهني أو على الأقل بعض العناوين الأساسية والرئيسية من هذه الصورة.. لكي يكون هذا الحديث اليوم بعيداً عن الإنشاء العاطفي الذي يريح الناس ولكنه لا يبذل ولا يؤثر في الوقت الذي يعمل فيه أعداؤنا كل يوم بشكل منظم وعلمي من أجل ضرب استقرار سورية.. طبعاً نحن نقر لهم بذكائهم في اختيار الأساليب المتطورة جداً فيما فعلوه ولكننا نقر لهم بغبائهم في الاختيار الخاطئ للوطن والشعب حيث لا ينجح هذا النوع من المؤامرات.

نقول لهم لا يوجد خيار أمامكم إلا أن تستمروا في التعلم من فشلكم أما الشعب السوري فلا خيار أمامه إلا أن يستمر بالتعلم من نجاحاته. لا يخفى عليكم أيها الأخوة التحولات الكبرى التي تحصل في منطقتنا منذ أشهر.. هي تحولات كبرى وهامة وستترك تداعياتها على كل المنطقة من دون استثناء ربما الدول العربية وربما أبعد من ذلك وهذا الشيء يعني سورية من ضمن هذه الدول. لكن إذا أردنا أن ننظر إلى ما يعيننا نحن كسورية في ما حصل حتى الآن في هذه الساحة العربية الكبيرة نقول.. إن ما حصل يعزز وجهة النظر السورية من زاوية هامة جداً.. إن ما حصل يعبر عن إجماع شعبي.. عندما يكون هناك إجماع شعبي يجب أن نكون مرتاحين سواء كنا نوافق أو لا نوافق على كثير من النقاط.. ماذا يعني هذا.. يعني هذا الكلام أن الحالة الشعبية العربية التي كانت مهمشة لعقود على الأقل ثلاثة أو أربعة عقود وربما أكثر بقليل الآن عادت إلى قلب الأحداث في منطقتنا.. هذه الحالة العربية لم تتبدل حاولوا تدجينها ولكنها لم تدجن وسيكون لهذا الموضوع عدة تأثيرات.

أولاً بالنسبة لنا تذكرون في خطاباتي السابقة.. في كثير من الخطابات والكلمات كنت دائماً أتحدث عن الشارع العربي.. عن بوصلة الشارع.. عن رأي المواطن.. كان الكثيرون في الصحافة أحياناً يسخرون.. السياسيون الأجانب يرفضون.. يبتسمون وخاصة في اللقاءات.. عندما اشتدت الضغوط على سورية وكانوا يطرحون علينا طروحات معاكسة ومناقضة لمصالحنا وفيها تأمر على المقاومة وعلى غيرنا من العرب وعندما كان يشتد الضغط كنت أقول لهم.. حتى ولو قبلت بهذا الطرح فالشعب لن يقبل به وإذا لم يقبل به الشعب فسوف ينبذني وإذا نبذني فهذا يعني انتحاراً سياسياً.. طبعاً كانوا يبتسمون ابتسامات وكلام غير مصدق.. اليوم بعد هذه التحركات حصلت عدة لقاءات وكررت نفس الكلام فكانوا يوافقونني على ذلك.

هذا جانب مهم جداً حتى الآن والجانب الآخر بما أن الشعوب العربية لم تدجن ولم تتبدل في مضمونها فالأعمال لرأب الصدع العربي تصبح أكبر بالنسبة لنا في التحولات الجديدة إن استمرت هذه التحولات بالخط الذي رسم على المستوى الشعبي كي تحقق أهدافاً معينة فيه.

الجانب الآخر هو توجهات الشعوب العربية أيضاً تجاه القضايا المركزية وفي مقدمتها القضية الفلسطينية.. نعتقد ونتمنى أن يكون اعتقادنا صحيحاً بأن هذه التحولات ستؤدي إلى تغيير مسار القضية الفلسطينية الذي سارت عليه خلال عقدين على الأقل وربما أيضاً أكثر من ثلاثة عقود تقريباً من مسار التنازلات إلى مسار التمسك بالحقوق فبكل الاتجاهات نعتقد أن ما يحصل إيجابي في مقدماته.

إن سورية ليست بلداً منعزلاً عما يحصل في العالم العربي ونحن بلد جزء من هذه المنطقة تتفاعل نؤثر ونتأثر ولكن بنفس الوقت نحن لسنا نسخة عن الدول الأخرى ولا توجد دولة تشبه الأخرى لكن نحن في سورية لدينا خصائص ربما تكون مختلفة أكثر في الوضع الداخلي وفي الوضع الخارجي. في الوضع الداخلي بنيت سياستنا على التطوير وعلى الانفتاح.. على التواصل المباشر بيني وبين الشعب والمواطنين وبغض النظر عما إذا كان هناك من سلبيات وإيجابيات أنا أتحدث عن المبادئ العامة.. وبغض النظر عما تم إنجازه وعما لم ينجز لكن كمبادئ عامة هذه مبادئ السياسة الداخلية.

إن السياسة الخارجية بنيت على أساس التمسك بالحقوق الوطنية والتمسك بالحقوق القومية الاستقلالية ودعم المقاومات العربية عندما يكون هناك احتلال.. والرابط بين السياستين الداخلية والخارجية كان دائماً نفس الكلمة التي بدأت بها بأن البوصلة بالنسبة لنا في أي شيء نقوم به هو المواطن وبالتالي عندما نبتعد عن البوصلة فهذا هو انحراف بشكل طبيعي وهذا هو دور المؤسسات أن تعدل هذا الانحراف. بكل الأحوال هاتان السياستان أو محصلتهما كونت حالة من الوحدة الوطنية في سورية غير مسبوقة وهذه الحالة الوطنية التي تكونت هي التي كانت السبب أو الطاقة أو الحامي الحقيقي لسورية في المراحل الماضية وخاصة في السنوات القليلة الماضية عندما بدأت الضغوط على سورية وتمكنا من خلالها من القيام بتفكيك ألغام كبيرة جداً كانت موضوعاً في وجه السياسة السورية وتمكنا من خلالها من أن نحافظ على موقع سورية المحوري.. طبعاً هذا لم يدفع الأعداء للاطمئنان. وطبعاً أنا الآن أبدأ بالمؤامرة وعندها ننتقل إلى وضعنا الداخلي لكي لا يقولوا في الفضائيات إن الرئيس السوري

اعتبر كل ما يحصل هو مؤامرة من الخارج لكن نحن علينا أن نبدأ بالمحاور واحداً بعد الآخر ثم نقوم بعملية ربط.

تزايد هذا الدور أو الحفاظ على هذا الدور بمبادئه المرفوضة للآخرين سيدفع الأعداء للتحضير من أجل إضعافه بطريقة أخرى.. وكنت دائماً أحذر من النجاحات لأن النجاحات تدفع للاطمئنان والشعور بالأمان.. أقول.. في المعركة تعرف عدوك تعرف الخطة لكن بعد المعركة لا تعرف ماذا يحضر لك.. فإذا دائماً بعد كل نجاح علينا أن نعمل أكثر لكي نحافظ على النجاح ونحمي أنفسنا من أي مؤامرة قد تأتي من الخارج ولا يخفى عليكم أن سورية اليوم تتعرض لمؤامرة كبيرة خيوطها تمتد من دول بعيدة ودول قريبة ولها بعض الخيوط داخل الوطن.. تعتمد هذه المؤامرة في توقيتها لا في شكلها على ما يحصل في الدول العربية.

الآن.. اليوم هناك صرعة جديدة هي ثورات بالنسبة لهم ونحن لا نسميها كذلك فهي ليست كذلك هي حالة شعبية بمعظمها.. ولكن بالنسبة لهم إذا كان هناك شيء يحصل فيكون الغطاء موجوداً في سورية.. ثورة هناك وثورة هنا.. إصلاح هناك وإصلاح هنا.. الحرية الشعارات الوسائل كلها نفسها وبالتالي إذا كان هناك فعلاً دعاة للإصلاح وكلنا أعتقد دعاة للإصلاح فسنسير معهم من دون أن نعرف ما الذي يجري حقيقة لذلك قاموا بالخلط بشكل ذكي جداً بين ثلاثة عناصر.. وأنا أعرف أن معظم الشعب الذي يسمعون بشكل مباشر الآن وأنتم تمثلونه يعرف كثيراً من هذه التفاصيل.. ولكن أريد أن أدخل بها مرة أخرى لكي نوحد المفاهيم بالمعلومات الموجودة حتى الآن.. ربما هناك أشياء قد تظهر لاحقاً.. فقاموا بالخلط بين ثلاثة عناصر.. الفتنة والإصلاح والحاجات اليومية.. يعني هناك ناس معظم الشعب السوري يدعو إلى الإصلاح وكلكم إصلاحيون.. معظم الشعب السوري لديه حاجات لم تلب وكنا نختلف ونتناقش ونتنقد لأننا لم نلب حاجات الكثير من المواطنين ولكن الفتنة دخلت على الموضوع وبدأت تقود العاملين الآخرين وتغطي بهما ولذلك كان من السهل التغرير بالكثير من الأشخاص الذين خرجوا في البداية عن حسن نية.. لا نستطيع أن نقول.. كل من خرج متأمر.. هذا الكلام غير صحيح.. نريد أن نكون واقعيين وواضحين.

دائماً المتآمرون هم قلة.. وهذا شيء بديهي وحتى نحن في الدولة لم نكن نعرف الحقيقة مثل كل الناس.. لم نفهم ما الذي حصل.. حتى بدأت عمليات التخريب بالمنشآت ظهرت الأمور.. ما العلاقة بين الإصلاح والتخريب.. ما العلاقة بين الإصلاح والقتل حتى لدرجة أن بعض الفضائيات يقولون دائماً يفكرون بالمؤامرة.. لا يوجد نظرية مؤامرة.. يوجد مؤامرة في العالم.. والمؤامرة جزء من الطبيعة الإنسانية.. في بعض الفضائيات أعلنوا عن تخريب أماكن محددة عامة قبل تخريبها بساعة كاملة.. كيف عرفوا.. هل هي قراءة للمستقبل وحصلت أكثر من مرة.. فعندها بدأت الأمور تظهر.. كان من الصعب علينا في البداية مكافحة هذا الموضوع لأن الناس ستخلط بين مكافحتنا للفتنة ومكافحتنا للإصلاح نحن مع الإصلاح نحن مع الحاجات هذا واجب الدولة ولكن نحن لا يمكن أن نكون مع الفتنة وعندما كشف الشعب السوري بوعيه الشعبي ووعيه الوطني ما الذي يحصل أصبحت الأمور سهلة وكان الرد لاحقاً.. أتى من قبل المواطنين أكثر منه ما أتى من قبل الدولة.. كما لاحظتم الدولة انكفأت وتركت الجواب للمواطنين وهذا ما حقق المعالجة السليمة والسالمة والأمنية والوطنية وأعاد الوحدة الوطنية بشكل سريع إلى سورية.

إن ما نراه الآن هو مرحلة من مراحل لا نعرفها هل هي مرحلة أولى.. هل هي مراحل متقدمة.. ولكن نحن يهملنا شيء وحيد المرحلة الأخيرة هي أن تضعف سورية وتتفتت.. هي أن تسقط وتزال آخر عقبة من وجه المخطط الإسرائيلي.. هذا ما يهملنا كيف تسير المخططات لا يهملنا ونحن نتحدث بهذه التفاصيل لأنهم سيتابعون وسيعيدون الكرة بشكل آخر وكل تجربة تبني على ما سبقها.. إذا فشلوا فسوف يطورون من هذه التجربة وإذا نجحنا فعلياً أن نتوقع أن علينا أن ننطلق من هذه التجربة.. فإذا الحديث بالتفاصيل بالرغم من أنني نصحت من أكثر من شخص ألا أتحدث بالتفاصيل وأن يكون كلاماً عاماً بل يجب أن أدخل بالتفاصيل كما هي العادة لنكون نتحدث بشفافية.

بدأوا أولاً بالتحريض.. بدأ التحريض قبل أسابيع طويلة من الاضطرابات في سورية.. بدأوا التحريض بالفضائيات وبالأنترنيت ولم يحققوا شيئاً وانتقلوا بعدها خلال الفتنة إلى موضوع التزوير.. زوروا المعلومات زوروا الصوت زوروا الصورة زوروا كل شيء..

أخذوا المحور الآخر وهو المحور الطائفي.. المحور الطائفي اعتمد على التحريض وعلى رسائل ترسل بالهواتف المحمولة رسائل قصيرة تقول لطائفة انتبهوا الطائفة الأخرى ستهجم ويقولون للطائفة الثانية إن الطائفة الأولى ستهجم ولكي يعززوا مصداقية هذا الشيء أرسلوا أشخاصاً ملثمين يدقون الأبواب على حارتين متجاورتين من طائفتين لا أقول مختلفتين أقول شقيقتين ليقولوا للأول الطائفة الثانية أصبحت بالشارع انتبه انزل إلى الشارع وتمكنوا من إنزال الناس إلى الشارع قاموا بهذا العمل ولكن تمكنا من خلال لقاء الفعاليات من درء الفتنة.. فتدخلوا بالسلاح وبدأوا بقتل الأشخاص عشوائياً لكي يكون هناك دم وتصبح المعادلة هذه الوسائل.

البنية لم نكتشفها كلها.. ظهر جزء من البنية ولكنها بنية منظمة.. هناك مجموعات دعم لها أشخاص في أكثر من محافظة وفي الخارج.. هناك مجموعات إعلام.. هناك مجموعات تزوير.. وهناك مجموعات شهود العيان.. هي مجموعات منظمة مسبقاً أنا فقط أعطي العناوين وما يهمنا إذا امتلكوا هيكلياً. ابتدأوا بمحافظه درعا.. البعض يقول إن محافظة درعا هي محافظة حدودية وأنا أقول لهم إذا كانت محافظة درعا هي محافظة حدودية فهي في قلب كل سوري أما إذا لم تكن محافظة درعا في وسط سورية فهي في قلب الوفاء لسورية ولكل السوريين وهذا هو تعريفها وهذا هو حاضرها.. درعا محافظة نسق أول مع العدو الإسرائيلي.. النسق الأول يدافع عن الأنساق الخلفية.. النسق الأول مع محافظة القنيطرة وجزء من ريف دمشق هم يدافعون عن الأنساق الأخرى في الخلف.. ولا يمكن لشخص أن يكون من موقعه يدافع عن الوطن وبنفس الوقت يتآمر على الوطن أو يضر بالوطن فهذا الكلام مستحيل وغير مقبول وبالتالي أهل درعا لا يحملون أي مسؤولية فيما حصل.. ولكنهم يحملون معنا المسؤولية في وأد الفتنة.. ونحن مع درعا وكل المواطنين السوريين معها.

إن أهل درعا هم أهل الوطنية الصادقة والعروبة الأصيلة.. أهل درعا هم أهل النخوة والشهامة والكرامة وهم من سيقومون بتطويق القلة القليلة التي أرادت إثارة الفوضى وتخريب اللحمة الوطنية. قاموا بنقل المخطط إلى مدن أخرى وكما تعرفون انتقل إلى مدينة اللاذقية ومدن أخرى وبنفس الآليات.. قتل وتخويف وتحريض إلى آخره.. وكانت هناك تعليمات

واضحة لمنع جرح أي مواطن سوري.. مع كل أسف عندما تنزل الأمور إلى الشارع ويصبح الحوار في الشارع خارج المؤسسات تصبح الأمور بشكل طبيعي فوضى ويصبح رد الفعل هو السائد وما نسميها أخطاء اللحظة تصبح هي السائدة وتسيل الدماء وهذا ما حصل وكلكم تعرفون هذا الشيء.. سقطت ضحايا.

بكل الأحوال الدماء التي نزفت هي دماء سورية وكلنا معنيون بها لأنها دماؤنا.. فالضحايا هم إخواننا وأهلهم هم أهلنا.. ومن الضروري أن نبحث عن الأسباب والمسببين ونحقق ونحاسب وإذا كان الجرح قد نزف فليكن ذلك من أجل وحدة أبناء الوطن وليس من أجل تفريقهم.. من أجل قوة الوطن وليس من أجل ضعفه.. من أجل ضرب الفتنة وليس من أجل تأجيلها.. ولنعمل بأقصى سرعة على رآب الجرح لنعيد الوئام لعائلتنا الكبيرة ولنبقي المحبة رابطاً قوياً يجمع بين أبنائها.

إن جانباً مما يحصل اليوم متشابه مع ما حصل في 2005.. هي الحرب الافتراضية وأنا قلت في ذلك الوقت بأنهم يريدون منا أن نقدم صك الاستسلام مجاناً عبر حرب افتراضية بالإعلام والانترنت.. ولو أن انتشار الانترنت كان أقل في ذلك الوقت.. ونشعر بأن الأمور انتهت ولا مجال أمامنا سوى الاستسلام وبالتالي نقدم لهم صك الاستسلام مجاناً من دون معركة.. واليوم نفس المبدأ هي هزيمة افتراضية مخططة لسورية ولكن بشيء مختلف.. هناك فوضى في البلد لأسباب مختلفة بشكل أساسي تحت عنوان الإصلاح.. هذه الفوضى وعناوين الإصلاح ستؤدي إلى طوائف.. طوائف قلقة.. طوائف تختلف مع بعضها وتتصادم وتتحقق الهزيمة الافتراضية لسورية بشكل آخر.. نحن أفضلنا هذه الهزيمة الافتراضية المخططة في عام 2005 حقيقة بالوعي الشعبي.. اليوم طبعاً الوضع أصعب لأن انتشار الإنترنت أكثر ولأن وسائلهم أحدث ولكن بنفس الوقت الوعي الشعبي الذي رأيناه في هذه المرحلة كان كافياً للرد السريع وأنا مع ذلك أقول دائماً لن نطمئن لما لدينا.. علينا أن نعزز أكثر هذا الوعي الشعبي الوطني لأنه هو حقيقة الرصيد الذي يحمي سورية في كل مفاصلها.

يبقى هناك سؤال أساسي.. نحن نتحدث عن التحولات التي حصلت في المنطقة على أساس أنها موجة نسميها هناك موجة.. كلما سألنا شخصاً يقول هناك موجة يجب أن تنحني.. طبيب جيد بغض النظر عما حللناه بأن هذه الموجة فيها أشياء إيجابية هل تقودنا الموجة أم نقود الموجة.. عندما تدخل هذه الموجة إلى سورية أصبح الموضوع يعني السوريين نحن أن نحدد هذه الموجة.. إذا أتت فهي طاقة لكن هذه الطاقة يجب أن توجه بحسب مصالحنا.. نحن فاعلون ولسنا منفعلين.. من هذا السؤال أنا أنتقل لما أعلنه يوم الخميس بعد اجتماع القيادة القطرية عندما أعلننا زيادة رواتب والحديث عن موضوع الأحزاب والطوارئ وهذه النقاط أيضاً أحاول أن أفسر كيف نفكر.. أنا لا أضيف أشياء جديدة ولكن عندما تفهمون كيف نفكر يكون هناك تناغم بيننا.. عندما يحصل أي شيء.. نصدر أي قرار تفهمون كيف تفكر الدولة وينقصنا دائماً التواصل.. لدينا دائماً مشكلة في التواصل كثير من الأشياء لا نعرف تسويقها ونرى بأنها أشياء أحياناً جيدة تفهم بشكل خاطئ أو تفهم بشكل صحيح لكن في مكان آخر.. فهل قمنا بهذه الإصلاحات لأن هناك مشكلة أو فتنة أم لا ولو لم يكن هناك فتنة لما كنا قمنا بهذه الإصلاحات إذا كان الجواب نعم فهذا يعني أن هذه الدولة هي دولة انتهازية تنتهز الفرص وهذا شيء سيئ.. أما إذا قلنا انها حصلت تحت ضغوط حالة معينة أو ضغوط شعبية فهذا ضعف وأنا اعتقد أن الناس الذين يعودون دولتهم على أن تكون خاضعة للضغوط في الخارج فيعني ستخضع للضغوط في الخارج.. فالمبدأ خطأ العلاقة بين الدولة والشعب ليست علاقة ضغوط.. لا تبني على الضغوط.. تبني على حاجات المجتمع التي هي حق للمجتمع.. ومن واجب الدولة أن تستمع لهذه الحاجات وتعمل على تلبيتها.. هذه الحاجات لا تسمى ضغوطاً هذه حقوق للمواطنين.. الحاجات هي حقوق وعندما يطالب المواطن بحقوق فمن الطبيعي ومن البديهي أن تستجيب الدولة لهذه الحقوق وهي سعيدة.. حتى لو لم تتمكن أن تقول لم نتمكن هذا يعتمد على نوع الحوار.. فأنا أردت أن أصحح المبادئ أما الضغط الوحيد الذي يمكن أن يتعرض له المسؤول وهذا يجب أن يشعر به من تلقاء ذاته فهو ضغط الثقة التي وضعها الناس فيه وضغط المسؤولية التي يحملها والضغط الأكبر الآن هو ضغط الوعي الوطني الشعبي الذي رأيناه.. هو وعي غير مسبوق أذهلنا كما أذهلنا سابقاً في كل مرة.. هذه

كلها ضغوط تجعلنا نفكر فعلا كيف نرد الجميل لهذا الشعب.. بوضع أفضل بتطوير بازدهار بإصلاح بكل هذه الأمور.

ما طرح يوم الخميس هو ليس قرارات.. القرار لا يقرر مرتين.. القرار يقرر مرة واحدة وهذه هي قرارات المؤتمر القطري في عام 2005 لماذا أعدنا طرحها يوم الخميس.. لسببين.. الأول له علاقة بالأزمة.. والثاني ليس له علاقة بالأزمة.. السبب الأول هو المضمون ليس له علاقة بالأزمة بل لحاجتنا للإصلاح.. عندما طرحنا هذه النقاط نفسها في عام 2005 لم يكن هناك ضغوط على سورية.. قبلها في عام 2004 وفي قمة تونس وكانت أول قمة عربية بعد غزو العراق وكانت هناك حالة انهيار وخضوع للأمريكي وكان الأمريكي يريد أن يفرض علينا في القمة مشروع إصلاح وديمقراطية.. على الدول العربية وقاتلنا بشدة ضد هذا المشروع في القمة العربية في تونس وأفشلناه ورفضناه.. نحن نفس الدولة في عام 2005 طرحنا نفس المواضيع ولكن لبلدنا ومن منطلقات ذاتية ولم تكن الضغوط على سورية مرتبطة بذلك الموضوع كانت ضغوطا لها علاقة بالمقاومة وبالعراق وقضايا خارجية.. فإذا هي حاجة تؤخرنا.. هذا موضوع آخر نتحدث به.. الجانب الآخر عندما تحدثت عن العناصر "الفتنة والإصلاح والحاجات" أردنا من طرحها في ذلك التوقيت أن نقوم بعملية فرز.. أنتم تريدون إصلاحاً نحن فعلاً تأخرنا هذا هو الإصلاح أو هذه بدايات إصلاح أو هذا مؤشر بأننا فعلاً نريد الإصلاح الآن نريد أن نقوم بعملية فرز من يريد إصلاحاً.. ها قد سرنا أما الآخرون فأنتم ستصبحون معذورين يعني كان عاملاً مساعداً حتى لو لم نقم به وأنا أؤكد أن الوعي الشعبي كان كافياً.. ولكن لماذا قمنا به كدولة.. لكي نساعد في عملية الفرز.. أعود وأقول إن هذه الإصلاحات لا تؤثر بالفتنة بشكل مباشر.. الفتنة بحاجة فقط للوعي الشعبي وإذا كان هناك إصلاح فالإصلاحات تأتي تأثيراتها لاحقاً وقد يكون فيها جوانب تعزز الوعي الشعبي ولكن أيضاً هو عملية تراكمية لا تظهر مباشرة لكن النقطة الأساسية التي تطرح دائماً بأن الدولة طرحت وعوداً بالإصلاح ولم تنفذها ولكي نفهم هذه النقطة أعرض بشكل سريع مسار عملية الإصلاح منذ العام 2000.

أنا أتيت إلى هذا المجلس في عام 2000 في خطاب القسم وتحدثت عن إصلاح.. لم يكن هذا الطرح موجوداً.. وعندما طرحته كنت اعتبر أنني أعبر عن صدى لما يجول في عقل السوريين وهذا صحيح.. طرحنا الموضوع في ذلك الوقت لكن كان بالعناوين لم يكن هناك صورة واضحة ما هو شكل الإصلاح ظهر في عام 2005.. بدأت الانتفاضة بعد شهرين من ذلك الخطاب بدأ التآمر على المقاومة بدأت الضغوطات.. أتت حادثة 11 أيلول حادثة في نيويورك واتهام المسلمين والإسلام والعرب معهم طبعاً.. احتلال أفغانستان والعراق.. التآمر على سورية.. أصبح المطلوب من سورية أن تدفع ثمن موقفها ضد الغزو.. تعرفون ما حصل في لبنان عام 2005 ولاحقاً حرب عام 2006 وتداعياتها.. حرب غزة في آخر 2008.. يعني كانت مرحلة من الضغوط أضيف إليها أربع سنوات من الجفاف أضرت كثيراً بالبرنامج الاقتصادي.. الذي حصل فعلياً في تلك المرحلة هو تغيير الأولويات وهذه نقطة مهمة يجب أن نعرفها.. تحدثت بها في أكثر من مقابلة صحفية لكن أعتقد كانت مع صحف أجنبية كنت أقول ان الأحداث التي مررنا بها خلال عملية الإصلاح دفعتنا إلى تغيير الأولويات وهذا ليس مبرراً.. أنا لا أبرر لكن عندما أشرح هذه الأمور هي وقائع نقوم من خلالها بالفرز بين ما هو موضوعي وما هو غير موضوعي.. عندما أقول هناك جفاف فهذا خارج عن إرادتي ولكن لا يعني بأنه لا يوجد إجراءات أخرى نستطيع أن نقوم بها لكي أحسن اقتصادي لكي نعرف ونتذكر مع بعض.. من كان عمره عشر سنوات عام 2000 اليوم عمره عشرون عاماً.. هناك أجيال يجب أن تعرف هذا الوضع.. فتغيرت الأولويات أصبحت الأولوية الأهم هي استقرار سورية ونحن الآن نعيش في حالة تؤكد هذا الشيء.. الوضع والأولوية التي توازيها بالأهمية هي الحالة المعيشية.. ألتقي أناساً كثيرين أكثر من 99 بالمئة من الحديث هو حول الموضوع المعيشي.. هناك مظالم أخرى وأشياء أخرى لكن حقيقة.. وظيفة وإلى آخره.

بما أنه لا يبرر التأخير في المحاور الأخرى لكن لم يكن هناك تركيز على الجانب السياسي كقانون الطوارئ والأحزاب وغيرها من القوانين السبب ربما يكون أحياناً إنسانياً.. نستطيع أن نؤجل بياناً يصدره حزب.. نؤجله أشهراً أو سنوات ولكن لا نستطيع أن نؤجل طعاماً يريد أن يأكله طفل في الصباح.. نستطيع أن نؤجل أحياناً معاناة معينة قد يسببها قانون الطوارئ أو غيرها من القوانين أو الإجراءات الإدارية يعاني منها المواطن ولكن لا نستطيع

أن نؤجل معاناة طفل لا يستطيع والده أن يعالجه لأنه لا يمتلك الأموال والدولة لا يوجد لديها هذا الدواء أو هذا العلاج.. وهذا شيء نتعرض له بشكل مستمر.. فكانت القضية قضية أولويات ولكن هذا لا يمنع أننا على الأقل في عام 2009 و2010 كانت الأمور أفضل فكان يمكن أن نقوم بهذا الإصلاح.. أيضاً القيادة القطرية قامت بهذا الشيء.. قانون الأحزاب موجود لديهم كمسودة وقانون الطوارئ موجود لديهم كمسودة.. ولكننا لم نناقشه.. فلا نستطيع أن نقول إنهم لم يقوموا.. قاموا بالعمل.. الأمور لدينا تسير ببطء.. تأخرنا أم لم نتأخر هذا الشيء نتركه لتقييم المواطنين ولكن بالمبادئ العامة لو لم نكن نريد هذه الإصلاحات بالأساس لما قمنا بها عام 2005 بل لقمنا بها اليوم تحت هذه الضغوط إذا هي معلنة.. القضية قضية روتين وإهمال وقضية تأخر وبطء.. هناك عوامل مختلفة نحن بشر كلنا أبناء البلد ونعرف طباعنا بشكل أساسي لكن أشرح هذا الوضع كي نفهم تماماً أين نحن.. إذا هذا الإصلاح لا شك إيجابي لكن المهم أن نعرف ما هو مضمون هذا الإصلاح ماذا كنا نخطط بدقة والآن هناك مجلس شعب جديد قريباً بعد الانتخابات وهناك إدارة محلية جديدة.

هناك حكومة كان مخططاً أن تستقيل في هذه المرحلة وهناك مؤتمر قطري فكنا نفكر أنه في العام 2011 كل شيء هو سيكون عبارة عن دماء جديدة وعلى هذه الدماء الجديدة نحن ننقل إلى مرحلة أخرى.. وأجلنا المؤتمر القطري لأننا كنا سنحاسب أيضاً أمام المؤتمر القطري كيف أخذت القرارات في مؤتمر عاشر وأتيتم إلى المؤتمر الذي يليه ولم تقوموا بهذه الأشياء.. قلنا لننجز هذه الأشياء ونقدمها للمؤتمر فكنا نفكر بدم جديد في كل المجالات.

ما أريد الوصول إليه من كل هذا الكلام شيء وحيد عندما بدأت بالسؤال كيف نتعامل مع الموضوع ما أريد أن أقوله.. إن الإصلاح هو ليس صرعة موسم فعندما يكون مجرد انعكاس لموجة تعيشها المنطقة فهو مدمر بغض النظر عن مضمونه وهذا ما قلته في حديثي مع جريدة "ول ستريت جورنال" من شهرين عندما بدأت الأمور في مصر تتدهور وسألوني عن الإصلاح ماذا عن سورية.. سألني هل تريدون أن تقوموا بالإصلاح.. قلت له.. إن لم تكن قد بدأت بالأساس ولم يكن لديك النية والخطة فالآن تأخرت وإذا لم يكن لدينا هذه النية والرؤية انتهى الموضوع ولا داعي لأن نضيع وقتنا.. لا.. لدينا وكل الشعب لديه والدولة

وأؤكد نقطة أيضاً كما هي عادتي صريح معكم كان يسألني هذا السؤال أكثر من مسؤول مروا بسورية مؤخراً من الأجانب.. يريد أن يطمئن بأن الرئيس إصلاحي ولكن من حوله يمنعونهم وقلت له بالعكس هم يدفعونني بشكل كبير.. النقطة التي أريد أن أصل إليها لا يوجد عقبات يوجد تأخير ولا يوجد أحد يعارض ومن يعارض فهم أصحاب المصالح والفساد وأنتم تعرفونهم.. قلة كانت موجودة ولم تعد موجودة الآن.. قلة محدودة جداً تعرفونها بالاسم ولكن الآن لا يوجد عقبات حقيقية واعتقد أن التحدي الآن ما هو نوع الإصلاح الذي نريد أن نصل إليه وبالتالي علينا أن نتجنب إخضاع عملية الإصلاح للظروف الآنية التي قد تكون عابرة لكي لا نحصد النتائج العكسية.

هذا ما أريده وخلال عشر سنوات تحدثنا في الإصلاح وإصلاحنا اليوم يجب أن يعكس عشر سنوات للخلف وعشر سنوات للأمام.. لن يعكس هذه المرحلة ولا الموجة في الخارج ولا الموجة في الداخل هذه هي طريقة التفكير التي نفكر بها والحالة الآنية التي تأتي يمكن أن تؤخر الموضوع ويمكن أن تسرع الموضوع يمكن أن تعدل الاتجاه نستفيد من التجارب.. تجربة تونس كانت مفيدة لنا كثيراً أكثر من تجربة مصر لأنه كان لدينا رؤية نموذجية للتطوير في تونس وكنا نحاول أن نرسل خبراء كي نستفيد من التجربة وعندما اندلعت الثورة رأينا بأن الأسباب هي أسباب لها علاقة بتوزيع الثروة والتوزيع ليس توزيع الثروة بمعنى الفساد فقط وإنما التوزيع بين الداخل والوسط وهذه النقطة نحن في سورية تلافيناها والآن نؤكد عليها أكثر بالقول هو التوزيع العادل للتنمية في سورية.

إذا في المبدأ لو أردنا أن نقول إننا لا نريد الإصلاح نقول بكل بساطة لا نستطيع أن نبقى دون إصلاح.. بشكل طبيعي البقاء دون إصلاح هو مدمر للبلد والتحدي الأساسي هو أي إصلاح نريد.. هنا البراعة التي سنثبتها كسوريين عندما نبدأ النقاش في القوانين المطروحة قريباً.. وفي هذا الإطار فإن حزمة الإجراءات التي أعلن عنها يوم الخميس لم تبدأ من الصفر لأنني كما قلت القيادة القطرية كانت قد أعدت مسودات قوانين سواء فيما يتعلق بقانوني الأحزاب أو الطوارئ منذ أكثر من عام. بالإضافة إلى قوانين أخرى غيرها سيتم عرضها على النقاش العام ومن ثم على المؤسسات المعنية ريثما تصدر.. وهناك إجراءات أخرى لم

تعلن يوم الخميس البعض منها متعلق بتعزيز الوحدة الوطنية والبعض الآخر متعلق بمكافحة الفساد وبالإعلام وزيادة فرص العمل يتم العمل عليها وستعلن عند انتهاء دراستها بدأت بها الحكومة السابقة وستكون من أولويات الحكومة الجديدة.. على سبيل المثال ما وضعناه في الحزمة من موضوع الرواتب زيادة الرواتب الأخيرة كنا نناقشه في اجتماع مع الفريق الاقتصادي.. أنا ترأست ذلك الاجتماع.. ناقشنا حزمة قرارات اقتصادية صدر منها فقط موضوع الرواتب وهناك تنمة. بهذه المناسبة وخارج موضوع الحديث كله والخطاب بالنسبة لما حصل في موضوع زيادة الرواتب والـ 1500 ليرة التي دمجت قامت الحكومة في اجتماعها الأخير أمس بتلافي هذه الملاحظة بمبادرة منها.. وصلت الشكاوى وأرسل لي منذ ساعة تقريباً التعديل لكي تحل هذه المشكلة.. الحقيقة هم من قاموا بهذا العمل بمبادرة وليس بتوجيه فأردت أن أعلن هذا الشيء للمواطنين. أردت أن أعلن هذا الشيء للمواطنين.. وعلى كل الأحوال سأطلب من الجهات المعنية حول هذه النقاط عندما نعلن ما هي الإجراءات التي لم تعلن ونتمنى خلال شهر أن نحدد ما هي هذه الإجراءات ولكن أنا أفضل أن نعلن الاسم بالتفصيل بعد أن ننهي.. لكي لا يبقى فقط في إطار العنوان سنطلب إطاراً زمنياً لكل واحد منها.. وطبعاً أنتم كمجلس شعب والمجلس القادم سيحدد وهذه نقطة هامة أن يكون هناك دائماً جداول زمنية لأي موضوع لأنها هي تنظم العمل.. البعض طلب مني أن أعلن الآن جدولاً زمنياً في مجلس الشعب لكن إعلان جدول زمني لأي موضوع هو موضوع تقني.. ربما أعلن جدولاً زمنياً يكون أقل بكثير مما هو ضروري لهذه الحالة فيكون الضغط على حساب النوعية.. وأعتقد أنه من واجبنا أن نقدم للشعب السوري الأفضل وليس الأسرع.. نحن نريد أن نسرع ولا أن نتسرع. على كل الأحوال هناك من سيقول بالفصائيات اليوم لا يكفي.. نقول لهم لا يكفي لا يوجد لدينا ما يكفي لكي ندمر وطننا.. وبهذه المناسبة لا تغضبوا مما قامت به بعض الفصائيات لأنهم يقعون دائماً بنفس الفخ هم يحاولون التشويش علينا وعلى الشعب السوري.. فالحقيقة أنهم يعتمدون مبدأ الكذب الكذب حتى تصدق فيصدقون الكذبة ويقعون في الفخ.

أيها الأخوة والأخوات "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم" صدق الله العظيم.. ولكن نحن بشر ولا يمكن أن نحب ما حصل.. لا يمكن أن نحب الفتنة.. لا يمكن أن نحب الدماء..

لا يمكن أن نحب التوتر.. ولكن الأزمات هي حالة إيجابية إن استطعنا أن نسيطر عليها وأن نخرج منها رابحين.. وسر قوة سورية هو الأزمات الكثيرة التي واجهتها عبر تاريخها وخاصة بعد الاستقلال ما أعطاهما المزيد من المناعة والقوة.. فإذا علينا مواجهة الأزمات بثقة كبيرة وبتصميم على الانتصار أما القلق فيجب أن يكون حالة إيجابية لا سلبية تدفعنا للسير إلى الأمام وليس للهروب إلى الأمام.. عندما نسير إلى الأمام نسير بثقة وتوازن.. وعندما نهرب للأمام فنحن نسير بتخبط والنهاية تكون السقوط والكثير من الناس في الأزمات يبحثون عن أي حل بأي طريقة.. هذا الموضوع.. الأفضل أن تبقى من دون حلول إن لم تكن تعرف تماماً أنك ستجد حلاً للمشكلة وهذا أيضاً من الدروس التي نتعلمها في مثل هذه الأزمات. وأد الفتنة واجب وطني وأخلاقي وشرعي وكل من يستطيع أن يساهم في وأدها ولا يفعل فهو جزء منها.. والفتنة أشد من القتل كما جاء في القرآن الكريم فكل من يتورط فيها عن قصد أو من غير قصد فهو يعمل على قتل وطنه وبالتالي لا مكان لمن يقف في الوسط.. فالقضية ليست الدولة بل الوطن.. المؤامرة كبيرة ونحن لا نسعى لمعارك.. الشعب السوري شعب مسالم وودود ولكننا لم نتردد يوماً في الدفاع عن قضايانا ومصالحنا ومبادئنا.. وإذا فرضت علينا المعركة اليوم فأهلاً وسهلاً بها.

وسأذكركم بمصطلح الدومينو الذي وجد بعد غزو العراق عندما افترضت الولايات المتحدة في ذلك الوقت.. الإدارة السابقة.. بأن الدول العربية هي أحجار دومينو وستأتي المشاريع لتضرب الأحجار أو تضرب حجراً ويسقط الباقي.. ما حصل هو العكس تحولت المشاريع إلى أحجار دومينو وضربناها وسقطت واحداً تلو الآخر وهذا المشروع سوف يسقط.. وبما أن البعض ذاكرته قصيرة على الفضائيات فأنا أعود وأذكر أن ليس كل ما يحصل هو مؤامرة لكي يتذكروا. أما أنتم يا بنات وأبناء هذا الشعب العظيم فإن غيرتكم على وطنكم التي تعبرون عنها كل يوم وبشكل أكثر وضوحاً في أوقات الشدة وعبرتم عنها بالأمس من خلال التظاهرات الحاشدة غير المسبوقه في أنحاء القطر تشعرني بمزيد من الثقة وتمدني بالعزيمة.. وإن تلاحمكم في مواجهة الفتنة يشعرني بمزيد من الإيمان بالمستقبل.. وإن كنتم قد هتفتم بالروح بالدم نفديك يا بشار فالسليم هو أن الرئيس بشار هو الذي يفندي وطنه وشعبه.. وأنا أرد عليكم بأن أقول "الله سورية شعبي وبس" وهو الذي "أي أنا" سيبقى الابن البار بشعبه

والأخ والرفيق الوفي لأبنائه يسير معهم وفي مقدمتهم لبناء سورية التي نحبا ونفخر بها..
سورية العصية على أعدائها.. المقاومة والمقاومة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

5. خطاب الرئيس اليمني علي عبد الله صالح

صنعاء، ساحة السبعين

يوم الجمعة 15-04-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

الحشد الجماهيري الكبير أيها الأخوة والأخوات السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أولاً، أتقدم بالشكر الجزيل إلى جماهير شعبنا اليمني العظيم: شبابا وشباناً وشيوخاً رجالاً ونساءً، على هذه المشاعر الطيبة الفياضة، والذين أتوا من كل حدب وصوب يقولون: نعم للشرعية الدستورية والديمقراطية، نعم للأمن والاستقرار. تصفيق

شكراً لجماهير شعبنا في أمانة العاصمة الذين أتوا من كل المحافظات، ولجماهيرنا في محافظة تعز، ولجماهيرنا في كل المحافظات والمديريات على مشاعرهم الفياضة الطيبة. تصفيق

إن هذه الحشود الجماهيرية المليونية، المليونيات الذين أتوا إلى هذه الساحة هم يقولون: نعم نعم نعم للشرعية الدستورية. إن هذه هي، هذه هي جماهير 2006. إن هذه جماهير 2006 الذين قالوا: نعم للحرية، للديمقراطية، نعم نعم لعبد الله صالح كرئيس لهذه الأمة.

تصفيق وهتاف

إن هذه رسالة، إنها رسالة واضحة، رسالة واضحة، رسالة واضحة للداخل والخارج. إن هذا استفتاء شعبي، استفتاء شعبي على الشرعية الدستورية. إن هذه الجماهير في صنعاء، والجماهير في تعز، وفي حضر موت، وفي إب، وفي الحديدة، وفي حجة، وفي عمران، وريمة، وفي ذمار، وفي البيضاء، وفي لحج، وفي أبين، وفي شبوة. إنها نعم للشرعية الدستورية. نعم هذه جماهيرنا في الضالع، هذه جماهيرنا في الضالع، هذه جماهيرنا في المحويت الأبية، جماهيرنا في زعدة، في مأرب، في الجوف، في كل مكان. نعم مع الحرية

مع الأمن والاستقرار. لا للفوضى، لا لقطع الطرق. نعم للحرية. لا لقطع الطرق. لا لقتل النفس المحرمة. لا لإيقاف ضخ النفط. لا لإيقاف حق الغازات، حق الغاز الذي يحتاجونه المواطنون. إنهم يتحملونها: أحزاب اللقاء المشترك قطاعين الطرق، قطاعين الطرق، قطاع الطرق، أحزاب اللقاء المشترك. هتاف

هذه هي جماهيرنا، هذه هي جماهيرنا الموجودة في ميدان السبعين، هذه الجماهير الصامدة. وكم كذب! وكم كذب! وكم كذب! عبر القنوات الفضائية لأصحاب اللقاء المشترك والنفوس الضعيفة والمرتدين. كم كذب! كفاكم كذب ودجل على الشعب. كفاكم كذب. هتاف

أيتها الجماهير العظيمة: إنا نبادلكم الوفاء بالوفاء، نبادلكم الوفاء بالوفاء، نحبيكم. وأما جماهيرهم الموجودة في شارع، في شارع الجامعة الجامعة هي جماهيرهم حق 2006 حق 2006 إننا ندعوهم، ندعو أصحاب اللقاء المشترك، ندعو أصحاب اللقاء المشترك أن يُحكموا ضمائرهم ويأتوا للحوار ونتفق على كلمة سواء من أجل الأمن واستقرار هذا الوطن. أدعوهم إلى منع الاختلاط، إلى منع الاختلاط، إلى منع الاختلاط الذي لا يقر الشرع، لا يقره الشرع، الاختلاط في شارع الجامعة. هتاف

من هذا المكان، من هذا المكان أيها الإخوة والأخوات، من هذا المكان، من ميدان السبعين أيها الإخوة والأخوات، أحيي المؤسسة العسكرية البطلة ورجال الأمن البواسل على تحملهم، وعلى ما يبذلونه من واجب. ولن يصدقوا الخارجين عن النظام والقانون ودعواتهم، ودعواتهم للخروج عن الشرعية الدستورية. أحيي المؤسسة العسكرية والأمنية أينما وجدت وأين ما كانوا. مرة أخرى أحيي هذه المشاعر الفياضة وأني أبادل الوفاء بالوفاء، وهذه رسالتنا للداخل والخارج، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

6. خطاب الرئيس السوداني عمر البشير

الخرطوم، قصر الجمهورية

يوم 22-02-2019

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائل في محكم تنزيله "واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا"، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

جماهير شعبنا الكريم،

سلام من الله عليكم ورحمة منه وبركاته. أخاطبكم اليوم وبلادنا تجتاز مرحلة صعبة ومعقدة في تاريخها الوطني. ومثلما ظل شعبنا صامدا في وجه الأيام كلما قابلت به الظروف وأحاطت به التحديات، سنخرج إن شاء الله من هذه المرحلة اقوى شكيمة وأكثر وحدة وأكثر إصرارا على استكمال بناء أمتنا المستقرة والناهضة والمتطلعة إلى المستقبل وستظل التحديات والابتلاءات أقدارا مسطرة في حياة البشر لم يسلم منها حتى الأنبياء والرسل وخاضت غمارها كل الأمة والشعوب. لقد كانت أحداث الأيام الماضية اختبارا عظيما لنا كأمة وشعب، وخرجنا منها بعبر ودروس ستكون رصيда لحكمتنا الوطنية الممتدة، نستدعيها ساعة الحاجة وعند اشتداد الأزمات. لقد شهدت بعض أجزاء البلاد احتجاجات خرجت بمطالب مشروعة في البداية، وهي السعي نحو الحياة الكريمة ومعارضة للأوضاع الاقتصادية الصعبة. وتلك مطالب موضوعية كفلها الدستور والقانون حق التعبير عنها، التزاما للتجارب السلمية والمحافظة على النظام العام والممتلكات.

ولقد ظللنا طوال مسيرتنا في الحكم نعمل على تنقية الحياة السياسية من الشوائب وتوسيع مساحات الحريات العامة، تمكينا للأحزاب والأفراد بممارسة حقوقهم والسعي لتحقيق تطلعاتهم وطموحاتهم. لذلك لم يكن مرفوضا عندنا أن تخرج فئة من الشعب تطالب بترقية

الأوضاع العامة ومعالجة جوانب الخلل في الأداء الحكومي. ولكن ما كان غير مقبول ومقلقا ومحاولة البعض القفز في الصف الأول لتلك الاحتجاجات والعمل على استغلالها لتحقيق أجندة تتبنى خيارات صفرية مجهولة تقود البلاد إلى مصير مجهول. والأكثر إثارة للقلق هو بث سموم الكراهية والإقصاء بين أبناء الوطن، والأكثر إيلا ما هو احتسابنا وفقدنا فيها لنفر عزيز من أبناء الوطن رحمهم الله وتقبلهم أجمعين. الآن وبعدها انجلى ذلك الموقف، نقول إننا تابعنا تلك الاحتجاجات متابعة دقيقة وعكفنا على تحليل أسبابها. ومن واقع مسؤولياتنا الدستورية، أقول إننا لن نياس من دعوة الرافضين للحوار والسلام للعودة والجلوس تحت سقف الوطن ومائدته الكبرى بما يجنب بلادنا ويلات النزاع وسوءات الكراهية المقيتة. ولكن قبل ذلك سيظل انحيازنا لشريحة الشباب انحيازاً صادقاً وأميناً، لأنهم يمثلون جل الحاضر والمستقبل. ونتفاهم مطالبهم الموضوعية وأحلامهم وطموحاتهم المشروعة، لأننا نريدهم أن يظلوا أبداً أيادي لبناء وطنهم وتشبيد نهضتهم. فالثقة فيهم وافرة والرجاء فيهم مأمول والفرص لهم للقيادة وللبناء قائمة. فكل المشروعات الكبرى التي قامت في حقول الغاز؛ من طرق وجسور وجامعات والتصنيع الحربي والمدني وسدود شبكة الكهرباء والمياه، إنما قامت على أفكار الشباب السوداني الخالص. وإننا نتق أن أيادي شادت هذه الصروح، لن تكون معولا في هدمها وتخريبها بإذن الله.

ونحن اليوم أكثر قناعة من أكثر من وقت مضى، ففي فتح الباب مشرعا أمام الأجيال الجديدة لتقدم مساهمتها في سفر الوطن برويتها الواعية وتجاربها المتنوعة. ومن الأفضل للوطن وقواه السياسية أن يكون ذلك بالتدافع الحسن والحوار البناء بين الأجيال المختلفة، وهذا ما سنعكف عليه في الأيام القادمة وفق الرؤية التالية: لقد ظل هدف تحقيق الاستقرار السياسي القائم على التراضي والتوافق الوطني هدفاً استراتيجياً. سعينا إلى تحقيقه منذ فجر تولينا لمسؤولية إدارة البلاد، اعتباراً أن الاستقرار السياسي هو المدخل الحتمي والضروري لتحقيق الاستقرار الأمني والنمو الاقتصادي. وفي سبيل ذلك اتخذنا منهج الحوار طريقاً لبلوغ تلك الغاية النبيلة، فكانت مؤتمرات الحوار الوطني حول قضايا السلام والاقتصاد والنظام السياسي وغيرها من القضايا، فكان جمع الشمل الوطني وبناء المشتركات الوطنية حاضراً وبقوة في جدول أعمالنا، وشكلت مخرجات تلك المؤتمرات التي شارك فيها طيف واسع من أبناء وبنات

الوطن زادا معرفيا سرا لمسيرتنا، ولم نتوان في تطبيق مخرجاتها دون أن نتبضع بها في موائد التفاوض. فنظام الحكم اللامركزي كأنسب نظام لحكم البلاد وإدارة التنوع والتعدد الثقافي والاجتماعي والاقتصادي، مضينا فيه بكل عزم وكذا الحال في النظام السياسي للبلاد، فقد رأينا تجربته في تطور في مختلف المراحل حتى بلغ مرحلته الحالية وغير ذلك من القضايا كليا. وعلى الجانب الآخر لم ندع أن تلك المخرجات هي الحق المطلق فسعيننا بها زادا معرفيا للتواصل والتحاور مع حملة السلاح وقتئذ، ولم ندع بابا للسلام إلا وطرقناه ولا مساراً يُشار إليه أنه يقود إلى السلام وإنهاء الحرب إلا سلكناه، فكانت اتفاقية السلام الشامل والشرق وأبوجا والدوحة والقاهرة وتوجنا كل ذلك بحوار وطني شامل استمر قرابة ثلاثة أعوام فأنتج الوثيقة الوطنية. ننظر لكل ذلك الإرث بوصفه إرثا وطنيا ومعرفيا قادرا على تقديم الإجابات على الأسئلة الوطنية الحرجة التي ظلت معلقة في سموات الوطن منذ الاستقلال، وشكل عدم وجود إجابات متوافق عليها مصدرا وسببا لحالات الاحتراب الداخلي والتأزم السياسي وهي أسئلة كيف يُحكم السودان؟ ما هو نظامه السياسي الاقتصادي؟ والهوية؟ وغيرها من الأسئلة الوطنية. ذلك الرصيد المعرفي الوطني بكل مشتملاته ووثائقه يُشكّل أساسا صالحا للبناء عليه، فهو ليس سقفا يحد من التعاطي مع الأفكار والمبادرات الجديدة، ولكنه بناء يشكل غاية صلبة للانطلاق منها. الدروس المستفادة من خلال تجربتنا الوطنية تشير إلى الآتي:

أولا: أنه لا بديل للحوار إلا الحوار

ثانيا: في قضية الوطن الكل فيها كاسب فلا منتصر ولا مهزوم

ثالثا: الخيارات الصفرية والعدمية لن تحل مشكلة البلاد. نحتاج جميعا أن نتحرك إلى الأمام من أجل الوطن ولنمض للبناء على ما هو متوافق عليه ونتحاور حول ما هو مختلف عليه. لن يتطور السودان بمنهج مقارباتنا السابقة بإيقاف السيرورة والعودة للمربع الأول، ومن ثم محاولة التقدم ثم التقهقر مرة أخرى إلى النقطة الصفرية. هذه العملية دائرية لا تبني وطنا والحال كذلك فإنني من واقع مسؤولياتي الدستورية والأخلاقية عن كل الشعب السوداني الموالين منهم والمعارضين وحملة السلاح، أدعوكم جميعا وبلا استثناء إلى التحرك إلى الأمام من أجل الوطن. وأرفع النداء عاليا من منصة قومية لشبابنا في كل الساحات ولشيوخنا الأجلاء

ولنسائنا الماجدات، بل لكل قطاعات الشعب السوداني الكريم في الداخل والخارج بأن الوطن في أشد الحاجة إلى توحدكم وتأزركم، إلى طاقاتكم الإيجابية وأفكاركم البناءة. لكل ذلك أدعوكم لمقاربة متجددة وعلى مسار يفضي إلى توافق وطني يحفظ الوطن وينظم ويطور الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فيه. هذا المسار وتلك المقاربة تتأسس على الآتي:

أولاً: المطروح الآن من جانبي هو مسار وإطار جامع للحل وليس للحل بعينه، فالحلول أمر يجب أن نشارك جميعاً في إنجازها؛

ثانياً: يجب أن يقودنا إليه مسار الحل الوطني المتوافق والمتراضي عليه حتماً ليس هو الخيارات الصفرية ولغة الإقصاء، بصرف النظر جاءت من موال أو معارض، كلا بل هو حل يحفظ ويصون وحدة البلاد وأمنها واستقرارها ويرسم مساراً آمناً لمستقبلها دون إقصاء أو عزل لأحد. ويجنب بلادنا مصائر شعوب ليست منا ببعيدة كانت دول يوماً حلماً ومقصداً لعدد غير يسير من طالب ظروف حياة أفضل من أبناء شعبنا الكرام. عليه وتأسيساً على ما تقدم وتبعاً للمسار الوطني الجديد فإنني أعلن الآتي:

أولاً: التأكيد مجدداً على أن تكون وثيقة الحوار الوطني التي أنجزتها القوى السياسية والمجتمعية وأودعت فيها جماع اتفاقنا الوطني، والتي قطعنا شوطاً كبيراً لتنفيذها أساساً متيناً في استكمال لمّ شمل القوى السياسية الوطنية في الداخل والخارج. وسيُتسع صدرنا وأسماعنا لأي مقترحات جديدة تساهم في بناء وطننا العزيز قناعةً منّا بأن الحوار هو الوسيلة الأولى والأخيرة لاستكمال بناء الوطن، وطن يسع الجميع؛

ثانياً: أدعو البرلمان إلى تأجيل النظر في التعديلات الدستورية المطروحة عليه فتحةً للأبواب أمام إثراء الحياة السياسية للحوار البناء والمبادرات الوطنية الخالصة.

ثالثاً: أجدد العهد بأن أقف في منصة قومية وهي رئاسة الجمهورية لرعاية هذه العملية لأكون على مسافة واحدة من الجميع موالين ومعارضين، زادي في ذلك العدل والشفافية وسعة الصدر لشمول كل الوطن؛

رابعاً: نخصص الدعوة الصادقة لقوى المعارضة التي لا تزال خارج مسار الوفاق الوطني للتحرك إلى الأمام والانخراط في التشاور حول قضايا الوطن الراهنة والمستقبل عبر آلية حوار، آلية حوار متفق عليها؛

خامساً: أدعو حملة السلاح بتسريع خطى التفاوض من أجل وقف الحرب وتعقيد السلام لتكون جزءاً من ترتيبات بناء الوطن ومستقبله؛

سادساً: أدعو جميع من ذكرت أنفاً من قوى سياسية ومجتمعية وحركات مسلحة، لاستيعاب المتغير الجديد في المشهد السياسي والاجتماعي وهم الشباب، وذلك من خلال أطروحاتهم وتنظيماتهم ومن خلال آليات جديدة يُتفق عليها معهم للاستماع إليهم ولإشراكهم في البناء الوطني بالآليات المناسبة. فأغلبهم ليس جزءاً من التنظيمات والقوى السياسية الموجودة في الساحة السياسية الآن؛

سابعاً: أدعو الجميع للنظر وضمن هذه العملية، لدور القوات المسلحة في المشهد الوطني كحامية وضامنة للاستقرار، ويطور الحوار تفاصيل ذلك؛

ثامناً: أوجه دبلوماسيتنا لتعزيز الارتباط الإيجابي البناء مع المجتمع الإقليمي والقاري والدولي، ليكون شريكا مساهما بإيجابية في عملية التحول الوطني هذه؛

تاسعاً: وحيث إن صدى التحدي الاقتصادي يطرق بعنف على كل أبواب منازل الشعب السوداني، فإن تدابير اقتصادية محكمة ينبغي أن تُتخذ بحكومة مهام جديدة تكلف بها فريق عمل تنفيذي من كفاءات وطنية مقتدرة لإنجازها، إلى حين استكمال العملية الحوارية لوقتها الضروري؛

عاشراً: واستعداداً لتركيب المشهد السياسي الوطني بما يحقق الإجماع والوفاق وتنفيذ الاستحقاقات اللازمة لذلك من تحقيق لطموحات شعبنا في النهضة والبناء والرفاهية، فإنني أعلن الآتي:

أ- فرض حالة الطوارئ في جميع أنحاء البلاد لمدة عام واحد؛

ب- حل حكومة الوفاق الوطني؛

ج- حل الحكومات الولائية، وسنوالي تباعا اتخاذ التدابير والإجراءات والقرارات اللازمة لتنفيذ كل ما ذكرناه.

مواطنينا الشرفاء،

إن البلاد التي سالت من أجل صون كرامتها واستقرارها دماء شهدائنا الطاهرة في كل الحقب والعهود، لن تنتكس أبدا لمربع الفوضى والعنف والإقصاء، وستظل حكمتها المركوزة في سور أبنائها وبناتها عاصما لها من التشرذم والتمزق والضياع. وإن التسامح الموجود فطرة في نفوس أبنائها وبناتها سيبقى نبراسا لها في الليالي الحالكة والأوقات العصيبات، وإني على يقين أننا سنضيف مثالا باهرا يحتذى. رحم الله من فقدناهم في الأحداث، والتعازي لأسرهم المكلومة وللوطن أجمع. وفي انتظار نتائج تحقيقات النيابة العامة ولجان التحقيق الأخرى وتوصياتها، أتعهد بأن يكون العدل والقانون هما الفيصل. حفظ الله بلادنا ووحد صفنا وهدانا جميعا إلى الصراط المستقيم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

7. خطاب الرئيس التونسي قيس سعيد

تونس العاصمة، قصر قرطاج

يوم 2021/12/13

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على أشرف خلق الله.

يا شعب تونس العظيم في كل مكان،

أثرت أن أتوجه إليكم في هذا اليوم وفي هذه الساعة، بعد عديد الكلمات التي كنت توجهت بها إليكم في عدد من الاجتماعات، للحديث إليكم عن المستقبل بل عن تصحيح مسار الثورة وتصحيح مسار التاريخ. قد يبدو بالنسبة إلى البعض أن هذا الخطاب فيه بعض التأخير إثر 25 من جويلية الماضي، ولكنني لم أتأخر عن هذا الموعد، لم أتقدم عنه ولم أتأخر عنه. لم أتردد قط في اختيار هذه الساعة حتى ينقشع ما بقي من سراب، وحتى لا يبقى التونسيون والتونسيات تائهين يلهثون وراء الأكاذيب أحيانا، أو يسيرون في العتمة والظلام أحيانا أخرى. لقد كانت الأشهر التي قضيتها بعد تولي المسؤولية مليئة بالألم والمرارة. كان الظلام سائدا في كل مكان، وكانت الآلام تشتد يوما بعد يوم في كل أجزاء المجتمع، وخاصة عند الفقراء الذين زاد تفكيرهم وتجويعهم والتنكيل بهم. كانت الجلسات والاجتماعات التي كنت أنظمها معا في البداية بمثابة جلسات تعذيب. كنت أستمع إليهم وأصغي إلى كل ما يقولونه، ولكن كانوا يعتقدون في المقابل أنهم قادرون على المناورة وعلى الكذب وعلى أن أصدق أكاذيبهم. كانوا يعتقدون أنهم قادرون على فعل ما يريدون وجاءت الجائحة لتضيف لمصاعب الحياة مزيدا من الآلام، بل كان هناك من يتاجر بهذه الآلام حتى توليت الأمر بنفسني. وبعد أن كانت تونس، بعد أن كان بلدنا العزيز، بعد أن كان وطننا على رأس قائمة الدول في عدد الإصابات وفي عدد الوفيات في البلاد العربية وفي القارة الإفريقية، والحمد لله تم الأخذ بزمام الأمور فجاءت التلقيحات وتنادى التونسيون والتونسيات في كل مكان، وخاصة في المجال الطبي وفي المجال المتعلق بإدارة الأزمة. فالمجال الطبي وأحدث هنا عن الأطباء وعن الإطار شبه

الطبي وعن الإداريين والعَمَلَة، وبفضل قواتنا المسلحة العسكرية والأمنية، وحينما تنادى التونسيون بهذا الشكل حطمت تونس رقما قياسيا في العالم، إذ وصل عدد الذين تم تلقيحهم إلى خمسين ألف تلقيح في الساعة الواحدة. هذا كله بفضل الله تعالى وبفضل تداعي التونسيين والتونسيات في الداخل و في الخارج شد بعضهم البعض وبفضل أشقائنا وأصدقائنا الذين أقاموا جسورا جوية وبحرية وبرية لتدارك ما فات، والحمد لله رب العالمين. وتم اتّخاذ القرارات التي تعرفون في الخامسة والعشرين من شهر جويلية المنقضي، لا بسبب الجائحة فقط ولكن بسبب الجائحة التي جثمت على البلاد منذ الرابع عشر من شهر جانفي من سنة 2011. انطلقت الثورة في السابع عشر من ديسمبر، وهو عيد الثورة ليتم الالتفاف عليها في التاريخ الذي كان مذكورا موعدا للثورة.

عرفت تونس منذ ذلك التاريخ سنوات جمر حقيقية في كل المرافق: في الأمن، في مقاومة الإرهاب، في غلاء الأسعار، في المضاربة والاحتكار، في انتشار الفساد، في الإفلات من العقاب، وغيرها من الظواهر التي كان الهدف منها التنكيل بالشعب وإسقاط الدولة التونسية. ولكن أنى لهم ذلك؟ هذا فضلا عن إشاعة الأكاذيب والسبّ والشتم والقذف وما شابه ذلك من سقوط أخلاقي غير مألوف. كانت الآمال كبيرة في تلك الأيام التاريخية انطلاقا من السابع عشر من شهر ديسمبر فصار للأسف اليأس أكبر. أرادوا زرع اليأس والإحباط في نفوس كل التونسيين، ولكن كان العمل مستمرا في المقابل ليلا نهارا لا يكاد يتوقف ولا أبالغ لحل الإشكالات الفردية والجماعية ولتذليل كافة العقبات. وكانت التدخلات تقع أحيانا في منتصف الليل أو في الفجر لتوفير الأكسجين أو بعض المعدات الطبية. كنت ألتقى مكالمات هاتفية من عدد من الأشخاص في كافة أنحاء الجمهورية، يطالب فيها أصحاب المكالمات بالتدخل، أي إنني تلقيت مكالمات من امرأة رحمها الله لم تكن قادرة على الكلام إلا بصعوبة لأن الأكسجين مفقود، وكنت أتدخل لتوفير الأكسجين ولنقله من مكان إلى آخر. وكان من المفترض أن يقوم بهذا العمل من كان مسؤولا عن هذا القطاع، ولكن كنا نسمع ونستمع فقط لعدد الإصابات ولعدد الوفيات ولعدد الاجتماعات التي لا أثر لها على الإطلاق في الواقع. وكان هؤلاء الذين لا نود ذكر أسمائهم، ولكن بالتأكيد الشعب التونسي يعرف الأسماء ويعرف الجهات ولم تعد تخفى عليه خافية. كان هؤلاء يسعون في لقاءاتهم التي تعقد كل يوم، يسعون

إلى الحصول على الأموال لفائدتهم ويهربون الأموال في الحقائق. غاب عنهم أي شعور بالمسؤولية، بل أي شعور بالإنسانية. هذا فضلا عن التخابر مع دول أجنبية وعن بيع ذممهم إن كانت لهم ذمم إلى قوى خارجية. وأعيد وأكرر وأؤكد على أن تونس دولة ذات سيادة والشعب فيها هو صاحب السيادة، فليست أرضا مهجورة وليس هناك ترتيب للدول، ترتيب تفاضلي للدول. وكل قرار يجب أن يكون معبرا عن إرادة صاحب السيادة، وإن لم يعد الشعب صاحب السيادة قادرا على التعبير عن إرادته في ظل هذه الشرعية المزعومة، فله الحق في أن يعبر عن إرادته في ظل شرعية مشروعة تحقق آماله وتحقق أحلامه وتحقق مطالبه في العدل وفي الحرية وفي الكرامة. ولا أودع سرا إذا قلت إن هناك من تدخل في الخارج حتى لا تتم مساعدة تونس، كانوا يتاجرون بالآلام التونسيين. وتحدثت إليهم في أكثر من مناسبة لعلمهم يفهمون ولعل بعض الرشد يحد من تصرفاتهم ومن ممارساتهم، بل ومن إجرامهم، ولكن إنك أسمعت إذا ناديت حيّا ولكن لا حياة لمن تنادي، بل لا وطنية لمن تنادي، فهل هؤلاء من جنس الإنسان أو من جنس آخر؟

وصار الحديث هذه الأيام متواترا عن صف ثالث واصطفوا صفا صفا، وإن أرادوا فليزيدوا صفا رابعا أو صفا خامسا. أما الصف الوحيد الذي أنتمي إليه فهو صف الشعب، وليس الاصطفاف مع من يريدون صناعة الصفوف، ثم بعد ذلك الاصطفاف. لقد اشتدّ الظلام وعمّ وتفاقم البؤس واشتدّ، ولكن الشعب التونسي ليس شعبا مغفلا ولن يكون. كان يتابع بصمت أحيانا، وكان يتحرك بصمت بالرغم من شراء الذمم وتوزيع الأموال الطائلة ببيع الأوهام والأحلام. لم يعد الأمر مقبولا على أي مقياس من المقاييس: خطر داهم وخطر جاثم وخطر قادم. ومضت الأسابيع بعد الخامس والعشرين من جويلية الماضي، وكان يمكن الإعلان عن حكومة جديدة في ظرف أيام، بل وفي ظرف ساعات، ولكنني فضّلت أن أتأكد بنفسني من أن لا يكون أي عضو في هذه الحكومة من أي جهة كانت، وأن لا تشوبه شائبة من أي صنف كان، كما تركت الوقت للوقت وللتاريخ حتى تصير عملية الفرز، الفرز التاريخي الحقيقي. من صقّ للخامس والعشرين من شهر جويلية ولم يجد حظّه في الأيام التي بعدها، صار يُندد بتلك التدابير التي تم اتخاذها، وهناك من جاءته تحويلات من الخارج وهي مؤثقة في لجنة التحاليل المالية لينقلب على عقبيه ويدعو الرجوع إلى الوراء. لن نعود إلى الوراء أبدا ولا

رجوع إلى الوراء أبداً، فإن كانوا يريدون السير عكس مسار التاريخ فليعلموا أن الشعب لفظهم والتاريخ رفضهم بدوره، فلا ثبات ولا مبدأ عندهم على أي قيمة من القيم. كانوا يعتقدون أنني سأوزع المناصب والحقائب، هكذا يُسمّون الوزارات ولكن حين يؤسّسوا انقلبوا على أعقابهم خاسئين. وأكثر من ذلك كانوا في بعض المناسبات ولم تكن قليلة، يعيدون بالحرف الواحد ما كنت أقول لهم في بعض الجلسات وينسبونني إلى أنفسهم، ثم يختمون كلامهم بأقذع الكلام، ثم قال بعضهم في الأيام الأخيرة إنهم هم الذين ساهموا في اتخاذ التدابير الاستثنائية، فشكرا لهم على مساهمتهم وشكرا لهم على إدعائهم وكذبهم، لأنهم لو كانوا صادقين لماذا تغيّرت مواقفهم. فقدوا الأمل في المناصب وتحولوا إلى دُعاة ضد ما يُسمّونه بالانقلاب، فعن أي انقلاب يتحدثون؟

ويتحدثون أيضاً عن الحكم الفردي ويُددون بالحدّ من الحريات. مَنْ تَمَّ سجنه، من تم حتى رفع دعوى إلى القضاء من أجل فكرة أو من أجل موقف أو من أجل تظاهر في الطريق العام، بالرغم من أننا نعيش في ظل حالة الطوارئ. لأنني اتخذت القرار بمفردي، لوحدي، بعد استشارة من تَمّت استشارتهم، اتخذت هذا القرار لأنني عندما عُدت من مدينة "الرديف"، قلت كيف سأقف أمام ربّي وأمام شعبي؟ اتخذت هذا القرار لأن الوضع اقتضاه، والمسؤولية اقتضته، والواجب فرضه للحفاظ على الوطن، ثم أيضاً لوضع حد لنهب مقدرات الشعب. ومرة أخرى بدأ الطمع يظهر والجشع يبرز والاستهزاء بإرادة الشعب والتنكيل به في معاشه وفي محيطه البيئي، بل وفي كل مظاهر الحياة. وأكثر من هذه المظاهر التي يعرفها الجميع ثبت بما لا يدعو لأي مجال للشك، أن هؤلاء تقاضوا الملايين من الدولارات ومن الأورو من الخارج في الانتخابات الماضية وما زالوا يدفعون الأموال ويتقاضونها خارج كل إطار قانوني، ولم يلاحقهم أي جزاء، ينتظرون انقضاء الآجال. فأين القضاء؟ لماذا لا يحاسبون هؤلاء كما يحاسبون الفقراء والمساكين؟ اتخذت القرار الذي كان علي أن أتّخذه لأنني لن أترك وطني فريسة للوحوش وللكواسر، والحمد لله أنه قد تَمّ في الفترة الأخيرة الماضية الفرز التاريخي، الفرز ليس في مراكز القرار فرز صناديق الانتخابات، ولكن الفرز في محكمة التاريخ. وأعلن اليوم، الثالث عشر من شهر ديسمبر من سنة 2021 قبل أيام قليلة من الاحتفال

بالذكرى الحادية عشر، لهذا الانفجار التاريخي غير المسبوق لهذا الارتفاع الشاهق في التاريخ غير المسبوق على الإجراءات التالية:

أولاً: يبقى المجلس النيابي معلقاً أو مجمداً إلى تاريخ تنظيم انتخابات جديدة؛

ثانياً: تنظيم استشارة شعبية بداية من الفاتح من شهر جانفي القادم، وقد تم بعث الإعداد للمنصات الإلكترونية، كما تمت بلورة الأسئلة التي أردناها أن تكون واضحة ومختصرة حتى تمكن الشعب من التعبير عن إرادته بعيداً عن التعقيدات الفنية. وقد تم اتخاذ كل الاحتياطات لتأمين هذا الاستفتاء الإلكتروني أو الاستشارة الشعبية، وإلى جانب هذه المنصات، سيتم تنظيم استشارات مباشرة في كل معتمدية مع الشعب التونسي على أن تنتهي هذه الاستشارة في الداخل وفي الخارج على السواء من شهر مارس، تاريخ الاحتفال بالذكرى الاستقلال؛

ثالثاً: تتولى لجنة سيتم تحديد أعضائها وسيتم تنظيم اختصاصاتها، وسيتولى أعضاء هذه اللجنة التأليف بين مختلف المقترحات والإجابات على أن تنهي أعمالها قبل موقى شهر جوان القادم؛

رابعاً: يتم عرض مشاريع الإصلاحات الدستورية وغيرها على الاستفتاء يوم الخامس والعشرين من شهر جويلية تاريخ الاحتفال بالذكرى إعلان الجمهورية. هذا بطبيعة الحال إلى جانب عدد من الإصلاحات الأخرى التي تتعلق بتنظيم الانتخابات وبكيفية الإشراف عليها، بعيداً عن أي تدخل من أي جهة كانت، وبعيداً أيضاً عن هذه القوانين التي وضعوها على المقاس؛

خامساً: تُنظَّم انتخابات تشريعية إن شاء الله تعالى وفق القانون الانتخابي الجديد يوم السابع عشر من شهر ديسمبر من سنة 2022، أي بعد حوالي عام من الآن بعد الاستشارات وبعد التنقيحات التي سيتم إدخالها خاصة على القانون الانتخابي وعلى عدد من النصوص الأخرى؛

سادساً: سيتم في الأثناء وضع مرسوم خاص يتعلق بالصلح الجزائي وفق التصور الذي تم الإعلان عنه منذ سنة 2012، يتم ترتيب المتهمين أو التي تعلقت بهم قضايا، ترتيباً تنازلياً من الأكثر تورطاً إلى الأقل تورطاً. ويتم ترتيب المعتمديات من الأكثر فقراً إلى الأقل فقراً،

ويتولى الأكثر تورّطا القيام بمشاريع تعود للدولة وللأهالي في ظل الأحكام المنصوص عليها. هذه أموال الشعب يجب أن تعود إلى صاحبها، وليس لمن اختلس هذه الأموال، وليس لمن ابتز هؤلاء في حملات انتخابية أو في بعض العمليات الاحتجاجية المفسوحة لأنها مؤثّقة بالصور وبالتقارير؛

سابعاً: محاكمة كل الذين أجزموا في حق الدولة التونسية وفي حق شعبها ولازالوا للآن يُجرمون، وعلى القضاء وأؤكد على القضاء، أن يقوم بوظيفته في إطار الحياد التام. صرنا نتحدث اليوم في تونس عن قضاء فلان، وعن القاضي التابع لفلان. القضاء مستقل، وعليه اليوم مسؤولية تاريخية في أن يُعطي كل ذي حق حقه مهما كان مركزه.

يا شعب تونس العظيم في كل مكان في الداخل والخارج،

هذه مسؤولية نتحملها أمام الله وأمامكم، وأقول للمناوئين الذين دأبوا على المكر والكذب والافتراء أنّ عمقنا الشعبي أعمق بكثير من عمقهم الشعبي. وأننا لا نبغي إلا إصلاحاً وتحريراً للوطن، وتحريراً للمواطنين الذين جثم من ذكرّتهم على صدورهم وصادروا حرّيتهم، بل صادروا حقّهم في الحياة فضلاً عن الشغل والحرية والكرامة الوطنية. إنني على يقين أن هذه المواعيد يجب أن تُنفذ حتى تعود السيادة إلى صاحبها. قد تكون هذه الطريق محفوفة بالمخاطر، ولكننا لا نهاب الصعاب وسنتجاوز كل العقبات بإذن الله تعالى، وسنتصدى لكل محاولات الفوضى والإرباك. نحن نروم العيش في وطن حرّ يكون فيه المواطنون أحراراً، يكون فيه العدل سائداً. نروم أن نعيش في وطن ينتشر فيه العدل والسلام. حفظ الله وطننا وحفظ مواطينه من كل شرّ.

ربّنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً.

والسلام عليكم، والسلام على من أراد السلام.

8. خطاب المعارضة التونسية

- إرحل
- الشعب يريد إسقاط النظام
- تونس حرّة والتجمع على برّة
- لن نعود لبيوتنا حتى ترحلوا من حياتنا
- Dégage
- Ben Ali dégage
- بدمي سيكتب بيت القصيد ويبقى مدى الدهر هذا النشيد
- يعز علي فراق البلاد وموعدا هو يوم الوعيد
- حريات حريات، لا رئاسة مدى الحياة
- التشغيل استحقاق يا عصابة السراق
- خبز وماء وبن علي لاء
- خبز، حرية، كرامة وطنية
- يسقط حزب الدستور، يسقط جلاد الشعب
- بن علي يا جبان، الشعب التونسي لا يهان
- بن علي في السعودية، والعصابة هي هي

9. خطاب المعارضة المصرية

- إرحل
- كرامة، حرية، عدالة اجتماعية
- عيش، حرية، كرامة إنسانية
- مش هنخاف مش هنطاطي.. إحنا كرهنّا الصوت الواطي
- انتهى عصر الخوف
- بالروح بالدم .. نفديك يا وطن
- ارفع صوتك قل للناس.. إحنا كرهنّا الظلم خلاص

- شعب، حضارة، ومجد سنين.. مش هيطاطي ليوم الدين
- مش هنمشي ... هو يمشي
- الشعب والجيش إيد واحدة
- مسلم، مسيحي إيد واحدة
- أنا زهقت من الكنتاكي.. ارحمني وارحل
- يا رايس لا تحتار.. الطيارة بالانتظار
- يا مبارك يا طيار.. الطيارة في المطار
- مصر أمي بس مبارك مش أبويا
- إزاي بتقولوا أبونا.. مش ده اللي قتل أخونا؟
- إنما النصر صبر ساعة
- صامدون حتى الرحيل
- إحذروا إن أنصاف الثورات تصنع أكفان الشعوب
- رئيس الجمهورية عفوا، لقد نفذ رصيدكم
- لو كان عفريت كان انصرف
- مبارك يريد تغيير الشعب
- مبارك يتحدى الممل
- يا ريت مصر كلها ميدان التحرير
- إذا الشعب يوما أراد الحياة.. فلا بد أن يستجيب البقر
- واثق الخطوة يمشي ملكا.. خالعا حسني شجي الكبرياء (تناص مع بيت لإبراهيم ناجي)

10. خطاب المعارضة الليبية

- ارحل
- ارحل يا عميل
- الشعب يريد إسقاط النظام
- قولوا لمعمر وأولاده.. ليبيا فيها رجاله

- يا قذافي اطلع برّا، إنت وصغارك بالمرّة
- خذ عيلتك واطلع برا ليبيا حتبقى حرة
- يا قذافي اطلع برّا، ليبيا حرّة
- يا قذافي صبرك صبرك.. في مصراته نحفر قبرك
- يا مرتزقة.. ارحلوا عن البلد
- ارحل يعني حلّ، الشعب منك ملّ
- Gaddafi= Vampire
- Out of Libya
- Go Away

11. خطاب المعارضة السورية

- بالروح بالدم نفديك يا درعا
- الشعب يريد تغيير النظام
- سوريا حرية وبس
- من أغاني الثورة:
- يا حيف آخ ويا حيف
- إزخ زصاص على الناس العُزّل يا حيف
- وأطفال بعمر الورْد تَعْتَقَلْنَ كَيْفْ؟
- وأنتِ إبْنُ بِلادي تَقْتُلْ بُولادي
- وظَهْرَكِ للعادي وعلّي هاجم بالسيف!
- يا حيف ويا حيف!
- وَهَا اللّي صايّر يا حيف!
- وبدّرعا ويا يَمّا ويا حيف!

سمعت هَا الشَّبَابَ يَمَّا الحَرِيَّةَ عَ الْبَابِ يَمَّا.... طَلُّعُوا يَهْتَفُوا (لَهَا)
شَافُوا الْبَوَارِيذَ يَمَّا قَالُوا إِخْوَتُنَا هُونٌ.... وَمُشْنَ رَحْ يَضْرِبُونَا
ضَرْبُونَا يَمَّا بِالرَّصَاصِ الْحَيِّ
مُتْنَا بِإِيذِ إِخْوَتُنَا
بِاسْمِ أَمْنِ الْوَطَنِ
وَإِحْنَا مِينْ إِحْنَا؟
وَاسْأَلُوا التَّارِيخَ يَفْرَا صَفْحَتُنَا
مُشْنَ تَارِي السَّجَانِ يَمَّا كَلِمَةُ حَرِيَّةٍ وَحْدَةً... هَزَّتْ لُو أَرْكَانُو
وَمِنْ هَتَفَتْ الْجَمُوعُ يَمَّا، أَصْبَحُ كَالْمَلْسُوعِ يَمَّا.... يَصْلِينَا بِنِيرَانُو
وَإِحْنَا اللَّيِّ قَلْنَا اللَّيِّ بِيَقْتُلْ شَعْبُو
خَائِنٌ يَكُونُ مِنْ كَائِنِ
وَالشَّعْبُ مِثْلُ الْقَدَرِ
مِنْ يَنْتَخِي مَايْنِ
وَالشَّعْبُ مِثْلُ الْقَدَرِ
وَالْأَمْلُ بَائِنِ
يَا حَيْفُ! يَا حَيْفُ!

12. خطاب المعارضة اليمنية

- ارحل
- ارحل ارحل
- ارحل Go out
- ارحل تراجع تنحَّ حلَّ عَنَّا Get lost
- ارحل الزحف قريب
- ارحلوا بكل فسادكم
- ارحل أو الشهادة

- علي عبد الله صالح، لن تُصوملنا
- لا دراسة ولا تدريس حتى يسقط الرئيس
- ارحل أو الشهادة
- ارحل يا سَفّاح
- Get out, leave yemen
- Ali Go to hell
- ارحل، ينزع الملك ممن يشاء (بعد سماع المعارضة خبر رحيل صالح)

13. خطاب المعارضة السودانية

- حرية سلام وعدالة
- الدم قصاص الدم، ما نقبل الدية
- الشعب يريد إسقاط النظام
- تسقط بس (في سياق الرد على التساؤل: من سيكون البديل في حال سقوط النظام. وقد دفع هذا الشعار مؤيدي البشير إلى إنجاز شعار مضاد: تقعد بس)
- رص العساكر رص.. الليلة تسقط بس (الثقة في استمرار الثورة رغم حشد النظام لآلة القمع)
- حكومة الجوع.. تسقط بس، حكومة العسكر.. تسقط بس، حكومة الجبهة.. تسقط بس
- حرية سلام وعدالة.. الثورة خيار الشعب
- نحن مرقنا مرقنا (خرجنا).. ضد الناس اللي سرقوا عرقنا
- الطلقة ما بتقتل.. بقتل سُكات الزول -الشخص- (تحريض على عدم الخوف من الرصاص وعدم التزام الصمت)

لائحة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية

- القرآن الكريم برواية ورش.
- ابن أبي الإصبع، تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق حنفي محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1995.
- ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاشرهم من ذي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، 1998.
- أوستين جون لانكشو، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2008.
- إيكو أمبيرتو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، 2000.
- الأمدي علي بن محمد، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1986.
- إسماعيل صلاح، نظرية المعنى في فلسفة بول كرايس، الدار المصرية السعودية، القاهرة، 2005.
- إسماعيل صلاح، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير، بيروت، 1993.
- أرمنكو فرانسواز، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986.
- البياتي عبد الوهاب، الأعمال الشعرية، ديوان أباريق مهشمة، المؤسسة العربية، بيروت، 1995.

- بلانشيه فيليب، التداولية من أوستين إلى كوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية، 2007.
- بليث هنريش، البلاغة والأسلوبية، ترجمة محمد العمري، منشورات دراسات سال، فاس، 1990.
- بلقاضي ميلود، الخطاب السياسي بين خطاب السلطة وسلطة الخطاب، دار السلام، الرباط، 2011.
- بنحمادة محمد، الخطاب السياسي استراتيجيات التواصل وآليات بناء الثقة، عالم الكتب الحديث، إربد، 2016.
- براون ويول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، الرياض، 1997.
- بشر كمال، علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، 2000.
- الجاحظ عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجبل، بيروت، د.ت.
- الجويني أبو المعالي، البرهان في أصول الفقه، ج1، تحقيق عبد العظيم الديب، الناشر دولة قطر، 1399هـ.
- الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط 3، 1992.
- دايك فان، علم النص؛ مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق محمد سعيد البحيري، القاهرة، 2001.
- درويش محمود، الأعمال الجديدة الكاملة، ديوان: لماذا تركت الحصان وحيدا؟ (أباريق مهشمة)، رياض الريس، بيروت، ط3، 1995.
- درويش محمود والقاسم سميح، الرسائل، دار العودة، بيروت، 1990.

- الزمخشري محمود بن عمرو، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، 1982.
- الزناد الأزهر، نسيج النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993.
- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط5، 2014.
- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2012.
- يونس علي محمد محمد، علم التخاطب الإسلامي، دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2006.
- باشلار كاستون، جمالية المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط2، 1984.
- كراهام ألان، نظرية التناص، ترجمة باسل المسالمة، دار التكوين، دمشق، 2011.
- كريستيفا جوليا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال، البيضاء، ط2، 1997.
- ليتش جيوفري، مبادئ التداولية، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2013.
- مجموعة مؤلفين، 25 يناير؛ مباحث وشهادات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013.
- مجموعة مؤلفين، الحركات الاحتجاجية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2014.
- معزوز عبد العالي، فلسفة الصورة بين الفن والتواصل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2014.

- مفتاح محمد، تحليل الخطاب الشعري؛ استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1992.

- مفتاح محمد، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1988.
- السكاكي أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

- سراج نادر، مصر الثورة وشعارات شبابها؛ دراسة لسانية في عفوية التعبير، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2014.
- عبيد كلود، الألوان؛ دورها، تصنيفها، مصادرها، رمزياتها، ودلالاتها، مراجعة وتقديم محمد حمود، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، 2013.

- العزاوي أبو بكر، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ط2، 2010.
- العزاوي أبو بكر، الحجاج الموسع؛ الأسس والمبادئ، مطبعة وراقة بلال، فاس، 2022.
- عمران علي، حجاجية الصورة الفنية في الخطاب العربي، خطب الإمام علي أنموذجاً، دار نينوى، دمشق، 2009.

- العسافين سهيلة، لغة الجسد أو كيف تقرأ أفكار الآخرين من خلال إيماءاتهم، مؤسسة علاء الدين، دمشق، 2004.

- العتوم عدنان يوسف، علم النفس المعرفي النظرية والتطبيق، دار المسيرة، ط3، 2012.
- فوكو ميشيل، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1986.

- فوكو ميشال، نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير، بيروت، 1984.
- فيركلاو إزابيلا وفيركلاو نورمان، تحليل الخطاب السياسي، ترجمة عبد الفتاح عمورة، دار الفرقد، دمشق، 2016.

- الصبحي محمد الأخضر، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقية، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008.

- قادة عبد العالي، الحجاج في الخطاب السياسي، دار كنوز المعرفة، عمان، 2015.
- القزويني الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط5، 1985.
- القرطاجني حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب خوجة التونسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1986.
- روبول آن وموشلار جاك، التداولية اليوم؛ علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2003.
- ريكور بول، نظرية تأويل الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغامدي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2003.
- ريفاتير مايكل، دلالات الشعر، ترجمة ودراسة محمد معتصم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1997.
- رشوان محمد مهران وجميل عصام زكريا، فلسفة اللغة، دار المسيرة، عمان، 2012.
- شهاب الدين محمود، حسن التوصل إلى صناعة الترسل، تحقيق أكرم عثمان يوسف، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1980.
- الشهري عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب؛ مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004.
- شنوقة السعيد، مدخل إلى المدارس اللسانية، المكتبة الأزهرية للتراث، 2008.
- الشنتريني أبو الحسن علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.
- التهانوي محمد علي، كشف اصطلاحات الفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة 8، المجلد الثاني، 2006.
- تودوروف تيزفيطان، الشعرية، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال، الدار البيضاء، ط 2، 1990.

- الخطابي محمد، لسانيات النص؛ مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1985.

- خيارى هبة، خصائص الخطاب اللساني، الوسام العربي، الجزائر، 2011.

- الخليفة هشام، نظرية الفعل الكلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 2007.

- الخليفة هشام، نظرية التلويح الحوارى، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 2013.

- الغزالى أبو حامد محمد، المستصفى من علم الأصول، تحقيق حمزة بن زهير حافظ، شركة المدينة المنورة، جدة، الجزء 3، د ط، د ت.

- الغزالى أبو حامد محمد، معيار العلم فى المنطق، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.

- الغدّامى عبد الله محمد، الخطيئة والتكفير، النادي الأدبى الثقافى، جدة، 1985.

المقالات

- دوبيازي بيبير، "نظرية التناسية"، ترجمة الرحوتى عبد الرحيم، مجلة علامات، جدة، سبتمبر، 1996.

- الدويبى لطفى، "نظرية الفضاءات الذهنية على تأويل الأبنية اللغوية"، مجلة العلامة، ورغلة، العدد الثالث، ديسمبر 2016.

- مفتاح محمد، "بعض خصائص الخطاب"، مجلة علامات، العدد 35، مارس، 2000.

- شارودو باتريك، "حول الإقناع فى الخطاب السياسى"، ترجمة محمد الولى، مجلة البلاغة

وتحليل الخطاب، ملف العدد: البلاغة والخطاب السياسى، العدد 6، الدار البيضاء، 2015.

- ذهيبية حمو الحاج، "التحليل التداولى للخطاب السياسى"، مجلة الخطاب، العدد 1، تيزى وزو، 2006.

المعاجم والموسوعات

- ابن منظور محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت.
- ابن فارس أحمد بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979.
- يان هوانك، معجم أكسفورد للتداولية، ترجمة هشام عبد الله الخليفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2020.
- الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل وجمال العشري وعبد الرشيد الصادق، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1963.
- الموسوعة الفلسفية العربية، تحرير معن زيادة، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1988.

المصادر والمراجع الأجنبية

- Aristote, Rhétorique, éd. Pocket, département d'Univers Poche, Paris, 2007.
- Azzaoui Boubker, Argumentation et énonciation, éd. Top press, Casablanca, 2014.
- Benveniste Emile, Problème de linguistique générale, éd. Gallimard, Paris, 1966.
- Breton Philippe, Gilles Gauthier, Histoire des théories de l'argumentation, éd. La découverte, Paris, 2000.
- Breton Philippe, L'argumentation dans la communication, éd. du Casbah, Alger, 1998.

- Charaudau Patrick, Langage et discours ; éléments de sémiolinguistique (théorie et Pratique), éd. Hachette, Paris, 1983.
- Deledalle Gérard, Théorie et pratique du signe ; Introduction à la sémiotique de C.S Peirce, éd. Payot, Paris, 1979.
- Dubois Jean et Autres, Dictionnaire de linguistique, éd. Larousse, Paris, 1994.
- Ducrot Oswald ; Le dire et le dit, éd. Minuit, Paris, 1984.
- Ducrot Oswald, Dire et ne pas dire, éd. Hermann, Paris, 2éd, 1980.
- Levinson Stephen C, Pragmatics. Cambridge University Press, 1984.
- Lyons J, Sémantique linguistique, éd. Larousse, col. Langue et langage, 1980.
- Maingueneau Dominique, Analyser les textes de communication, éd. Nathan, Paris, 2000.
- Mangueneau Dominique, Approche de l'énonciation en linguistique Français, éd. Hachette, Paris, 1981.
- Orecchioni Catherine- Kerbat, L'implicite, éd. Armand Colin, Paris, 1986.
- Orecchioni Catherine- Kerbat, les interactions verbales, éd. A.Colin, Paris, 1990.

- Orecchionni C.K, l'Enonciation, de la subjectivité dans le langage, éd.A Colin, Paris, 1980.
- Perlman Chaim et Tyteca Lucie-Olbrechts, Traité de l'argumentation : La nouvelle Rhétorique, éd. l'université de Bruxelles, 5ème édition, 1988.
- Searle John R, L'intentionnalité, Essai de philosophie des états mentaux, traduit de l'américain par Claude Pichevin, éd. Minuit, Paris, 1985.
- Searle John.R, Sens et Expression, études de théorie des actes de langage, traduction : Joëlle Prout, éd. Minuit, 1982.
- Sperber Dan & Wilson Deirdre, Relevance, communication & cognition, éd. Blackwell, seconde édition, 1995.
- Wittgenstein Ludwig, Philosophical Investigation, Translated by Anscombe G.E and edited by Anscombe and Rhees, R, Oxford, Basil Blackwell, 3rd impression, 1963.

Revue

- Armengaud Françoise, "Eléments pour une approche pragmatique de la pertinence", philosophica 29, 1982.
- Grice Paul.H, logic and conversation, In syntax and semantics, vol3, speech acts, ed. Peter Cole and Jerry L.Morgan, Academic press, New york, 1975.

- Lakoff Robin, The logic of politeness, Minding yours P's and Q'S "in Papers from the ninth Regional Meeting Chicago, Linguistic Society, Chicago, 1973.

- Morris Charles, Fondements de la théorie des signes, traduction de Victor Guérette, Francois Latraverse et Jean-Pierre Paillet. Langages, 8ème année, n°35, 1974.

Dictionnaire et Encyclopédie

- LE Robert, Paris, 2012.
- Moschler Jean et Reboul Anne, Dictionnaire Encyclopédique de Pragmatique, Seuil, Paris, 1994.

المواقع الإلكترونية

- اعتمدنا طبعة إلكترونية أنجزها دانييل بولاكنون Daniel Boulagnon سنة 2012، لكتاب La poétique de l'espace شعرية الفضاء للفيلسوف باشلار. الرابط:

- الجزيرة. نت ميدان aljazeera.net/midan

- الزواوي بغورة، بين اللغة والخطاب والمجتمع، مقاربة فلسفية اجتماعية، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية. الموقع: إنسانيات. الرابط:

[Journals.openedition.org.Insaniyat](http://Journals.openedition.org/Insaniyat)

- الناطق الرسمي باسم المؤتمر الشعبي العام- اليمن، مقال بعنوان: "حصار السبعين.. معلومات وعبر"، فيصل الحوفي، موقع المؤتمر نت.

- حصار السبعين ar.Wikipedia.org/Wiki

- علوي بن عبد القادر السقاف، "الدرر السنية"، موسوعة الأخلاق. الموقع:

www.Dorar.net

- منظمة العفو الدولية: مقتل أكثر من 200 محتج واعتقال 800 شخص بعد الاحتجاجات في السودان. الجزيرة. نت، الصفحة الرئيسية.

<http://classiques.uqac.ca>

- مقال في موقع ThoughtCo على الإنترنت أنجزه Richard Nordquist بعنوان:
What is nonverbal communication ?
Com/what-is-nonverbal-communication ?

ثبت المصطلحات

Cohésion	إتساق
Effets contextuels	آثار أو نتائج سياقية
Effect	أثر أو نتيجة
Cognitive	إدراك معرفي
Déictiques- Embrayeurs	إشاريات- معيّنات
Perception	إدراك
Inférence	إستدلال
Implicature conversationnelle	إستلزام تخاطبي
Implicature conventionnelle	إستلزام عُرفي
Implications contextuelles	إستلزامات سياقية
Déictiques sociaux	إشاريات اجتماعية
Déictiques démonstratifs	إشاريات أسماء الإشارة
Déictiques temporels	إشاريات زمانية
Déictiques personnels	إشاريات شخصية
Déictiques spatiaux	إشاريات مكانية
Présomption	إفتراض
Présupposition	إفتراض مسبق

Actes assertifs	أفعال إخبارية - تقريرية
Actes directifs	أفعال توجيهية
Actes déclaratifs	أفعال إثباتية
Actes de langage	أفعال الكلام
Actes expressifs	أفعال تعبيرية
Actes promissifs	أفعال وعدية - إلزامية
Argumentation	حجاج
Conviction	إقناع
Cohérence	انسجام
Dimension pragmatique	بُعد تداولي
Pragmatique linguistique	تداولية لسانية
Pragmatique intégrée	تداولية مُدمجة
Pragmatique cognitive	تداولية معرفية
Implicite	تضمنين
Enonciation	تَلْفُظٌ
Intertextualité	تناس
Intonation	تنغيم
Effort	جهد
Discours	خطاب

Contexte situationnel	سياق مقامي
Anti-model	عكس النموذج
Acte locutoire	فعل القول
Acte performatif	فعل إنجازي
Acte d'énonciation	فعل تلفظي
Acte illocutoire	فعل مُتضمَّن في القول
Acte perlocutoire	فعل ناتج عن القول
Acte	فعل/حدث
Loi d'informativité	قانون الإخبار
Loi de modalité	قانون الأسلوب
Loi de quantité	قانون الكم
Loi de qualité	قانون الكيف
Loi de pertinence – relevance	قانون الملاءمة - المناسبة
Loi d'exhaustivité	قانون الوضوح
Intension	قصد
Maximes conversationnelles	قواعد حوارية
Lois du discours	قوانين الخطاب
Force illocutoire	قوة إنجازية
Sous-entendu	قول مُضمّر
Compétence pragmatique	كفاءة تداولية

Langue	لسان
Langage	لغة
Principe de politesse	مبدأ التآدب
Principe de coopération	مبدأ التعاون
locuteur	متكلم
Intertextuel	متناص
Conversation	محادثة - حوار
Enonciataire	مخاطب
Enonciateur	مخاطب، متلقِّظ
Auditeur	مُستمع
Contemporain	مُعاصر
Connaissance	معرفة
Contexte	سياق
Pertinence- Relevance	مناسبة - صلة
Accent	نبر
Model	نموذج

فهرس الموضوعات

إهداء.....	4
شكر وتقدير.....	5
مقدمة.....	6
الباب الأول: التداولية والخطاب السياسي.....	18
تمهيد.....	19
الفصل الأول: التداولية؛ اتجاهاتها ومباحثها.....	21
المبحث الأول: مفهوم التداولية.....	22
أ- الدلالة المعجمية.....	22
ب- الدلالة الاصطلاحية.....	23
المبحث الثاني: التداولية في التراث اللغوي العربي.....	25
1- الجاحظ ومراعاة مقتضى الحال في إنتاج المقال.....	25
2- الغزالي والاشتغال على متضمنات القول والاستلزام التخاطبي.....	26
2-1- مفهوم الاقتضاء ووظيفته التداولية.....	28
2-2- مفهوم الموافقة والمخالفة وعلاقتها بالاستلزام التخاطبي.....	28
2-3- السكاكي، أفعال الكلام في الخبر والطلب ومظاهر الاستلزام.....	31
المبحث الثالث: الاتجاهات والمباحث التداولية المعاصرة.....	34
1- براكماتية تشارلز.س. بورس وتجريبية وليام جيمس.....	34
2- الفلسفة التحليلية.....	36
2-1- مدرسة كمبردج.....	36

38	2-2- مدرسة أكسفورد.....
40	3- نظرية التواصل
42	4- علم النفس المعرفي ونظرية الفضاءات الذهنية
44	5- تصنيف الأنماط التداولية.....
44	5-1- تصنيف جيوفري ليتش.....
46	5-2- تصنيف آن روبول وجاك موشلار.....
47	6- النظريات التداولية.....
47	6-1- نظرية التلفظ
47	6-1-1- مفهوم الإشارات وإشكال المصطلح.....
49	6-1-2- أنواع الإشارات.....
48	6-1-2-1 الإشارات الشخصية.....
49	6-1-2-2 الإشارات الزمانية.....
50	6-1-2-3 الإشارات المكانية.....
50	6-1-2-4 إشارات أسماء الإشارة
51	6-1-3- إجماع على الوظائف وتباين حول الماهية.....
52	6-2- نظرية أفعال الكلام.....
52	6-2-1- مفهوم الفعل الكلامي وأقسامه.....
54	6-2-2- الفعل الإنجازي وأنماطه.....
54	6-2-2-1 تصنيف الفعل الإنجازي عند أوستين.....
55	6-2-2-2 تصنيف الفعل الإنجازي عند سول.....
59	6-3- نظرية الاستلزام التخاطبي وارتباطها بالمقصدية.....

- 59.....مبدأ التعاون وقواعده التخاطبية عند كرايس
- 61.....6-4- متضمنات القول
- 61.....6-4-1- الافتراض المسبق
- 62.....6-4-2- القول المضمّر
- 64.....6-5- تصورات مخالفة للتصورات السائدة حول الافتراض المسبق والقول المضمّر
- 66-6- العلاقة بين الافتراض المسبق في الدرس اللساني الغربي والاقتضاء في التراث العربي
- 65.....
- 66.....6-6-1- الاقتضاء والافتراض المسبق؛ إشكال في الترجمة أم تباين في الدلالة؟
- 68.....6-6-2- الافتراض المسبق والتضمن والاستلزام، أي علاقة؟
- 68.....6-6-2-1- العلاقة بين الافتراض المسبق والتضمن
- 69.....6-6-2-2- الاستلزام وعلاقته بالاقتضاء والافتراض المسبق
- 69.....الاستلزام؛ مصطلح واحد واستعمالات متعددة
- 72.....7- قوانين الخطاب
- 72.....7-1- قوانين الخطاب عند ديكر ومانكونو
- 73.....7-2- قوانين الخطاب وقواعد التخاطب عند كرايس؛ تباين أم تكامل؟
- 74.....8- مبدأ التأدب وقواعده
- 75.....8-1- مبدأ التأدب عند روبن لأكوف
- 76.....8-2- مبدأ التواجه عند براون ولفنسن
- 78.....8-3- مبدأ التأدب الأقصى عند جيوفري ليتش
- 82.....8-4- مبدأ التصديق عند طه عبد الرحمن
- 86.....9- نظرية المناسبة عند دان سبربر وديدر ويلسن
- 86.....9-1- المناسبة ومفهوما القالبية والاستدلال
- 88.....9-2- المناسبة ومفهوم التواصل الإشاري الاستدلالي
- 89.....9-3- درجات المناسبة؛ النتيجة والجهد

91	9-4- السياق وإسهامه في المعنى
91	9-4-1- السياق عند سبربر وويلسن
92	9-4-2- السياق عند فرنسواز أرمكو
93	10-الحجاج
94	10-1- الحجاج في البلاغة الجديدة
95	10-2- الحجاج في اللغة
98	10-3- النبر والتنغيم؛ إسهام في المعنى وتأثير في السامع
98	10-4- حاجية العناصر غير اللفظية
99	10-4-1- لغة الجسد من خلال حركة اليدين
100	10-4-2- وضعية المتكلم والارتباط بالوضع الاجتماعي
100	10-4-3- المظهر بين الارتباط بالذات ومراعاة السياق الثقافي
101	10-4-4- حاجية المكان
102	10-4-5- من سلطة الخطاب إلى سلطة المكان
103	10-5- فضاء الألفة وفضاء المعادة
104	10-6- استراتيجيات الخطاب
104	10-6-1- الاستراتيجية التوجيهية
105	10-6-2- الاستراتيجية التلميحية
105	10-6-3- الاستراتيجية التضامنية
106	10-6-4- الاستراتيجية الإقناعية
107	11- التناص في الدراسات النقدية العربية والغربية
107	1-11- التناص في النقد العربي القديم
109	2-11- التناص في النقد الغربي
109	1-2-11- مفهوم التناص عند كريستيفا
110	2-2-11- مقارنة ريفاتير لمفهوم التناص
113	3-2-11- مقارنة تودوروف

114.....	11-2-4- التناس والنص الموازي بين جيرار جينيت وجون بيير
115.....	خلاصة وتركيب
117.....	الفصل الثاني: الخطاب السياسي
118.....	المبحث الأول: مفهوم الخطاب السياسي
118.....	1- مفهوم الخطاب
118.....	1-1- الخطاب لغة
119.....	1-2- الخطاب اصطلاحاً
120.....	2- الخطاب والنص؛ ترادف أم تمايز؟
122.....	3- الخطاب والسلطة
123.....	4- مفهوم السياسة
124.....	5- مفهوم الخطاب السياسي
126.....	المبحث الثاني: خصائص الخطاب السياسي
130.....	المبحث الثالث: أنواع الخطاب السياسي
131.....	المبحث الرابع: وظائف الخطاب السياسي
133.....	المبحث الخامس: تداولية الخطاب السياسي
133.....	خلاصة وتركيب
135.....	نتائج الباب الأول
	الباب الثاني: الأبعاد التداولية في الخطاب السياسي العربي
137.....	المعاصر
138.....	تمهيد
	الفصل الأول: السياق العام للخطابات السياسية الرئاسية، من سنة
142.....	2011 إلى سنة 2021

143.....	تقديم
145.....	1.السياق العام لخطاب الرئيس التونسي زين العابدين بن علي
147.....	تعريف بالمتكلم
148.....	2.السياق العام لخطاب الرئيس المصري حسني مبارك
151.....	تعريف بالمتكلم
153.....	3.السياق العام لخطاب الزعيم الليبي معمر القذافي
153.....	تعريف بالمتكلم
155.....	4.السياق العام لخطاب الرئيس السوري بشار الأسد
156.....	تعريف بالمتكلم
157.....	5. السياق العام لخطاب الرئيس اليمني علي عبد الله صالح
158.....	تعريف بالمتكلم
159.....	6.السياق العام لخطاب الرئيس السوداني عمر البشير
159.....	تعريف بالمتكلم
161.....	6.السياق العام لخطاب الرئيس التونسي قيس سعيد
161.....	تعريف بالمتكلم
162.....	خلاصة وتركيب
164.....	الفصل الثاني: الأبعاد التداولية
165.....	المبحث الأول: الإشارات ووظائفها
165.....	1- البعد الدلالي والتداولي للضمائر الشخصية ولصيغ مرتبطة بها
171.....	2- الإشارات الاجتماعية؛ بين الوظيفة التعيينية والوظيفة الاجتماعية

3-	أسماء الإشارة الشخصية؛ بين دلالة الترابط وغرض التداول	174
4-	تداولية الإشارات الزمانية	175
5-	تداولية الإشارات المكانية	177
	المبحث الثاني: تداولية الأفعال الإنجازية	181
1-	الأفعال الإنجازية وارتباط المعنى بالسياق والقصد	181
	المبحث الثالث: القول المضمّر والافتراض المسبق	200
1-	دور القول المضمّر والافتراض المسبق في توجيه السلوك التخاطبي	200
1-1-	القول المضمّر	200
2-1-	الافتراض المسبق	208
	الافتراض المسبق بين البعد المنطقي الدلالي والبعد التداولي	209
	المبحث الرابع: الاستلزام التخاطبي	215
	المبحث الخامس: استثمار مبدأ التصديق عند طه، ومبدأ الخلق واللفظ عند ليتش	
	في التواصل	217
	المبحث السادس: حاجية الخطاب السياسي	223
1-	حاجية الصورة البيانية	223
1-1-	الاستعارة والحجاج العاطفي	223
2-1-	التشبيه وتقوية شعور المخاطب بالاعتزاز بالوطن	224
3-1-	توظيف المجاز في حفز المناصرين	225
2-	أدوات الوصل؛ بين وظيفتي الاتساق والانسجام ووظيفة الحجاج	226
2-1-	واو العطف بين إدراج الحجج أفقياً وإدراجها عمودياً - تراتبية الحجج -	226

- 229..... 2-2- الرابط الحجاجي "لكن" وتراثبية الحجج
- 230..... 3-2- واو الاستئناف ووصل الفقرتين باعتبارهما حجتين
- 231..... 4-2- فاء التعليل ودفع المخاطب إلى التسليم بالنتيجة
- 232..... 5-2- آلية التوكيد؛ تثبيت المعنى وحفز على التفاعل
- 234..... 6-2- النبر والتنغيم؛ تعضيد المعنى وإثارة السامعين
- 236..... 7-2- التضام وإشراك السامع في بناء الخطاب
- 236..... 1-7-2- التضام الذي تقوم فيه العلاقة على التضاد
- 237..... 2-7-2- التضام الذي تحكمه علاقة الكل والجزء
- 239..... 8-2- الترادف؛ تحقيق الانسجام وتثبيت المعنى
- 239..... 9-2- الاستبدال؛ اقتصاد في اللغة واتساق في الخطاب
- 240..... 10-2- الإيجاز؛ تكثيف المعنى وقوة في الإنجاز
- 242..... 11-2- الإطناب وبناء النموذج
- 243..... 12-2- الاحتجاج بأخلاق المتكلم ومشاعر المخاطب
- 244..... 13-2- حجة السلطة
- 245..... 14-2- استخدام حجة الوقائع للمغالطة
- 246..... 15-2- من نموذج الذات إلى نموذج خارج الذات وعكس النموذج
- 247..... 16-2- سفسطة الأكثرية - سفسطة الجماهير
- 248..... 3- المكان باعتباره عنصرا سياقيا وحجاجيا
- 248..... 3-1- سياقية المكان

249.....	3-2- حاجية المكان
253.....	المبحث السابع: المناسبة
262.....	المبحث الثامن: التناس
267.....	تحليل خطاب الرئيس اليمني علي عبد الله صالح
282.....	خلاصة وتركيب
283.....	نتائج الباب الثاني
285.....	خاتمة عامة
288.....	ملحق البحث
289.....	1. خطاب الرئيس التونسي زين العابدين بن علي
292.....	2. خطاب الرئيس المصري حسني مبارك
296.....	3. خطاب الرئيس الليبي معمر القذافي
298.....	4. خطاب الرئيس السوري بشار الأسد
313.....	5. خطاب الرئيس اليمني علي عبد الله صالح
315.....	6. خطاب الرئيس السوداني عمر البشير
321.....	7. خطاب الرئيس التونسي قيس سعيد
327.....	8. خطاب المعارضة التونسية
327.....	9. خطاب المعارضة المصرية
328.....	10. خطاب المعارضة الليبية
329.....	11. خطاب المعارضة السورية

330.....	12. خطاب المعارضة اليمنية
331.....	13. خطاب المعارضة السودانية
332.....	لائحة المصادر والمراجع
343.....	ثبت المصطلحات
347.....	فهرس الموضوعات